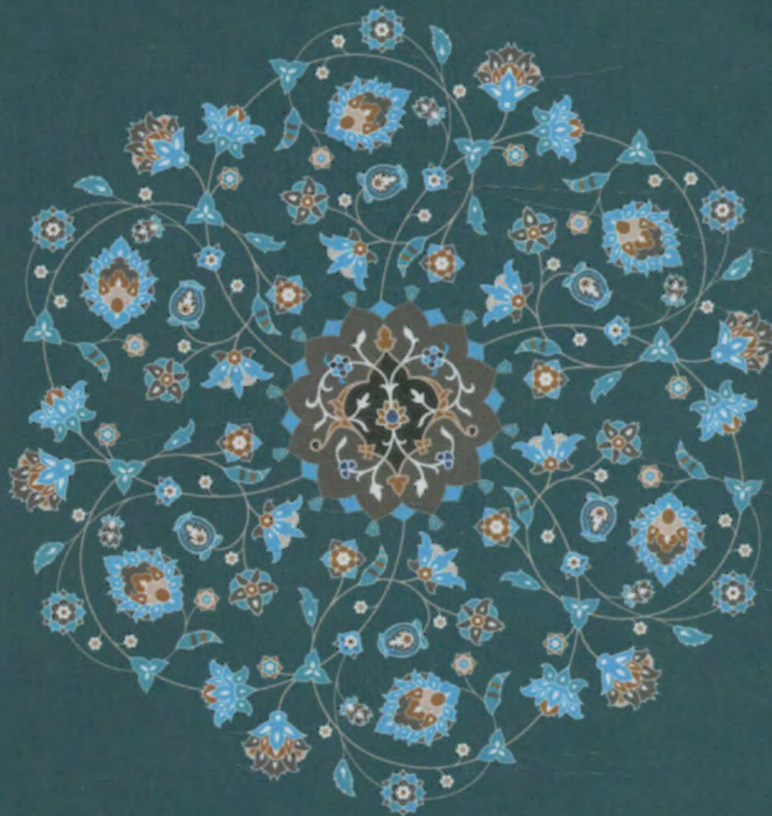
د. أحمد محمود الخليل

تاريخ الكُرد في العهود الإسلاميّة



دار الساقي

تاريخ الكُرْد
في العهود الإسلاميّة

صدر للمؤلّف

ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، دار طلاس، دمشق ١٩٨٩.

في النقد الجمالي، دار الفكر، دمشق ١٩٩٦.

فلسفة الجمال وجغرافيا الذات في شعر الدكتور مانِع سعيد العُتَيْبَة، ACCESS، أبو ظبي ٢٠٠١.

الشعر الجاهلي (قراءة سيكولوجية)، مطبعة اليَمامة، حمص ٢٠٠٤.

الميثولوجيا والهوية في شعر الهنود الحمر (ترجمة ودراسة)، مطبعة اليَمامة، حِمص ٢٠٠٤.

القبائل الكردية (ترجمة)، مؤسّسة موكرياني للطباعة والنشر، أربيل ٢٠٠٦.

موسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦.

الكرد وكردستان (ترجمة)، مؤسّسة سما للثقافة الكردية، ٢٠٠٧.

تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، مؤسّسة سما للثقافة الكردية - دار هيرو، بيروت ٢٠٠٧.

الكون الشعري (مدارات ومسارات في التذوّق الجمالي)، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٨.

عباقرة كردستان في القيادة والسياسة، مؤسّسة موكرياني للبحوث والنشر، أربيل ٢٠٠٩.

سياحة في ذاكرة جبل الكرد، دار الزمان، دمشق ٢٠١٠.

سِيَر أعلام الكرد في التراث العربي (اللغويون- الأدباء- الموسيقيون)، دار البصائر، القاهرة ٢٠١١.

مملكة ميديا، مؤسّسة موكُرِياني للبحوث والنشر، أربيل، إقليم كردستان، العراق ٢٠١١.

صورة الكرد في مصادر التراث الإسلامي، دار آراس، أربيل، إقليم كردستان، العراق ٢٠١٢.

حكمة الأجداد في تراث مجتمع الإمارات (دراسة سوسيولوجية في الأمثال الشعبية)، نادي تراث الإمارات، أبو ظبي ٢٠١٢.

خطوط العناوين: حمدي طبارة

تصميم الغلاف: سحر مغنية

د. أحمد محمود الخليل

تاريخ الكُرْد في العهود الإسلاميّة





الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN 978-1-85516-976-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١ ٠٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١ ٠٠
e-mail: info@daralsaqi.com

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان، أربيل، اقليم كردستان العراق
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com

إلى

روح شَرَف خان بَدْليسي: أبي التاريخ الكردي قديمًا.

وإلى

روح محمّد أمين زكي: أبي التاريخ الكردي حديثًا.

أهدي هذا الكتاب.

أحمد

المحتويات

المقدّمة

الكُرد من أعرق شعوب العالم، والملاحَظ أنّ المكتبة الشرق أوسطية تفتقر إلى التعريف بهذا الشعب، وبجهوده في تاريخ الشرق الأوسط، وبذكر إسهاماته في إغناء الثقافة الإنسانية، وصحيح أنّ في المكتبات عددًا قليلاً من الدراسات حول الكُرد، لكنها مهتمّة على الغالب بالبعد السياسي للمسألة الكُردية، ويَذكر بعضُها جزءًا محدودًا من تاريخ الكُرد قبل الإسلام، كما أنّ بعضها الآخر لم يميّز المعلومة التاريخية الموثّقة من الخرافات والأساطير.

وحرصًا على التعريف بالشعب الكُردي، بعيدًا عن الادّعاء والتحريف والتشويه والتغييب، كان هذا الكتاب، وهو يشتمل على تسعة فصول:

- في **الفصل الأول** انصبّ الاهتمام على تأصيل اسم كُردستان والبحث في أصول الشعب الكُردي، مع إلمامة سريعة بجغرافيا كُردستان، إضافةً إلى ذكر مناطق انتشار الكُرد خارج كُردستان.

- ودار **الفصل الثاني** حول المجتمع الكُردي والشخصية الكُردية، مع إطلالة على اللغة والأدب الكُرديين، ووقفةٍ متأنّية بعض الشيء عند الديانة في المجتمع الكُردي.

- وفي **الفصل الثالث** أُلقي الضوء على التاريخ القديم للشعب الكُردي، بدءًا من الفترة السابقة على الميديين، ومرورًا بالعهد الميدي، فالعهد الأخميني، فالعهد السُّلوقي، فالعهد البارثي (الأَشْگاني)، فالعهد الساساني، وانتهاء بظهور الإسلام.

- وفي **الفصل الرابع** تركّز الاهتمام على تحديد مواطن الكُرد حسبما وردت في

المصادر التاريخية والجغرافية الإسلامية، واستعراض حال الكُرد وكُردستان في صدر الإسلام، وفي عهد الخلافة الراشدة، ثم في عهد الخلافة الأُموية.

● واختصّ **الفصل الخامس** بتوضيح ما قدّمته كُردستان، شعبًا وأرضًا، للتاريخ الإسلامي في العهد العبّاسي الأوّل، ثم في العهد البُوَيْهي، فالعهد السَّلجوقي، فالعهد الزَّنْكي، فالعهد الأيّوبي.

● أما **الفصل السادس** فتناول جهود الكُرد وأهمية كُردستان خلال الغزو المَغولي، ثم في العهد المَمْلوكي، وفي أحداث الغزو التَّيْمُوري، وانتهاءً بالعهد العثماني- الصَّفَوي، إضافةً إلى جولة على الانتفاضات والثورات الكردية في ذلك العهد.

● أما **الفصل السابع** فدار حول ثلاث دول كُردية، هي الدولة الدُّوسْتِكية (المَرْوانية)، التي قامت في كردستان الوسطى، والدولة الأيُّوبية التي قامت خارج كردستان واشتملت على أجزاء كبيرة من شمال كردستان وجنوبها وغربها، والدولة الزَّنْدِية التي قامت في بلاد فارس، واشتملت على كردستان الشرقية والجنوبية.

* أما **الفصل الثامن** فاشتمل على أربعة مواقف حربية حاسمة في تاريخ الإسلام، وكان للكُرد فيها موقع ريادي وقيادي؛ تلك المواقف هي: الدفاع عن مكّة والمدينة، ومعركة حِطِّين، وتحرير مدينة القدس، ومعركة المَنصورة.

* وضمّ **الفصل التاسع** تراجم موجزة لبعض أعلام كُردستان في مختلف المجالات، والنيّة قائمة على استكمال هذا الموضوع في سلسلة من المؤلفات، بدأناها بنشر كتاب **عباقرة كردستان في القيادة والسياسة**، وأتبعناه بكتاب **سِيَر أعلام الكرد في التراث العربي: اللغويون- الأدباء- الموسيقيون**.

وقام منهج هذه الدراسة على الحيادية في العرض، والموضوعية في التحليل، واعتماد الوثيقة للوصول إلى الحقيقة، وتأكيد ما يستحق التأكيد، وترجيح ما يستوجب الترجيح، واستبعاد ما هو متهافت، وقد جمعنا المعلومات خلال سنوات، وكنا حينذاك في أمكنة مختلفة، فاضطررنا أحيانًا إلى اعتماد أكثر من طبعة للمرجع الواحد، وميّزنا ذلك في الهوامش بذكر الطبعة، وزوّدنا الكتاب بخرائط توضيحية.

ولم نذكر جميع إسهامات الكُرد خلال العهود الإسلامية على امتداد ألف وثلاثمئة سنة ونيّف، وإنما قدّمنا عرضًا لبعضٍ من تلك الإسهامات كنماذج وأمثلة لا

أكثر، راجين في الوقت نفسه أن تكون المادة التاريخية المقدَّمة نافذة يطلّ منها القارئ على ما لم نذكره، فيستزيد من ذلك مستعينًا بالمصادر والمراجع الواردة في فهرس المصادر والمراجع.

وقد تولّت «مؤسسة سَما للثقافة الكُردية» - مشكورةً- إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ٢٠٠٧ بعنوان **تاريخ الكُرد في الحضارة الإسلامية**، وهذه هي الطبعة الثانية، ورأينا من الأدقّ أن يكون العنوان **تاريخ الكُرد في العُهود الإسلامية**، وتمتاز هذه الطبعة بتصويب الأخطاء المطبعية، واستدراك العبارات والخرائط التي سقطت، وإضافة معلومات تاريخية مهمّة وخرائط جديدة، وتعديل بعض المعلومات والآراء، وضبط الأسماء التي ما كانت قد ضُبطت، ونأمل أن تكون هذه الطبعة أغنى وأدقّ.

وأجدّد شكري لأسرتي العزيزة (رفيقة حياتي أمينة حسن عثمان، وأولادي: محمود، وصلاح الدين، وعلاء الدين، ومحمّد، وشِيار، ومصطفى، وجُوان)؛ فقد كان صبرهم معي وعليّ طويلاً، وما زالوا يتحمّلون الكثير من أمور الأسرة الحياتية، التي هي من مهامّي أصلاً، مفسحين لي المجال للانصراف إلى البحث والكتابة، وقد ساعدني ولداي مصطفى وجوان خاصة في تصوير بعض الصور والخرائط وتنسيقها، فلهما مني الشكر والتقدير.

والله وليّ التوفيق.

أحمد محمود الخليل

مدينة العَين - دولة الإمارات العربية المتحدة

الأربعاء: ٢ - ١- ٢٠١٣ م

الفَصْل الأوّل

كُرْدِسْتان الوَطَن

مدخـل

جاء في العهد القديم (سِفْر التَّكوين، الأصحاح الثامن) أن سفينة النبي نوح استقرت على جبل أرارات، وهو يقع جبل في أقصى شمال كردستان، ويسمّيه الكُرد جبل آغري *Agrî*. وجاء في القرآن أنّ سفينة النبي نوح استقرت بعد الطوفان على جبل جُودي: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هُود/ الآية ٤٤]، ويقع الجُودي قرب جزيرة ابن عُمَر (جزيرة بُوتَان) في شمال كُردِستان (جنوب شرق تركيا حاليًا)، حيث موطن الكرد منذ القديم.

وتؤكّد الدراسات الأركيولوجية أنّ بلاد الكُرد من أقدم المواطن التي نشأت فيها المجتمعات البشرية، وجاء في العهد القديم: ﴿وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً، وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ﴾ [سِفْر التّكوين، الأصحاح الثاني، الآيتان ٧-٨]. وجاء في العهد القديم أيضًا أنّ أربعة أنهر تخرج من جنّة عَدْن هي: فِيشُون وجِيحُون وحِدّاقِل (دِجْلة) والفُرات؛ ولا يخفى أنّ منابع نهري دجلة والفرات تقع في شمال كُردِستان، وهذا يعني أنّ جنّة عَدْن كانت تقع - بحسب الجغرافيا التوراتية- في كردستان.

وقد فتح العرب كُردِستان منذ بداية عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، ودارت بعض أشرس المعارك بين العرب والفرس، مثل جَلُولاء ونَهاوَنْد، في جنوب

كُردِستان، وصارت كُردستان جزءًا من الدولة العربية، ومنذ ذلك الحين شارك الكُرد في صناعة تاريخ الشرق الأوسط على جميع الأصعدة؛ سواء أكانت دينية أم سياسية أم حربية أم اقتصادية أم علمية أم أدبية أم فنية، وكانت كردستان ذات موقع جيوپوليتيكي هام في جميع العهود.

وقد قال الباحث الأرمني الأصل أرشاك سافْراسْتيان: «لا توجد في النصف القديم للكرة الأرضية سلالة بشرية ظُلِمتْ باستمرار وأُسيء فهمُها كالعِرق الكُردي. ومنذ فجر التاريخ ربما لا يوجد شعب في العالم يسكن مِنطقة جغرافية محدَّدة كان ضحيّةَ النوايا السيّئة على الدوام مثل الشعب الكُردي»[1].

وكان أرشاك محقًّا في قوله هذا؛ إذ ليس في غرب آسيا جغرافيا تعرّضت للتشويه مثل جغرافية كُردستان، ولا يوجد تاريخ شعب أصبح عرضةً للتحريف والتعتيم والتغييب مثل تاريخ الشعب الكردي، وكانت النتيجة أنّ الأجيال العربية خاصة، وشعوب غربي آسيا عامةً، تعرف معلومات وافرة عن كثير من الشعوب والبلدان في هذا العالم، أما عن كُردستان والشعب الكردي فلا تعرف شيئًا في أحيانٍ كثيرة، أو ثمّة القليل في أحسن الأحوال، بل حتى ذلك القليل لم ينجُ من التشويه والتحريف.

ولتكن خطوتنا الأولى هي معرفة حقيقة اسم كُردستان.

١- اسم كُرْدِستان

تعني كلمة «كُردِستان» وطن الكُرد، مثلما تعني «أفغانستان» وطن الأفغان، و«أُوزْبَكِستان» وطن الأُوزبَك، و«طاجيكِستان» وطن الطاجيك. وكُردستان هي وطن الكُرد منذ آلاف السنين، غير أنّ التسميات اختلفت باختلاف العصور والدول؛ وهذا أمر معهود قديمًا وحديثًا، فكم من شعوب ومناطق ودول عُرفت باسم، ثم باتت تعرف باسم آخر!

على سبيل المثال، كان الكُرد القدماء يطلقون على العرب اسم «التازيين»، وسمّاهم آخرون «ساراسين» *Saracens*، وسمّى السريانُ القدماء العربَ باسم «تَيّايا»، تعميمًا لاسم قبيلة طيّ على الأرجح. وقد يعجب المرء إذا وجد في

---

(١) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 15.

المصادر القديمة أنّ اسم «ألباني» قديمًا كان يُطلق على منطقة «أرّان» المقسَّمة الآن بين جمهوريتي أذربيجان وأرمينيا؛ إذ المعروف أنّ ألبانيا الآن هي إحدى دول البلقان، كما أنّ من أسماء أذربيجان القديمة «أَتْروپاتيا» و«أَتْروپاتين» *Atropautene*، نسبةً إلى حاكمها الميدي أَتْروپات *Atarapata*، وهذا الاسم هو اسم زَرْدَشْتي ميدي قديم له علاقة اشتقاقية باسم «أَتْراڤان» *Atravan* الذي يعني الكاهن والمحارب والراعي والمِهَني.(١)

وقد ظهرت تسمية «كُرْدِستان» إداريًا حوالي منتصف القرن السادس الهجري؛ فقد اقتطع السلطان السلجوقي سَنْجَر بن مَلِكْشاه بن أَلْب أَرْسَلان (ت ٥٥٢ هـ أو ٥٥٥ هـ) جزءًا من بلاد الكُرد يُعرف في كتب التاريخ الإسلامي باسم «إقليم الجبال» تارةً وباسم «العراق العجمي» تارةً أخرى، وسمّاه «كُردستان» باعتباره موطن الكُرد، ويقع هذا الجزء في غرب إيران، بين أَذَرْبِيجان شمالاً ولُورِسْتان جنوبًا، وكان يضم مناطق هَمَذان ودِينَوَر وكَرْمَنْشاه (كِرْمَنْشاه/ كِرْمانشا) وسِنَه، وولّى عليه ابن أخيه سليمان شاه.(٢)

وقال الكُردولوجي الروسي باسيلي نِيكِيتين بشأن اسم كُردستان: لفظة «كُردستان» تعني بلاد الكُرد، وهي ليست دولة مستقلة محدَّدة الحدود سياسيًا يعيش ضمنها شعب متجانس، ولكن أكثريته -على الأقل- تنتمي إلى العِرق نفسه. ولم يظهر هذا الاسم إلاّ في القرن الثاني عشر الميلادي، خلال حكم السلطان سَنْجَر، آخر كبار ملوك السلاجقة، الذي آثر هذا الإقليم، واتّخذ من القلعة المنيعة «بِهار»، التي تقع شمال غرب هَمَذان، مركزاً له. وكان هذا الإقليم يضمّ ولايات هَمَذان ودِينَوَر وكِرْمَنْشاه في شرقي سلسلة جبال زاجروس، وولايات شَهْرَزُور وسِنجار غربي هذه السلسلة.(٣)

---

(١) **أفستا**، ياسنا، هايتي١٩، الآيات ١٦، ١٧، ١٨، ص٩٧. دياكونوف: **ميديا**، هوامش الفصل السابع.

(٢) شرف خان بدليسي: **شرف نامه**، ١/ ١٢. وانظر ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٢٢٢. ابن خَلِّكان: **وَفَيات الأعيان**، ٢/ ٤٢٧. مركز الشارقة للإبداع الفكري: **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، ٢٦/ ٧٩٨٦.

(٣) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص٦٩.

والحقيقة أنّ هذه التسمية الإدارية لم تأتِ من فراغ، وإنما هي منبثقة من صيغة «كُرد، كُردان» القديمة والواردة في اللغة الفَهْلَوية. وقد كتب أرشاك سافراستيان في كتابه **الكُرد وكُردستان** حول هذا الموضوع ما يلي: «تؤكد الوثائق ظهورَ اسم «كُرد» للمرة الأولى في الكتابات التي دُوِّنت باللغة الفَهْلوية على شكل *kurd* أو *kurdan*، ويذكر الملك أَرْتَخْشَير[1] بابكان، مؤسّس الدولة الساسانية الفارسية سنة ٢٢٦ م، اسم ماديج *Madig* ملك الكُردان أو الكُرد بين خصومه، وقد اقتبس المؤرخون المسلمون الكبار، أمثال الطَّبَري والمَسْعودي، هذا الاسم من الساسانيين، ووصل إلى العصور الحديثة على هذا النحو (كُرد- *Kurd*)»[2].

وذكر الطَّبَري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه أنه خلال الصراع بين كل من أَرْدَوان البَهْلَوي وأَرْدَشِير بن بابَك بن ساسان (حكم على الأرجح سنة ٢٢٦ م)، كتب أردوان إلى أَرْدَشَير يقول: «إنك قد عدوتَ طَوْرَك، واجتلبتَ حتفَك، أيّها الكُردي المُربَّى في خيام الأكراد، مَن أذِن لك في التاج الذي لبسته، والبلاد التي احتويتَ عليها، وغلبتَ ملوكها وأهلها؟»[3]

ويذكر أرشاك سافراستيان أنّ اسم «كُرد» أقدم من عهد أَرْدَشَير، فيقول: «لقد اشتُق اسم *Kurd* من أرض ومملكة گُوتيوم *Gutium* ومن شعب گوتي *Guti*، وذلك بحذف حرف الراء *R* بعد حرف العلة *U* (*Gurti = Guti*)، وهذه قاعدة لغوية تُطبّق بشكل عامّ على كل اللغات الهندو- أوربية، خاصةً الشرقية منها، مثل الكُردية والأرمنية والسَّنْسِكْريتية والإغريقية. وقد أظهرت الكتاباتُ المسمارية المدوّنة باللغة السومرية أنّ أرض گُوتيوم *Gutium* كانت واحدة من أقدم الممالك المستقلة في الشرق القديم المتمدن، وكانت معاصرة لسُومر وأكّاد وعِيلام وأرمينيا»[4].

---

(١) أَرْدَشَير.

(٢) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 16.

(٣) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، ٢/ ٣٩.

(٤) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 16.

التزامًا بحقائق التاريخ، وتصحيحًا لما قاله السيّد سافراستيان، نقول: ظهر اسم «گُوتيوم» و«گُوتي» حوالي ٢٢٠٠ ق.م، ولم يكن إخوتنا الأرمن قد دخلوا غرب آسيا حينذاك، إذ إنهم عبروا البُوسفور والدَّرْدَنيل في القرن ١٢ ق.م إلى آسيا الصغرى (غرب تركيا حاليًا)، قادمين =

لذلك من المنطقي أن يكون اسم «كُرْد» قد وصل إلى الساسانيين من عهود سبقتهم، فقد اشتهر الكرد في النصوص المسمارية باسم «كُرْتي»، وسمّاهم الأكّاديون باسم «گُوتي = غُوتي = جوتي» نسبةً إلى گُوتيوم، وعُرف الشعب الذي عاش في منطقة كركوك (كَرْخي = گَرْمِيان) باسم «كارْدُو»، وعُرف الشعب الذي عاش في مناطق هَكّاري (حَكّاري) باسم «كاردوخ»، وكان الشعبان يتكلمان لغةً واحدة؛ وجدير بالذكر أنّ منطقة كركوك هي الجزء الجنوبي الغربي من كردستان، في حين تقع منطقة هَكّاري في شمال كردستان، قرب الحدود العراقية - التركية.

وظلت تسمية «كاردوخ» قائمة حتى زمن عودة المرتزقة اليونان العشرة آلاف من بلاد الرافدين إلى اليونان عبر جبال كردستان، سنة ٤٠٠-٤٠١ ق.م، مروراً بجبال بُونتس في جنوب البحر الأسود؛ إذ أشار قائدهم أكْسِنُوفان (زِينُوفون) *Xenophon* إلى هذه التسمية في كتابه **أناباسيس** *Anabasis* أيْ «الصُّعود».(١)

٢- أصُول الشَّعب الكُردي

تعرّضت هوية الشعب الكُردي لكثير من التغيير والتحريف، ولم يَسلم من التشويه بشكل غريب جدًا، ولعلّ العامل الأهم وراء ذلك هو افتقار هذا الشعب، منذ سقوط مملكة أسلافهم الميديين سنة ٥٥٠ ق.م، إلى حكومة تبسط نفوذها على كردستان كلها، وتقيم المؤسسات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي

= من منطقة البلقان، واستقروا في فِريجْيا (وسط الأناضول، غربي نهر هاليس/ قِزيل إرماق) في القرن الثامن ق.م، ثم توغّلوا شرقًا على مراحل، حتى وصلوا منطقة أرارات في أواخر القرن السابع ق.م، حيث كان يقطن شعب «هاياسا» *Hayasa* الحثّي الذي كان قد تغلّب على الحوريين هناك. ولم يظهر اسم أرمينيا إلا اعتبارًا من سنة ٥٥٠-٥٢١ ق.م، وهذا وقت متأخر جدًا بالنسبة إلى ظهور الگُوتيين في التاريخ. انظر مروان المُدَوَّر: **الأرمن عبر التاريخ**، ص٨٢، هامش (٢)، وص١٠٢- ١٠٦.

(١) دياكونوف: **ميديا**، ص٣٦. أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ص٢٢٣. واكسنوفان سياسي وعالم يوناني، تلميذ سقراط وصديق أفلاطون، التحق مع مرتزقة يونان آخرين بالحملة التي شنّها كورش الصغير ضد أخيه الملك الأخميني أَرْدَشير الثاني، ثم صار قائدًا لتلك الحملة خلال رجعتها من بلاد الرافدَين، وعدّته أثينا خائناً، فاستقر في إسپارتا *Sparté* سنة ٣٨٠ ق.م.

تُعنى بتدوين الوثائق التاريخية وحفظها، وتتيح للأجيال معرفة الكُرد على حقيقتهم، وتدخل في علاقات سياسية واقتصادية وثقافية مع شعوب الشرق الأوسط والعالم.

دراسات واتجاهات:

حين يستعرض المرء الأخبار المتعلقة بأصل الشعب الكُردي، قبل ظهور الدراسات العلمية الحديثة، يلاحظ ثلاثة اتجاهات رئيسة:

١ ـ الاتّجاه الأوّل:

حرص أصحاب هذا الاتّجاه على إلحاق الكُرد بالشعوب المجاورة لهم، وقد أورد المَسْعودي (ت ٣٤٦ هـ) في كتابه **مُروج الذَّهَب ومَعادِن الجَوْهَر** بعضًا ممّا جاء في هذا المجال، فقال: «وأمّا أجناس الأكراد وأنواعهم في بَدئهم؛ فمنهم من رأى أنهم من رَبيعَة بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان، انفردوا في قديم الزمان، وانضافوا إلى الجبال والأودية، ودعتْهم إلى ذلك الأَنَفة، وجاوروا مَن هناك من الأمم الساكنة المدنَ والعمائرَ من الأعاجم والفُرس، فحالوا عن لسانهم، وصارت لغتهم أعجميةً. . . ومن الناس من رأى أنهم من مُضَر بن نِزار، وأنهم من ولد كُرْد بن مَرْد بن صَعْصَعة بن هَوازِن، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسَّان. ومنهم من رأى أنهم من رَبيعَة ومُضَر، وقد اعتصموا في الجبال طلبًا للمياه والمراعي، فحالوا عن اللغة العربية لِما جاورهم من الأمم».[١]

وقال المَقْرِيزِي (٨٤٥ هـ): «الأكراد يُنسَبون إلى كُرْد بن مَرْد بن عَمْرو بن صَعْصَعة بن مُعاوية بن بَكْر بن هَوازِن. وقيل: هم من ولد عَمْرو مُزَيْقِياء بن عامِر ماء السَّماء. وقيل: إنهم من بني حُمَيْد بن طارِق الراجِع إلى حُمَيْد بن زُهَيْر بن الحارِث بن أَسَد بن عَبد العُزَّى بن قُصَيّ بن كِلاب. وهم قبائل: منهم الگُورانية، بنو گُوران، والهَذْبانيّة، والبَشْنَويّة، والشاهَنْجانيّة، والسَّرلِجيّة، واليزُولِيّة، والمِهْرانيّة، والزَّرْزارِيّة، والكِيكانِيّة، والجاك، واللُّور، والدُّنْبُليّة، والرَّوادِيّة، والدَّيْسِنِيّة، والهَكّارِيّة، والحَمِيدِيّة، والوَرْكَجِيّة، والمَرْوانيّة، والجَلاليّة، والشَّبَنْكِيّة،

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٢/ ١٢٢-١٢٣.

والجُوبِي. وتزعم المَروانية أنها من بني مَروان بن الحَكَم بن أبي العاص. وتزعم بعض الهَكّارية أنهم من ولد عُتْبَة بن أبي سُفْيان صَخْر بن حَرْب».[1]

تندرج هذه الآراء بشكل عام تحت نظريتين:

- **الأولى**، وهي الأقوى، ترى أنّ الكُرد أولاد رَبيعة بن نِزار، أو من أولاد مُضَر بن نِزار؛ أي إنهم ينتسبون إلى الفرع العَدناني، وهم عرب الشمال المعروفون بالعرب المُستعرِبة؛ كونهم من أولاد النبي إسماعيل بن إبراهيم، حسب الرواية التوراتية والروايات الإسلامية المعتمِدة أصلاً على الرواية التوراتية.
- **والثانية** ترى أنّ الكُرد هم أولاد عمرو مُزَيْقِياء؛ أي إنهم ينتسبون إلى الفرع القَحطاني، وهم عرب الجنوب المعروفون بالعرب العاربة، وقال أحد الشعراء:

لَعَمْرُك، ما الأكرادُ أبناءُ فارسٍ ولكنّه كُرْدُ بنُ عَمْرِو بن عامرِ

ومهما يكن فالنظريتان متفقتان على أنّ الكُرد ينتمون إلى العرب، وهما مختلفتان على الفرع (عدناني/ قحطاني). ونحسب أنّ الاتفاق على الأصل العربي للكرد بحدّ ذاته أمر يستدعي التأمل؛ فالمعلومات التي رواها كلٌّ من المسعودي والمَقْريزي وغيرهما من الباحثين القدامى مستقاة من أقوال أبي اليَقْظان سُحَيْم بن حَفْص (ت ١٩٠ هـ) في كتابه **النَّسَب الكبير**، ومن أقوال ابن الكَلْبي (نِسبةً إلى قبيلة كَلْب اليمانية) في كتاب يحمل العنوان نفسه، وثمة رجلان يحملان هذه الكنية: أولهما هو محمد بن السائب (ت ١٤٦ هـ)، والثاني هو ابنه هشام بن محمد (ت ٢٠٤ هـ)، ولعلّه صاحب الكتاب المذكور.

وسواء أكان الكلبي الأب أم الكلبي الابن صاحب رواية نسبة الكُرد إلى العرب، فالأرجح أنّ هذه الرواية ظهرت في العهد الأُموي ثم شاعت فرواها علماء الأنساب، ومنهم أبو اليقظان وابن الكلبي، ومعروفٌ أنّ الأُمويين كانوا ينزعون إلى العصبية العربية ويؤجّجون النُّعَرات القبلية، خاصةً بين عرب الشمال (العدنانيين) وعرب الجنوب (القحطانيين)، وكان الموالي يُعَدّون من الطبقة الثالثة في المجتمع الإسلامي، باعتبار بني أُمَيّة وقُرَيْش عامّةً هم الطبقة الأولى، وسائر العرب هم الطبقة الثانية.

---

(١) المَقْريزي: **كتاب السلوك**، ص٢٢-٢٣. ابن حَوْقَل: **صورة الأرض**، ص٢٤٠.

ولا يخفى على المتأمل في قيم ذلك العصر ومعاييره الاجتماعية أنّ العرب كانوا ينظرون إلى غير العرب عمومًا نظرة دونية، ويسمّونهم «المَوالي»، وظلت هذه النظرة إلى الموالي قائمة حتى بدايات العصر العباسي الأول؛ فعندما استولى العباسيون على الخلافة جعلوا أبا العبّاس السفّاح (ت ١٣٦ هـ) خليفةً؛ مع أنه كان أصغر من أخيه أبي جَعْفَر المنصور، والسبب هو أنّ أمّ السفّاح كانت عربية، في حين كانت أم المنصور أمازيغية (بربرية)؛ أي كانت من الموالي.

وبما أن نظرة العرب إلى الموالي كانت كذلك فكيف رضي علماؤهم في الأنساب أن يَعُدّوا الكُرد (الموالي) عربًا؟ وهل كانوا يُقْدِمون على ذلك لولا أنهم لمسوا من النخبة العربية الرضا بما كانوا يفعلون؟ وصحيح أنّ في المصادر الإسلامية روايات نسبت الأمازيغ (البربر) إلى عرب الجنوب أيضًا، لكنها لا تَرقى، من حيث الأهمية، إلى الرتبة التي وصلتها الروايات الخاصة بأصل الكرد في هذا المجال.

ودعونا نسِر في هذا المضمار شوطًا أبعد، إذ يُفهم مما ساقه عالِما الأنساب أبو اليَقْظان وابن الكَلْبي أنه كان بين العرب العَدنانيين والعرب القَحطانيين تنافسٌ على تنسيب الكُرد إلى كلِّ فريق. فلماذا خُصَّ الكرد بهذا الاهتمام دون بقيّة الموالي؟ ولماذا هذا التنافس عليهم؟ هل التشابه في القيم بين الشعبين الكردي والعربي؛ مثل قيم (الكرم، الأَنَفة، الحَمِيّة، الشجاعة، الشَّهامة وغيرها) هي وراء نظرة العرب الإيجابية إلى الكرد، أم أنّ ثمّة دوافع وعوامل أخرى؟

إنّ هذه التساؤلات وغيرها جديرة بالبحث، ولا ينبغي أن نمرّ بها مرور المستعجل، وإننا نحسب أنّ العلماء العرب القدماء لم ينطلقوا في تنسيب الكرد إلى العرب من فراغ، ونعتقد أنهم صدروا عن أحد أمرين:

الأمر الأول: أنهم سمعوا روايات شفهية قديمة غير معروفة المصدر -وقد تكون أسطورية الطابع- حول القرابة العِرقية بين العرب والكُرد، ولعلنا نجد رأس الخيط في نسبة عرب الشمال (الحجاز خاصةً) إلى النبي إسماعيل بن النبي إبراهيم، لأنّ بعض الباحثين -وفي مقدّمتهم الباحث المصري الدكتور سيّد محمود القِمْني في كتابه **النبي إبراهيم والتاريخ المجهول** (ص٦٤-٧١)- يرون أنّ النبي إبراهيم من أصلٍ حُوري (خُوري = هُوري)، وأنّ اسم مدينة حَرّان (حاران) التي عاش فيها إبراهيم مستمدّ من اسم الحوريين بصيغته الأصلية (حُوران)، وإذا أخذنا في الحسبان

أنّ الحُوريين من الفروع الكبرى التي تشكِّل منها الشعب الكردي قبل الميلاد، وأنّ قبيلة قريش وغيرها من عرب الشمال هم من سلالة النبي إسماعيل بن إبراهيم، حسب مصادر التراث العربي، فالنتيجة المنطقية هي أنّ الكرد والفرع العربي الشمالي (المستعرَب) يلتقيان معاً في الانتماء إلى الحُوريين. لكن ما زال هذا الموضوع واقعًا في دائرة الشك، وهو بحاجة إلى كثيرٍ من البحث والتدقيق والتحقيق.

الأمر الثاني: أنّ هذه الآراء قد نمت وترعرعت ضمن مشروع سياسي ذي شِقّين:

- الشِّق الأول قومي: ويتلخّص في الصراع العربي- الفارسي، فقد أسقط العرب المسلمون الإمبراطورية الساسانية، وكان الفرس سادة تلك الإمبراطورية، في حين كان العرب والكُرد من الشعوب المستضعفة فيها؛ و«كلُّ ضعيفٍ للضعيف نسيبُ»، قياسًا على قول الشاعر العربي امرئ القَيس «وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ». ثم إنّ الفرس لم يستسلموا للعرب بصورة مطلقة، ولعلهم كانوا يستميلون الكرد إلى صفوفهم باعتبار العنصرَين من الموالي، إضافةً إلى الانتماء المشترك للعقيدة الزردشتية قبل الإسلام والقرابة اللغوية والانتماء إلى العرق الآري، فجاء تنسيب الكرد إلى العرب لقطع الطريق على الفرس في هذا المجال.

صحيح أنّ نظرية القرابة بين العرب والكُرد برزت في أوائل القرن الثاني الهجري، لكنّ دوافعها ظلت قائمة إلى القرن الثالث الهجري، وأصبح العرب حينذاك أحوج إلى الكرد، فالمشهور أنّ الدولة الأُمَوية كانت عربية الطابع، في حين كانت الدولة العبّاسية فارسية الطابع، وإزاء هيمنة الفرس على مقاليد الأمور في الدولة العبّاسية، وانضمام العنصر التركي إلى ميدان المنافسة في عهد الخليفة المُعتصِم بالله (ت ٢٢٧ هـ)؛ أمام هذا وذاك كان العنصر الكردي ضروريًا للعرب، وباستمالته إلى الصف العربي يتحقق التوازن مع الطرف الآخر (الفرس والترك).

- والشق الثاني قَبَلي: فقد كان الصراع العدناني/ القحطاني قائمًا قبل الإسلام، والحروب القَبَلية التي نشبت بين الفريقين في الجاهلية أبرز دليل على ذلك، بل إنّ مكّة نفسها كانت موضوعًا للصراع بين الفريقين، فكانت في يد قبيلة جُرْهُم القحطانية، ثم صارت في يد قبيلة خُزاعة القحطانية، ثم سيطرت عليها قبيلة قُريش العدنانية بقيادة قُصَيّ بن كِلاب، وكان ذلك حوالي قرنين قبل ظهور الإسلام أو يزيد قليلاً.

صحيح أنّ حدّة الصراع العدناني/القحطاني قد خفّت في صدر الإسلام بعض الشيء، لكن الأُمَويين أثاروها من جديد لأسباب سياسية، وانتقل هذا الصراع مع الفتوحات إلى العراق وسوريا وكردستان وفارس وغيرها من البلاد المفتوحة، وكان من المهم لكلّ فريق أن يستميل الكُرد إلى صفه ويستقوي به على الفريق الآخر.

خلاصة الأمر أنّ نظرية انتماء الكُرد إلى العرب - عدنانيين كانوا أم قحطانيين- ظلت قائمة في كتب التاريخ والجغرافيا والأدب واللغة طوال العهود الإسلامية، وذكرها معظم المؤرخين والجغرافيين واللغويين، وفي ذلك دليل على أنها كانت معلومة شائعة، وكانت لها مسوّغاتها المقبولة في الوسط الثقافي العربي، ومعروف أنّ سلاسل النسب كانت تحتل موقعًا مهمًّا في تلك الثقافة.

هذا فيما يتعلق بنسبة الكُرد إلى العرب، أما فيما يتعلق بنسبة الكرد إلى الفرس والترك فالحقيقة أنني لم أطّلع على المصادر التاريخية الفارسية والتركية قديمها وحديثها، لكني قرأت في بعض المؤلفات الكردية الحديثة أنّ من الفرس من يعدّون الكرد فرعًا من الشعب الفارسي، كما أنّ بعض الأتراك يسمّون الكرد «أتراك الجبال». ويبدو أنّ الفرس قد اعتمدوا على القرابة بين اللغتين الفارسية والكردية، وعلى انتماء الكرد والفرس إلى الأصل الآري، متوسّلين بذلك إلى دمج الكرد في العنصر الفارسي، وأما الترك فلأنهم يحاولون جهدهم تفريغ الذاكرة الكردية من الانتماء القومي، وتتريك الكرد بكل وسيلة.

٢ ـ الاتجاه الثاني:

يحاول أصحاب هذا الاتجاه إظهار الكرد على أنهم لا يشكلون شعبًا أو أُمّة متجانسة، وأنهم خليط من مجموعات عرقية غير معروفة الجذور؛ وضمن هذا الاتجاه تقع الرواية الآتية:

أرجع مؤرخو الفرس القدماء ملوك إيران إلى أربع دول حاكمة: الدولة البِيشْدادية (لعلها الميدية)، ثم الدولة الكِيانية (الأخمينية)، ثم الدولة الأشگانية (الپارثية)، ثم الدولة الساسانية، ويذكرون أنّ أَزْدِهاك (الضحّاك) -واسمه بَيوراسْب بن أَرْوَنْداسْب، وهو من البِيشداديين- تسلّط على عرش فارس بعد الملك جَمْشِيد، وأورد الدكتور إحسان يار شاطر اسمه بصيغة «أژى دهاك»، وذكر أنه «عِفريت مخيف

هائل»، كان هو وعفريت آخر يسمّى خِشْم من أبرز جنود إله الشر أَهْرِمَن.

وذكرت المصادر أنّ أزدهاك كان ظلومًا، فظهر على كتفيه قَرْحان، وبرز من كلٍّ منهما لسان كالأفعى، وكان الألم لا يخفّ إلا بدماغ بشري يُضمَّد به القرحان، فكان يُقتَل كلّ يوم شابان، ليتداوى أزدهاك بدماغيهما، وكان المكلَّف بقتل الشابين رحيمًا، فكان يكتفي بقتل شاب، ويستعيض عن دماغ الآخر بدماغ كبش، ويأمر الشاب الذي يطلقه بالرحيل بعيدًا؛ فلجأ هؤلاء الشباب إلى الجبال، وهناك تزاوجوا وتناسلوا وبنوا القرى وتفاهموا بلغة واحدة، ومن نسلهم كان الكرد.(١)

ولا نَعْدَم في العصر الحديث مَن يروّج هذا التوجّه، وخاصةً بعض القومويين العرب والفرس والترك المتطرفين، وهم يشكّكون في انتماء الكرد إلى أمة واحدة، معتمدين في ذلك على التنوع الإثنولوجي بين الكرد تارةً، ومتذرّعين تارةً أخرى باختلاف اللهجات بين بعض القبائل الكردية، وهدفهم من ذلك هو التدليل على أنّ الكرد لا يستحقون أن تكون لهم دولة مستقلة، وكي تبقى بلاد الكرد مقسَّمة وفق اتفاقية سايكس- بيكو بين دول الجوار (إيران وتركيا والعراق وسوريا)، وإذا أخذنا بالمعيار الذي يطبّقه هؤلاء على الكرد لكانت النتيجة تجريد كثير من أمم الشرق الأوسط والعالم من صفة «أمّة»، لأنها -نقصد تلك الأمم- هي في جوهرها نتاج تنوّع إثنولوجي ولَهْجَوي شديد التداخل والتمازج.

٣ ـ الاتجاه الثالث:

ينفي أصحاب هذا الاتجاه انتماء الكُرد إلى البشر جملةً وتفصيلاً، وينسبونهم إلى التزاوج بين النساء المنافقات والشياطين، وينقل المسعودي في هذا الصدد رواية بعيدة عن الموضوعية، إضافةً إلى أنّ فيها كثيرًا من التحامل على الكرد، تقول الرواية: «ومن الناس من ألحقهم(٢) بإماء سليمان بن داود عليهما السلام، حين سُلب ملكَه، ووقع على إمائه المنافقات الشيطانُ المعروف بالجَسَد، وعَصَمَ الله منه المؤمنات أن يقع عليهن، فعلِق منه المنافقاتُ، فلما ردّ الله على سليمانَ مُلْكَه،

---

(١) ابن البَلْخي: **فارس نامَه**، ص٢٦، ٤٣. المسعودي: **مروج الذهب**، ١٢٣/٢. إحسان يار شاطر: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ص٦٠.

(٢) الكرد.

ووَضع تلك الإماءُ الحواملُ من الشيطان، قال: اكردوهنّ إلى الجبال والأودية. فربّتْهم أمّهاتهم، وتَناكحوا وتَناسلوا، فذلك بَدء نسب الكُرد».[1]

وقد جاءت هذه الرواية في **تاريخ شَرَف نامه** للأمير شَرَف خان بَدْليسي بصورة ملطَّفة، فالمعروف أنه عندما اعتلى الشاه الصَّفَوي عبّاس الثاني (١٥٨٥-١٦٢٨ م) عرشَ بلاد فارس شرع يستعدّ لمقاومة الترك العثمانيين، وكان بحاجة إلى تأييد الكرد، فشجّع الأميرَ شرف خان على كتابة تاريخ الكرد باللغة الفارسية، ولا ريب في أنّ شرف خان قد استقى معلوماته من المصادر الفارسية، وخلاصة الرواية ما يلي: «أرسل الملك العبراني النبي سليمان مئات من «دَيو» *Daiw* (بالكردية والفارسية: جِنّي/ عِفْريت) إلى بلاد الإفرنج (أوروبا)، ليجلبوا له فتيات عَذارى جميلات يضمّهن إلى حريمه، وحينما وصل الجنّ بالعذارى كان سليمان قد توفّي، فاحتفظوا بالعذارى لأنفسهم، وتزوّجوهنّ، ومنهم جاء نسل الكُرد».[2]

وهكذا نرى أنّ هذه الرواية تتفق، من حيث النيّة والمنطلقات الأسطورية، مع الرواية السابقة، وتستبعد الكُرد من دائرة البشر وفق النظام الأبوي (البطريركي)، فهم بحسب الروايتين من سلالة الجن، وليسوا من أبناء آدم، وتُفصح هذه الرواية في الوقت نفسه عن أمرين:

- **الأول**: انتشار اللونين الأبيض والأشقر بين الكرد، وهما اللونان السائدان في الشعوب الهندو- أوربية.
- **الثاني**: اشتهار الكرد بالشجاعة والبسالة، وتميّزهم بسرعة الانقضاض على العدوّ، وسرعة الاختفاء بين الجبال، فهم كالجنّ ظهورًا واختفاء.

خفايا... ونوايا:

بتدقيق النظر في هذه الروايات وتحليلها والغوص في أعماقها يصل المرء إلى نتائج تثير الدهشة حقًا، وتوضّح أبعاد التحريف الذي تعرّض له تاريخ الكُرد منذ

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٣/ ١٢٣. وانظر المَقريزي: **الخُطَط المقريزية**، ٢/ ١١٢-١١٣.

(٢) شرف الدين بدليسي: **شرف نامه**، ص١٢.

القِدم، وهو تحريف يهدف إلى رمي الكُرد بأبشع الصفات إثنيًا ودينيًا واجتماعيًا، واستبعادهم من الساحة البشرية اجتماعيًا وحضاريًا:

١ - من الناحية الإثنية: يُفهم من هذه الروايات أنّ الكُرد ليسوا من أبناء آدم الأسوياء، وإنما جدّهم الأكبر هو «شيطان!!»، مع الأخذ بالاعتبار كراهية المسلمين والأديان السماوية عامّةً لهذا الكائن الذي يسمّى «الشيطان»، وبما أنّ الكرد من سلالة الشيطان -حسبما زعم صانعو هذه الخرافة- فلا يجوز أن يكون لهم نصيب في إرث أبي البشرية «آدم»، ولا ينبغي أن تكون لهم حقوق «أبناء آدم» في جميع الميادين.

٢ - من الناحية الدينية: يُفهم أنّ الكُرد هم حصيلة نكاح غير شرعي بين نساء منافقات وشيطان، أي إنهم أبناء زنى، وليس هذا فحسب، بل إنه أبشع أنواع الزنى؛ لأنه وقع بين منافقات وشيطان، فكيف يكونون إذًا مؤمنين أتقياء؟ وما دام هذا هو أصلهم فلا بأس من التعامل معهم على هذا الأساس، وإنزالهم أدنى المنازل على جميع الأصعدة، بل من الواجب إعلان الحرب عليهم.

ويمكن الاستدلال من هذه الروايات على أنه لا بأس في القضاء على الكرد وإبادتهم كما حدث في العراق خلال حملات «الأنفال» بدءًا من سنة ١٩٨٧، وفي قصف مدينة حَلَبْجَه الكردية بالغازات السامة (في ١٦/ ٣/ ١٩٨٨)، ولِم لا؟ ألم تنزل لعنة الله في الكتب المقدسة على الشيطان منذ بدء الخليقة؟ ألم يكن الشيطان عدوّ آدم وعدوّ كلّ سلالته؟! فلماذا يجب على «المؤمنين» إذًا مهادنة سلالته من الكُرد والإبقاء عليهم؟

٣ - من الناحية الاجتماعية: الكُرد هم أبناء الإماء وليسوا أبناء الحَرائر؛ ويعرف كل دارس للتاريخ العربي القديم تدنّي موقع أبناء الإماء في المجتمع عن أبناء الحرائر، وسبق القول إنّ التمييز بين أبناء الحرائر والإماء كان ساري المفعول حتى على مستوى الترشيح لمنصب الخلافة، فأصبح أبو العبّاس السفّاح (أمّه عربية) خليفةً قبل أخيه الأكبر أبي جعفر المنصور لأنّ أم الأخير كانت أَمَة (جارية) أمازيغية (بربرية)، وبموجب هذه القاعدة الصارمة، كيف يمكن أن يتساوى الكُرد (أبناء الإماء المنافقات!) مع غيرهم من الشعوب (أبناء الحرائر) في الحقوق؟ وكيف تكون للكُرد حقوق قومية مثل سائر الشعوب؟! وكيف تكون لهم دولة خاصة بهم؟ وكيف يكون لهم حضور على الصعيد العالمي اقتصاديًا وثقافيًا وعِلميًا؟

لا شكّ في أنّ هذه التوجّهات إنما صدرت عن رؤى قاصرة، وهي نتاج ثقافات تضيق ذَرْعًا بالآخرين، وتستهين بهم، وتعمل على مسخ هوية الشعب الكردي، ولا يتردّد أصحاب هذه التوجّهات والثقافات في إنزال الأباطيل منزلة الحقائق المطلَقة، ولا يتورّعون عن ممارسة أشنع أنواع التزوير والتلفيق بقصد الترويج لأوهامهم الساذجة.

تساؤلات:

مهما يكن، ثمّة أسئلة هامة جدًا ينبغي الوقوف عندها، وهي لا تتعلق بنسبة الكُرد إلى العرب، فذلك أمر قد اجتهدنا في تحديد دوافعه، وقد نكون مخطئين وقد نكون مصيبين؛ ثم ليس في نسبة الكرد إلى العرب ما يُشين، بل فيه ما يعدّ تكريمًا للكرد من وجهة النظر العربية، وخاصةً في القرنين الأول والثاني الهجريين.

أجل، حينذاك كان العرب يقودون الفتوحات الإسلامية شرقًا إلى حدود الصين، وشمالاً إلى آسيا الصغرى، وغربًا إلى المحيط الأطلسي فإسبانيا، وحينذاك كانت العروش تتزلزل والتيجان تتهاوى تحت ضرباتهم، وكانت الشعوب تدخل تحت لواء دولتهم طَوْعًا أو كَرْهًا، وكان كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى يتمنّون لو كانوا عربًا كي يجنّبوا أنفسهم ذلّ الموالاة، وكي يحظَوا بقسط من الدولة والصَّولة ويكون لهم نصيب من النفوذ والجاه والمال، فما الذي كان سيعيب الكُرد إذًا لو عُدّوا من عرب قحطان أو من عرب عدنان؟

إنّ التساؤلات المهمّة هي خاصة بنسبة الكُرد إلى الشيطان (الجَسَد/ جاساد)، وإلى إماء النبي سليمان (المنافقات)، وإلى أولئك (الجن/ العفاريت) الذين كانوا خَدمًا عند النبي سليمان، ثم زَنوا بالجواري الفاتنات اللواتي استقدمهن سليمان من أوربا، ولا يشكّ عاقل في أنّ هذه الروايات ليست سوى اختلاقات وتلفيقات لا أساس لها، لا في التاريخ ولا في منطق العقل، وهي تنتمي إلى الخرافات والأساطير، ولا صله لها بالواقع لا من قريب ولا من بعيد.

لكن لماذا خُصّ الكُرد وحدهم بهذه التلفيقات؟

ولماذا لا نجد ما يقاربها في أصل العرب والفرس والأرمن والترك؟

ومن كان وراء هذه التخريجات العجيبة لأصل الشعب الكردي؟
ومتى وُضعت هذه التخريجات الملفَّقة والغريبة؟
ولماذا وُضعت هذه التلفيقات أصلاً؟

لمقاربة هذه التساؤلات ينبغي أن نأخذ في الحسبان أمورًا ثلاثة:

الأمر الأول هو أنّ روايات نسبة الكُرد إلى العرب شاعت في القرن الهجري الأول، وتناقلها مشاهير علماء الأنساب العرب، ولم تكن حركة الترجمة من الفارسية والسريانية والعبرانية واليونانية والهندية قد نشطت حينذاك.

والأمر الثاني هو أنّ روايات نسبة الكُرد إلى الجن والشياطين، ونِسْبتهم إلى الإماء المنافقات، شاعت في كتب المؤرخين والجغرافيين واللغويين الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري وما بعده، وصحيح أنّ حركة الترجمة بدأت في العهد الأُمَوي، لكنها كانت محدودة، ونشطت جداً في العهد العباسي الأول، وتحديدًا منذ عهد أبي جَعفر المنصور (ت ١٥٨ هـ)، ثم قويت جدًا في عهد حفيده هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ) وفي عهد المأمون بن هارون الرشيد (ت ٢١٨ هـ) ومن تلاه من الخلفاء.

والأمر الثالث هو أنّ المؤرخين المسلمين -عرباً وغير عرب- ليسوا هم الذين وضعوا هذه الروايات الملفَّقة، وهذا واضح من الصيغ التعبيرية التي كانوا يمهّدون بها للحديث عن أصل الكُرد، مثل: «قيل: ...» و«من الناس مَن زَعم...» و«من الناس مَن ألحقهم بـ ...». وهذا يعني أنهم سمعوا تلك الروايات أو نقلوها من مصادر غير موثَّقة، وهي بالتأكيد مصادر غير عربية وغير إسلامية، ولو كانت تلك المصادر عربية أو إسلامية لذكرها المؤرخون، ولذكروا أسماء الرواة التي تناقلوها، شأنُهم في سائر الأخبار التي كانوا يحرصون على نسبتها إلى أصحابها ومصادرها ورُواتها في الدين والتاريخ والأدب.

حسنًا، ما دامت المصادر التي نُقلت منها تلك التلفيقات ليست عربية ولا إسلامية، فهي إذًا مما دخل الثقافة العربية الإسلامية من تراث الشعوب التي دانت بالإسلام عقيدةً، أو رضخت للدولة العربية الإسلامية تَبَعيّةً، وهي ليست مصادر هندية، فقد اهتم المترجمون بنقل موضوعات الطب والفلك والرياضيات من التراث

الهندي، كما أنها ليست يونانية، لأنّ المؤرّخين اليونان، ومن أبرزهم هيرودوت (ت حوالي ٤٢٥ ق.م)، لم يذكروا هذه الروايات الملفَّقة في كتبهم.

ولعلّ هذه الأخبار الملفَّقة مقتبسة من مصادر فارسية ساسانية أو مصادر مسيحية، وهذه المصادر المسيحية قد تكون نَسطورية[١] أو يَعقوبية[٢] أو بيزنطية (مَلْكانية)[٣]، وقبل الإسلام كانت توجد نزاعات وصراعات بين الكُرد وأتباع هذه المذاهب على الجغرافيا بحكم الجوار، إضافةً إلى أنّ معظم الكرد قد تمسّكوا بالزَّرْدَشْتية، ولم يدينوا بالمسيحية، وكان هذا سبب آخر للنزاع والصراعات بين الطرفين.

ومن المحتمل أن يكون للمصادر العبرانية المعروفة باسم «الإسرائيليات» أيضاً دورها في إنتاج الأخبار بشأن أصل الكرد، ونعتقد أنّ السبب في ذلك يرجع إلى العهد الميدي، فقد تحالف الملك الميدي كَيْخَسْرو مع الملك الكلداني نابو بُولاصر *Nab-apla-usur*، وزوّج ابنته أُوميد (أميتس) من نَبُوخَذ نَصَر الثاني (نابو- كدوري-

---

(١) نسبة إلى نسطور الأنطاكي الذي اعتقد أنّ في المسيح شخصًا بشريًا وشخصًا إلهيًا، وأنّ في المسيح طبيعتين وأقنومين، ولذلك فهما مسيحان، أحدهما ابن الله والآخر ابن الإنسان، وأنّ مريم لم تلد إلهًا متجسِّدًا بل إنسانًا مَحْضًا هو يسوع المسيح، ثم حلّ فيه كلام الله، لذلك لا يجوز أن تُدعى مريم والدة الله بل أم المسيح، وحُرم نسطور وتعاليمه في المجمع المسكوني المنعقد في أفسوس عام (٤٣١ م)، وتعرّض أتباعه للاضطهاد من السلطات البيزنطية، وكثر أتباعه في بلاد فارس وما بين النهرين (العراق). انظر حبيب بدر وسعاد سليم وجوزيف أبو نهرا: **المسيحية عبر تاريخها في المشرق**، ص٤٧، ٢٣٧.

(٢) اليعقوبية: نسبة إلى أسقف الرُّها (أُورفا) يعقوب البرادعي (ت ٥٧٨ م)، صاحب المذهب المونوفيزي الذي يعتقد أنّ للمسيح طبيعة واحدة، وقد انتشرت دعوته في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، في المنطقة الواقعة بين الخابور ودجلة والفرات. انظر سيديّو: **تاريخ العرب العام**، ص١٢٩. وكذلك نقولا زيادة: **المسيحية والعرب**، ص١٥٩-١٦٢.

(٣) المَلْكانيون: يسمّون «الخَلْقيدون» أيضاً نسبة إلى مجمع خَلْقِيدونية عام (٤٥١ م) الذي تبنّته دولة بيزنطا (الروم)، ويعتقد الملكانيون أنّ في المسيح شخصًا (أقنومًا) بطبيعة بشرية (ناسوتية) وطبيعة إلهية (لاهوتية)، وأنّ الروح القدس منبثق من الآب والابن معاً، وأنّ أقنوم الابن أقلّ من أقنوم الآب بدرجة، وقد ورث الأرثوذكس هذا المذهب. انظر حبيب بدر وسعاد سليم وجوزيف أبو نهرا: **المسيحية عبر تاريخها في المشرق**، ص٤٧. وكذلك مانع الجُهَني: **الموسوعة الميسّرة**، ج٢، ص٦٠٠-٦٠٦.

أوصر) *Nabu-Kudurri-usur* ابن الملك الكلداني، وقضيا معًا على الإمبراطورية الآشورية (سنة ٦١٢ ق.م)، وتقاسما الأراضي التي كانت تحكمها الإمبراطورية، وكانت سوريا وفلسطين من نصيب الكلدان.[١]

وقد ثار اليهود في أُورْشَلِيم (القُدس) على الكلدان في عهد نَبُوخَذ نَصَر الثاني ابن نابو بُولاصر (سنة ٥٩٨ ق.م)، فهاجمهم نبوخذ نصر وقمع الثوّار (سنة ٥٩٧ ق.م)، ودمّر الهيكل، ونفى ثلاثين ألف يهودي إلى بابل (سنة ٥٩٦ ق.م)، فكان من الطبيعي أن ينقم اليهود على الكلدان وحلفائهم الميديين، وظهرت آثار تلك النقمة في تعاون النخب اليهودية مع الفرس الأخمين بقيادة كورش الثاني في القضاء على مملكة الكلدان في بابل (سنة ٥٣٩ ق.م)، وليس من المستبعَد أن يكونوا قد تعاونوا قبل ذلك مع كورش للقضاء على مملكة ميديا (سنة ٥٥٠ ق.م)، تمهيداً للقضاء على مملكة بابل بعدئذٍ، وكافأهم كورش على ذلك بالسماح لهم بالعودة إلى أورشليم، وقدّم لهم الأموال لإعادة بناء الهيكل.

والحق أنّ الفرس إجمالاً كانوا أصحاب المصلحة الكبرى في التعتيم على التاريخ الكُردي، وفي تشويه صورة الكرد، منذ أن قضوا على الدولة الميدية (سنة ٥٥٠ ق.م) على يد كورش الثاني الأخميني، كما مرّ، ومرورًا بالعهد الپارثي (الأشكاني)، وانتهاءً بالعهد الساساني. وقد نقل المؤرخ اليوناني هيرودوت بدقة هواجس الملك الأخميني قَمْبيز بن كورش الثاني من عودة الميديين إلى دفّة الحكم في غرب آسيا، وستتضح هذه الحقيقة أكثر في القسم الخاص بالدولتين الميدية والأخمينية من هذا الكتاب.

ولا نستبعد في الوقت نفسه أن تكون المصادر المسيحية -وكانت من نتاج بعض رجال الكنيسة غالبًا- قد ساهمت في حملة التشويه على الكرد، فالدول المسيحية في غرب آسيا (أرمينيا، جورجيا، الدولة البيزنطية) كانت الجهة المتضررة الثانية من ظهور الكرد على الصعيد الإقليمي حينذاك، وحاولوا تنصير الكرد لكسبهم إلى جانبهم في معركة الصراع ضد الدولة الفارسية، حامية حمى العقيدة الزَّرْدشتية، وضد الدولة العربية الإسلامية، حامية حمى الإسلام ووريثة الدولة الفارسية.

---

(١) دياكونوف: ميديا، ص٢٨٣. كذلك طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٤١.

وفي هذه الحالات تزجّ الدول بترسانتها الثقافية والإعلامية في المعركة الثقافية لكسب الصراع السياسي والعسكري، ونظن أنّ هذا ما فعلته الدول المسيحية المشار إليها، ولعلها وظّفت جهود كنائسها في هذا المجال، لكنّ الكُرد لم ينضموا إلى صفوفها، وظلوا متمسّكين بالزَّرْدَشتية، ولا نستبعد أن تكون المصادر النسطورية خاصةً هي التي نقلت تلك التشويهات، باعتبار أنّ النساطرة كانوا متحالفين مع الدولة الفارسية الساسانية، ويستظلون بظلها هرباً من الاضطهاد العَقَدي البيزنطي، ثم تحوّلوا بسرعة إلى التحالف مع الدولة العربية الإسلامية الناشئة منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، وكانوا أكثر المساهمين في الترجمة خلال العهدين الأموي والعباسي.

هذه احتمالات وترجيحات ليس أكثر، والمسألة بحاجة إلى مزيد من المناقشة.

حقيقة أصل الكُرد:

لنتركْ الروايات الساذجة جانبًا، ولنبحث عن الحقيقة التاريخية، فالمختصون في التاريخ البشري يذكرون أنّ الشعوب الهندو-أوربية (الآرية) كانت تقطن المناطق الواقعة شرقي بحر قَزْوين وشماليّه حوالي ٢٥٠٠ ق.م، وهناك استأنسوا الحصان واقتنوا المواشي والأغنام، وبدأت طلائع هجراتهم حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م لأسباب تتعلق بالجفاف أو بالصراعات الداخلية أو نتيجة غزو الطورانيين بلادهم.[(١)]

وقد قام فرعان من الهندو-أوربيين بالهجرة:

● **الفرع الأول**: دار حول البحر الأسود ونزل في البلقان، واللِّيرِيُّون (ينتمي إليهم سكان مَكَدُونيا وأَلْبانيا) أبرز أقسام هذا الفرع، وقد دفعوا أمامهم التِّراقيين والفِريجِيين والأرمن والمِيسينيين إلى آسيا الصغرى، فانقضّ هؤلاء على الحِثّيين وأزالوا دولتهم حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م، وتشكّلت منهم في النهاية دولة أرمينيا شرقًا ودولة فريجيا غربًا، ثم حلّت دولة لِيديا محلّ فِريجيا. كما أنّ قسمًا من هذا الفرع ركب السفن، واجتاز البحر الأبيض المتوسط، ونزل في شمالي إفريقيا، وقد يكون

---

(١) بونغارد ليفين: **الجديد حول الشرق القديم**، ص٢٦٢. أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ص٢٠٩.

شعب الأمازيغ (البربر) من أحفاد ذلك الفرع؛ لأنّ ملامحهم الإثنية هندو-أوربية.[1]

● **والفرع الثاني**: دار حول بحر قزوين، واجتاز جبال القوقاز (القَفْقاس)، واستقر في أعالي الفرات، وهم الميتّانيون (من أبرز أجداد الكرد القدماء). وفي فترات لاحقة توجّه قسم من هذا الفرع شرقًا عبر المرتفعات الإيرانية واستقرّ في الهند، ومن كتبهم المقدسة بالسَّنْسِكريتية «الڤيدا». واستقرّ فرع آخر في بلاد إيران، وكان شعبا ماد (ميد) *Madai* وپارس (فارس) *Pursua* من هذا الفرع، واستقرّ الميد في جنوب شرقي بحيرة أُورميا، بينما استقرّ الفرس في الجنوب الغربي منها، ثم انحدروا نحو جنوب غربي إيران الحالية، وكان الميد والفرس بداة يربّون الماشية ويُحسنون تربية الجياد ويجيدون ركوبها واستخدامها في الحروب.[2]

وجاء اسم «الفُرس» في حوليات الملك الآشوري شَلْمناصَّر الثالث سنة ٨٤٤ ق.م، وورد اسم «الميد» فيها سنة ٨٣٦ ق.م، ولا يعني هذا بالضرورة أنّ الفرس قد أتوا قبل الميد. ويذكر المؤرخون أنه لا يمكن تأكيد أنّ الاسمين الواردين في الأخبار الآشورية هما اسمان قوميان، ويرجّحون أنهما اسمان جغرافيان، ويؤكدون، في الوقت نفسه، التشابهَ بين اللغة الميدية واللغة الكردية.[3]

وكان أبناء الفروع الهندو-أوربية (الآرية) يتكلمون لغةً واحدة عندما كانوا لا يزالون شعبًا واحدًا، ثم تباعدت لهجاتهم بتباعد الأماكن التي هاجروا إليها، والدليل على ذلك هو التشابه بين كثيرٍ من المفردات في لغات الشعوب الآرية المعاصرة، إضافةً إلى التشابه في كثيرٍ من قواعد الصرف والنحو، وفي الصيغ التعبيرية.

وبطبيعة الحال لم تحصل هجرات الشعوب الآرية دفعةً واحدة، وإنما كانت تحدث على مراحل متتابعة، وهذا ما حدث للقبائل والفروع التي استقرّت في جبال زاغروس والمناطق المحيطة بها (مهد الشعب الكردي)، وكان الميد آخر تلك الفروع المهاجرة، واستطاع هذا الفرع، من خلال إقامة دولة لمدة تزيد عن قرن من

---

(١) أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص٢٠٢-٢٠٨. وليام لانجر: **موسوعة تاريخ العالم**، ١/ ٨٤.

(٢) أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ص٢١٠. جيمس هنري برستد: **انتصار الحضارة**، ص٢٤٥. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٣٧-٣٨.

الزمان، توحيد تلك القبائل والفروع تحت رايتها، وإنشاء تكوين إثنولوجي وحضاري متجانس واحد، يُعَدّ الأصل الإثنولوجي والحضاري للشعب الكردي.
ويؤكد مينورسكي قدوم الكرد من الشرق مع الموجة الآرية الأولى، فيقول: «عرف الجغرافيون الإغريق (سترابو، بتوليمي، وآخرون) في أوائل القرون الميلادية بصورة جيدة مناطقَ كوردوئين، وكانت هناك مدينة صغيرة تسمّى بِيناك، وهي لا تزال قائمة على نهر دجلة، ويسمونها فَنَك *Fanak*. ويمكننا الآن أن نَعقد مقارنة بين كلمة «كوردوئين» وكلمة «كورجيا» (= بلاد الكرد) المذكورة من قبل الأرمن، والتي كانت تمتدّ من سَلَماس (سَلْماس)، وعبْر الأقسام الجنوبية من هَكّاري، ثم إلى الغرب حتى بُوتان»[١].

ويذكر العالم تورو دانجين أنه اطّلع في المجلة الآشورلوجية على لوحتين أثريتين دُوّنت عليهما نقوش وكتابات يرجع تاريخها إلى ألفي سنة قبل الميلاد، مفادها أنه كان هناك إقليم يدعى «كار- داكا» بالقرب من جنوب بحيرة وان.

أما اليوناني أكسنوفان، قائد المرتزقة العشرة الآلاف العائدينَ من بلاد فارس (سنة ٤٠٠-٤٠١ ق.م)، فقد ذكر الشعب الكُردوخي (الكردوكي) قائلاً إنّ موطنهم يمتد من إقليم بُوهْتان (بُوخْتان = بُوتان)، وإنهم لم يكونوا خاضعين لا للفرس ولا للأرمن. ومنذ ذلك الوقت نجد هذا الاسم مذكورًا دائمًا مع هذه المنطقة التي تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة في أطراف جبل جُودي، وأطلق المؤرخون عليها اسم «كوردوئين».

وفي مطلع القرن الأول الميلادي استولى الملك الأرمني دِيگْران الثاني المعروف بديگران العظيم (حكم بين سنتي ٩٤-٦٩ ق.م) على بلاد كوردوئين، وقَتل ملكَها زاربيونيس، وبنى فيها عاصمته الجديدة (ديگْرانا كيرْتا) وهي مَيّافارقين (فارقين حاليًا)، وفي سنة ١١٥م كان ملك الكوردوئين يسمى مانياروس، وكان إقليم كوردوئين خاضعًا للأرمن اسميًا.[٢]

وعُرفت تلك المنطقة في اللغة الآرامية باسم «حوض كاردو»، وهذا تصحيف

---

(١) مينورسكي: **الأكراد**، ص٢٢-٢٣.
(٢) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص٤٧-٤٨. مروان المُدَوَّر: **الأرمن عبر التاريخ**، ص١٥٢.

واضح لكلمة «كُردو»، وعُرفت عند الأرمن باسم «كوردوز»، وعُرفت عند المؤرخين المسلمين، مثل البَلاذُري (ت ٢٧٩ هـ) والطَّبَري (ت ٣١٠ هـ) وابن الأَثِير (ت ٦٣٠ هـ)، باسم «بَقَرْدى *Bakarda*»، وقد اقتبس المؤرخون المسلمون هذا الاسم من المصادر السريانية، إذ يذكر جرجيس فتح الله في كتابه **يقظة الكرد** أنّ المسيحيين في كردستان ما زالوا يطلقون اسم «قَرْدايا» أو «قَرْذايا» على الكرد بالسريانية، ثم اندثر اسم باكاردا (بَقَرْدى)، وحلّ محلّه في الكتب العربية الإسلامية اسم «جزيرة ابن عُمَر» تارةً و«بُوهْتان» تارةً أخرى.

ويُفهَم من أقوال المختصين أنّ لفظة «كُورْدُوَا» أُطلق فترةً طويلة على الجبال التي بين ديار بكر (آمِد) ومُوش في شمال كردستان (جنوب شرق تركيا)، ويذكر الكردولوجي الشهير باسيلي نيكيتين أنّ لفظة «كاردو» تتماثل مع ألفاظ سامية، وخاصةً في الأكّادية والآشورية، وتعني «قومي، بطل»، وأنّ كلمة «كارْدُوا» تعني: يصبح بطلاً.[١]

وعُرفت المناطق الجنوبية الغربية من كردستان باسم «جزيرة أَقُور»؛ يقول ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في **معجم البلدان**: «جزيرة أَقُور هي التي بين دِجلة والفرات مجاورةٌ لبلاد الشام، تشتمل على ديار مُضَر وديار بكر، وسُمّيت الجزيرةَ لأنها بين دجلة والفرات، وهي صحيحة الهواء، جيّدة الرَّيع والنَّماء، واسعة الخيرات، بها مدنٌ جليلة وحصون وقلاع كثيرة، ومن أُمّهات مدنها حَرّان والرُّها والرَّقّة ورأس عَين ونَصِيبين وسِنْجار والخابور ومازْدين وآمِد وميّافارقين والمَوْصل وغير ذلك».[٢]

وقد مرّ ما ذكره أرشاك سافراستيان حول أنّ اسم «كُرْد *Kurd*» قد ظهر بالفهلوية على شكل «كورد» أو «كوردان»، مع الأخذ بالحِسبان أنّ اللاحقة «ان» هي صيغة جمع الأسماء في الكردية، وذكر سافراستيان أيضاً أنّ مؤسس المملكة الساسانية الفارسية أَرْدَشِير بابكان يذكر، في سنة ٢٢٦ م، بين خصومه اسم ماديج *Madig* ملك الكردان أو الكرد.

---

(١) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، هامش٣، ص٤٥. جرجيس فتح الله: **يقظة الكرد**، ص٥٦٦.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٢/ ١٣٤. تسمّى (آمِد) بالكردية: آمَد.

صفوة القول أنّ الكرد هم أحفاد الأقوام الزاغروسية التي كانت تسكن كردستان منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد (لوللو، گوتي، سوباري)، ثم انضمّ إليهم الآريون، وأبرزهم كاشّو وميتّان وخَلْدي (نايْري = أورارتي) وميد، وامتزج هؤلاء بالزاغروسيين الأصلاء، ونشأ من اندماجهم معًا تكوين زاغروس- آري جديد تمازجت فيه الخصائص الإثنولوجية والثقافية، وأنجبت الأمة الكردية.

ونورد فيما يلي الأسماء التي عُرف بها الكرد عند الشعوب المجاورة:

- عُرفوا عند السومريين باسم «كُوتي- جُوت- جُودي».
- وورد اسمهم في الكتابات العيلامية بصيغة «كُورْتَش» *Kurtash*، وأحيانًا كان كورتش يسمى «آدم»، وكان هذا الاسم «آدم» يطلق في المجتمع البابلي على الشخص الواحد من الأحرار.
- وعرفوا عند الآشوريين والآراميين باسم «كوتي- كورتي- كارتي- كاردو- كارداكا- كاردان- كاركتان- كارداك».
- وعند الفرس باسم «كورتش- كارا- كورتيوي- سيرتي».
- وعند اليونان والرومان باسم «كاردوسوي- كاردوخي- كاردوك- كردوكي- كاردوكاي».
- وعند الأرمن باسم «كوردوئين- كورجيخ- كورتيخ- كرخي- كورخي».
- وعند العرب باسم «كردي- كاردوي- باكاردا- كارتاويه- جوردي- جودي».[1]

بقي أن نشير إلى أننا اعتمدنا صيغة «كُرد» بدلاً من صيغة «أكراد» -وهي شائعة في المصادر العربية القديمة والمعاصرة- لأسبابٍ ثلاثة:

- **الأول** أنك لو سألت أيَّ مجموعة كردية باللغة الكردية: من أنتم؟ يكون الجواب بالكردية: نحن كُرْد، *Em Kurdin*، ولا يقولون: نحن أكراد.
- **الثاني** أنّ صيغة «كرد» هي الواردة في الفهلوية، وما صيغة «كُرْدان» إلاّ جمع للمفرد، وما زال الأمر نفسه قائمًا في الكردية والفارسية إلى هذا اليوم.

---

(١) دياكونوف: ميديا، ص٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١١.

● **الثالث** أنّ صيغة «كرد» هي الأقرب إلى جميع الصيغ التي أوردها أرشاك سافراستيان، والمذكورة قبل قليل، ولم ترد صيغة «أكراد» فيها مطلقًا.

ونعتقد أنّ صيغة «كرد» هي التي وردت في المصادر الفارسية التي اطّلع عليها الباحثون العرب الأوائل، أما صيغة «أكراد» فنشأت في الإسلام، وهي منحوتة على وزن «أعراب»، لا سيّما أنّ قسمًا كبيرًا من الكرد كانوا يقتنون الماشية، وكان التصوّر العربي العام حينذاك عن الكرد أنهم بداة، وهذا واضح في إشارات الجاحظ وغيره إلى الكرد.

٣- جغرافية كردستان

قبل الحديث عن جغرافية كردستان دعونا نلقِ الضوء على بعض المصطلحات الجغرافية والإثنية بقصد تأصيلها وإزالة اللّبس العالق بدلالاتها نتيجة التراكمات والتداخلات التاريخية والسياسية.

● **الشعوب الهندو-أوربية (الآرية)**: قسّم المؤرخون شعوب العالم إلى مجموعات كبرى، أهمها: الشعوب الهندو-أوربية والسامية والحامية والأورال ألطائية ومجموعات جنوب شرقي آسيا والإسكيمو، وذكروا أنّ الشعوب الهندو-أوربية تضمّ الأوربيين والأمريكيين والسلاف والأرمن والفرس والميد وآخرين، ويطلقون على هذه المجموعة اسم «الآريين» أيضًا.

وقد ورد في كتاب **انتصار الحضارة** للمؤرّخ جيمس هنري برستد أنّ مصطلح «الآريين» يُطلق على الفرع الشرقي من الشعوب الهندو-أوربية، وهم: الميد والفرس والأرمن ومن استقر في أفغانستان والهند. أما الأوربيون والأمريكيون فهم من الفرع الغربي؛ أي أنّ الآريين هم أبناء عمومة الأوربيين، وليسوا أجدادهم.

● **إيران**: في عصرنا هذا «إيران» دولة تقع شرقي كلٍّ من العراق وتركيا، وهذه التسمية مشتقة من كلمة «آرِيا» *Ariya* الواردة في الكتاب الزردشتي المقدس أڤستا (أبستاق)، وهي تعني بلاد الآريين، كما أنّ كلمة «آري» في اللغات الآرية القديمة، ومنها السنسكريتية، تعني «السامي، النبيل»، كما أُطلق اسم «بلاد الآريين» على البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان.

● **الهضبة الإيرانية**: هي شبه المثلث الواقع بين وادي نهر السند شرقًا ووادي

دجلة غربًا، وتنبع أهميتها من كونها تصل آسيا الوسطى والشرق الأقصى بآسيا الغربية والشرق الأدنى.

● **فارس**: اسم «فارس» و«بلاد فارس» مشتق من اسم القبيلة الآرية الكبيرة التي استوطنت جنوب غرب بلاد إيران منذ الألف الأول قبل الميلاد كما مرّ، وورد اسم هذه القبيلة بصيغة «بَرْسا» *Parsa*، وهذا المصطلح كثير الورود في المصادر العربية والأوربية.

● **ميديا**: هي المنطقة التي استقرت فيها القبيلة الآرية الكبيرة الأخرى «ماداي» أو «مادي» *Madai* التي وفدت إلى البلاد التي عُرفت بعد ذلك باسم «كردستان»، وكما أنّ «إيران» هي تاريخيًا نتاج «فارس» فإنّ «كردستان» هي نتاج «ميديا».[1]

وهكذا فكردستان عريقة في التاريخ، وقد ظهرت الحياة البشرية على ربوعها في عهود سحيقة، إلى درجة أنّ قرية چَارْمو *Jarmo* الواقعة بين چَمْچَمال *Jamjemal* وسُليمانية (في جنوب كردستان) تعدّ من أقدم القرى في الشرق الأوسط؛ إذ كانت موجودة قبل حوالي ٥٠٠٠ ق.م. وفي سنة ١٩٤٩ م اكتُشفت في كهف «تَنْكي پَبْدا» *Tangi Pabda*، الواقع في جبال بَخْتياري إلى الشمال الشرقي من شُوشْتَر (تُسْتَر) بكردستان، بقايا إنسان عاش قبل حوالي مئة ألف سنة.[2]

وتقع كردستان في جنوب غرب قارة آسيا، في المنطقة التي تُعرف الآن بالشرق الأوسط، وتحدّها شمالاً هضبة أرمينيا، وتعدّ الأقسام الشمالية والشرقية من كردستان جزءًا من تلك الهضبة، أما أقسامها الشمالية والغربية فهي جزء من هضبة الأناضول غربًا، كما أنها تتصل بالأقسام الشرقية للهضبة الإيرانية، وأما من الجنوب فتجاور كردستان بلاد العرب. يقول مينورسكي (نشر كتابه عن الكرد سنة ١٩١٥ م):

«إذا أردنا أن نبحث عن وطن الكرد في فجر التاريخ يجب علينا أن ندخل في

---

(١) جيمس هنري برستد: **انتصار الحضارة**، ص٢٤٥-٢٤٦. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص١٤-١٥.

(٢) توما بووا: **لمحة عن الأكراد**، ص٩. عبد الرقيب يوسف: **حدود كردستان الجنوبية**، ص٢١. أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، صص٢١-٢٢. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 23.

الأقسام الشرقية البعيدة والجنوبية، فالمناطق الثلاث التالية هي موطن الكرد: السلاسل الجبلية العالية في أرمينيا، وكردستان تركيا، وجبال فارس الغربية. وهكذا نرى الكرد يعيشون في الوقت الحاضر على أرض واسعة عند حدود تركيا وفارس، من مدينة مَنْدَلي[1] حتى أرارات، حيث تتعدّى أرضهم حدودنا[2] فتدخل في قفقاسيا.

يعيش الكرد مع الأرمن في جميع أصقاع سلاسل جبال أرمينيا، وتنتهي حدودهم الشمالية في تركيا بمحاذاة أَرْضَروم، وفي الجنوب يسيطر الكرد على مناطق واسعة إلى نهاية سهول ما بين النهرين. وفي الغرب حدودهم نهر الفرات، أو بصورة أدق قَرَه صُو،[3] وإنهم لم يقفوا عند هذا الحدّ، وإنما أخذوا يزحفون إلى أعماق آسيا الصغرى، وإنهم لا يَشغلون المناطقَ الجنوبية- الشرقية من سِيواس فقط، وإنما هناك جماعات متفرقة منهم حتى حوالي قونيه في كيليكيا، وبهذه الصورة يصلون إلى البحر الأبيض المتوسط».[4]

تُقدَّر مساحة كردستان بحوالي مئتي ألف ميل مربع، أي ما يساوي مساحة فرنسا في أوربا ومساحة كاليفورنيا في أمريكا، وكردستان هي أرض الجبال والهضاب والأنهار، وهي لا تخلو من السهول، يقول توما بووا: «إنّ جبال طوروس وأرارات وسلسلة جبال زاغروس العظيمة تكوّن العمود الفقري للبلاد»، ويقول باسيلي نيكيتين: «ويمكننا التأكيد بوجه عام على أن الكردي والجبل لا ينفصل أحدهما عن الآخر».[5]

والحقيقة أنّ جميع أشكال الجبال العالية والصغيرة والجرداء والحراجية موجودة في كردستان، ويتراوح ارتفاعها بين ٣٥٠٠-٤٠٠٠ متراً، وقد يصل ارتفاع بعض

---

(١) شرقي بغداد.

(٢) روسيا القيصرية.

(٣) من روافد نهر الفرات في شمال كردستان (جنوب شرق تركيا).

(٤) مينورسكي: **الأكراد**، ص١٤-١٥.

(٥) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص٨٨. منذر الموصللي: **عرب وأكراد**، ص٥٧-٥٨.

انظر أيضاً: Mehrdad Izady: *The Kurds*, pp. 1, 2.

القمم إلى ٥٠٠٠ متراً، ومن أشهرها جبل أَلْوَنْد في الشمال الشرقي (إيران) وجبال أرارات (آغِري) في الشمال (تركيا) وجبال طوروس في الشمال الغربي (تركيا) وجبال زاغروس في الشرق.

وتمثّل جبال زاغروس الحدود الجغرافية الفاصلة بين هضبة إيران وبلاد الرافدَين، وتعرف جبال زاغروس أيضًا بجبال كردستان، وتعرف بعض أقسامها بلُورِستان، واللُّور فرع من الكرد، وتعرف أقسام أخرى بجبال بَخْتياري، وبختياري ينتمون في الأصل إلى الكرد، ولعلهم يعدّون الآن من الفرس، وكانت سلسلة جبال زاغروس مستقرّ السلالة الميدية، وتقع فيها عاصمة الميديين أَكْباتانا (هَمَذان)، وقد اتخذها الأخمين عاصمة لدولتهم قبل بناء عاصمتهم الجديدة برسيپوليس (إصْطَخْر).

ويقع في جبال زاغروس أهم ممرّين يربطان شرق آسيا بغربها:

- **أولهما** الممر التاريخي الذي يبدأ عند خانِقين ويمر بكِرْمَنْشاه ثم بهَمَذان ويطلّ من بعد على الهضبة الإيرانية، وقد أطلق عالم الآثار هرتسفيلد على هذا الممر اسم «بوّابة آسيا»، وهو معروف منذ القديم باسم «طريق الحرير».
- **ثانيهما** هو ممر حَلَبْجَه - پِنْجَوِين، ولعله فرع آخر من فروع طريق الحرير.(١)

وتنبع من أراضي كردستان معظم الأنهار الكبيرة في الشرق الأوسط (دجلة، الفرات، الزاب الأعلى، الزاب الأسفل، دِيالى، آراس)، وتكثر في كردستان المروج والغابات والفواكه وقطعان الماعز والأغنام والأبقار والخيول وكثير من الحيوانات والطيور والأسماك.

وليس باطن الأرض في كردستان أقل غنىً من سطحها، فهناك الفحم والحجر الجيري والملح الصخري والكبريت والحديد والنحاس والكروم والرصاص والذهب والفضة، ولا تفتقر كردستان إلى الثروة النفطية، فهي متوافرة في مناطق عديدة منها، ويقع أضخم حقولها في كركوك. وقد ذكر دياكونوف أنّ أرض ميديا (بلاد الكرد المركزية)، وتحديداً السفوح الغربية لجبال زاغروس (حيث تقع كركوك الآن)،

---

(١) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 28.

كانت أول منطقة في العالم تنضح بالنفط، ويقول: «وفي الأزمنة القديمة، حتى في أوربا، كانوا يسمون النفط «الزيت الميدي»».(١)

وكانت الثروة النفطية شؤمًا على الشعب الكردي بدلاً من أن تكون سبيلاً له إلى الرخاء والسعادة. دعونا، في هذا الصدد، نتأمل المعلومة الآتية التي يوردها كاتب عربي قومي هو هلال ناجي المحامي، حيث يقول: «المناطق التي يُستخرج منها النفط في كركوك جميعها مناطق كردية، وما عدا القرى الكردية وسكانها الكرد لم يكن فيها غيرهم حتى عام ١٩٦٣، حيث قامت الحكومة العراقية بترحيل المواطنين الكرد من قراهم على مرأى من أنظار الرأي العام العالمي، وأسكنت مكانهم العشائر العربية».(٢)

٤- انتشَار الكُرد

يسكن الكرد، منذ القديم، مناطق واسعة من غرب آسيا تشمل جنوب شرق تركيا وغرب إيران وشمال العراق وشمال سوريا ومناطق من أرمينيا وأذربيجان، ولا يوجد إحصاء دقيق لعددهم، لكنه لا يقل عن ثلاثين مليونًا، ولعله يقارب أربعين مليونًا.(٣)

وقد نقل أرشاك سافراستيان عن هيرودوت أنه كان يوجد محاربون قبليون من البُخْت *Bokhti* (بُخْتان = بُوهْتان) في جيش أَكْزَرْكيس (أَحْشَويرَش) الأخميني الذي غزا الإغريق، ولا غرابة في ذلك، فقد أقام الأخمين دولتهم على قواعد مملكة ميديا، وكان الميد شركاءهم في السلطة على الأقل في المراحل الأولى، لا سيّما على الصعيد العسكري، وسنقف عند هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصل الثالث.(٤)

كما ذكر هيرودوت وجود بَخْتيين *Pactyice* على حدود بلاد الهندوس، وقد

---

(١) أنطون مورتكات: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٣٦٧. دياكونوف: **ميديا**، ص٨٩، ٣١٤، ٣٤٣.

(٢) محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ ١٣.

(٣) محمد إسماعيل دَشْتي: **البلوش: تاريخ وحضارة**، ص٣٢٦ .

(٤) المرجع السابق، ص٣٦٤، ٣٦٨.

علّق أرشاك على ذلك قائلاً: «وهذا البيان يوضح أنّ تبعثر القبائل الكردية حتى الهند يجب أن يكون قد بدأ مع داريوس الأكبر».[١] ومن الطبيعي لدولة إمبراطورية كالدولة الفارسية أن تستعين بالقوة القتالية الكردية لغزو البلدان المجاورة، وكانت هذه عادة كلّ الإمبراطوريات التي حكمت كردستان، ثم لا ننسى أنّ بلاد الهندوس كانت تشمل باكستان المعاصرة، أي إنها كانت تتاخم مناطق النفوذ الميدي قديمًا.

ويؤكد المختصون في الشؤون الكردية، أمثال مينورسكي وروسو وسير مالكولم وهاسل وشرف خان بدليسي، أنّ ولايات لورستان وكَرْمَنْشاه (كَرْمَنشاه، قَرْمِيسين) وأَرْدَلان ومنطقة مُوكري (صاوْجِبْلاق = مَهاباد) ونصف القسم الجنوبي من أذربيجان هي مناطق كردية بحتة، كما أنّ القسم الأكبر من سكان قضاء خُوي وأقضية سَلَماس وأُورْمِيا وماكو في أذربيجان هم كرد، وتوجد عشيرة كردية كبيرة في إيالة طهران تدعى بازوكي، كما توجد في منطقة همذان عشائر جُوزَكان (جُوزَقان)، وفي مازَنْدِران عشيرة مُودانلو، وفي فارس (جنوب إيران) عشائر شوانكارو (شَبَنْكاره).[٢]

وتوجد بعض القبائل الكردية في بلوشستان[٣]، فثمّة قبيلة الكرد في سِنْجان التابعة لمدينة خاش، وفي ناحية زابِلي التابعة لمدينة سَراوان، ويقطن عدد منهم في مدينة شَيشْتان، وكان هؤلاء الكرد يمتلكون المناطق الحدودية لِبلوشِستان منذ القديم، وقد بلغ عددهم سنة ١٩٨٥ أكثر من ألف أسرة.[٤]

ومن أكبر القبائل الكردية في بِلوشستان قبيلة بِراخُوئي، وتسمى بالبُلوشِية بِراهُوئي، وطبقًا لإحصائية البروفوسور الروسي آندروف، سنة ١٩٨٠، تبلغ هذه القبيلة حوالي نصف مليون نسمة يسكن ثلثاهم في الجزء الباكستاني من بلوشستان ويسكن ثلاثون ألفًا في بلوشستان إيران، وهم على المذهب السنّي الحنفي. وقد ذكر مَرْدُوخ الكردستاني أنّ بين العشائر البُلوشية عشيرتين باسم ماماسني (مَمْسِني) تسكنان مرتفعات شرقي مدينة كازَرون في فارس (جنوب إيران)، تحملان لقب

---

(١) مينورسكي: **الأكراد**، ص١٥-١٦.

(٢) توما بووا: **لمحة عن الأكراد**، ص٨.

(٣) تقع بلوشستان في جنوب شرقي إيران وغربي باكستان، وهي مقسّمة بينهما.

(٤) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٨-١٠.

«رُسْتَمي»، نسبة إلى البطل التاريخي رُستم بن زال الذي ذكره الفردوسي في ملحمته **شاهنامه**، كما يسكن بعض الكرد في أفغانستان.[1]

وذكر مينورسكي أنّ الكرد يسكنون في أرمينيا (مقاطعة ييريڤان) في الأقسام التي تتصل بجبال أرارات، وفي منطقة زَنْگه زُور وجِوانْشَير في مقاطعة أليزابث پول، وتعيش أقلية كردية في خراسان (تتوزّع اليوم بين شرق إيران وشمال أفغانستان)، وقد قدّمت الفضائية الكردية *med tv* برنامجًا حولهم سنة ٢٠٠٢، فيما أذكر، وأجرت مقابلات مع بعض زعمائهم ومثقفيهم، كما عرضت مشاهد من تقاليدهم وأنماط حياتهم. وتوجد أقلية كردية في الأقسام الشمالية من قَزْوين (أمبرلو) وحوالي شيراز في خُوزِستان، إذ أجبرهم الحاكم الإيراني نادِر شاه على الهجرة قسرًا سنة ١٧٣٦-١٧٤٧م.[2]

وللكرد وجود في جمهورية أذربيجان وجمهورية جورجيا أيضًا، لسببين:

- **الأول** أنّ جورجيا (تسمّى في الكتب الإسلامية القديمة غُرْزان- جُرْزان- غُرْزستان) تتاخم المناطق التي يسكنها الكرد في أذربيجان، أو كانوا يسكنونها، ونقول: «كانوا»، لأنّ السوفييت في عهد ستالين فرضوا التهجير القسري على بعض العشائر الكردية في أذربيجان وربما في أرمينيا.
- **والثاني** أنّ بلاد فارس وكردستان وجورجيا وأرمينيا كانت تابعة، قبل الإسلام، للإمبراطورية الفارسية معظم الأحيان، وأخذت الدول الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي بمعظم التقسيمات الإدارية التي ورثتها عن الفرس، وأدى ذلك إلى أنّ شعوب المنطقة الممتدة بين بحر قَزْوِين شرقًا، والبحر الأبيض المتوسط غربًا، وجبال القوقاز شمالاً، والخليج العربي (الفارسي) جنوبًا، كانت كثيرًا ما تتجاور وتتداخل وتتفاعل وتتعايش.

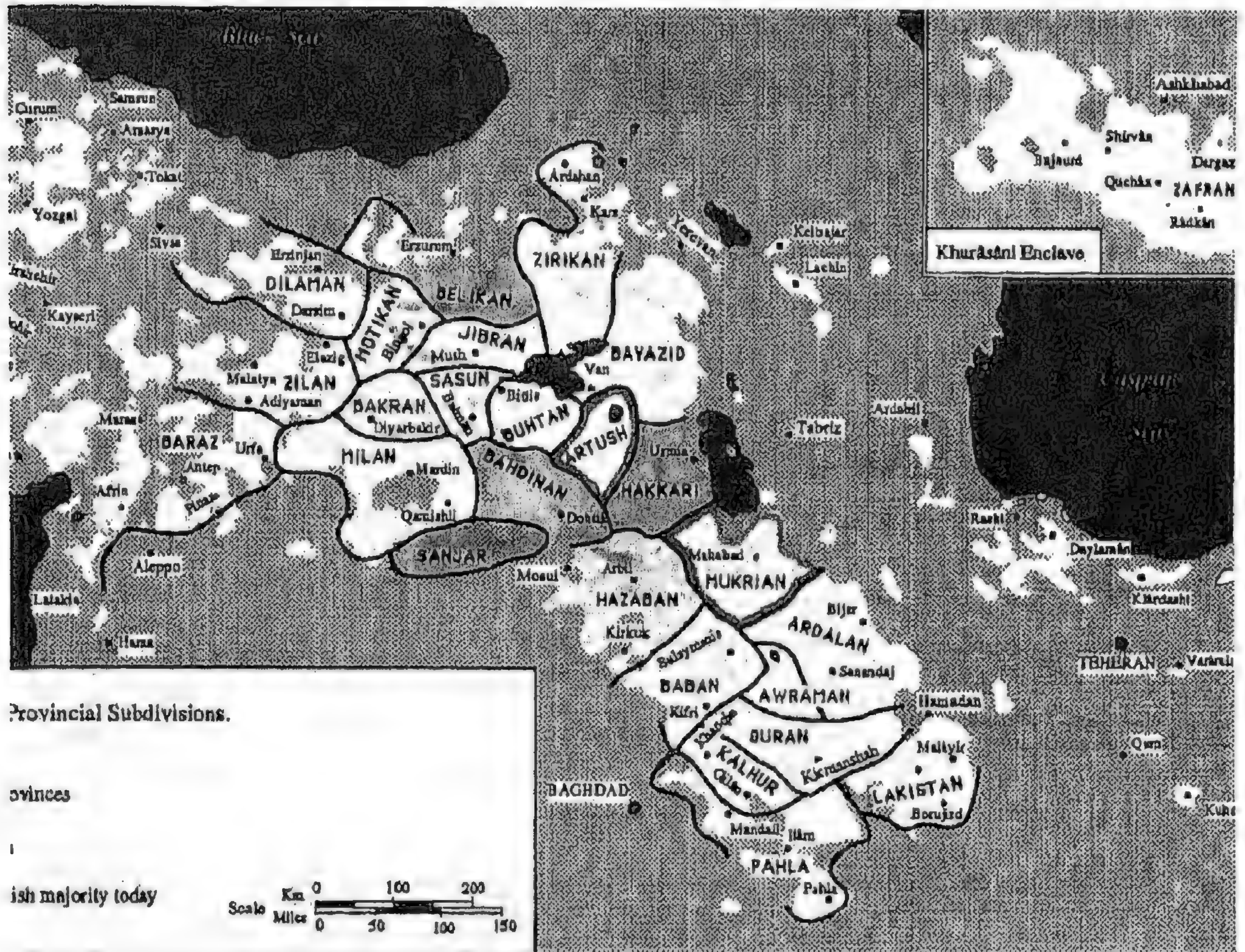
وثمّة أسرٌ كُردية هاجرت، في عهود سابقة، من مختلف مناطق كُردستان إلى مدن ومناطق داخل سوريا (دِمشق، حَماة، حِمْص، جبال الساحل السوري) وإلى

---

(١) المرجع السابق، ص٨ . منذر الموصلي: **عرب وأكراد**، ص٥٩-٦٢ . محسن محمد المتولّي: **كرد العراق**، ص١٩ .

(٢) مجموعة من الباحثين: **كركوك**، ص ١٠٢ .

الأردنّ وفلسطين ولبنان ومصر والسودان واليمن وشمال إفريقيا، وكانت هجراتهم إما لأنّ أجدادهم كانوا من المقاتلين خلال الحروب الفرنجية (الصليبية) في العهدين الزّنْكي والأَيّوبي، وإما لأنهم كانوا من الموظفين والمقاتلين في الدولة العثمانية، وإما طلباً للعلم، وإما هربًا من الغزوات والقهر.



موطن الكرد ومناطق انتشارهم

الفَصْل الثاني

كُردِستان المُجْتَمَع والثّقافة

(الشَّخصيّةُ- اللُّغةُ- الأدبُ- الدّينُ)

١- الشَّخصيّة الكُرديّة

مدخل:

في البدء دعونا نميّز بين نوعين من الشخصية:

- الشخصية الفردية (السلوك الفردي).
- والشخصية القومية (السلوك القومي).

وبطبيعة الحال من المستحيل أن يكون لأبناء الأمّة الواحدة جميعهم نمط واحد من السلوك، لكن، مع ذلك، تبقى مسارات سلوكية معيّنة هي الغالبة على شخصية هذه الأمّة أو تلك، وبذلك تختلف الأمم بعضها عن بعض، وأحسب أنّ الشخصية القومية لأمّة ما هي، من حيث الأصل، نتاج ثلاثة عوامل رئيسة متفاعلة ومتكاملة، هي:

- **العامل السلالي**: نقصد الجينات الوراثية وما ينجم عنها من خصائص فيزيولوجية وسيكولوجية.
- **العامل البيئي**: فالدراسات الخاصة بالجغرافيا البشرية تؤكد فاعلية هذا العامل في تكوين البشر، شكلاً وتفكيرًا وسلوكًا.
- **العامل الثقافي**: وهو من حيث النشأة نتاج العاملين السابقين، لكنه يصبح مع الأيام عاملاً شبه مستقل. وبقدر اهتمامنا بالجينات الفيزيولوجية في تمييز خصائص الشعوب ينبغي أن نهتم بالجينات الثقافية.

وأحسب أيضًا أنّ السلوك القومي للشعب الكردي يخضع في تكوينه لهذه العوامل الثلاثة، ولعلّ من الموضوعية -ونحن بصدد الشخصية الكردية- أن نميّز بين أمورٍ ثلاثة:

* **الأول:** نظرة كلّ شعب إلى نفسه.

● **الثاني:** نظرة الشعوب الأخرى إلى شعب ما.

● **الثالث:** خصائص كلّ شعب كما هي في الواقع.

لن نورد هنا نظرة الكرد إلى أنفسهم، فكلّ شعب من الشعوب ينظر إلى نفسه بقدر كبير من الاعتزاز، ويرى أنه الأنبل والأفضل والأنقى، ولنأخذ الغَجَر مثلاً؛ فهم في نظر الشعوب التي يعيشون بينها محطّ استصغار واحتقار، أما هم فينظرون إلى أنفسهم على أنهم العنصر الأرقى والأنبل والأطهر، وأنّ الشعوب الأخرى من صنف أقلّ شأنًا. ونكتفي هنا باستعراض آراء الآخرين في الكرد، سواء كان أولئك الآخرون متحاملين على الكُرد أم كانوا محايدين موضوعيين.

آراء متحاملة:

ليس كوني كُرديًا هو الذي جعلني أستخدم عبارة «آراء متحاملة»، وإنما لأني تتبّعتُ المُناخات الأيديولوجية والمنطلقات السياسية التي صدرت عنها تلك الآراء، وتبيّن لي بالأدلة القاطعة أنها آراء إمّا قاصرة صادرة عن رؤية ضيقة، تلقّفت عن غير وعي، وبسذاجة غريبة، ما روّجته جهات معادية للكُرد، وإمّا أنها تهدف إلى تشويه صورة الكُرد بكلّ وسيلة.

ونلمح أولى مظاهر تلك الحملة الشعواء على أجداد الكُرد (گُوتي، كاشّو، كُرْدُوخ) منذ أيام الأكّاديين والآشوريين. إنّ قادة تلك الإمبراطوريات المجاورة كانوا يغزون بلاد أسلاف الكرد، فيقتلون وينهبون ويدمرون، حتى إذا ما نهض أولئك الأسلاف في وجوههم، وعاملوهم بالمثل، كان الغزاة يسرعون إلى رميهم بأبشع الصفات.

وقد اغتصب الفرس الأخمين السلطة من الميديين حوالي سنة ٥٥٠ ق.م، وكان هاجسهم الأكبر على الدوام هو الخوف من عودة الميديين إلى سدّة الحكم، فنسبوا منجزات الميديين الحضارية إلى أنفسهم، واستغلوا قدرات الميديين العسكرية

في غزو البلاد المجاورة وفي تأسيس الإمبراطورية الفارسية من الهند شرقًا إلى أثينا غربًا، ولم يتورّعوا في الوقت نفسه عن إلصاق صفات الشرّ والمكر والخيانة بالميديين؛ هذا عدا عن أنهم حَرموا الكُرد من الحياة الحرة وحالوا بينهم وبين التطور الحضاري.

وتوارثت الأسر الفارسية الحاكمة ذلك الحقد الدفين على الكُرد، كما توارثت سياسة تغييب صورة الكُردي الشجاع عن صفحات التاريخ وأحلّوا محلها صورة الكُردي الراعي المتخلّف الجلف الجافي، حتى إنهم جعلوا لقب «كُردي» من الألقاب التي تقال في معرض التحقير؛ وخير دليل على ذلك أنّ الملك الأرشاكي أَرْدَوان عيّر خصمه، مؤسس الدولة الفارسية الساسانية أَرْدَشَير بن بابَك، بأنه «كُردي ترعرع في خيام الأكراد».

ولما بدأت الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي، وانهارت الدولة الساسانية، كان العنصر الفارسي متقدّمًا بأشواط كبيرة على العنصر الكردي، سواء على الصعيد الثقافي أم على الصعيدين السياسي والاقتصادي، فنقل الفرس إرثهم المعادي للكرد إلى داخل الثقافة الإسلامية، وابتلع بعض المثقفين المسلمين الطُعم، ويتجلى ذلك في ظاهرتين:

١ ـ **الظاهرة الأولى**: أنك قلّما تجد ذكرًا للكُرد في النصوص التي تتناول صفات خصائص الشعوب في كتابات الموسوعيين، أمثال الجاحِظ وأبي حَيّان التَّوحِيدي وغيرهم، وإنما يذكرون العرب والفرس والروم والترك والهند والصين، وأحيانًا غيرَهم، أمّا الكرد فلا، بل كثيرًا ما عدّوا الكُرد فرسًا تارةً وعجمًا تارةً أخرى. قال الجاحظ في كتابه **البيان والتبيين**: «وإنما الأمم المذكورون أربع: العرب وفارس والهند والروم»[(١)].

٢ ـ **والظاهرة الثانية**: أنّ المؤلفين إذا ذكروا الكُرد فإنهم يقدّمونهم بصورة منفِّرة، فهذا المسعودي مثلاً يذكر «فظاظة الأكراد»،[(٢)] وهذا الجاحظ يذكر في رسالة **مناقب التُرك** أنّ قبيلة هُذَيْل العربية هي «أكراد العرب»،[(٣)] ولا تتضح دلالة

(١) الجاحظ: **البيان والتّبيين**، ١/ ٨٧.

(٢) المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٢/ ١٢١.

(٣) الجاحظ: **رسائل الجاحظ**، ١/ ١٠، ٧١.

هذه العبارة إلا إذا عرفنا أنّ قبيلة هُذَيْل كانت من القبائل الفقيرة المقيمة في جبال الحجاز، وكان منها أكثر صعاليك العرب؛ ثم ها هو الجاحظ يكتب رسالة في **مناقب الترك**، ولا نراه يفعل ذلك بالنسبة إلى الكرد؛ ولعلّ وراء موقف الجاحظ أمران:

- **الأمر الأول**: أنّ الكرد لم يكونوا معروفين من قبل النخبة المثقفة في العصر العباسي سوى أنهم عصاة على الدولة، خارجون على سلطة الخلافة، مشاغبون، متمردون.

- **والأمر الثاني**: أنّ الجاحظ كان انتهازيًا «يعرف من أين تَؤكَل الكَتِف»، كما يقول المثل العربي، وكان من ممثّلي ثقافة السلطة، وكان الضباط الترك في عهده قد بلغوا مناصب رفيعة في البلاط العباسي، حتى إنّ الفَتْح بن خاقان كان وزير الخليفة المُعتصِم بالله، فكان من الطبيعي أن يتقرّب الجاحظ إليهم بهذه الرسالة، ولو عاش في العصر الأيوبي لكتب رسالة عنوانها **مناقب الكرد**.

وعلى الرغم من أنّ بعض المؤرخين والجغرافيين قد أشادوا بهذا العالِم الكُردي أو ذاك، لكنهم سرعان ما كانوا يرمون الكرد عامّةً بصفات ذميمة، ويصفونهم بأنهم جُفاة، قُساة، أشرار، ولنأخذ ياقوت الحَمَويّ نموذجًا؛ حيث تحدّث عن مدينة شَهْرَزُور الكُردية فقال: «إلاّ أنّ الأكراد في جبال تلك النواحي على عادتهم في إخافة أبناء السبيل وأخْذ الأموال والسرقة، ولا ينهاهم عن ذلك زَجْر، ولا يصدُّهم عنه قتلٌ ولا أَسْر، وهي طبيعةٌ للأكراد معلومة، وسَجِيّةٌ جِباههم بها مَوْسُومة، وفي مُلَح الأخبار التي تُكْسَع[١] بالاستغفار أنّ بعض المتطرّفين قرأ قوله تعالى: «الأكرادُ أشدُّ كفرًا ونِفاقًا» فقيل له: إنّ الآية تقول: «الأعرابُ أشدّ كفرًا ونفاقًا»، فقال: إنّ الله تعالى لم يسافر إلى شَهرزور فينظرَ إلى ما هنالك من البلايا المخبّآت في الزوايا».[٢]

ونجد ياقوت الحموي في الوقت نفسه يقول: «وقد خرج من هذه الناحية من الأَجِلّة والكُبَراء والأئمّة والعلماء وأعيان القضاة والفقهاء ما يفوت الحصرَ عدُّه، ويَعجز عن إحصائه النفَسُ ومدُّه، وحَسْبُك بالقضاة بني الشَّهْرَزُوري، جَلالةَ قدر

---

(١) تُمحى.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٣/ ٤٢٥-٤٢٧.

وعِظَمَ بيت وفخامةَ فِعل، وذِكْرِ الذين ما علمتُ أنّ في الإسلام كلِّه وليَّ من القضاة أكثرَ مِن عِدّتهم من بيتهم، وبنو عَصْرُون أيضًا قضاةٌ بالشام، وأعيانٌ من فرّق بين الحلال والحرام منهم، وكثيرٌ غيرُهم جدًا من الفقهاء الشافعية، والمدارس منهم مملوءة». [1]

وكأنّ من ذكرهم ياقوت الحموي من القضاة والفقهاء لم يكونوا كُردًا، والغريب أنّ ياقوت الحموي قد عاش بين سنتي ٥٧٤ أو ٥٧٥- ٦٢٦ هـ، وكان معاصرًا للدولة الأيوبية الكردية، وهي صاحبة الفضل في تحقيق الانتصارات على الفرنج في معركة حِطّين، سنة ٥٨٣ هـ، وفي معركة تحرير مدينة القدس، فكيف استطاع الكرد -وهم حسب زعمه أشرار وفاسدون- أن يقودوا العالم الإسلامي في شرقيّ المتوسط حينذاك، وينجزوا تلك الانتصارات الحربية، إلى جانب المكاسب الحضارية الكثيرة، لا سيّما الثقافية منها؟

ومع إطلالة العصر الحديث على غرب آسيا عمل فريق جديد لتشويه صورة الكرد؛ إنهم الرحّالة الأوربيون، فقد توجّه هؤلاء، خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلى بلاد العرب وكردستان وفارس والأناضول، وكانوا مبعوثين على الغالب من جهات سياسية أو تبشيرية، وقد أعطى بعضهم انطباعات غير طيّبة عن الكرد، فوصفوهم بعبارات مثل: رعاة، همجيون، لصوص، مزعجون، سفّاحون، إلخ، وثمة، على الأقل، عوامل أربعة أنتجت هذه الأحكام:

١- **العامل الأول:** أنّ السياسات العثمانية والصَّفَوية حالت دون مساهمة الكُرد في حركة الحضارة، ورمت بكُردِستان في الفقر والجهل والتخلف، ما جعل المجتمع الكردي، لا سيّما في الأرياف والمراعي الجبلية، يعيش حياةً فيها قدر كبير من البدائية، ومن الطبيعي أن تسود الخشونة حياةً كهذه، وأن يكثر اللصوص وقطاع الطرق، ولم يكلّف أولئك الرحالة أنفسهم أن يتساءلوا: لماذا وصل الكرد إلى تلك الحالة المُزْرِيَة؟

٢ - **العامل الثاني:** أنّ الكُرد كانوا شديدي التمسك بالدين الإسلامي؛ الأمر الذي جعلهم ينظرون بعين الريبة والنفور إلى الأوربيين، لا سيّما أنّ الدولة العثمانية

---

(١) المرجع نفسه.

كانت تخوض صراعًا مريرًا ضد أوربا، فصوّرت الأوربيين على أنهم «أعداء» للمسلمين، وأنهم «كفّار» و«نجسون»، ومن هنا جاءت خشونة بعض الكرد في التعامل مع الرحّالة الأوربيين.

٣ - **العامل الثالث**: أنّ معظم أولئك الرحّالة كانوا مبعوثين من جهات استعمارية وتبشيرية، وكانوا يصطدمون، من ناحية، بتعصب الكرد للإسلام ويقعون، من ناحية أخرى، تحت تأثير النخبة الكهنوتية في الطوائف المسيحية التي كانت تعيش بين الكرد، من أمثال بعض الأرمن والسريان والآشوريين، وكانت آراء تلك النخبة في الكرد سلبية على الغالب، بسبب الصراع على الجغرافيا ومشكلات التجاور، وكانت السياسات العثمانية، إلى جانب السياسات الروسية والأوربية، وراء إحداث الشقاق بين الكرد وجيرانهم المسيحيين.

٤ - **العامل الرابع**: أنّ هؤلاء الرحالة الأوربيين -وكان معظمهم واسع الثقافة- قد جاؤوا إلى الشرق وهم على علم بتفاصيل الحروب الفرنجية (الصليبية)، وكانوا يعلمون دور الكرد، قادةً وقبائل، في إلحاق الهزيمة بأجدادهم، ولا نستبعد أن تكون آراؤهم السلبية في الكرد صادرة عن تلك الخلفية التاريخية.

آراء محايدة:

في فترة ما قبل الإسلام كانت كلمة «كُردي» تعني بالفارسية القديمة «بطل، شجاع، باسل»، حتى إنّ من الشخصيات الإيرانية القديمة -من الرجال والنساء- من كان يحمل اسم «كُردي» و«كُردية»، وقد ذكر أبو حَنيفة الدِّينَوَري (ت ٢٨٢ هـ) ذلك في كتابه **الأخبار الطِّوال**. ففي معرض الصراع الذي قاده الملك الفارسي الساساني هُرْمُزْ بن كِسرى أنو شَرْوان ضد الترك نجده يستعين بقدرات بَهْرام شُوبِين (جُوبِين)، واليه على أذربيجان وأرمينيا، وذكر أنه كان لبَهرام جُوبِين أخ اسمه «كُرْدي» كان من ثقات كسرى أَبْرَويز بن هُرْمُزْد، وكانت له أخت اسمها «كُرْدِيّة»، وكانت كردية هذه أمّ الملك الفارسي جُوان شَير.[(١)]

أما في الإسلام، وكذلك في العصر الحديث، فلم نعدم باحثين امتازوا بدقة

---

(١) أبو حنيفة الدينوري: **الأخبار الطِّوال**، ص١٠٤، ١١١.

الملاحظة، ونفاذ البصيرة، وحسن التمييز بين الغَثّ والسمين، والتزام الموضوعية في الأحكام، والتمسك بالإنصاف في إصدار الآراء، ونسوق فيما يأتي ما قاله بعضٌ من هؤلاء في الكرد:

ذكر جلال الدين السُّيوطي (ت ٩١١ هـ)، في معرض حديثه عن خصال الشعوب، أنّ الله «جعل الغَيْرَةَ عشرةَ أجزاء، فتسعةٌ منها في الكرد وواحدٌ في سائر الناس». (١)

وقال الباحث الأرمني أبوفيان: «نستطيع أن نُطلق على الكرد لقبَ فرسان الشرق بكلّ ما في الكلمة من مدلول، فيما لو عاشوا حياةً أكثر تحضّرًا، ذلك أنّ الصفات والخصائص المشتركة لهذا الشعب تتلخّص في استعدادهم الدائم للقتال، واستقامتِهم وأدبِهم وإخلاصِهم المطلَق لأمرائهم، والتزامِهم الدقيق بكلامهم، وحُسنِ ضيافتهم، والثأرِ للدم المَهدور، والعَداوةِ القَبَلية التي تَنْشَب حتّى بين أقرب الأقرباء، والصبرِ على السلْب وقطْع الطريق، واحترامِهم غير المحدود للنساء». (٢)

وعلّق باسيلي نيكيتين على قول أبوفيان هذا بقوله: «إنّ السلبَ وقطْعَ الطريق لا يُعَدّان في مفهوم الكرد من الجرائم، بل من علائم الرجولة... ومع ذلك فهناك إجماعٌ شِبه كامل في الشرق على أنّ الكرد لا يُعاملون أسراهم تلك المعاملة القاسية التي يَلقاها الأسرى لدى التتار والتركمان والبدو العرب». (٣)

وتحت عنوان «**انطباعات عدد من المستشرقين عن الكرد: سون، بيندر، لوك، ويگرام، مينورسكي**» كتب باسيلي نيكيتين ما يلي: «يمتاز الكُردي باستقامته التي لا تتزعزع، وبحِفاظه على العهد الذي يقطعه، وعطفِه النبيل على أقاربه، وسلوكِه الإنساني -وبخاصة أكراد الجنوب والوسط- تجاهَ المرأة، أكثر من المسلمين الآخرين، وإحساسِه الشاعري، وحبِّه للأدب والشعر، ومسارعتِه إلى التضحية من أجل عشيرته، واعتزازِه العميق ببلاده وقوميته». (٤)

---

(١) جلال الدين السيوطي: **حُسن المحاضرة**، ص٣٣٧.

(٢) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص١٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٩-١٤٠.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٦.

وأضاف باسيلي نيكيتين قائلاً: «يتّصف الكُردي أيضًا بطبعه الحادّ وفَوَرانِه المفاجئ، ملتهِبًا بالحماس، وتلك صفةٌ ناتجة عن حياته المضطربة المَلأى بالمفاجآت، ولكنه في الوقت نفسه يتمتّع بروح المَرَح والدُّعابة إلى أقصى الحدود»[١].

وقالت مسز ستيوارث ارسْكين: «والكُرد شعب شجاع، يحبّ الحرية ويَتوق إليها، ولهم تقاليدهم ولهم لغتهم، ولهم من الحق في الحرية مثلُ ما لغيرهم، ولكن كان ينقصهم الاتفاق فيما بينهم. . . والإنكليز الذين خدموا مع الكُرد، وعملوا على تدريبهم في الحرب العامّة، كانوا يُجمعون على الإشادة ببطولتهم وجرأتهم وقوّتهم»[٢].

وقد عاش مِينُورِسْكي (ت ١٩٦٦م) بين الكُرد في العَقد الأول من القرن العشرين، واطّلع على عاداتهم، ووصفهم عن قرب ومعرفة، فاستشهد ببعض الأحداث التي تدلّ على اتصافهم بالشجاعة والبسالة وعدم الخمول، وتناول بالبحث أثر الطبيعة الكُردِستانية في حيوية الفكر الكردي، إضافةً إلى ما يتصف به الكرد من حبٍّ للمزاح وحدّةٍ في المزاج إلى درجة التهور[٣].

وقال باسيلي نيكيتين: «ويُجمع الباحثون على الإقرار بأنّ الكُردي يتمتّع بذكاءٍ حادّ وفَهم سريع، حتى في الميادين التي لمّا تصبح بعدُ مألوفةً بالنسبة إليه؛ كالميكانيك الذي أثبت أنه عامِل مثاليٌّ فيه، ولا سيّما في مشاريع استخراج النفط»[٤].

وجاء في تقرير لجنة التحقيق الدولية التابعة لعُصبة الأمم حول رسم الحدود بين تركيا والعراق سنة ١٩٢٤: «الكُرد قوم محاربون أشدّاء، لا يُخفِضون جَناح الذُّل لأحد، متفرّقو الكلمة، لا وحدةَ تجمعهم، ومع ذلك استطاعوا أن يتعايشوا بوئام وحُسن جوار مع الأقوام الأخرى التي تقطن بلادهم»[٥].

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٧.

(٢) مسز ستيوارث ارسكين: **فيصل ملك العراق**، ص١٦١-١٦٢.

(٣) مينورسكي: **الأكراد**، ص٦٧-٧٠.

(٤) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص٢٦.

(٥) جرجيس فتح الله: **يقظة الكرد**، ص٥٧٢.

وقال جُرْجي زَيْدان يصف الكُرد: «فيهم الشجاعةُ والنَّجْدةُ والحَمِيّة، فرسانُهم ورَجّالاتُهم، وهم متعصّبون لبعضهم على كلّ حال، كما تفعل العرب في بعض الأحوال، وينقادون للديانات والأمانات، وربما كان فيهم غدرٌ في بعض الأوقات، ولا يكون سببُه إلا التعصب والحَمِيّة».(١)

وقال الدكتور فَهْمي الشِّنّاوي: «طوال تاريخهم لم يتلوّثوا بالتهاون ولا التحالف ولا التفاوض مع العدوّ، ولا اتُّهموا بإخفاء تمسّكهم بالإسلام، ولا رضوا لأنفسهم مغانمَ الحكم والقصور والسفارات، ولم يعرفوا المساكنةَ والمداهنة. إنهم يسمّون بلدهم بلاد الشجعان، هكذا يُطلق عليهم المؤلفون الغربيون، ولو أنصفنا لقلنا: كُردِستان بلاد الشهداء، فهم على مدى التاريخ شهداء الإسلام».(٢)

وقال مُنذِر المُوصِلّي: «لو قلنا بأنّ الأكراد والجبال لا يفترقان يصحّ القول أيضًا بأنّ الأكراد والسلاح لا يفترقان... يحبّ الكُرديّ سلاحَه ويحرص عليه ويهتمّ به ويهيم به، فالسلاح قطعة من نفسه وجزءٌ من هِندامه وشجاعته».(٣)

ونحسب أنّ هذا الحرص على ذكر الجوانب المضيئة في الشخصية الكردية هو تعبير عن المفاجأة، وردُّ فعل على ما أُلصق بالشخصية الكردية من سلبيات عبر التاريخ؛ لأنه كان من جملة فصول المؤامرة الكبرى والمعقَّدة على الكرد، بقصد رسم صورة قاتمة لهم، وتصويرهم على أنهم شعب من المتوحّشين وقطّاع الطرق وقساة القلوب.

وما أوردناه -وثمّة كثير مما لم نورده- حول الإشادة بخصال الكُرد إنما يدخل في السلوك التاريخي للشعب الكردي، ولا يعني البتّة أنّ الكرد هم «شعب الله المختار»، وأنّ سائر الشعوب ينبغي أن يتعلّم منهم رفيع الخصال وفضائل الأخلاق. وليس من الموضوعية أن نرسم صورة مثالية وغير واقعية للشخصية الكردية، فالكرد، مثل سائر الأقوام والشعوب، فيهم الصالح والطالح، والمحسن والمسيء، والنبيل والوضيع، والحكيم والطائش، ولا ننسى أنّ خضوع المجتمع الكردي

---

(١) جرجي زيدان: **علم الفراسة الحديث**، ص١٤٧.

(٢) فَهمي الشِّناوي: **الأكراد يتامى المسلمين**، ص٧٢-٧٣.

(٣) منذر الموصلي: **عرب وأكراد**، ص٣٩٧-٣٩٨.

لمؤثّرات ثقافية واقتصادية ولتيارات أيديولوجية مختلفة قد ساهم في زحزحة بعض القيم الكردية الأصيلة وتغييبها، وأحدث شرخًا في السلوك الفردي لبعض الكرد، وخاصّةً أولئك الذين اضطرّوا إلى العيش في المَهاجر.

مآخذ على الكُرد:

الحقيقة أنّ القيم النبيلة والخصال الأصيلة التي لاحظها الباحثون في المجتمع الكُردي ما زالت حيّة -مع اختلاف في المستويات- عند كثيرٍ من الكرد، لكنّ ظروف القهر التي فُرضت على الشعب الكردي خلال قرون طويلة أفسدت بعضهم واخترقت منظومتهم الخُلقية. وأكثر ما يؤخذ على الكرد -خاصّةً العلماء والمفكرين والأدباء والساسة- طوال تاريخهم المليء بالكوارث والفواجع، صفات أربع عجيبة هي:

١ - **نكران الذات**: يتفانى الكُردي في خدمة الآخرين إلى درجة أنه يَذْهل عن نفسه ومصيره وعن شعبه ومستقبله، ولا ريب في أنّ نكران الذات سلوك إنساني رائع، لكن ما يبعث المرارة في النفس، والحزن في القلب، والدهشة في العقل، أنّ بعض مشاهير الكُرد -دعك من عامّتهم- لم يتردّدوا في التضحية بمصالح شعبهم في سبيل تحقيق مصالح المتسلّطين على رقاب الشعب الكردي، بل إنّ بعض الكُرد لم يتورّعوا عن قمع أبناء قومهم إرضاءً للإمبراطوريات التي حكمت كُردِستان، وحسبُنا مثالاً على ذلك سليمان نَظِيف، فهو معدود من الشعراء الترك المُجيدين ومن الكتّاب البارزين بالتركية، على الرغم من أنه قد ولد سنة ١٨٦٨ من أب وأمّ كرديين في ديار بكر، لكنه تخلّى عن لغته الأم وعن اسمه الكردي «وَنْدگار»، واتخذ اسم سليمان نظيف، وأصبح عضوًا متحمّسًا في جمعية الاتحاد والترقّي الطورانية، وعُيّن واليًا على الموصل سنة ١٩١٣، ثم واليًا على بغداد، وفي الموصل جرّد حملة عسكرية على منطقة بارْزان، وألقى القبض على الشيخ عبد السلام بارزاني، وأسرع بإعدامه دون انتظار وصول قرار الموافقة على تنفيذ الحكم من العاصمة إستانبول.

ومثال آخر هو ضِياء كُوك أَلْب، فاسمه محمد زِيا (ضِيا)، وقد وُلد في ديار بَكْر سنة ١٨٧٦، وينتمي إلى كُرد زازا، لكنه تترّك وهجر اسمه السابق وتسمّى باسم كُوك أَلْب، وهو اسم تركي، وكان يحتقر المجتمع الكُردي الريفي، فانتُخب عضوًا

في لجنة الاتحاد والترقّي العليا، وقد بسط نظريته حول الپان-طورانية في كتابه **مبادئ التركية** عام ١٩٢٠، ويقول فيه: «لا أتردّد في القول إني تركي، حتى لو اكتشفتُ أنّ جدّي من أصل كُردي أو عربي، لإدراكي من دراساتي الاجتماعية أنّ أساس القومية الوحيد هو التربية والنشأة». (١) وما أكثر الشواهد في هذا المجال قديمًا وحديثًا!

٢ - **النزعة الفردية والقَبَلية**: ينزع الكُردي بشدة إلى الفردية والقَبَلية، وهو كثير الانشغال بالصراعات الداخلية، ويرفض الانضواء تحت لواء غيره من الكُرد، وكم من ثورة كردية قديمًا وحديثًا انتهت إلى الفشل بسبب الانسياق مع النزعتين الفردية والقبلية!

ويكفي دليلاً على الضرر الذي ألحقته الفردية والقبلية بالكرد أنه في الوقت الذي كان يسعى فيه شريف باشا (ضابط ودبلوماسي كُردي كبير من السليمانية)، بُعيد الحرب العالمية الأولى، إلى إقناع الدوائر السياسية الإنكليزية والفرنسية بالموافقة على إنشاء كُردِستان مستقلة، كان كثير من زعماء الكرد -بتوجيه من الساسة الترك- يرسلون البرقيات إلى تلك الدوائر يستنكرون فيها جهود شريف باشا، ويعلنون تمسّكهم بالبقاء مع «إخواننا في الدِّين»؛ أي الأتراك الذين كان يقودهم أتاتورك وأصحابه الپان-طورانيين.

٣ - **سلامة الطَّوِية**: الكُردي- بشكل عام- سليم الطويّة في التعامل مع الآخرين وحَسن الظن بهم إلى درجة الغَفلة والسَّذاجة أحيانًا، وبالطبع إنه أمر رائع أن يكون المرء سليمَ الطَّوِيّة حسنَ الظن بالآخرين، لكن إذا زاد الشيء عن حدّه انقلب إلى ضده، وقد قال عمر بن الخَطّاب ذات مرةً: «لستُ بالخِبّ، ولكنّ الخِبّ لا يخدعني»، والخبّ هو الخدّاع.

ولو اقتصرت خصلة سلامة الطّويّة على عامّة الكُرد لكان الضرر يسيرًا، لكنّ المشكلة أنّ كثيرًا من قادة الكرد وساستهم لم يستطيعوا التخلّص من تبِعات سلامة الطَّوِيّة، ودفعوا حياتهم ومستقبل شعبهم نتيجةً لذلك، ونحسب أنّ هذه الصفة هي

---

(١) جرجيس فتح الله: **يقظة الكرد**، ص٥٦-٥٧، ٢٨٨-٢٨٩. زاريوانت: **طورانيا الموحدة المستقلة**، ص٤٤-٤٦.

التي أنتجت المقولة الشهيرة الدارجة في معظم بلدان الشرق الأوسط «هل تَسْتَكْرِدُني؟!»، وقد سمعتُ هذه العبارة من أصدقاء عرب في سوريا وفلسطين ومصر؛ وهي تعني: هل تعدّني ساذجًا بسيط التفكير سليم الطويّة أحمق مثل الكردي؟!

وعندما يتمكّن الكُردي من التمييز بدقة بين سلامة الطَّوِيّة والسَّذاجة والحَماقة يغدو من الصعب اللعب به وتسخيرِه لخدمة أغراض الآخرين على حساب مصيره ومصير أمته، ونعتقد أنّ نجاحَ صلاح الدين الأيوبي في تأسيس دولة كبرى خارج كُردِستان، وانتصارَه في صراعاته الإقليمية وحروبه ضد الفرنج، كان نتيجة قدرته على التفريق بين سلامة الطّويّة والسذاجة والحماقة.

٤ - **الصراحة الفائقة:** تلك خصلة أخرى ابتُلي بها الكُرد، فالكردي حادّ المزاج، سريع إلى مواجهة من يستهين أو يَمْكُر به مواجهةً مباشرة، لكن دون دراسة هادئة للنتائج، وهو لا يجيد المناورات والمراوغات السياسية في مواجهة خصومه، كما يفعل كثير من قادة الشعوب وساستهم في هذا العالم، أضف إلى هذا ردود أفعاله الارتجالية، وإقدامه على المغامرة بكلّ شيء عند الغضب، وعدم قدرته على إخفاء ما يُضمرونه، وتمسُّكه بالنُّبل في مواقف لا تفيد فيها إلاّ المداراة والمناورة، لا سيّما في مواجهة أشخاص اتخذوا المكيافيلية فلسفة والپراغماتية منهجًا.

٢- اللُّغة الكُردية والأدَب الكُردي

أولاً: اللغة الكُردية:

ذكر مينورسكي -وهو ممّن عرف الكُرد عن قرب- أنّ اللغة الكردية من عائلة اللغات الإيرانية، وتتكوّن هذه العائلة من اللغات الفارسية والأفغانية والبُلوشية والأَسيتينية ومن لهجات أخرى قديمة وحديثة، واللغة الكردية ليست محوَّرة عن الفارسية كما يُزعَم، وإنما هي لغة مستقلة لها قوانينها الفونيتيكية والسينيتكية الخاصة.[١]

---

(١) مينورسكي: الأكراد، ص٣٧.

يقول باسيل نيكيتين: «أسهم كبار علماء اللغة في ذلك الوقت، من أمثال روديجير وبوت، بوَساطة علم اللغات المقارَن، في دَحْض الفكرة القائلة باحتمال انحدار اللغة الكُردية من الكِلْدانية، وأظهروا علاقتَها باللغة الفارسية الحديثة واللغة الزَّنْدية التي هي لغة مشتركة بينهما؛ وبذلك ثبت علميًا، وبصورة نهائية، النظريةُ القائلة بانتماء اللغة الكُردية إلى مجموعة اللغة الإيرانية». [1]

والكُردية من أكثر اللغات الآرية نقاءً، وتؤكّد الحقائق الإثنوغرافية والجغرافية والفيلولوجية والتاريخية والقرائن الاجتماعية أنّ لهجة عشيرة مُوكري الكردية في مقاطعة صاوْجِبْلاغ (مَهاباد) بشرق كُردِستان (في إيران) هي النسخة الأنقى للغة الكُردية، وتأكّد أنّ النبي الآرياني زَرْدَشْت الذي كان يتكلم اللغة الميدية قد ولد في ميديا المعروفة الآن بمقاطعة مُوكري، وأنّ لغة زَرْدَشْت في زَنْد أَفَسْتا قريبة جدًا إلى اللهجة المُوكرية الحالية.

وتفيد الدراسات اللغوية أنّ اللغة الكُردية قد حافظت على علاقاتها الوثيقة بأصلها الآري أكثر من جارتها اللغة الفارسية الحالية، وهي غير الفارسية ومستقلة عنها، ويظهر الفرق البارز بين هاتين اللغتين تقريبًا في خمسة وجوه هي: التلفّظ والبِنية والصيغة وقواعد الصرف وقواعد النحو؛ لكنّ هذا لا ينفي تأثر اللغة الكُردية ببعض الكلمات الفارسية والتركية والعربية والآرامية والأرمنية، وهناك أكثر من دليل على تأثير اللغة الكردية في هذه اللغات أيضًا، لا سيّما على الصعيد اللفظي.

والحقيقة أنّ الألفاظ الكردية وبعض صيغها التعبيرية أكثر وضوحًا في العامية العراقية والسورية، وكذلك في العامية التركية، ولا غرابة في هذا التأثّر والتأثير، إذ من الطبيعي أنّ تتفاعل وتتلاقح اللغات التي يتجاور الناطقون بها، هذا إضافةً إلى أنّ كثيرًا من الأُسر الكُردية تعرّبت وتتركّت وتفرّست رويدًا رويدًا، فأدخلت إلى العاميات العربية والتركية والفارسية كلمات وصيغًا كُردية. وتتألف اللغة الكُردية حاليًا من أربع لهجات رئيسة، هي:

١ - **اللهجة الكُرْمانجية**: يرى بعض الباحثين أنها فرعان:

أ - الكُرْمانجية الشمالية: وهي هي أوسع اللهجات الكُردية انتشارًا في الوقت

---

(١) باسيلي نيكيتين: الكرد، ص٥٠.

الحالي، ويتكلّم بها الكرد في جنوب شرقي تركيا، وفي منطقة القفقاس، وفي شمال شرقي إيران، وكرد محافظة دَهُوك في إقليم كُردِستان- العراق، وفي سوريا.

ب - الكُرْمانجية الجنوبية: تسمى السُّورانية (الصُّورانية)، ويتحدث بها الكرد في مناطق إربيل وسليمانية.

٢ - **اللهجة الگُورانية**: تنقسم إلى:

أ - اللهجة الگُورانية (المُوكَرية): تسود في المناطق الممتدة من جنوبي بحيرة أُورْمِيا إلى جنوبي سَقِز، وتسود أيضًا في المناطق المتاخمة لها في إقليم كُردِستان- العراق.

ب - اللهجة البابانية: تسود بين كرد محافظات سليمانية وإربيل وكركوك ودِيالى.

٣ - **اللهجة اللُّورِيّة**: هي لهجة مدينة سليمانية في كُردِستان الجنوبية ولهجة مقاطعة مَهاباد (صاوْچِبْلاغ) في كُردِستان الشرقية، وتنتمي لهجتان فرعيتان إلى هذه اللهجة، هما: اللُّورية في لُورستان الصغرى، والبَخْتيارية في لُورستان الكبرى (بلاد الفَيْلي).

٤ - **لهجة زازا**: هي لهجة خاصة بفرع (دُمُلي- دِمِلي- دُنْبُلي) في مناطق دَرْسِيم في كُردِستان الشمالية (في شرق تركيا).(١)

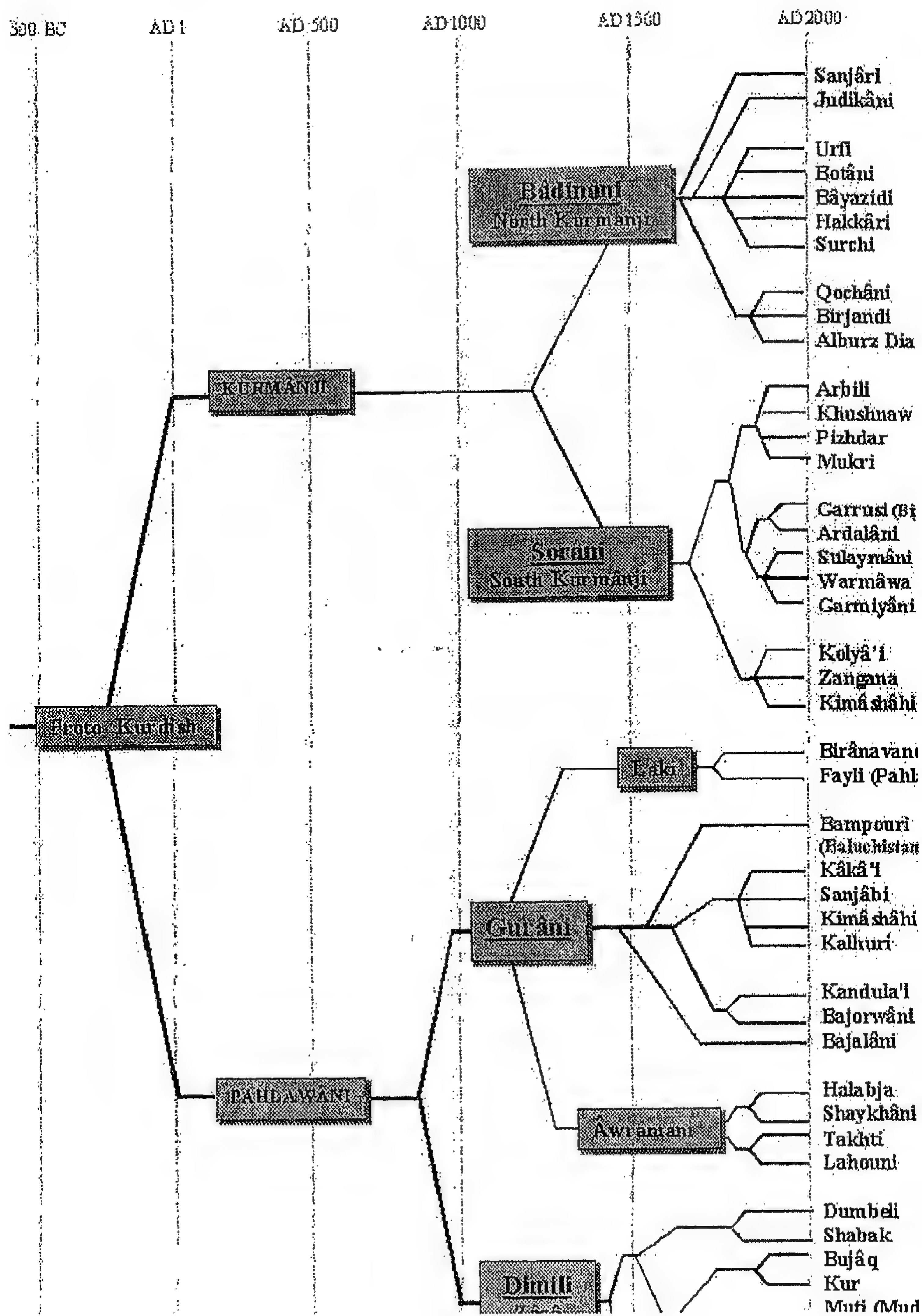
وثمة تصنيف آخر أورده الدكتور مِهْرداد إيزادي تظهر فيه اللغة الكردية مؤلفة من لهجتين رئيستين، وتتفرّع سائر اللهجات منهما، وهما:

أ - الكُرمانجية: وتندرج تحتها اللهجة البَهْدينانية واللهجة السُّورانية.

ب - البَهلوانية: وتندرج تحتها اللهجة الگُورانية ولهجة دِمِلي (زازا).

---

(١) منذر الموصلي: **عرب وأكراد**، ص٣٠٣-٣٠٥.



اللهجات الكرديّة

وقد تقرر اعتماد اللهجة الكُرمانْجِية الجنوبية (السُّورانية) منذ أكثر من نصف قرن لغةً للتعليم الرسمي في كُردِستان الجنوبية، وتُعدّ اللهجة الكُرمانجية لغةَ الثقافة بين الكرد في تركيا وسوريا وأرمينيا وفي بقية مناطق القفقاس. وبطبيعة الحال إنّ تقسيم كُردِستان حال -وما زال يحول- دون سيادة لهجة واحدة في جميع أنحاء كردستان، وانعكس ذلك على الحروف التي تُكتب بها اللغة الكردية؛ فهي الحروف العربية عند الكرد في العراق وإيران، والحروف اللاتينية عند الكرد في تركيا وسوريا وأرمينيا.

ولا شكّ في أن لكلّ لغة خصوصيتها الصوتية والدلالية، ولها جماليتها، وقد تتفوّق لغة ما على غيرها في جانب معيّن، وبخصيصة معيّنة، أمّا الحكم بالتفوّق المطلق للغةٍ ما على سائر اللغات فأمر يحتاج إلى مزيد من التروّي، ولا يخفى أنّ لخصائص اللغات علاقة وثيقة بالبيئات الأصلية التي نشأت فيها، كما أنّ المراحل الحضارية التي يجتازها شعب ما، خلال تاريخه، تجعل لغته أكثر خصوبةً ومرونةً وحيويةً، وتكسبها القدرة على الجديد من المفاهيم والمصطلحات والعلوم وبقية فروع الثقافة.

واللغة الكُردية غنية بصوتياتها، غزيرة بألفاظها، مرنة وقابلة لتوليد عبارات وتراكيب جديدة، ولها القدرة على مواكبة الحالات الشعورية المختلفة، والتعبير عن أدقّ الأفكار، وقد لمست هذه الخصائص حين ترجمت ملحمة مَمْ وزِين *Mem u Zin* الشعبية من الكردية إلى العربية، وكذلك حين قرأت منذ سنوات ديوان الشاعر الكردي ملا أحمَدَى جِزيري وبعض دواوين الشاعر الكردي جَگَرخِين ونتاجات أدبية لأدباء كرد آخرين.

ولا بدّ من البحث في الصلة بين لغات الشعوب وبيئاتها الطبيعية، وعلى ضوء ذلك يمكن تفسير الغنى الصوتي والدلالي في اللغة الكردية، فكُردِستان موطن التنوّع؛ حيث الجبال الشاهقة والمتوسطة الارتفاع والهضاب والوديان العميقة والسهول الفسيحة والضيقة والأنهار والينابيع والجداول والأشجار والأزاهير والمروج والحيوانات الأهلية والوحشية والأطيار والفصول الأربعة. وإنّ الملاحم الكُردية الشهيرة، مثل «مَمْ وزِين» و«فَرْهاد وشَيرِين» و«دَوْريش» و«سِيامَنْد» وغيرها، تعكس بدقة بصمات هذا التنوع الجمالي البيئي في اللغة الكردية.

ثانيًا: الأدب الكُردي:

نقصد بالأدب الكُردي هنا ذلك الأدب الذي أنتجه أدباء كُرد باللغة الكُردية، وهو ينقسم إلى نمطين: الأدب الشعبي والأدب الفصيح. ونُلقي فيما يأتي إضاءات سريعة على كلّ نمط؛ مستعينين بما أورده باسيلي نيكيتين حول كل منهما في كتابه الكُرد:

١- الأدب الشعبي: الأدب الشعبي (الفولكلور) عند الأمم قديم قِدَمَ الأمة ذاتها، وهو يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، وتمتزج فيه الأسطورة بالواقع، وكذلك هو شأن الأدب الشعبي الكردي أيضًا، والأمر الذي حيّر نيكيتين وغيره بخصوص الأدب الشعبي عند الكرد هو «نضج الفولكلور الزائد عن الحد»، على حدّ تعبير البروفيسور فيلجيفسكي، وقد فسّر فيلجيفسكي هذه الغزارة اللافتة للنظر في الفولكلور الكردي «بانتشار الأُمّية التامة تقريبًا بين هذا الشعب، وعدم تمكّن أبنائه من القراءة والكتابة بلغتهم الأم (اللغة الكردية)».[1]

ومن أبرز أنواع الأدب الشعبي الكُردي قصائد ملحمية طويلة تُغنَّى عادة في الليالي، ولا يعرف أحد زمن تأليفها، ولا من بدأ بتأليفها وإنشادها، وهي تدور في مجملها حول الحب والحرب، وشخصياتها الرئيسة في الغالب من الطبقات العليا، ومنها ملحمة **مَمى آلان** الشهيرة، وهي النسخة الشعبية لملحمة **مَمْ وزِين** للشاعر الكردي الكبير أحمدَى خاني. وثمّة نوع آخر من الفولكلور الكردي يسمّى بالكردية «لاوُوك»، ويتألف من أشعار غنائية قصيرة يجري الحديث فيها حول الأحلام والأماني التي يتبادلها العاشقان عندما تضطرهما الظروف إلى الافتراق.

وإنّ الأدب الشعبي الكُردي بنوعيه (الملحمة واللاّوُوك) يصوّر بدقة ما في واقع الجماهير من مسرّات ومشكلات ومنغّصات، ويمتزج ذلك كله بوصف الطبيعة في مختلف الفصول، وبما في المجتمع من صراعات وحروب، ومن مُثل عليا وقيم سائدة، سواء أكانت قيمًا دينية أم أخلاقية أم جمالية، كما أنّ فيه نصيبًا وافيًا للخرافات والأساطير، والإيمان بالجنّ والعفاريت، وهذا الأدب الشعبي أكثر صدقًا من الأدب الفصيح في التعبير عن الشخصية الكردية الشعبية، وأقدر على الإفصاح

---

(١) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص٣٩٢.

عن خصائص الكرد عامة، وها هو ذا فتى عاشق يخاطب حبيبته قائلاً:

«تعالي، لا تذهبي، لا تنسِيني.
انقشي اسمي على الخاتَم الذي في إصبعك.
وعندما تسافرين إلى ديار الغربة
خفّضي رأسك ثلاثَ مرات كلَّ يوم كما يفعل (القضاة)
واقرئي اسمي المنقوش على خاتَمك.
لا تحزني، فالحزن شيء سيّئ.
وفي مكان الأزهار ينبغي أن تنبت الأزهار.
وايْ لَي لَي... وايْ لَي لَي... آيْ لي دلال»![1]

وها هي ذي فتاة عاشقة تخاطب حبيبها قائلةً:

«أُوه يا عزيزي! أنا لست طائشة؛
لستُ قصيرة القامة ولا طويلتها.
ها أنت تراني بقِلادتي المِرجانية
ودَبّوس صدري المرصَّع بالذهب وأقراطي المُجَلْجِلة.
أنا لا أَحني هامتي لفتيان هذه الديار الشجعان
إلا إزاء مَهر غالٍ جدًا،
أما لشابٍّ وسيم مثلك فلن أكون أسيرة النقود.
لَى آمان!... لَّى آمان!»[2]

وجاء في ملحمة **مَمَى آلان** الشعبية وصف مَمْ وهو يلعب الشِّطرَنْج مع أمير جزيرة بوتان:

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠٠-٤٠١.

(٢) المرجع السابق، ص٤١٠-٤١١.

«أدركَ المشاهدون براعة مَمْ في اللعب،
ولم يكن الأمير قادراً على التصدّي له.
هاجم مَمْ جنود الأمير بالرمح والدبوس؛
فألحق الهزيمة بالصف الأول، وتقدّم على الجناحين،
وأرغم الفرسان على التخلّي عن الخيول،
ورمى بالمشاة تحت أقدام الفيلة،
واقتحم الأبراجَ والحصون، وافتتحها عَنْوة،
وهاجم الشاهَ من كل الجهات، وأَسَره».

٢- الأدب المكتوب (الفصيح): الآثار الأدبية الكُردية المدوَّنة القديمة قليلة بالقياس إلى تاريخ الكرد الطويل وأعدادهم الغفيرة، ولا يعود ذلك إلى عجز الكرد على الصعيد الإبداعي والجمالي، وإنما وراء ذلك أسباب موضوعية عديدة أبرزها، فيما أرى:

أ - **السبب الأول**: افتقار الكرد، منذ سقوط مملكة ميديا عام ٥٥٠ ق.م وحتى هذا اليوم، إلى حكومات وطنية قومية مستقلة ترعى اللغة الكردية، وتهيّئ المناخ لتطوّر الثقافة الكردية، وتشجّع على إنتاج أدب وطني بلغة الكرد. على سبيل المثال، ألّف الشاعر الفارسي أبو القاسم الفِرْدَوْسي (٩٣٥-١٠٢٠م) أوّل كتاب قومي فارسي **شاه نامَه** باللغة الفارسية في القرن ٤هـ/ ١٠م، بتشجيع من حكّام الدولة السامانية ذوي التوجّهات الفارسية القومية، في حين أنّ الأمير الكردي شرف خان بدليسي (١٥٤٣-١٦٠٤م) ألّف أول كتاب عن تاريخ الكرد القومي **شَرَف نامَه** باللغة الفارسية، بتشجيع من الشاه الصَّفَوي عبّاس الكبير، لتحريض الكرد ضد العثمانيين.

ب - **السبب الثاني**: إنّ الدول والإمارات الكردية التي ظهرت في مختلف مناطق كُردِستان، بدءًا من القرن ٣هـ/ ٩م - نقصد الدول: الرَّوادِية والبَرْزَيكانية والشَّدادية والدُّوستكية والعَنازية والأيّوبية، إلخ- لم تكن لها توجّهات قومية على الصعيد الثقافي، وإنما كانت تستظلّ بلواء الثقافة العربية الإسلامية على الغالب، فكانت معظم المؤلفات تصاغ باللغة العربية، وأحياناً بالفارسية.

ج - **السبب الثالث**: إنّ سياسات التهميش الاقتصادي التي مارستها الجهات

الإقليمية إزاء الكرد في مختلف المراحل، منذ العهد الأخميني، حوّلت الغالبية العظمى من الكرد إلى العيش وفق النمط الرعوي والزراعي، وجعلتهم منعزلين ومعزولين في الجبال والوديان، ورمتهم خارج المسار الطبيعي للتطور الحضاري الذي كان من المفترض أن يتحقق في كُردِستان؛ إذ من المستحيل أن يزدهر الأدب المكتوب في بيئة غير مستقرة.

د - **السبب الرابع**: إنّ وقوع كُردِستان في صميم الصراعات والحروب الطويلة الأمد بين القوى الإقليمية تارةً، وبين الإمبراطوريات المتنازعة في المنطقة تارةً أخرى، أدّى إلى انتشار الأُمّية والفقر والخراب وفقدان الأمن في ديار الكرد، واضطرار النخبة المثقفة إلى الهجرة من كردستان والاستقرار في حواضر البلاد المجاورة (فارس، العراق، سوريا، غرب الأناضول) ومصر، والتأليف باللغات السائدة في تلك الحواضر (أقصد: الفارسية، العربية، التركية).

هـ - **السبب الخامس**: إنّ سرعة تفاعل النخبة الكُردية المثقفة مع ثقافات الشعوب الأخرى، وانكبابهم على الكتابة بلغات تلك الشعوب، لأغراض إبداعية حينًا ولأسباب معيشية حينًا آخر، كان أيضًا من العوامل التي حملتهم على الانصراف عن الكتابة بلغتهم.

وترجع بدايات الأدب الكُردي القديم المدوَّن إلى القرن الحادي عشر الميلادي، فحينذاك كان علي حريري (ت ١٠٠٩م) يكتب باللغة الكردية في منطقة شَمْدينان، وتلاه شعراء آخرون أكثر منه شهرة، منهم الشاعر ملا أحمدَى جَزيري (١٤٠٧-١٤٨١م) والشاعر فَقي طَيْران (١٥٦٣-١٦٣٩م) والشاعر ملا باتي من هَكّاري، صاحب **ملحمة دُم دُم** الشهيرة التي ترجع أحداثها إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي. ولعلّ أشهر شاعر غنائي كردي كلاسيكي هو أحمد خاني (١٦٥٠-١٧٠٦م)، وقد ولد في هَكّاري وتوفّي في بايزيد، وهو صاحب **ملحمة مَمْ وزِينْ** التي تعدّ أرقى منظومة ملحمية كردية كلاسيكية.[1]

وثمة روّاد أوائل للأدب الكُردي المدوَّن ظهروا في المنطقة الجنوبية الشرقية من كردستان، خلال القرنين السادس عشر والثامن عشر للميلاد، نظموا أشعارهم إما

---

(١) المرجع السابق، ص٤٤٥.

باللهجة الهَوْرَمانية أو الگُورانية، متأثرين بتقاليد الشعر الفارسي، ومن أولئك الروّاد الشاعر الغنائي بابا طاهر العَريان الهَمَذاني (٩٣٥-١٠١٠ م) صاحب رباعياته المنظومة الذائعة بين الكرد في تلك المناطق.(١)

أما في العصر الحديث فإنّ الأدب الكردي المدوَّن أكثر ازدهارًا، فمن الشعراء الذين عاشوا في القرن التاسع عشر: الشاعر نالي (ملا خِضر بن أحمد مِيكالي، عاش في القرن ١٩م)، وله أشعار بالعربية والفارسية، والشاعر كُردي (مصطفى بگ بن محمود بگ صاحِبْقِران، ١٨١٢-١٨٥١م) وحاجي قادر كُويي (ت ١٨٩٧م) والشيخ رضا طالْباني (ت ١٩٠٩م). وفي القرن العشرين، ومع ظهور الوعي القومي الكردي وتأسيس مجلات كردية، صار الأدب الكردي أغزر وأكثر تنوّعًا وأكثر لصوقًا بالهموم والقضايا الكبرى التي يعيشها المجتمع الكردي، والحديث عنه بحاجة إلى دراسات مستقلة.(٢)

٣- الدِّيانة في المجْتمع الكُردي

مسيرة الكرد مع الدين هي مسيرة سائر الشعوب الأخرى -لا سيّما الآرية منها- على امتداد التاريخ العالمي، ومعروف أنّ الشمس- مرموزًا إليها بالنار- كانت مركز العقائد الدينية الآرية القديمة، بل إنّ مصطلح «آري» الذي يعني بالسَّنْسِكريتية «النبيل/ السامي» يرجع إلى كلمة «آر» *Ar* وهي تعني «نار» بالكردية.

رموز ميثولوجية:

قبل البحث في الديانة عند الكرد نرى من المفيد الوقوف عند أسماء بعض الرموز الميثولوجية التي ترِد في المصادر المهتمّة بالديانات الآرية القديمة، وخاصةً في كردستان وفارس، ومن المهم جدًا ملاحظة أنّ صيغ نطق هذه الأسماء لم تصلنا دائمًا على النحو الذي تشكّلت به في البدايات، فقد تعرّضت عبر العصور للتبديل والحذف والإضافة، خاصةً في مجال الخصائص الصوتية للشعوب واللغات

(١) المرجع السابق، ص٤٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص٤٤٨.

والكتابات التي وصلتنا أسماء هذه الرموز من خلالها، وهذه حقيقة معهودة في معظم الأسماء التي نشأت قديمًا وظلت حيّة عبر التاريخ البشري إلى عصرنا هذا، وما يجعل الأمر أكثر تعقيدًا هو التداخل الشديد بين كثير من الأسماء والألقاب.

وللتدليل على ذلك نكتفي بمتابعة الملابسات في اسم «كِسْرى»؛ فالمعروف أنه لقب لملوك فارس، كما أنّ «تُبَّع» لقب لملوك اليمن، و«النَّجاشي» لقب لملوك الحبشة، و«قَيْصَر» لقب لملوك الروم، والأصل أنّ كلمة «كِسرى» هي الصيغة العربية لكلمة «خَسْرَو»، وتعود هذه الكلمة بدورها إلى كلمة «كَيْخَسْرو» (= كي أخسار)، وهي بهذه الصيغ جميعها اسم للملك الميدي «كَياكسارس» الذي حرّر شعوب غرب آسيا من الحكم الآشوري سنة ٦١٢ ق.م.

وقد مرّ أنّ الفرس الأخمين تأثروا بثقافة أقربائهم وجيرانهم الميد، فاقتبسوا من حضارتهم الشيء الكثير، ومن جملة ما اقتبسوه هذا الاسم، واشتهر هذا الاسم لاقترانه بشهرة حامله؛ نقصد أشهر ملوك الدولة الساسانية كِسرى (خَسْرو) الأول (حكم بين ٥٣١-٥٧٩م)، وأصبح مع مرور الأيام لقبًا لملوك الفرس الساسانيين الآخرين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكلمة «كَيْ» في اللغات الآريانية القديمة - خاصةً الأفستائية والسنسكريتية- تعني «الملك»، وإذا أخذنا في الحسبان تبادل الأماكن بين حرفي «س» و«ش» في تعريب بعض الألفاظ الأعجمية، مثل اسم «شاه بور» الفارسي الذي جاء في المصادر العربية بصيغة «سابور»، فإنّ كلمة «خسرو» نفسها مركّبة على الأرجح من كلمتين هما «خاش» وتعني «سعيد، بهيج، مضيء»، حسب السياق، و«رو» *Ro*، وهو اختصار لكلمة «روژ» *Roj*، وتعني «شمس، نهار»، والخلاصة أنّ كلمة «كَيْخَسْرو» -سواء أكانت اسمًا أم لقبًا- تعني «الشمس الساطعة» أو «الملك السعيد»، وقد ذكر شاهين مكاريوس ما يقارب ذلك في كتابه **تاريخ إيران**.(١)

ولنعد إلى الرموز الميثولوجية في كردستان وفارس قديمًا، وهي:

أولاً- ميثرا *Mithras*: بتفخيم الألف قد تُنطق «ميثرو»، وكلمة «ميثرا» تعني

---

(١) طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٤٠. شاهين مكاريوس: **تاريخ إيران**، ص٢٠.

العَقد أو الاتفاق، وهو إله آري الأصل يحفظ الحقوق والنظام ويقضي على قوى الشر، سواء كانت آلهة أم بشرًا، كما أنه إله الضياء الآري القديم، ويوصف بأنه محارب قوي جبّار، وبوصفه حارسًا للحقيقة فهو قاضي الأرواح بعد الموت. وقد تَجَسَّد ميثرا في إله الشمس، وأطلق عليه أتباعُ زَرْدَشْت اسمَ أهورا مَزْدا (إله الخير)، وانتشرت ديانة ميثرا في آسيا شرقًا إلى الهند وغربًا إلى بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى، ودخلت روما سنة ٦٠ م، وانتشرت في القرن الثاني الميلادي داخل الإمبراطورية الرومانية حتى وصلت إلى بريطانيا.

وما دمنا بصدد الحديث عن العلاقة بين ميثرا (ميثرو) والشمس، فحبّذا أن يهتم الباحثون في ميثولوجيا الشعوب بالعلاقة بين الديانة الشمسية في منطقة غرب آسيا (كُردِستان وفارس) والديانة الشمسية في مصر الفرعونية، فالمعروف أنّ رَعْ (رُعْ) كان الإله الشمس عند المصريين القدماء، وكانوا يعتقدون أنّ جسد فرعون ليس حقيقة، وإنما هو إله، وعندما يموت يصعد إلى السماء ليتّحد مع أبيه الإله الشمس (رَع). وإذا علمنا أنه لا وجود لحرف «ع» في اللغة الكردية، وإنما يتحوّل مع الحرف المضموم قبله إلى صيغة (وُ/ O)، ترجّح أنّ «رَع/ رُعْ» المصرية مطابقة لـ «رُو» الآرية، وأنّ الإله الشمس المصري «رُع» شبيه بالإله الآري القديم «ميثرو».[١]

ثانيًا - يَزْدان: يسمى «أَزْدان» و«أَزْدا» أيضًا، وهو من أسماء الله الحسنى في العقائد الآرية، ويعني «الخالق = خالقي».

ثالثًا- أهُورامَزْدا: مركّب من ثلاث كلمات: «هُو- را- مَزْدا»، ومعناها «أنا- الوجود- الخالق»، وتعني «هو خالق الوجود». كما أنّ «أهورا» يعني «الفاضل» و«مَزْدا» يعني «الشجاع»، والإله هُور (= سُور = خُور) اسم إله قرص الشمس الذي كان يُعبد في مملكة ميتّاني الحورية، وكان تمثال الإله أهورامزدا يُصوَّر على شكل نسر ينشر جناحيه، ويتوسّط الجناحين قرص دائري الشكل، ربما يرمز للإله الشمس، وبدلاً من رأس النسر وصدره رُسمت صورة القسم العلوي لشخص في وقفة تعبّدية، وهو يمسك بيسراه قرصًا دائريًا، وقد نُقشت هذه الصورة في أعلى نصب بَيسْتُون (بهستون)، وعلى عدد من الأنصاب في عاصمة الفرس القديمة پِرْسوپوليس.

---

(١) طلعت مراد بدر: **ميثولوجيا الكون المؤله**، ص٨٠.

ثالثًا- دِينْكَرْد: *Dinkard*، أو (دَنْكارت) *Dankart*، ظهر في القرن التاسع الميلادي كعقيدة مناهضة للمسيحية والإسلام، وهو امتداد للديانات الآريانية القديمة، وخاصة الأزدائية والزردشتية، وقد صنّف فقهاؤها شروحًا جديدة للزردشتية أطلقوا عليها (ديانة الخير)، وتُعرف هذه الشروح بـ (المصادر الپهلوية)، وأهمها كتابان: الأول يسمّى (بَنْداهشين)، أو (زَنْداجاهيه)، وهو يتناول مسائل تتعلق بأصل الكون. والثاني يسمّى(دَنْكارت)، وهو دائرة معارف لمأثورات دينية.[(١)]

رابعًا- دَيوا *Daiwa*: هو في العقيدة الزردشتية إله الكذب والخداع، ويماثل إبليس (الشيطان) في الديانات السماوية (اليهودية، المسيحية، الإسلام).

خامسًا- أَهْرِيمَن (أهورامَن): هو كبير الشياطين، ويعني: الخبيث (القوى الخبيثة)، ويسمّيه المانويون الإيرانيون «آژ» *Aj*. وهو في العقيدة الزردشتية وكيل الشيطان (دَيوا).

سادسًا- زُرْوان *Zorvan*: يسمى «زُرْڤان» *Zurvan* أيضًا، وهو إله الخير والنور، وفيه توحّد أهورامزدا وأهريمن معًا، وأصبحا تكوينًا إلهيًا واحدًا صدر عن واحد أحد لا تمايز فيه، ويتجاوز الإله زُرْوان كل ثنائية، وقد نشأت الزروانية بعد الزردشتية، ودخلت في صراع ضدها.

سابعًا- هُرْمُزْد: هو ابن زُرْوان، ويتّصف بالربّانية.

ثامنًا- مُوغ *Magi*: ورد في الكتب العربية بصيغة «مَجُوس»، وهذه الصيغة يونانية الأصل *Magos*، أطلقها اليونان على الكهنة الزردشتيين عندما دخلوا بلاد فارس بقيادة الإسكندر المقدوني، وكلمة «ماغوس» تعني «العظيم، الهائل»، لبراعة أولئك الكهنة في السحر. وعدّ هيرودوت الموغ قبيلة من الميديين، وكان هذا اللقب يطلق على من يخدم العقيدة الزُّرْوانية.[(٢)]

---

(١) محمد العُرَيْبي: **الديانات الوضعية المنقرضة**، ص ٢١٥ - ٢١٦. نوري إسماعيل: **الديانة الزردشتية**، ص ٢٦.

(٢) أرنولد توينبي: **مختصر لدراسة التاريخ**، ١/ ١٨٧. دياكونوف: ميديا، ص٧٢، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٨. سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص١٠٩-١١٠. جفري بارندر: **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ص١١٩، =

الميثرائية/ اليَزدانية/ الأَزْدائية/ دِينكرد:

يُفهم من المعلومات التاريخية وآراء المهتمّين بتاريخ الكرد أنّ المجتمع الكردي تكوين حضاري منبثق عن تكوين إثني يضم فروعًا زاغروسية وآرية ضخمة، ومن أبرز تلك الفروع: گُوتي وكاشُّو ولُوللو ومِيتّاني (حُوري) ومَنناي وخلْدي (أُورارْتو) ومِيدي (مادي)، وقد أفلحت الدولة الميتّانية في تحقيق التجانس الثقافي بين تلك القبائل، ثم استكملت الدولة الميدية تلك المَهمّة، وطوّرت ذلك التجانس في صيغة «اتحاد أقوام ميديا»، وهيّأت المناخ السياسي والاقتصادي والثقافي لتمازج هذه الفروع في جبال زاغروس وعلى أطرافها، وفي النهاية كان الشعب الكردي وليد ذلك التجانس.

وبما أنّ أجداد الكرد ينتمون إلى كتلة الشعوب الزاغروس- آرية، التي غلب عليها الطابع الثقافي الآري في العهد الميتّاني والميدي خاصةً، فلا ريب في أنهم كانوا، في العهود الغابرة، من أتباع ديانة مِيثرا، شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب الآرية حينذاك، ويبدو أنّ الميثرائية أصبحت أكثر اقترابًا إلى عقيدة التوحيد في الألف الأول قبل الميلاد، حينما تجلّت في صيغة «الأزدائية»، وتسمّى «دِينْكَرد»، نسبةً إلى الإله أَزْدان (يَزْدان= الخالق)، «وقد شُرحت **الأفستا** في كتاب سمّي **دِين كرد**، وهو مكتوب باللغة والأحرف البَهْلَوية».[1]

ولم يرد في هذا المصدر الضبطُ الدقيق لمصطلح «دِين كَرْد»؛ تُرى أهو «دين كُرْد» أم «دين كَرْد» أم «دين گَرْد» أم «دين گُرْد»؟! وقد أورد الأستاذ نوري إسماعيل هذا المصطلح في كتابه **الديانة الزردشتية** بصيغة «دِينْكَرْد» *Dinkard*، وذكر أنّ الكتاب الخاص بهذا الدين كُتب بالخط الفَهلوي، وأنّ اسمه الأصلي **زَنْد أكاسيه**، وأنّ مؤلفه هو المَوْبَذ الزردشتي آذَرْ بُورْفَرُخْزاد الذي عاش في القرن التاسع الميلادي.

وذكر محمد العُرَيْبي أنه نشأت في القرن التاسع الميلادي طائفةٌ مناهضة

= ١٢٤-١٣١. إحسان يار شاطر: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ص٧٨. طلعت مراد بدر: **ميثولوجيا الكون المؤلَّه**، ص٥٩.

(١) مَعْن زيادة: **الموسوعة الفلسفية العربية**، ٢/ ٦٩٢.

للمسيحية والإسلام، ووضعت شروحات جديدة للزَّرْدَشْتية التي أطلقوا عليها (ديانة الخير)، وتُعرف هذه الشروح بـ (المصادر البَهْلَوية)، وأهمُّها كتابان: الأول يسمّى **بَنْداهِشِين**، أو (زَنْداجاهيه)، وهو يتناول مسائل تتعلق بأصل الكون. والثاني يسمّى **دَنْكارت** *Dankart*، وهو دائرة معارف لمأثورات دينية[١].

وثمة من يرى أنّ منشأ اسم الكرد ديني وليس عرقيًا، ويعود إلى اسم دينكَرْد (دينْكارْد)، وأنّ اسمي «كارْدُونياش» و«كارْدُوخي» ينتميان إلى «دِينْكَرْد»، ويذكر دياكونوف أنّ كلمة «كورْتَاش» *Kurtash* تعني العاملين من الأسر الحرة، وأنها في العيلامية تقابل الكلمة الإيرانية القديمة «گُرْدا» *Gurda*[٢]. ونخلص من المعلومات القليلة الواردة في هذا المجال إلى أنّ الصلة وثيقة بين كلمة «كرد» باعتبارها اسمًا لشعب وباعتبارها اسمًا لدين.

وما لا شك فيه أنّ الصلة وثيقة بين «دِينْكَرْد» والزَّرْدشتية، ولعلّ دِينْكَرْد هو في مقام «العهد القديم» ضمن منظومة لاهوت الهضبة الآريانية وجبال كُردِستان، وقد أفاد الأستاذ مُرْشِد اليوسف في كتابه الإلكتروني **دُومُوزي: طاوُوسي ملك** أنّ السومريين أطلقوا كلمة دِينْگَرْ *Dinger* على كائنات خالدة غير مرئية شبيهة بالإنسان، وأنها تعني «الإله» بالسومرية، كما أنها تعني بالكردية «من يعمل في مجال الدين»[٣].

ولكلمة «دِين» *dîn* و*dîtin* في الكردية دلالتان: الرؤية الحسية البصرية، والرؤية المعنوية والفكرية، ويرجع مصطلح «دِينْكَرْد» بدوره إلى «دين كار»، باعتبار أنّ الملائكة ورئيسهم «مِيرْ كار = رئيس العمل» عملوا في عبادة الله تعالى تسعين ألف سنة، مع ملاحظة أنّ كلمة «كارا» *Kara* كانت تعني الناس المحاربين، و«كار» بالكردية معناه «العمل».

---

(١) محمد العُرَيْبي: **الديانات الوضعية المنقرضة**، ص ٢١٥ - ٢١٦.
(٢) دياكونوف: **ميديا**، ص٣٠٥، ٣١١.
(٣) دياكونوف: **ميديا**، ص٣٠٦، ٣١١. حَسُو أُومَريكو: **حضارة آسيا الصغرى** (مخطوط)، ص٣٨-٣٩. نوري إسماعيل: **الديانة الزردشتية**، ص٢١، ٢٣، ٢٦. مرشد اليوسف: **دوموزي** (طاووسي ملك)، ص٧٧.

وجدير بالذكر أنّ «كار» (= العمل) في «دينكرد» هو مقياس لإيمان الفرد ومعيار لسلوكه وحضارته، والهدف من خلق الإنسان هو العمل لتعمير الكون، والعمل (كار) عبادة في دِينْكَرْد، لذا كان على جميع أفراد المجتمع الميدي الأول، بما فيهم نائب الملك وقواد الجيش وكبار رجال الدولة، أن يمارسوا العمل المنتج المفيد. ويركّز دِينكَرد على بناء الشخصية الإنسانية بجوانبها الذاتية (المعنوية) والخارجية (المادية- السلوكية)، ويتمثّل ذلك في مبدأ: «فكّر جيّدًا، قل جيّدًا، اعمل جيّدًا، تكنْ إنسانًا جيّدًا».[1]

ووفق تعاليم دِينْكَرْد فإنّ عَزازيل (طاوُوس مَلَك) هو رئيس الملائكة، وهو الذي قادهم في مهمّة العمل لعبادة الله تعالى، وهو مالك خزائن العِرفان، وهو مَلاك الوحي أيضًا، وهذا يعني أنه يقوم مقام الملاك جبريل في الدين الإسلامي. وإن الخليقة والتكوين، وفق تعاليم دِينْكَرْد، نتاج تفاعل أربعة عناصر هي الماء والتراب والهواء والنار، وبتأثير أربعة عوامل هي قوة الشروق وقوة الغروب وقوة الشمال وقوة الجنوب، ومرورًا بأربع مراحل هي مرحلة الولادة والصِّبا ومرحلة الشباب ومرحلة النضج ومرحلة الشيخوخة، ويُرمَز إلى هذه الفلسفة بدائرة «الماند دى لا»، وهي دائرة مغلقة فيها صليب متساوي الأطراف.

وقد رأيت هذه الدائرة منحوتة على الطرف العلوي من أبواب بعض الدور القديمة في قرى الكرد، كما أني رأيت والدي -رحمه الله- وبعض المسنّين يحفرون الصليب المتساوي الأطراف على الصخور لرسم الحدود بين ملكيات الأراضي، هذا إضافةً إلى أنني كثيرًا ما وجدت العجائز الكرديات ممّن كنّ يعالجن الأطفال المرضى في قرانا يرسمن الصليب نفسه بالسُخام (بقايا الدخان في أسفل ساج التخبيز) على جباه الأطفال والصبية المرضى، وكنت، وأنا صبي، واحدًا منهم.

و«مانْد» من أسماء الجلالة في دِينْكَرْد، وهذه الكلمة هي نفسها «مَنْد» التي تتألف منها بعض الأسماء الكردية المركّبة عند الكرد الأيزديين خاصة، وكان اسم ابنة الملك الميدي أستياگ -والدة الملك الأخميني كورش الثاني- هو ماندانا (هبة

---

(١) دياكونوف: ميديا، ص٣١٣. خَسُو أُومَرِيكو: **حضارة آسيا الصغرى** (مخطوط)، ص٣٤.

الإله ماند). وقد حُرّف الاسم «مَنْد» بعدئذٍ إلى «مَنْدُو» على غرار «شَيخو» من شيخ، و«مِصْطو» من مصطفى.

ومن أسماء الجلالة في دِينْكَرْد أيضًا «أَزْدا» بمعنى «الخالق/ خالقي» و«خُودا» (= خُه دا) ويعني «مُوجِد نفسه/ لم يخلقه أحد»، والأرجح أنّ الديانة المندائية العِرفانية (الغُنُوصِية)[1]، في واسط بالعراق، على صلة ما بالبنى العَقَدية والفلسفية والثقافية لعقيدة دِينْكَرْد وغيرها من العقائد الآريانية، وقد جاء في كتاب الصابئة المندائية المسمى حَرّان كُوثَه أي (حَرّان السفلى) أنهم جاؤوا إلى بطائح البَصرة من مدينة حَرّان وما حولها من جبال ماداي، «حيث الينابيع الساخنة في الشتاء والباردة في الصيف»، ولا يخفى أنّ حَرّان (= حاران) كانت تقع في منطقة النفوذ الحوري (الميتّاني)، بل الأرجح أنّ اسمها مستمدّ من الحُوريين.[2]

وإن الشرّ - وفق فلسفة الأزدائية التي ينتمي إليها دِينْكَرْد - جزءٌ من التكوين الذاتي للإنسان، وليس عنصرًا خارجيًا طارئًا، لذا لا وجود لمخلوق يسمى شيطان/ إبليس في العقيدة الأزدائية، وعَزازِيل (طاوُوس مَلَك) يحتفظ في الديانة الأزدائية بمكانته المرموقة عند الله تعالى، باعتباره رئيس الملائكة، وقد بدأ التحوّل عن هذه الفلسفة مع ظهور الانشقاق الزردشتي عن الأزدائية؛ إذ تقوم الزردشتية على وجود إله هو أَهُورامَزْدا، ينافسه أَهْريمَن (أهورامَن) ممثّل الشر أو إله الشر، وهذا يُعَدّ انحرافًا وهرطقةً من منظور العقيدة الأزدائية، وتحوّلاً من مفهوم التوحيد الصرف إلى المفهوم الثنوي الإشراكي.

وعلى ضوء هذه المعطيات يمكن تفسير أمرين:

● **الأمر الأول**: عدم إقبال الكرد على اعتناق المسيحية قبل الإسلام، رغم الجوار الجغرافي مع الدولة البيزنطية غربًا، ورغم الجوار والتداخل الجغرافي والاجتماعي شمالاً مع الأرمن والجورجيين المسيحيين لقرون عديدة قبل الإسلام

---

(١) الغنوصية Gnostiscism مذهب العرفان، أي الإيمان بإمكانية تحصيل المعرفة بوساطة الإشراق الروحي والرياضات الروحية، ونبْذ المادة لأنها شر، والاعتقاد بأن السعادة هي تحصيل لتلك المعرفة.

(٢) حَسُو أُومَرِيكو: **حضارة آسيا الصغرى (مخطوط)**، ص٣٨-٤٠. محمد عبد الحميد: **الديانة اليزيدية**، ص٢٦.

وفي الإسلام. والأرجح أنهم وجدوا في العقيدة المسيحية القائمة على مفهوم التثليث (الأب- الابن- الروح القدس) تناقضًا مع عقيدة التوحيد الضاربة بجذورها في صميم العقيدة الأزدائية وعقيدة دِينْكَرْد.

● **الأمر الثاني:** اختلاق تهمة «عبادة الشيطان» التي تُلصق بالكرد الأيزديين، فالديانة الأيزدية كما نراها اليوم تشتمل على بعض الأصول الزردشتية والتأثيرات المسيحية والإسلامية، لكنها تشتمل في الوقت نفسه على بعض أصول العقيدة الأزدائية، ومن أهمها مفهوم التوحيد، وكون عَزازيل (طاووس ملك) هو رئيس الملائكة القائمين على العمل لعبادة الله تعالى ضمن مفهوم «الكار»، وهو من ثمّ شخصية مقدَّسة ومبجَّلة إلى درجة كبيرة، لذا يغضب الأيزدي حينما ينتقص أحدٌ ما من شخصية عَزازيل، ولا يقبل أن يقال عنه إنه إبليس (شيطان)، وإنه ملعون ورجيم، وقد يقاتل من يصرّ على أن يُسمعه ذلك، حتى ظنّ الناس -جهلاً أو تحاملاً- أنّ الأيزديين هم عبدة الشيطان.

الحقيقة أنّ ثمة فرقًا بين التبجيل والتقديس من ناحية والعبادة من ناحية أخرى، فالمسلمون يبجّلون النبي محمدًا، ويبجّلون الملاك جبريل، والكعبة عندهم مقدّسة، لكنهم لا يعبدون محمدًا ولا جبريل ولا الكعبة، وليس ثمة مسلم صحيح الإسلام يقبل التهجّم على النبي محمد أو على جبريل أو على الكعبة، ولا يتردّد في معارضة ومقاتلة من يصرّ على الإساءة إلى المقدّسات، بل إنّ الخُمَيْني، مرشد الثورة الإسلامية في إيران، أصدر فتوى أباح بموجبها دم الكاتب الهندي الأصل البريطاني الجنسية سَلْمان رُشْدي؛ لأنه أورد في كتابه **آيات شيطانية** عبارات ساخرة تنال من مكانة النبي محمد وبعض زوجاته وصحابته.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الأيزديين والملاك عَزازيل، فقد تحوّل هذا الملاك في الديانات السماوية (اليهودية، والنصرانية، والإسلام)، لأسباب سياسية لا مجال الآن للبحث فيها، إلى رمز لعصيان الله، باعتبار أنه رفض السجود لآدم، فاستحقّ اللعنة، وسمّي الشيطان تارةً وإبليس تارةً أخرى.

الكُرد والزَّرْدَشْتية:

مرّ أنّ الزَّرْدشتيه تطوير أو تغيير داخل العقيدة الأزدائية، ويبدو أنّ معظم الكُرد

كانوا على هذا الدين إبّان الدعوة الإسلامية، لوقوعهم تحت هيمنة السلطة الفارسية التي اتّخذت الزَّرْدَشتية ديانة رسمية منذ عهد الملك الفارسي دارا الأول (٥٢٢-٤٨٠ ق.م)، واعتمدتها على أنها الأيديولوجيا التي ترسّخ النفوذ الفارسي، بغرض مواجهة الأزدائية التي يبدو أنها كانت الأيديولوجيا السائدة في اتحاد قبائل ميديا.

حين يدقّق المرء النظر في العهد الأخميني الأول، ويتتبّع محاولات بعض الميد الخلاص من الهيمنة الفارسية وإحياء الدولة الميدية، يتّضح أنّ القادة الفرس كانوا يعتنقون الأيديولوجيا الزَّرْدَشْتَية، ويرفعون لواءها في وجه المُوغ (الكهنة) الميد، باعتبارهم ورثة الأيديولوجيا الميدية، ونعتقد أنّ رجال الدين (الموغ) الميد هؤلاء كانوا فقهاء وعلماء العقيدة الأزدائية، على أن نأخذ بالاعتبار أنّ دِينْكَرْد هو سليل العقيدة الأزدائية، وأنّ الأزدائية تتصل في العمق بجذور العقيدة الميثرائية القديمة.

وتؤكد معظم الروايات أنّ زَرْدَشْت (باللاتينية *Zoroastres*) من أصل ميدي، وأنه وُلد في مقاطعة أتروپاتين *Atropatene* (أذربيجان حاليًا)، إحدى مقاطعات ميديا، على مقربة من بحيرة أُورْميا *Urmie*، واسم قبيلته «هَجْتِسْبِيان»، وكان والده فلاحًا من أورميا يسمّى بُوروشاسْبا، وتدعى أمه في **الأفْسْتا دُغْدهُوَا** *Dughd huova*، وهو بالفهلوية دُغْدَوُو، أما صيغة زَرُوَاسْتِر *Zeroaster* فهي التهجئة الإغريقية لكلمة زاراثوسترا *Zarathostra*. ومن المؤرخين من ذكر أنّ زَرْدَشت عاش بين ٦٦٠-٥٨٥ ق.م، وذكر آخرون أنّ حياته تقع في الفترة ٦٢٨-٥٥١ ق.م، وجاء في مصدر آخر أنه ولد عام ٥٧٠ ق.م، ويُرجعه بعضهم إلى سنة ١٠٠٠ ق.م، ومن الباحثين من يرى أنّ زَرْدَشت كان معاصرًا للملك الأخميني دارا (داريوس) الأول (٥٢٢-٤٨٠ ق.م).[1]

لم تلقَ دعوة زَرْدَشْت قبولاً في ميديا، لخروجه على العقيدة السابقة ولوقوف الكهنة (الموغ) في وجه الدعوة الجديدة باعتبارها هَرْطَقة وكفرًا، ويبدو أنّ

---

(١) دياكونوف: ميديا، ص٥٧. جفري بارندر: **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ص١٢٣. هـ. ج. ولز: **معالم تاريخ الإنسانية**، ٣/ ٧٥٠. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٦٠. مَعْن زيادة: **الموسوعة الفلسفية العربية**، ٢/ ٦٩٢-٦٩٤. نوري إسماعيل: **الديانة الزردشتية**، ص٩.

السلطات الميدية الحاكمة قد وقفت مع الكهنة ضد زَرْدَشْت، فهاجر شرقًا نحو بَلْخ (تقع الآن شمال أفغانستان)، وهكذا كان شأن معظم الأنبياء والمصلحين مع بني قومهم.

في بَلْخ لقي زَرْدَشْت النجاح، إذ اعتنقت الأسرة الحاكمة دعوته، ويبدو أنها كانت فارسية، ثم بدأت الزردشتية بالانتشار، ووجد فيها الفرس أيديولوجيا فعّالة لمواجهة الأيديولوجيا الميدية، فاتّخذوها دينًا رسميًا حينما قضوا على الدولة الميدية، ويبدو أنّ كثيرين من رجال الدين الميد اعتنقوا الزردشتية رَغبةً أو رهبة، ففي عهد هيرودوت كان الجميع في اليونان يعرف أنّ الكهنة الزردشتيين (الموغ) كانوا من الميد، مع ملاحظة أنّ لقب «موغ» كان يُطلق على رجل الدين في المجتمعات الآريانية القديمة؛ سواء كان في العهد القديم (الأزدائي) أم في العهد الجديد (الزردشتي)، كما أنّ هيرودوت نفسه يعدّ الموغ قبيلة من الميد. وقد أصيبت الزردشتية بنكسة حينما غزا الإسكندر المكدوني بلاد فارس، وأتلف كُتبها، لكنها عادت فانتعشت في عهد الأسرة الساسانية (٢٢٦-٦٥١ م).[١]

وقد مرّ أنّ الأزدائية في صيغة دِينكَرْد تَعُدّ الشرَّ من التكوين الذاتي للإنسان، لكنّ الزردشتية خرجت على هذا المبدأ ونسبت الشر إلى أَهْرِيمَن الذي هو وكيل الشيطان (دَيوا)، أما إله الخير فهو أَهُورامَزْدا ويعني اسمه «الروح الخيّرة». وفي العقيدة الزردشتية يُعَدّ أَهْرِيمَن إلهًا للكذب والخداع، وهكذا نجد تماثلاً بينه وبين إبليس (الشيطان)، وأنّ كلّ ما هو مفيد وخيّر هو تجلٍّ لأهورامزدا، وكلّ ما هو ضارّ وشرّ هو تجلٍّ لأهريمن.

والكتاب الزردشتي المقدس هو **أفِسْتا** *Avesta* (أبستاق)، وقدّس الزردشتيون النور حيثما كان باعتباره من تجلّيات أهورامزدا، وهذا هو السرّ في تقديسهم للشمس وتوجّههم إليها في صلواتهم، ولهذا أيضًا اتّخذوا النار رمزًا مقدّسًا، واتخذوا لها بيوتًا تكون مكان عبادتهم، يقيمون فيها صلواتهم ويقدّمون نذورهم، وهذا ما أوهم بعض الناس أنّ الزردشتيين هم عبدة النار. وفي الزردشتية خمس صلوات يوميًا، هي:

---

(١) هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص٢٨-٢٥٠.

١- صلاة الفَجر (كاه اشهن).
٢- صلاة الصبح (كاه هاون).
٣- صلاة الظُّهر (كاه رفتون).
٤- صلاة العَصر (كاه أزيرن) (شبه لفظي بالاسم العربي صلاة العَصر).
٥- صلاة اللَّيل (كاه عيوه سرتيرم).

وأصول الزردشتية ستة:

١- التوحيد.
٢- الإيمان بنبوّة زردشت.
٣- النية الحسنة والقول الحسن والعمل الحسن.
٤- بقاء الروح بعد الموت.
٥- وجود الثواب والعقاب.
٦- المَعاد أو يوم القيامة.

أما ما يشاع عن الزردشتية بأنها تبيح الزواج بالمحارم فهو افتراء محض روّجه بعض أدعياء العِلم المسلمين على عادتهم في تبشيع الديانات الأخرى وتنفير الناس منها، ومَن زعم ذلك خلط بين المَزْدَكية التي دعت إلى شيوعية المال والنساء والأولاد وبين الزردشتية، وما كانت المزدكية إلا انشقاقًا عن الزردشتية لفترة محدودة، فقد ظهر مَزْدَك في عهد الملك الساساني قُباذ، وقتل في نهاية سنة ٥٢٨ م.(١)

الكُرد والأيزدية:

يقال لهذه الديانة: يِزْدية / إيزيدية / يَزيدية، والصواب أيزدية Aizdi، وهي من أكثر العقائد غموضًا، ليس لأنها كذلك في الأصل، وإنما لأنها جزء من التاريخ الكردي، فكلّ ما يتعلّق بالكرد ينبغي أن يكون مغيّبًا ومطموسًا، أو محرَّفًا ومشوّهًا،

---

(١) جيمس هنري برستد: **انتصار الحضارة**، ص٢٤٨-٢٤٩. جفري بارندر: **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ص١١٦. جميل مدبك: **موسوعة الأديان في العالم**، ص٢٨٦. سليمان مَظْهَر: **قصة الديانات**، ص٢٦٦. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص١٤٠. محمد قُبَيْسي: **شعوب وتقاليد**، ١/ ٢٠-٢١. سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص١١٠.

أو مبتورًا ومُشرذَمًا، وهذا جزء من حملة التشويه والتبشيع القديمة التي شُنّت على الكرد وعلى كلّ ما له صلة بهم.

وقد عُني كثير من الباحثين بالأيزدية في العصر الحديث، ودار كثير من الجدل حولها، وخلاصة ما تفيده الدراسات الجادّة التي كتبت عنها، وما سمعناه من بعض متنوّري الأيزديين، أنها عقيدة توحيدية ذات جذور ميثرائية أزدائية ودِينكَردية، شابتها معتقدات زَرْدَشْتية، وخالطتها مؤثّرات نصرانية نسطورية، وأخرى إسلامية بتأثير تعاليم الصوفي عَدِيّ بن مُسافِر (يسمى: الأموي، والهَكّاري، ويعدّه الأيزديون كرديًا قحًّا)، وقد عاش بينهم، فأصبحوا من مريديه، لكن بعد وفاته، ونتيجة لتقاطعات سياسية، وبسبب تقادم الزمان، عاد مريدوه الكرد إلى ديانتهم القديمة.

وقد كتب باسيلي نيكيتين صفحات مفيدة حول الأيزديين، وذكر أنّ «روجيه ليسكو يتمسّك بنظرية كيدي التي تقول بالأصل الإسلامي لليَزْدية، ولكنه يشخّص إلى جانب المعتقدات الإسلامية الموجودة فيها معتقداتٍ خرافيةً إيرانية قديمة أيضًا، بلغت تدريجيًا المرتبة الأولى بقدر ما نسي اليَزْديون إسلاميتهم الأولى».[1] وأضاف نيكيتين قائلاً: «أمّا بقدر ما يتعلّق الأمر بي فأنا لا أعتقد أن الكرد اليزديين كانوا يومًا ما مسلمين».[2]

وسمعت من بعض الأيزديين العارفين بالشؤون الدينية أنّ الأزدائية أقدم ديانة توحيدية اعتنقتها الشعوب الآرية من أفغانستان إلى كُردِستان، وقد اقتبست منها الأديان التوحيدية التي ظهرت بعدها جوانب من عقائدها وفلسفتها، أما الزردشتية فليست -في أحسن الأحوال- إلاّ انقلابًا على الأزدائية وانحرافًا نحو الثنوية (إله الخير/ إله الشر)؛ على أنّ معظم الأيزديين الحاليين يعدّون أنفسهم زردشتيين، ويعدّون النبي إبراهيم أحد تجسيدات زَرْدَشْت، مع ملاحظة أنهم لا يعدّون كلمة زردشت اسمًا، وإنما يرون أنها لقب ديني كمصطلح «نبي».

وقد أنجز الأستاذ مُرشِد اليوسف دراسة وافية وقيّمة حول الأيزدية، وهي بعنوان **دُومُوزي طاووسي مَلَك: بحث في جذور الديانة الكردية القديمة**، وتوصّل

---

(١) باسيلي نيكيتين: الكرد، ص٣٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥٣.

في دراسته تلك إلى أنّ دُوموزي هو طاووسي مَلك، وأنّ عقيدة دوموزي (عقيدة الخلود والتقمّص) هي عقيدة الديانة الأيزدية، مع الأخذ بالحسبان أنّ عقيدة دُومُوزي ملك سومرية المنشأ، وأنّ الباحث يَعدّ السومريين من أقدم الأسلاف الذين أسّسوا التكوين الحضاري والإثنولوجي الذي كان الشعب الكردي خلاصته، وقدّم كثيرًا من الأدلة الميثولوجية واللغوية التي تعزّز آراءه وتقوّي النتائج التي توصّل إليها، وأعتقد من جانبي أنّ هذه الدراسة من أفضل الدراسات التي اطّلعت عليه إلى الآن والمتعلقة بالأيزدية، وهي خطوة علمية جريئة في مجال الميثولوجيا الكردية.

وإضافة إلى ما سبق فإن الأيزديين يرفضون التهجّم على عَزازيل (ملك طاووس)، كما مر سابقاً، ويستنكرون تجريده من القداسة واعتباره شيطانًا وإبليسًا ملعونًا، ونعتقد من جانبنا أن تلك الحملة وجهٌ ديني للمؤامرة التاريخية الكبرى التي نسج خيوطها وقادها أطراف ثلاثة لأغراض سياسية في الدرجة الأولى:

١ - **الطرف الأول**: هو الدولة الأخمينية، حامية الأيديولوجيا الزردشتية والمتحالفة مع العبران؛ وفي العهد القديم (التوراة) دليل واضح على ذلك التحالف نتيجة الجهود المنظَّمة التي قامت بها العبرانية الحسناء أَسْتِير زوجة الملك الأخميني كورش الثاني، وكانت تعمل بتوجيه وتخطيط من منظمة عبرانية سرّية كانت تنشط في أرجاء الإمبراطورية الفارسية، ويديرها عبراني على قدر كبير من الذكاء والدهاء هو عمّ أستير ويدعى مُرْدَخاي، ومن أبرز ثمار ذلك التعاطف سماحُ كورش الثاني للعبران بالعودة إلى فلسطين ومساعدتُهم في إعادة بناء هيكل سليمان، وكان نَبُوخَذْ نَصَّر البابلي (يسمى في المصادر العربية بُخْتنَصَّر، وحكم بين ٦٠٤-٥٦٢ ق.م) قد نفاهم إلى كردستان الجنوبية حينما استولى على أورشليم (القدس) ودمّر هيكل سليمان سنة ٥٩٧ ق.م.[1]

ومن المفيد أن نتذكر أنّ كورش الثاني قد اغتصب السلطة من جدّه لأمه الملك أَسْتِياك الميدي، وأقام الإمبراطورية الفارسية على أنقاض إمبراطورية ميديا، وحرص هو ومن ورثه في الحكم على إجهاض كلّ محاولة ميدية لاسترداد السلطة، وكان

---

(١) ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٦٩. حسن محمد محيي الدين السعدي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٢٠٢، ٢٠٤. **العهد القديم**، سفر أستير، الأصحاح ١-١٠.

هذا الهدف الكبير وراء اتخاذه العقيدة الزردشتية دينًا رسميًا للدولة والمجتمع، وفرْضه على الفرس والكرد والأرمن وسواهم من شعوب آريانا.

كما أنّ حرص كورش الثاني على منع الميد من استرداد الحكم كان وراء تحالفه مع العبران، باعتبار أنّ هؤلاء كانوا ضحايا الدولة البابلية، حليفة الدولة الميدية وعدوّة العبران، ومن المفيد أنْ نتذكر أنّ نبوخذ نصّر كان زوجَ ابنة الملك الميدي كَيْخَسْرو (كياكسارس)، ولا نستبعد أنّ كورش الثاني قد استعان بالعبران في بلاد الرافدين وكُردستان وفارس، على الصعيد التنظيمي (جمعيات سرية)، لترسيخ أركان دولته والقضاء على النفوذ الميدي والبابلي، وقدْ مرّ ذكر ذلك في صفحات سابقة.[(١)]

٢ - **الطرف الثاني**: بعض رجالات الكنيسة المسيحية الشرقية (الأرثوذكسية)، فالمعروف أنّ الإمبراطور قُسْطنطين اعتنق المسيحية حوالي سنة ٣١٢ م لأسباب سياسية، وأعلن المسيحية ديانةً رسمية للدولة سنة ٣١٣ م، واتخذ بيزنطا عاصمةً وسمّاها قسطنطينية، وبعد عهدٍ من الصراعات الكنسية أصبحت الأرثوذكسية عقيدة رسمية في الإمبراطورية البيزنطية، وقامت هذه الإمبراطورية في الجغرافيا نفسها التي كانت تقوم فيها إمبراطورية ليديا سابقًا، وكان على البيزنطيين القيام بالمتطلّبات الجيوبوليتيكية التي اضطر الليديون إلى التزامها سابقًا؛ ومن أبرز تلك المتطلبات الصراع العقائدي والسياسي ضد الكرد المتاخمين للإمبراطورية البيزنطية، باعتبارهم ورثة الميديين وحاملي رؤيتهم وثقافتهم، والسيطرة على كردستان، والسيطرة، من ثَمّ على طريق التجارة العالمي المتجه من السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط نحو شرق آسيا (طريق الحرير)، وإذا أخذنا هذه المعطيات التاريخية بالحسبان اتّضح لنا سبب الصراع الطويل بين الكرد وبيزنطا قبل الإسلام وفي الإسلام.

٣ - **الطرف الثالث**: هو الحكومات الأرمينية، خاصةً بعد أن تخلّت أرمينيا عن الزَّردشتية وصارت مسيحية على يد ملكها أَرْطاد الثالث في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي، وستتضح السياسات الأرمينية إزاء الكرد في صفحات تالية.

ومهما يكن فإنّ كثيرًا من الحقائق المتعلقة بالأيزدية ما زالت مجهولة لأسباب

---

(١) ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٦٩.

عديدة؛ أهمها، فيما نرى، عدم إفصاح القيّمين على شؤون الأيزدية عن أصول ومبادئ وطقوس هذا الدين بشكلٍ كافٍ، هذا إذا أحسنّا الظن واعتبرنا أنهم على معرفة دقيقة بذلك. ومن تلك الأسباب أيضًا جهلُ الأيزديين -رغمًا عنهم- بتلك الأصول والمبادئ، ووقوعُهم أحيانًا في قبضة الخرافات والأساطير؛ لأنّ حملات القهر والتكفير والإبادة التي شُنّت عليهم عبر القرون، خاصةً في العهد العثماني، حالت دون إعلانهم عن عقيدتهم بحُرية، ناهيك عن عدم قدرتهم على القيام بدراسات حولها. وهناك عوامل أخرى ساهمت في تغييب حقيقة الأيزدية، منها الحرب التي تعرّض لها التاريخ الكردي والثقافة الكردية طوال ٢٥ قرنًا، وإحجام الدول التي تتقاسم كردستان عن إقامة المؤسسات العلمية المختصة بالشأن الكردي.

ونحسب -كما يذكر ليسكو ونيكيتين- أنّ الحقائق التي بدأت تتكشّف حول الأيزدية ستقلب كثيرًا من الآراء رأسًا على عقب.[١] بل نحسب أنّ الحقائق المتعلقة بالتاريخ الكردي، التي لا بدّ أن تظهر في القرن الحادي والعشرين، ستغيّر كثيرًا من الأمور في الشرق الأوسط، وإنّ كثيرًا مما يعدّه الباحثون والمؤرخون مُسَلَّمات ستتّضح أنها أوهام وأباطيل وتحريفات، أو أنها مشكلات ومعضلات في أحسن الأحوال، ونأمل أن تقوم المؤسسات العلمية الكردية، لا سيّما مركز لالش الأيزدي في جنوبي كردستان، بهذا العمل المهمّ.

ولا يتوفّر لدينا مصدر موثوق لتحديد عدد الأيزديين، شأنهم في ذلك شأن سائر الكرد، لكن اعتمادًا على ما كُتب عنهم، وعلى نسبة التكاثر عند الكرد، قد يقارب عددهم نصف مليون نسمة، وربما أكثر، يسكن معظمهم قضاء شيخان (محافظة الموصل)، وتقع مزاراتهم المقدّسة في لالَش، وأبرزها مزار الشيخ عَدِي، كما أنهم يقطنون جبل سِنْجار، وهو موئلهم منذ القديم، وينتشرون في بعض قرى غربي كردستان (محافظة الحَسَكة السورية، وفي بعض قرى منطقة عِفْرين بمحافظة حلب) وفي جهات ديار بكر، وفي أرمينيا وبعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق الأخرى.[٢]

---

(١) باسيلي نيكيتين: **الكرد**، ص٣٥٣.

(٢) مينورسكي: **الأكراد**، ص٥٢-٥٥. منذر الموصلي: **عرب وأكراد**، ص٢٨٧-٢٩١. وللمزيد من المعلومات حول الإيزدية انظر كاظم حبيب: **الأيزيدية ديانة قديمة تقاوم نوائب الزمن**.

الكرد والإسلام:

التجار والفاتحون ودعاة الأديان لهم المسارات نفسها، تلك حقيقة يمكن على ضوئها تفسير كثيرٍ من الأحداث التاريخية التي قد تبدو غامضة الأسباب؛ لذا، ومع ظهور الإسلام، كانت أرض كردستان الجنوبية (شمال العراق حاليًا)، لا سيّما الجزء الجنوبي منها، أولى المناطق التي هاجمها الفاتحون العرب في الجبهة الشمالية الشرقية، باعتبار أنّ طريق التجارة العالمي (طريق الحرير) كان يمرّ من تلك المنطقة، وفيها وعلى أطرافها كانت تقع أهم المراكز العسكرية والإدارية في الدولة الساسانية الفارسية، وكان من الطبيعي أن تدور أكبر المعارك وأشرسها بين الجانبين العربي والفارسي على مداخل تلك المنطقة الكردية في البداية (معركة القادِسِيّة)، ثم داخلها لاحقًا (معركتا جَلُولاء ونَهاوَنْد).

وقد اعتنق الكرد الدين الإسلامي حربًا تارةً وسلمًا تارةً أخرى، لكن لا ننس أن الاعتناق سِلمًا حدث بعد الانصياع لسلطة الدولة العربية الإسلامية، والوقوع تحت تأثير الثقافة العربية الإسلامية، وأحسب أنّ أوجه التماثل في الأصول العَقَدية بين الأزدائية ودِينكَرْد والزَّرْدَشْتية من جانب والدين الإسلامي من جانب آخر قرّبت الإسلام إلى عقول الكرد ونفوسهم، ومن أبرز أوجه التماثل تلك: التوحيد، الإيمان بالبعث، الثواب والعقاب، إضافةً إلى بعض التماثل في الوضوء والصلاة والموجّهات الأخلاقية بشكل عام، ولعلّ الكرد وجدوا في العرب المسلمين منقذين لهم من التسلّط الفارسي الذي دام أكثر من ألف سنة، ومن التهديدات البيزنطية والأرمنية التي كانت تضايقهم من الغرب والشمال.

وغالبية الكرد المسلمين هم على المذهب السُّنّي، وأكثرهم شافعيون، ولعلّ حوالي خُمس الكرد على المذهب الشيعي، بما فيهم القِزِلْباش والشَّبَك (الشابك = الشاه بگ) والعلي إلهي (أهل الحق)، لا سيّما في شرقي كردستان (في إيران) وشمال غربي كردستان (في تركيا)، وقد تكون هذه النسبة أكثر أو أقل، إذ لا توجد إحصاءات دقيقة في هذا المجال.

وفي عهد النبي محمد، وفي أيام الفتوحات العربية، عوامل أتباع الزردشتية معاملة أهل الكتاب، وأُخذت منهم الجزية، وتُركوا على دينهم، وظلت بيوت النار منتشرة فيها، وقد ذكر ابن حَوْقل (ت ٣٦٥ هـ) أنه «لا تخلو ناحية ولا مدينة

بفارس، إلا القليل، من بيوت النيران، والمجوس أكثر أهل المِلل بها».[1] وبدأ التضييق الشديد على الزَّردشتيين في عهد سيطرة الصَّفَويين الشيعة على إيران (القرن السادس عشر الميلادي). يقول أرنولد توينبي في هذا الصدد: «لقد كان رعايا العرب من الزَّرْدَشْتيين أسرعَ وأكثر استعدادًا لقبول الإسلام من رعاياهم المسيحيين ومن أيّ مذهب كانوا».[2]

ومن أبرز الطرق الصوفية المنتشرة في الوسط الكردي:

● **الطريقة النَّقْشَبَنْدية**: وقد نشرها في كردستان الشيخ خالد بن حسين النقشبندي، ويُنعت بـ«حضرة مولانا»، وبدأ الشيخ خالد نشاطه في مدينة سُليمانية (في كردستان الجنوبية) في أوائل القرن التاسع عشر، وتوفي بدمشق سنة ١٨٢٦ م.

وكان الشيخ خالد رجلاً صالحًا وشاعرًا لاهوتيًا، يجيد الكردية والعربية والفارسية، وانتشرت طريقته في بلاد الكرد، ثم انتقلت إلى إيران وتركيا والبلاد العربية، وما زالت ذرّيته مقيمة في دمشق، ويعرفون باسم «آل الحَضْرة»، وتُعرف ذرّية أخيه محمود -وقد هاجر معه إلى دمشق- باسم «أولاد الصاحب»، وتولّى أحد ولدَي الشيخ محمود، وهو الشيخ محمد أسعد الصاحب، منصب «شيخ الإسلام» في عهد الخليفة العثماني السلطان محمد رشاد (عُيّن خليفة بعد عزل أخيه عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩ م).[3]

● **الطريقة القادرية**: تُنسب هذه الطريقة إلى الشيخ عبد القادر الجَيْلاني (الگيلاني)، (٤٧٠-٥١٦ هـ/ ١٠٧٩-١١١٦ م)، ومن الباحثين من ينسبه إلى الكرد، والمعروف أنّ منطقة جَيْلان تقع جنوبي بحر قزوين، وذكر ياقوت الحموي قرية تسمى «جَيْل» هي من أعمال (تابعة) لبغداد، علماً بأن بعض مناطق كردستان الجنوبية كانت من جملة المناطق التابعة لبغداد إداريًا، وذكر الأستاذ سيّد حسين الحسَني الزِّرْباطي أن گَيْلان منطقة تابعة لمناطق سكنى الكرد الفَيْلي في جنوبي

(١) ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص٢٣٧.

(٢) أرنولد توينبي: **تاريخ البشرية**، ٢/ ٩٣.

(٣) مينورسكي: **الأكراد**، ص٥١. منذر الموصلي: **عرب وأكراد**، ص٢٧٨-٢٨٢.

كردستان[1]. ومهما يكن فالأمر بحاجة إلى مزيد من البحث والتمحيص للوصول إلى رأي قاطع في نسبة الگيلاني إلى الكرد.

والطريقة القادرية تماثل الطريقة النقشبندية من حيث الأهمية الروحية في كردستان، وجدير بالذكر أنّ الكرد في تركيا قاتلوا دفاعًا عن القيم الإسلامية وعن الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٥م، بعد إلغائها سنة ١٩٢٤م على أيدي حزب «تركيا الفتاة» وزعيمها مصطفى كمال (أتاتورك)، وكان قائد الثورة هو الشيخ سعيد پِيران شيخ الطريقة النقشبندية، وكان من مطالبه تنصيب الأمير سليم ابن السلطان عبد الحميد خليفة؛ وقد تعاونت أوربا شرقًا وغربًا مع الكماليين، وأجهضوا تلك الثورة بزعم أنها رجعية.

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، طبعة ١٩٩٥، ٢/ ٢٠٢. سيد حسين الحسني الزرباطي: **الكورد الشيعة في العراق**، ط٢ ٢٠٠٧، موقع جلجامش.

الفَصْل الثّالث

تاريخُ الكُرد قَبل الإسلام

مدخل: لماذا الغُموض في تاريخ الكُرد؟

كي يكتب المرء عن موضوع ما بدقة وعمق ينبغي أن تتوافر لديه معلومات كافية عنه، والمؤسف أنّ المعلومات المتعلقة بتاريخ الكرد قليلة وغامضة ولا تكفي لاستخلاص نتائج دقيقة وحاسمة، والغريب أنّ هذه الظاهرة ليست حديثة، بل هي قديمة، فالحديث في المصادر التاريخية القديمة عن الكرد يأتي، في الغالب، على نحوٍ عارض إلى درجة أنّ المرء يشعر وكأنّ ثمّة تعمّدًا في هذا المجال. وإذا كان لعصر الإمبراطوريات عذره في هذا، فما عذر عصر القوميات والديمقراطيات وحقوق الإنسان والحيوان؟

ولعلّ من أسباب ندرة المعلومات عن الكرد أنّ عامّتهم كانوا قديمًا قَبَليين أكثر مما ينبغي، وأنّ خاصّتهم ومتنوّريهم كانوا أميين أكثر مما ينبغي، فضاع الشعور القومي بين القبَلية وما تعنيه من ضيق أفق وبين الأمية وما تعنيه من انصراف عن القومية. أما في العصر الحديث فما زال الكرد، منذ بداية القرن التاسع عشر، يعملون لتأسيس دولتهم القومية، وهم يأملون أن تلمّ شملهم وتحافظ على هويتهم، في حين سبقهم إلى ذلك جيرانهم العرب والفرس والأرمن والترك، والأسباب متنوّعة، ولا مجال الآن للبحث فيها.

وبما أنه ليس للكرد دولة قومية خاصة بهم فلم تكن لهم مؤسساتهم الأكاديمية العلمية واللغوية التي تتناول تراثهم بالبحث المنهجي، كما أنّ معظم من كتب عنهم قبل القرن العشرين هم من غير الكرد، فما استطاعوا الكتابة عن كردستان من داخلها

على نحوٍ دقيق. وزاد الأمر تعقيدًا أنّ ثمّة، في غرب آسيا، جهات ثقافية وسياسية متطرفة قوميًا عملت -وما زالت تعمل بعناد- على تغييب كلّ ما من شأنه إضاءة التاريخ الكردي أو التعريف بالشعب الكردي. على سبيل المثال، ذكر جاك كاليبو أنه زار العراق، وعرض على البعثي السوري المقيم هناك شِبْلي العَيْسَمي رغبته في زيارة إقليم كردستان، فقال له شِبْلي بنبرة المستنكِر: «لماذا الاهتمام بهؤلاء الناس؟ لا يوجد هنا سوى عراقيين عرب»[(١)].

ونحاول فيما يأتي أن نتتبّع بإيجاز تاريخ كردستان منذ أقدم العصور إلى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وضمانًا للموضوعية نكتفي في الغالب بعرض المعلومات والآراء التي ذكرها باحثون من غير الكرد.[(٢)]

١- الكُرد قبل الميديّين

مر فيما سبق أنه في عهد الانتشار الآري هاجرت بعض القبائل الآرية المتقاربة الأصل، على دفعات متلاحقة، من وسط آسيا، بدءًا من الألف الثالث قبل الميلاد، واستقرّت في غرب الهضبة الآريانية وجنوبها الغربي (جبال زاغروس)، ثم انتشرت غربًا أكثر، وقد ظهرت أخبارها في أزمنة متواكبة تارةً ومتلاحقة أحيانًا أخرى، وكان ذلك مرهونًا بالمرحلة التاريخية التي كان يلمع فيها اسم كلّ فرع سياسيًا، فتشير إليه المدوّنات السومرية أوالأكّادية أوالبابلية أوالآشورية أوالحِثّية أوالمصرية.

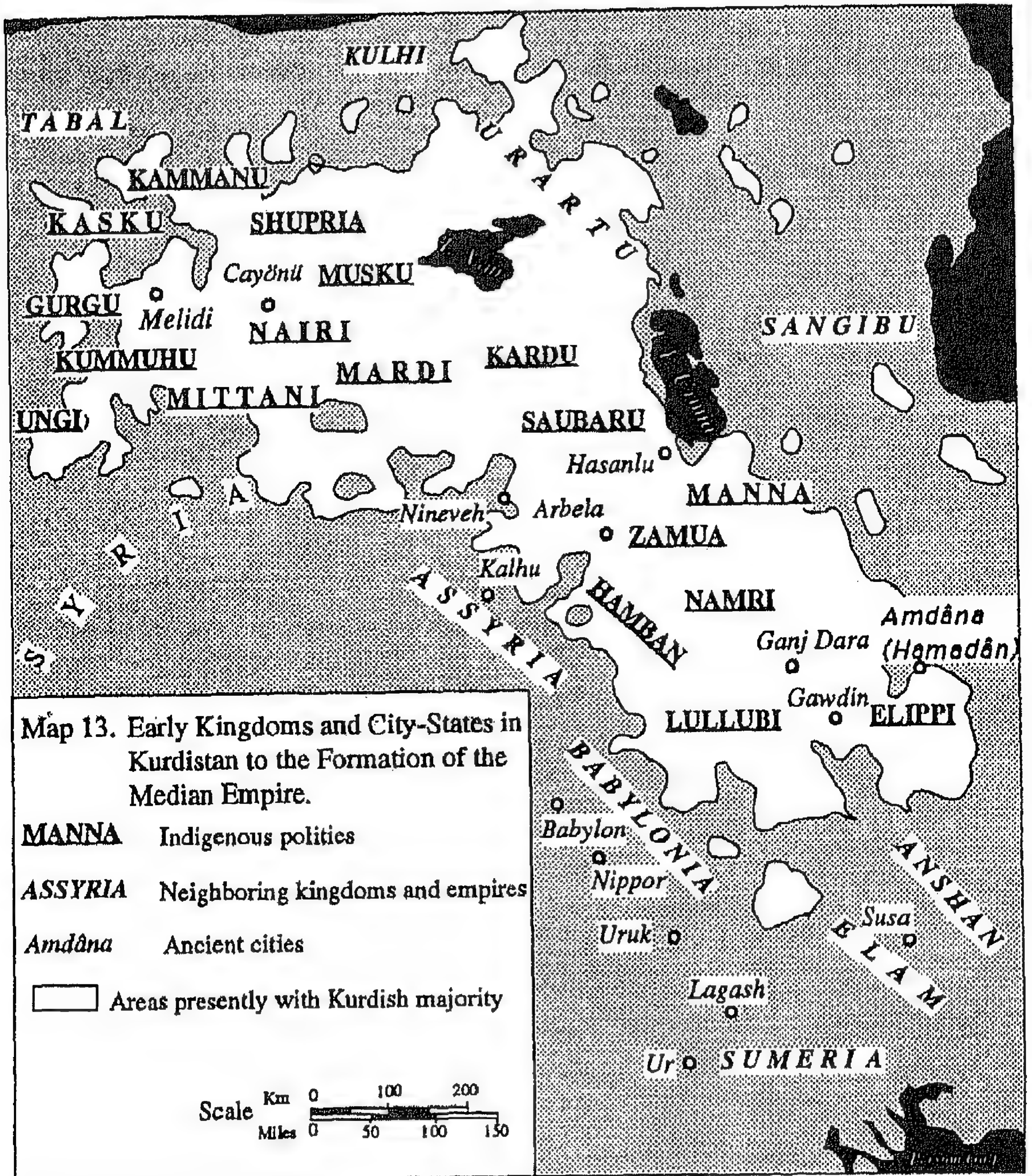
وقد تمازجت تلك القبائل والفروع عبر القرون في المنطقة التي عُرفت لاحقًا باسم كردستان، ثم توحّدت سياسيًا وحضاريًا تحت راية الفروع البارزة التي أسّست دولاً قوية؛ مثل الگُوتيين والحُوريين (المِيتّانيين) والخَلْديين (أُورارْتو)، وبرزت

---

(١) جاك كاليبو، نيكول كاليبو: **مذاهب ومِلَل وأساطير في الشرقين الأدنى والأوسط**، ص٤١. وشِبْلي العَيْسَمي بعثي سوري دُرْزي، كان من أعضاء القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، فرّ من سوريا بعد الانقلاب الذي قاده الرئيس السوري حافظ الأسد، وشغل مناصب حزبية قيادية في العراق، واختُطف في لبنان سنة ٢٠١١م، ثم قُتل سنة ٢٠١٢م فيما أذكر.

(٢) كنا قد انتهينا سنة ٢٠١١ من تأليف كتاب بعنوان **تاريخ أسلاف الكرد**، يشتمل على معلومات مفيدة بشأن أسلاف الكرد الزاغروسيين والآريين، ونأمل أن يُطبَع قريبًا، ويصل إلى القُرّاء.

الدولة الميدية أخيرًا في القرن الثامن ق.م، فبسطت سلطانها على جميع البلاد التي سكنها أحفاد تلك الفروع، وأنشأت تكوينًا إثنولوجيًا وحضاريًا متجانسًا، والشعب الكردي هو خلاصة ذلك التكوين الإثنولوجي الحضاري.



Map 13. Early Kingdoms and City-States in Kurdistan to the Formation of the Median Empire.

ممالك أسلاف الكرد في كردستان

دول في كردستان قبل الميلاد

وأبرز فروع أسلاف الكرد هي:

فرع لُولّو *Lullu*:

يسمى هذا الفرع «لوللوبي» و«لوللومي» أيضًا، وهو شعب زاغروسي جبلي، وتفيد لوحة أثرية مسمارية يرجع تاريخها إلى ٢٨٠٠ ق.م أنّ منطقة هالمان (حُلوان = هاوْرامان = زَهاو) كانت خاضعة لشعب لوللو، وهذا يعني أنهم كانوا يقيمون بالقرب من طريق الحرير التجاري المؤدّي من بلاد ما بين النهرين إلى قلب إيران، عبر كَرْمَنْشاه وهَمَذان (أكباتانا).

وازداد شأن قوم لُوللو ارتفاعًا في عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م)، وأصبح اسمهم يدلّ على كلّ القبائل الجبلية هناك في العصر البابلي القديم (١٩٠٠-٩١٢ ق.م)، وفي القرن الثامن ق.م طغت تسمية «زامُوَا» *Zamua* على مناطق لوللوبي *Lulubi*. ومن ملوك لوللو ملك يدعى لاسيراب، وكان معاصرًا للملك الأكّادي سَرْجُون الأول (حكم حوالي ٢٣٥٠ ق.م)، وترك ملك آخر يسمّى

تار- لوني نُصبًا في منطقة سَرَى بُولي في هُورِين شَيخان، وهذا النُصب يضاهي منحوتات الملك الأكّادي نارام سِين (حكم نحو ٢١٥١-٢١١٥ ق.م). ودخل شعب لوللو في حروب ضد الآشوريين أربع مرات في الفترة بين (٨٨٤-٨٨٠ ق.م)، وكانت مدينة زِيمْري عاصمة لوللو آنذاك.[1]

فرع كُوتي (جُوتي) *Guti*:

هذا الفرع هو من أقوام زاغروس الكبرى، ويعتقد الباحثون أنه الأصل الأول للأمة الكردية الحالية، وقد استقرّ في الجهات الجبلية الشرقية من نهر الزاب الصغير (الأسفل)، وامتد موطنهم حتى منطقة زَهاو (حُلْوان)، وكان له فيها مملكة مستقلة، وعلى يد الگوتيين سقطت مملكة أكّاد بعد انتهاء فترة آخر ملوكها البارزين شَرْكَلّي شَرّي الذي بدأ حكمه سنة ٢١١٤ ق.م، ومن أوائل ملوك الگوتيين أنّاتوم الذي حارب العِيلاميين، وكان ملكًا على لاغاش في القرن الحادي والعشرين ق.م.

ويذكر أرشاك سافراستيان أنّ مملكة گوتيوم كانت توجد في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، وحدّد الأستاذ عبد الرقيب يوسف تاريخ الدولة الگوتية بين سنتي ٢٢١٠-٢١١٦ ق.م، ويتطابق موقع تلك المملكة اليوم مع جنوبي كردستان (إقليم كردستان- العراق)، ويمتد إلى منطقة بُوتان شرقًا، وكانت عاصمتها في كركوك أو قربها، وتدعى أرّابْخا *Arrabkha*، وقد فرض أحد ملوك گُوتيوم -ربما يدعى أَمْبِيا *Ambia*- سلطته على بابل، ودمّر مملكة أكّاد التي كانت قد هيمنت فيما سبق على سومر.

وأفاد الأستاذ عبد الرقيب يوسف أنّ إطلاق اسم جُوتي (گُوتي) توسّع في الألف الأول قبل الميلاد حتى شمل بلاد ميديا وبلاد مانناي (جنوب بحر قزوين)، والأرجح أنّ اسم جبل جُودي قرب جزيرة بُوتان (جزيرة ابن عُمَر) منحدر من اسم فرع جوتي (گوتي)، وأنّ منطقة بُوتان كانت جزءًا من بلادهم، وكذلك منطقة كِيمُوخي (طُور عابدين)، وحكمت الدولة الگوتية بلاد ما بين النهرين حوالي ٩١

---

(١) محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ ٨٢-٨٨ . طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٢٩. جِرْنُوت فيلْهِلْم: **الحوريون**، ص٣١، الهامش رقم (١)، ص٣٥. سبتينو موسكاتي: **الحضارات السامية القديمة**، ص٢٥١.

عامًا، وفي رواية ١٢٥ عامًا، ومنحت الحكم الذاتي للأكّاديين والسومريين، وهذه أقدم صيغة للحكم الذاتي في تاريخ غرب آسيا.(١)

يقول الملك الآشوري شلما نصّر الأول (١٢٦٣- ١٢٣٤ ق.م): «إنّ الشعب الگوتي، الذي كان في سماء هذا العصر يتألّق كالنجوم الزاهرة، لم يكن متّصفًا بالقوة والسلطان فقط، بل كان معروفًا بالحزم والعزم والشدّة المتناهية والتدمير، فقد قاوم هذا الشعب بكلّ شدة وبأس إرادتي، وأصرّ على عدائي دائمًا».(٢)

وتغلّب الآشوريون على قوم گُوتي في النهاية بعد كثير من الأهوال وإراقة الدماء، ويقول شَلْمانَصَّر الأول نفسه في هذا الصدد: «إنّ دماء الشعب الگوتي أريقت كالمياه الجارية في منطقة كبيرة تمتدّ من حدود أُوراتْري حتى كيموخي».(٣) (انظر الخريطة رقم ٤).

فرع كاشُّو *Kashshu*:

قوم كاشُّو *Kashshu* يسمّى كاساي، كما يسمّى كاسّيت *Kassites* أيضًا، وجاء اسمه من اسم إلهه الجبلي كاشّو، ومن أسماء آلهة الكاشّيين الآرية: دُنياش وسُورياش وبُورياش، واتخذ الكاشّيون رموزًا للآلهة، وتجنّبوا صنع التماثيل لهم، واتخذوا الصليب رمزًا لإله الشمس، ومعروف أنّ الصليب كان رمزًا للإله ميترا (ميثرا/ مِهر) إله السماء، وإله العدل والمساواة، وإله الحرب الذي تتبعه الشمس. وأدخل الكاشّيون إلى بلاد ما بين النهرين عناصر حضارية جديدة، وأحدثوا لها اسمًا جغرافيًا جديدًا هو «كاردُنياش»؛ أي بلاد الإله «دُنياش»، وهم الذين أدخلوا إليها الخيل، وليس مستبعَدًا أن يكون لاسم «كرد» علاقة ما باسم «كاردوُنياش».

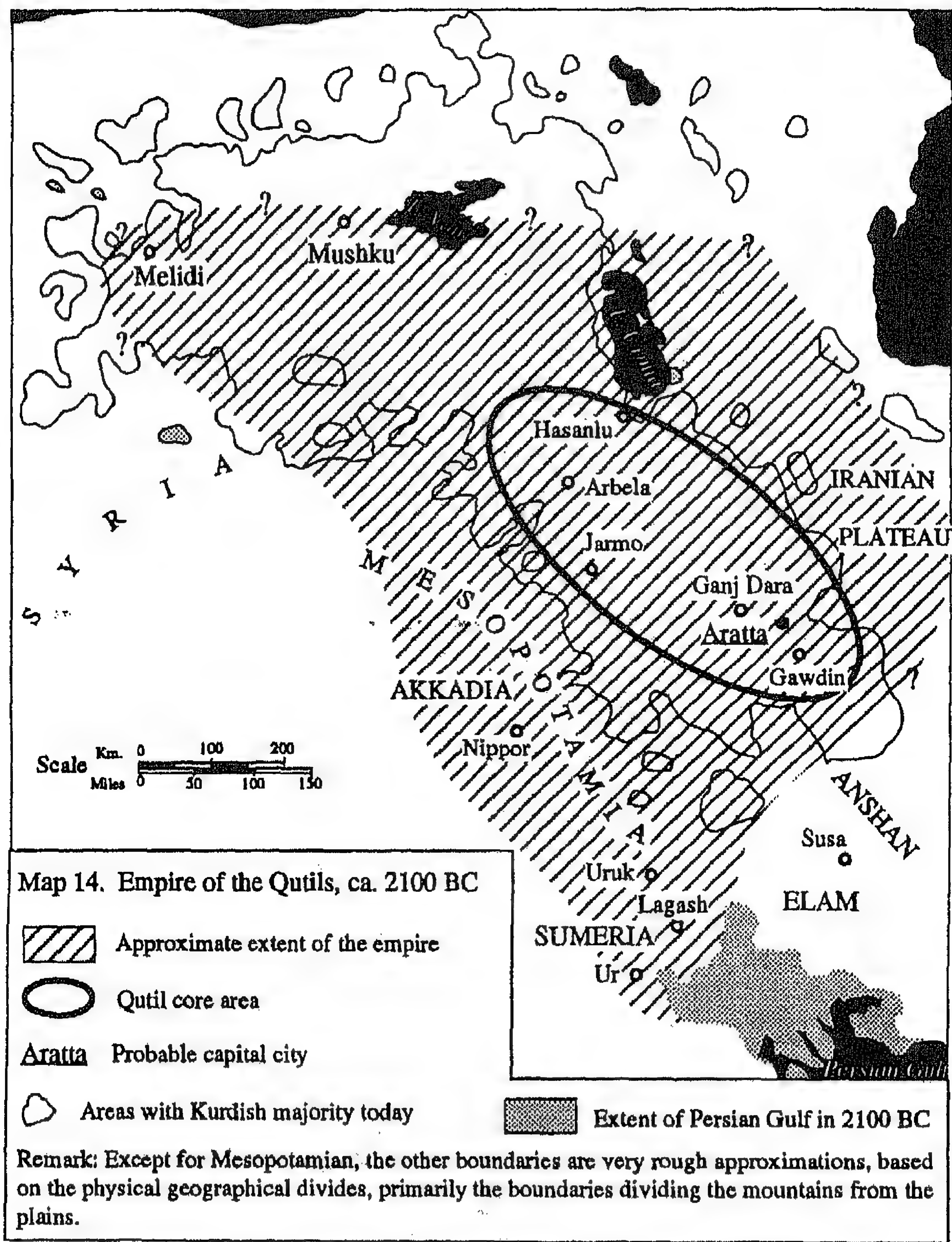
وقد استوطن الكاشّيون الجزء الأوسط من سلسلة جبال زغروس، وكانوا يغيرون على بلاد بابل، فهاجمهم البابليون وألحقوا الدمار ببلادهم، لكنّ الكاشّيين

---

(١) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 17. وانظر جرنوت فيلهلم: **الحوريون**، ص٣٢. باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٣٠. حسن محمد محيي الدين السعدي: **في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ٢/ ٨٥. عبد الرقيب يوسف: **حدود كردستان الجنوبية**، ص٤٣.

(٢) محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ ٩٢. وكُموخي هي طورعابْدين.

(٣) المرجع السابق، ١/ ٨٨-٩٢. وأوراتري هي أرمينيا حاليًا.



مملكة الگوتيين

تعاونوا مع الگوتيين واللوللو، وهاجموا بلاد بابل واستولوا عليها حوالي سنة ١٧٦٠ ق.م، ثم هاجموا بلاد سومر وسيطروا عليها، وظلوا يحكمون بابل وسومر قرابة ستة قرون، إلى سنة ١١٧١ ق.م تقريبًا، وظلّ هذا الفرع معروفًا بهذا الاسم إلى ما بعد الميلاد في لُورستان (جنوب غرب إيران)، ثم زال هذا الاسم وحلّ محله اسم «العشائر اللورية».(١)

يقول أرشاك سافراستيان بشأن قوم كاشّو: «لقد بدأوا غزو بابل، وكانوا قبيلة كبيرة أو اتحاد قبائل، وكانت تعيش في جبال زاغروس، شرقي بابل، وربّما شمالي أرض عِيلام مباشرة، وتختلف آراء الباحثين فيما يتعلق بهويّتهم، ويبدو أنهم كانوا نفس الشعوب والقبائل الكردية في لورستان بجنوب شرقي بلاد فارس، في سلسلة زاغروس، وأنّ اسمهم كاشُّو *Kashshu* الوارد في الكتابة المسمارية ربما يكون باقيًا في إقليم خُوزِسْتان *Khuzistan* الفارسي. إنهم كانوا من الشعوب الهندو- أوربية جغرافيًا، وهم مماثلون لشعب گوتيوم إثنولوجيًا».(٢)

ويضيف سافراستيان قائلاً: «وإنّ ملكًا كاشّيًا آخر، هو أغوم الثاني *Agum*، سمّى نفسه ملك أرض گوتي، بالإضافة إلى بلدان أخرى، وهذا يعني أنّ مملكة الكاشّيين قد أخضعت مملكة گوتيوم القديمة، وهذا ما كان يحدث مرارًا خلال التاريخ الطويل الكردي؛ إنّ قبيلة عظيمة كانت تحكم القبائل الأخرى كلما سنحت الفرصة، وتفرض سيادتها على كل الشعب».(٣)

فرع حُوري *Huri* (مِيتّاني) *Mittanni*(٤):

إن اللفظ الصحيح لاسم فرع حوري هو «خُورّي»، لكن شاع في الدراسات

---

(١) سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، إيران والأناضول، ص٧٨. جين بوترو وآخران: **الشرق الأدنى الحضارات المبكرة**، ص١٨٨، ٢١٣. أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ص٢٠٥-٢٠٦. عبد الرقيب يوسف: **حدود كردستان الجنوبية**، ص٤٨-٥١.

(٢) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 22. وانظر حسن محمد محيي الدين السعدي: **في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص١٤٢-١٤٩.

(٣) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 23.

(٤) انتهينا في شهر أيّار/ مايو ٢٠١٢ من تأليف كتاب بعنوان **مملكة ميتّاني الحورية**، فيه معلومات مفيدة بشأن الحوريين والميتّانيين، ونأمل أن يُطبَع ويصل إلى القرّاء.

العربية استعمال صيغة «حُوري»، ولصيغة «خُورّي» صلة بكلمة «خُرَدي» وتعني «الجندي اليقظ»، والحوريون من شعوب الشرق القديم، وقد ورد اسمهم في **العهد القديم** بصيغة «حُورِيم» و«حُوييم».

وثمة تداخل بين سُوبارتي وحُوري وميتّاني، ويرى الباحث الأمريكي جِلْب *Gelb* أنّ الحوريين هم الأحفاد المتأخرون للسُوباريين، ومهما يكن فإنّ التداخل بين فروع أسلاف الكرد أمر معهود، وكان الشعب يكتسب اسمه كلّ مرة من اسم الفرع المسيطر. ويُفهَم من الباحث الألماني جِرْنُوت فيلْهِلْم أنّ الميتّانيين فرع من الحوريين، فساد الحوريون أولاً، ثم تلاهم الميتّانيون، وكانت شهرتهم هي الأوسع انتشارًا، ولعلّ لاسم حوري دلالة ثقافية، ولاسم ميتّاني دلالة سياسية. وقد ظهر الحوريون خلال الألف الثالث ق.م، في البلاد الواقعة بين منعطف نهر الفرات والمجرى العلوي لنهر دجلة، وكان مركزهم منطقة مثلّث ينابيع الخابور، أما الحدود الشمالية لهم فلم تكن واضحة المعالم، ويرجّح أنها كانت تشتمل على مناطق طُور عابْدين والسهل المحيط بمدينة ديار بكر (آمَد).

وقد خضع الحوريون في البداية للتأثيرات السومرية والأكّادية، على أنّ دورهم الحضاري برز في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، فأسّسوا مملكة ميتّاني القوية حوالي سنة ١٤٥٠ ق.م، وكانت عاصمتها وَشُّوكاني (أُشُّوكاني = سَيكاني)، وشمل نفوذ الميتّانيين جميع مناطق كردستان وشمال سوريا، بما فيه حلب، وامتدّ خلال القرن الرابع عشر ق.م إلى المناطق السورية الوسطى، فوصل إلى قادِش (تل النبي مَنْد) على نهر العاصي في منطقة حِمْص؛ والخلاصة أنّ نفوذهم امتد من أرّابْخا (كركوك) شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا.

وحينذاك كان ما يسمّى الآن بمنطقة الشرق الأوسط ساحة تنافس بين ثلاث قوى إقليمية هي مملكة ميتّاني والدولة الحِثّية والدولة المصرية، وكانت العلاقة بين الميتّانيين والحثيين علاقة صراع على الدوام، كما اشتبك الميتّانيون مع المصريين في الحرب، لكن انتهى الأمر بين الطرفين إلى الصلح، وتقاسما سوريا فيما بينهما، وتحالفا معًا لدفع الخطر الحثّي.[1]

---

(١) جرنوت فيلهلم: **الحوريون**، ص١٧، ٢٤، ٦٠-٦٥. حسن نعمة: **موسوعة ميثولوجيا** =

وقامت علاقات مصاهرة بين الأسرتين الملكيتين في ميتّانيا ومصر خلال عهود الملوك الميتّانيين أَرْتاتاما الأول وشُوتّارْنا وتُوشْراتّا، ومن الأميرات الميتّانيات اللواتي وصلن إلى مصر أميرة تُدعى جيلو- خِپا (گلو خِبّا)، تزوّجها الفرعون تُحوتْمُس الرابع (حكم بين ١٤١٠- ١٣٩٠ ق.م)، فأنجبت الفرعون آمُونْحوتَب الثالث الذي يسميه الإغريق أَمْنُوفِس الثالث (حكم على الغالب بين ١٣٩٠-١٣٥٢ ق.م)، وتزوّج هذا الفرعون بأميرة ميتّاني اسمها تَتو- خِبا (تادو- خِپا)، ويبدو أنّ الفرعون آمونحوتب الرابع (أخناتون حكم بين ١٣٥٢-١٣٣٦ ق.م) تزوّج أيضاً أميرة ميتّانية تُدعى تَتو- خِبا (تادو- خِپا)، ولعلها هي التي اشتهرت بلقب «نَفَرْتِيتي»، وقد ضعفت العلاقات الميتّانية المصرية في عهد هذا الفرعون بسبب انشغاله بالمشكلات الداخلية الخطيرة التي نجمت عن قيامه بإلغاء ديانة الإله آمون، وإحلال ديانة الإله آتون الشمسانية محلّها.[1]

فرع سُوباري *Subari*:

كان هذا الاسم في عهد الأكّاديين في الأصل يدلّ على منطقة جغرافية تمتد من عِيلام شرقًا إلى جبال أمانوس غربًا، ثم صارت علمًا لقبائل كبيرة في كردستان كانت قد انفصلت عن الأقوام الأصلية القديمة المعروفة بأقوام زغروس، وذكر مِهْرداد إيزادي أنّ قبيلة زِيباري المقيمة حاليًا في كردستان الجنوبية تمتّ بصلة نسب إلى فرع سُوباري، وأنّ سوباري اسم أطلقه السومريون على الگوتيين. وتذكر الروايات التاريخية أحداث حروب الآشوريين ضد قوم سُوباري، ولا سيّما في عهد الملك الآشوري تيجلات بلاسّر الأول (١١١٤-١٠٧٦ ق.م)، وتلاشى اسم السوباريين في عهد الحكومات الآشورية، وحلّ محلّه شعب اسمه «نايري».[2]

= **وأساطير الشعوب القديمة**، ص٥٨. عبد الرقيب يوسف: **حدود كردستان الجنوبية**، ص٥٣-٥٥. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 31.

(١) جرنوت فيلهلم: **الحوريون**، ص٦٢-٧٠. وانظر محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ ٩٧. سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٧٨. أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، ص٢٠٢.

(٢) محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ ١٠٠. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 30.

فرع خَلْدي (نايري *Nairi*):

مرّ بنا أنّ هذا الشعب حلّ محلّ شعب سوباري، وكان شعب خَلْدي (نايري/ نَهْري) على جانب كبير من القوة والشجاعة، فاستطاع أن يتمثّل جميع أقوام كردستان ويدمجها في كيان واحد، وخاض حروبًا طاحنة ضد الآشوريين، واضطر الملك الآشوري تيجلات بلاسّر الأول إلى محاربة جيوش ثلاثة وعشرين ملكًا من ملوك خَلدي في هضبة مَلازْكِرْد، وانتصر عليهم، وأقام نُصْبًا عند منابع دجلة سجّل عليه انتصاره، والأرجح أنّ عشيرة نَهْري الكبيرة في كُردستان الوسطى -ومنها الشيخ عُبَيْد الله نَهْري قائد الثورة الكردية سنة ١٨٨٠م- هي من هذا الفرع.

يقول الباحث الميجر سون: «لم تكن بلاد نايري عبارة عن القسم الشمالي لنهر الزاب الأعلى فقط، بل الواقع أنّ الملك تِغْلات پلاسَّر وأحفاده كانوا يُطلقون اسم نايري على كلّ مَن يسكن نواحي منابع دجلة والفرات، وفي ولايات ديار بكر وخَرْبوط ودَرْسِيم الحالية، وفي جبال بَدْليس وطُوروس، وهذه البلاد هي التي شوهدت فيها إقامة الشعب الكوردوئي سنة ٤٠١ ق.م، جدّ الشعب الكردي الحالي، وحفيد الشعب الميدي الماضي، ومن ذلك التاريخ صارت أرض كردستان وطنًا لأقوام ذوي لغة واحدة».(١)

وتأسّست حكومة خَلْدي (أورارتو) في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، ومن ملوكهم ساردوريس الأول، وكان معاصرًا للملك الآشوري شَلْمانَصَّر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م)، وهو الذي بنى مدينة ترسباس (وان)، وبلغ نفوذ الخَلديين أقصى قوته في عهد الملك ميثواس، وخاض هذا الملك حروبًا كثيرة ضد الآشوريين في عهد شَلْمانَصَّر الرابع (٧٨٢-٧٧٢ ق.م).

وكان عهد ابن ميثواس وخلفه ساردوريس الثاني العصر الذهبي للخلديين، وبلغت المملكة الخَلْدية بحيرة أورميا شرقًا والقفقاس شمالاً والفرات غربًا، وظلّ الحكم الخَلْدي قائمًا حتى قضت عليه ثورات العشائر الگوتية سنة ٥٨٥ ق.م، ومن الباحثين من يرى أنّ الخلديين هم أجداد الأرمن، لكنّ جرنوت فيلهلم ذكر أنّ الأجزاء الجنوبية الشرقية من مناطق القفقاس، حيث استقر قوم خالدي، كانت موطنًا

---

(١) محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ص١٠١-١٠٣.

للحوريين قبل انتقالهم إلى بلاد الهلال الخصيب، كما ذكر وجود التشابه بين لغة شعب حوري وشعب خلدي، وتوصّل إلى أنّ اللغتين ترجعان إلى أصل لغوي واحد.[١]

ونحسب أنّ استقرار الأرمن في أجزاء من بلاد قوم خلدي أوهم بعض الباحثين أنّ الأرمن أحفاد خلدي، وقد وقع في هذا الخطأ بعض مؤرخي غرب آسيا في العصر الحديث، ومثال ذلك أنّ بعض ساسة ومثقفي عرب العراق حاليًا يعدّون أنفسهم من حفدة شعب سومر وورثته، ومعروف أنّ السومريين أقرب إلى الشعوب الآرية عرقًا ولغةً وثقافة، ولا علاقة لهم بالعرب لا من قريب ولا من بعيد، وكلّ ما في الأمر أنّ الشعوب السامية (أكّاديون، بابليون، عرب) استقروا على التوالي في جنوب بلاد ما بين النهرين (العراق)، وتناوبوا على حكمها، وعلى أية حال فالدراسات الموضوعية الجادة كفيلة بحل هذا الإشكاليات.

٢- الكُرد في العَهد الميدي[٢] (حوالي سنة ٨٥٠ - ٥٥٠ ق.م)

نشأة الدولة الميدية:

أخبار الميديين قليلة، وهي أحيانًا غامضة، والغريب أننا لا نعرف أخبارهم من مصادرهم وسجلاتهم، مع أنهم أسسوا دولة قوية، ثم بنوا إمبراطورية كبرى، وإنما نعرف أخبارهم من مصادر جيرانهم الآشوريين والفرس والأرمن، ومما دوّنه بعض اليونان أمثال أكسِنوفان (زِينوفون)، قائد المرتزقة العشرة آلاف، والرحّالة المؤرخ هيرودوت والطبيب المؤرخ كِتْسِياس؛ وهذا في حدّ ذاته دليل على حملة التعتيم والتغييب التي تعرّض لها التاريخ الميدي، وسليله التاريخ الكردي، منذ ثلاثة آلاف عام، وما زال بعض أصحاب الذهنيات الإمبراطورية في غرب آسيا يحملون لواء تلك الحملة بحرص شديد.

---

(١) محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ١/ص٩٨. جرنوت فيلهلم: **الحوريون**، ص٢٢، ٨٧، ٨٣. سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٨٨.

(٢) ألّفنا كتابًا بعنوان **مملكة ميديا**، وصدر عن مؤسسة موكرياني- في أربيل- سنة ٢٠١١.

وقد ذكرت المدوَّناتُ الآشورية، في القرن التاسع ق.م، اسم شعب يسمى «ميد» *Medes* وثيق الصلة بالفرس يقطن المنطقة المجاورة لبلاد آشور من ناحية الشرق، وادّعى كلٌّ من الملكَين الآشوريَّين تِغْلات پِلاسَّر الثالث (٧٤٧-٧٢٨ ق.م) وسَرْجُون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) أنهما ألزما الميد بدفع الجزية، وجاء وصفهم في الكتابات الآشورية بأنهم «الميديون الخطرون»، وأنهم شعب قَبَلي لم يتّحد تحت لواء ملك واحد.[١]

وكلمة ماديون (ميديون) هي باللغة الآشورية «ماداي» *Medai* و«أماداي» *Amadai* و«ماتاي» *Matai*، أما باللغة العيلامية الحديثة فهي «ماتا-په» *Mata-pe*، وباللغة العبرية القديمة «ماداي»، وباللغة الفارسية القديمة «مادا» *Mada*، أما باللغة اليونانية القديمة فهي «مادي/ ميدي» *Madoi*، *Medoi*[٢]، وباللغة الأرمنية القديمة «مار- ك» *Mar-k*، وباللغة البارتية[٣] «مات» *Mat*. ويرى دياكونوف تقاربًا في المعنى بين «أمادي» أو «ماداي» وكلمتَي «ماردوي» و«أماردوي»، ويقول: «فإنّ كلمة ماردوي وأماردوي باليونانية القديمة ومارتا في أويستا[٤] الوسطى جميعها تأتي بمعنى المحارب أو المقاتل أو المتمرّد، والمتمرّد الجبلي».[٥]

ويستفاد من الدراسات الدائرة حول الميديين أنهم أتوا إلى المنطقة التي سُمّيت لاحقًا كُردِستان منذ حوالي ١١٠٠ ق.م، وكانوا يتألفون من اتحاد ستة قبائل، سمّاها دياكونوف: *Boussi, Paretaknoi, Strouknates, Arizantoi Boudloi, Magoi*، وسمّاها هيرودوت بوسّي وباريتاسيين وستروكاتي وأريزانتي وبودي[٦] وماجي، وكانت اللغة الميدية مشترَكة بين بطون هذا الاتحاد القبلي، ويستفاد مما

---

(١) دياكونوف: ميديا، ص٧٢. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٣٧. هـ. ج. ولز: **معالم تاريخ الإنسانية**، ٢/ ٣٥٠.

(٢) هكذا تُرجم الاسمان، والصواب: مادُوِي، مِيدُوِي، فهاتان الصيغتان أقرب إلى الأصل الآرياني.

(٣) البارت يسمّون: الفرث، البرث، الأشگان، الأرشاك، وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أنهم صنف من السكيث. انظر مجموعة من الباحثين: **كركوك**، ص١٦٥.

(٤) أويستا هو (أفستا) كتاب زردشت.

(٥) دياكونوف: ميديا، ص١٤٦.

(٦) هكذا ورد الاسم، والصواب: بُودلُووِي.

ذكره أرشاك سافراستيان أنّ گُوتيوم سمّيت بعدئذ ميديا؛ ثم سمّيت المنطقة ذاتها كردستان؛ وهذا يعني -حسب رأيه- أنّ ميديا هي امتداد جغرافي وتاريخي وثقافي لگوتيوم باعتبار أنّ الگوتيين والميد سكنوا المنطقة ذاتها.[1]

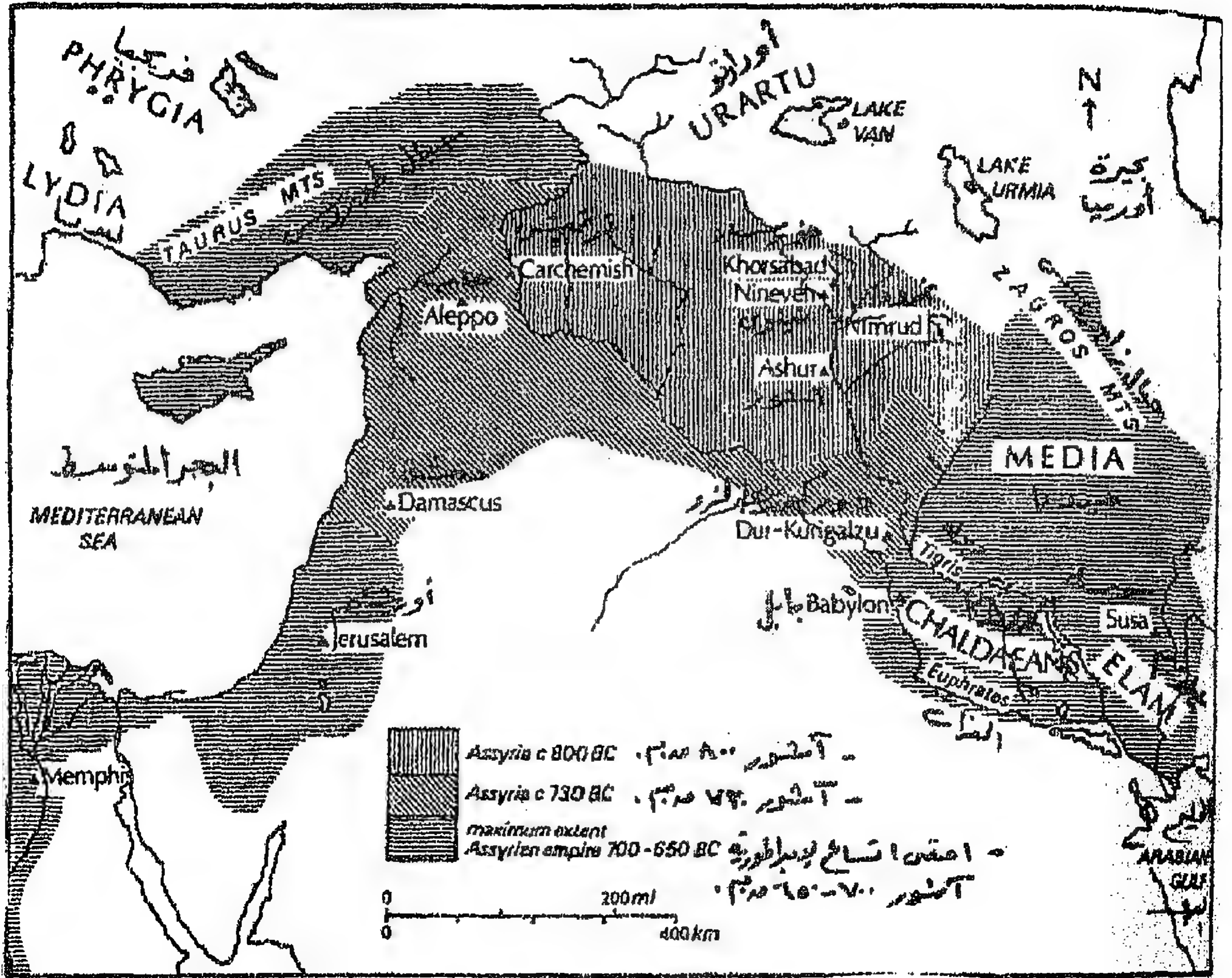
ولعلّ أبرز حدث في تاريخ الميد هو حربهم ضد إمبراطورية آشور، فقد كانت هذه الإمبراطورية هي الأقوى آنذاك في المنطقة التي تُعرَف اليوم بالشرق الأوسط، وتشمل إيران وأذربيجان وأرمينيا وكردستان والعراق وسوريا وتركيا (ليديا قديمًا)، وكانت فروع الشعب الميدي تتطلّع إلى الخلاص من السيطرة الآشورية، فشنّ ملوك آشور الحملات المتتالية على معاقلهم، وأنزلوا بهم أفدح الخسائر، ودمّروا مدنهم وقراهم، وأجبروهم أحيانًا على الهجرة إلى مناطق نائية. (انظر الخريطة رقم ٥).

وحدث أول اتصال بين الميد والآشوريين سنة ٨٣٥ ق.م أو سنة ٨٣٧ ق.م في عهد شلما نصّر الثالث، وكان الآشوريون في خصام دائم مع الميديين، وحقّقوا بعض الانتصارات عليهم، لكنهم عجزوا عن فرض سلطة فعلية عليهم، فقد حاربهم كلٌّ من شلما نصّر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) وشَمْشي حَدَد الخامس (٨٢١-٨١٠ ق.م) وتِغْلات پلاسَّر الثالث (٧٤٧-٧٢٨ ق.م) وسَرْجُون الثالث (٧٢٢-٧٠٥ ق.م)، كما حاربهم أسرحدّون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) وآشور بانيپال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م).[2]

---

(١) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٨٠. أرشاك سافراستيان: **الكرد وكردستان**، ص٢٤-٢٥. ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٣٠٨.

(٢) وِل ديورانت: **قصة الحضارة**، ٣٩٩/٢. دياكونوف: **ميديا**، ص٢٧٧. حسن محمد مُحيي الدين السَّعْدي: **في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٢٥١.



الإمبراطورية الآشورية

وحوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد برز زعيم ميدي عبقري يدعى دايكو *Daiku* بن فراورتيس *Phraortes* (حكم بين ٧٢٧-٦٧٥ ق.م)، ويسمى ديوكو *Dioku* وديوسيس *Deioces* أيضًا، ويسمّى في المصادر الفارسية كَيْقُباد، وأورد دياكونوف اسمه بصيغة «داي أُوك»، فوحّد صفوف الميديين تحت لواء تكوين سياسي باسم «اتحاد قبائل ميديا»، وانتقل بالميديين من ذهنية الانتماء إلى القبيلة إلى ذهنية الانتماء إلى الدولة، وسنّ القوانين وأصدر المراسيم، واتّخذ مدينة أَكْباتانا (آمدان = هَمَذان) عاصمةً للدولة الناشئة، وهي تقع في وادٍ خصيب جميل، ويرجّح أنها تعني بالميدية «ملتقى الطرق» أو «مجلس الاجتماع»، وكانت من أهم المراكز التي يمرّ بها الطريق التجاري العالمي «طريق الحرير».

وبعد أن نظّم دايكو (دَياكو/دَهْياكو) الأمور في المجتمع الميدي، ووحّد

القبائل وفق نظام لامركزي وأنشأ الدولة وأسّس الجيش، ثار على الإمبراطورية الآشورية وأعلن الاستقلال عنها وخاض ضدها الحرب، لكنّ الملك الآشوري سرجون الثالث تمكّن من القضاء على الثورة، وأسر دايكو سنة ٧١٥ ق.م ونفاه مع حاشيته إلى مدينة حَماه في سوريا، ثم أُعيد إلى ميديا أو إلى تخومها مع آشور بعد فترة غير معروفة.[(١)]

ظلّت ميديا خاضعة للإمبراطورية الآشورية إلى عهد الزعيم الميدي فراورتيس *Phraortes* ابن دايكو، ويسمّى خَشْتريت، ويسمّى في بعض المصادر گَشْتَريتي، وسمّي خشاثريتا *Khshathrita* في كتابات نقش بَيسْتون (بهستون) التي دُوّنت في عهد الملك الأخميني الثالث دارا الأول (٥٢٢-٤٨٠ ق.م)، وحكم فراورتيس بين ٦٧٤-٦٥٣ ق.م، وامتاز بدرجة عالية من الحنكة، حيث أعاد توحيد القبائل الميدية، وأسّس حكومة مستقلة في ميديا، وأخضع لسلطته بعض القبائل الآريانية، وأهمها السِّمّيريون (الكِمّيريون) *Cimmerians* والسكيث *Scythians*، كما أنه غزا بلاد فارس وأخضع القبائل الفارسية للسلطة الميدية.

وكان الزعيم الميدي فراورتيس قد بلغ مكانة مرموقة في عصره، حتى إنّ الملك الآشوري أَسْرحَدُّون شرع يخطب ودّه، وبلغت الجرأة به أنه هاجم العاصمة الآشورية نِينَوى، لكنّ السكيث، الذين كانوا قد تحالفوا مع الآشوريين، هاجموه من الخلف، فباء هجومه بالفشل وقُتل في المعركة، ولم يكتف السكيث بذلك، بل هاجموا ميديا وبسطوا سيطرتهم عليها ٢٨ عامًا، في الفترة بين عامي ٦٥٣-٦٢٥ ق.م.[(٢)]

بعد مقتل فراورتيس خلفه على الحكم ابنه كَيْ أخسار *Cyaxares* أو كَيْخسرو *kai-Khosru* (٦٣٣-٥٨٤ ق.م)، ويُسمّى في بعض المصادر «اكسركيس» و«سياشاريس»، وهو أعظم ملوك ميديا، وكان قائدًا محنّكًا حازمًا ورجل دولة

---

(١) دياكونوف: **ميديا**، ص٢٨، ١٤٣، ١٤٦. ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٣٠٨. وِل ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/ ٤٠٠. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٣٨. Mehrdad Izady: *The Kurds, pp. 28, 32*.

(٢) طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٣٩-٤٠. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 32.

عظيمًا، حرّر ميديا من السكيث، وفرض سيطرته على بلاد فارس من جديد، وأسكن القبائل الرحّالة ونظّم شؤونهم، وسنّ القوانين، ونظّم الجيش على أسس حديثة، مقتبسًا بعض أساليب السكيث في القتال؛ مثل سرعة الحركة والمناورة، وأسّس خيّالة سريعة الحركة، وميّز رماة السهام عن الفرسان.[1]

وبعد أن وطّد كَيْخَسْرو أركان مملكته عقد تحالفًا مع الملك البابلي نابوبولاصّر (٦٢٧-٦٠٥ ق.م) ضد عدوهما المشترك إمبراطورية آشور، وكان نابوبولاصّر واليًا على بابل من قبل الملك الآشوري آشور بانيپال، لكنه استقلّ عن الدولة الآشورية، وكان من مصلحته أن يتحالف مع الملك الميدي ليستطيع الوقوف ضد الآشوريين ويحرر بلاده.

بعد هذه الاستعدادات العسكرية والترتيبات الخارجية هاجم كَيخسرو إمبراطورية آشور سنة ٦١٥ ق.م، واتخذ أرّابخا (كرخيني = كركوك) -وكانت ذات أهمية بالغة- قاعدة لانطلاق أعماله الحربية، وزحف بجيشه على العاصمة نينوى، فقاومته مقاومة عنيفة، فاتجه إلى العاصمة الدينية آشور وفتحها، وعندئذٍ انضمّ إليه حليفه الملك البابلي، وهاجم الحليفان نينوى من جديد سنة ٦١٢ ق.م، فسقطت بعد دفاع آشوري مستميت، وانتحر الملك الآشوري ساراك بن آشور بانيپال، وتوّلى القيادة عمه آشور أُوباليت، فانسحب بفرقة من الجيش الآشوري إلى حَرّان، منتظرًا وصول المعونة من حليفهم الملك المصري أمازيس.

وأسرع أمازيس بالعون العسكري لحلفائه الآشوريين، وبعد مناوشات ومعارك عديدة، دامت بين سنتي ٦١٢-٦٠٥ ق.م، خسر الحلف الآشوري المصري الحرب أمام الحلف الميدي البابلي، وزالت من الوجود واحدة من أقوى إمبراطوريات العالم القديم. واستكمل كَيْخَسْرو توحيد المناطق التي استقرت فيها الأقوام الهندوأوربية على تخوم القوقاز، فهاجم دولة أُورارْتو وألحقها بمملكة ميديا، وأصبح غرب آسيا مقسّمًا بين أربع ممالك، هي: مملكة ميديا في كردستان الحالية، ومملكة كَلْدْيا في

---

(١) طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٤٠. ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/ ٤٠٠.
Mehrdad Izady: *The Kurds, p. 33*.

العراق الحالي، ومملكة ليديا في آسيا الصغرى (غرب تركيا حالياً)، والمملكة المصرية.[١]

قال هيرودوت مشيدًا بانتصار الميد على الآشوريين: «شقّ الميديون عليهم عصا الطاعة، فحملوا السلاح في وجههم، وقاتلوهم ونزعوا عن أعناقهم نِير العبودية، وباتوا أحرارًا، وكانت تلك مأثرة اقتدت بهم فيها أمم أخرى قُيّض لها أن تستعيد استقلالها، وهكذا استفحل أمر الثورة، فكان أن نعمت الأمم في كل أرجاء تلك الأرض بنعمة الاستقلال في تصريف شؤونها».[٢]

وقال النبي العبراني ناحوم يصف سقوط نينوى أمام الهجوم الميدي- البابلي، ومعبّرًا عن ارتياح الشعوب التي كانت تخضع للآشوريين، وكان حينذاك أسيرًا في نينوى وشاهدًا على الأحداث: «نَعِس رعاتُك يا ملك آشور، اضطجع عظماؤك، تشتّتَ شعبُك في الجبال ولا مَن يجمع. ليس جبرٌ لانكسارك. جرحُك عديم الشفاء. كلُّ الذين يسمعون خبرك يصفّقون بأيديهم عليك؛ لأنه على من لم يمرّ شرُّك على الدوام»؟![٣]

وأخضع كَيْخَسْرو السكيث الغزاة لسلطته، لكنهم كانوا ينتهزون الفرصة للانقلاب عليه، فهاجمهم وهزمهم، ففروا غربًا ولجأوا إلى مملكة ليديا في آسيا الصغرى. وطلب كيخسرو من إلياتّس ملك ليديا تسليمه السكيث الفارين، لكن إلياتّس رفض، فأعلنت ميديا الحرب على ليديا سنة ٥٩٠ ق.م، ودامت الحرب بين الدولتين ست سنوات، وصادف أن كسفت الشمس سنة ٥٨٥ ق.م، ففسّر الفريقان ذلك بأنه غضب من الآلهة، فتصالحا وتحالفا، وتزوّج أستياگ بن كيخسرو من إريينس ابنة إلياتّس، واستقر الأمر بين الملكين على أن يكون نهر هاليس (قزيل

---

(١) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٨٠. ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٣٢٠. طه باقر وآخران: **تاريخ إيران القديم**، ص٤٠-٤١. دياكونوف: **ميديا**، ص٢٨٤، ٢٩٥، ٢٩٤، ٢٩٦.

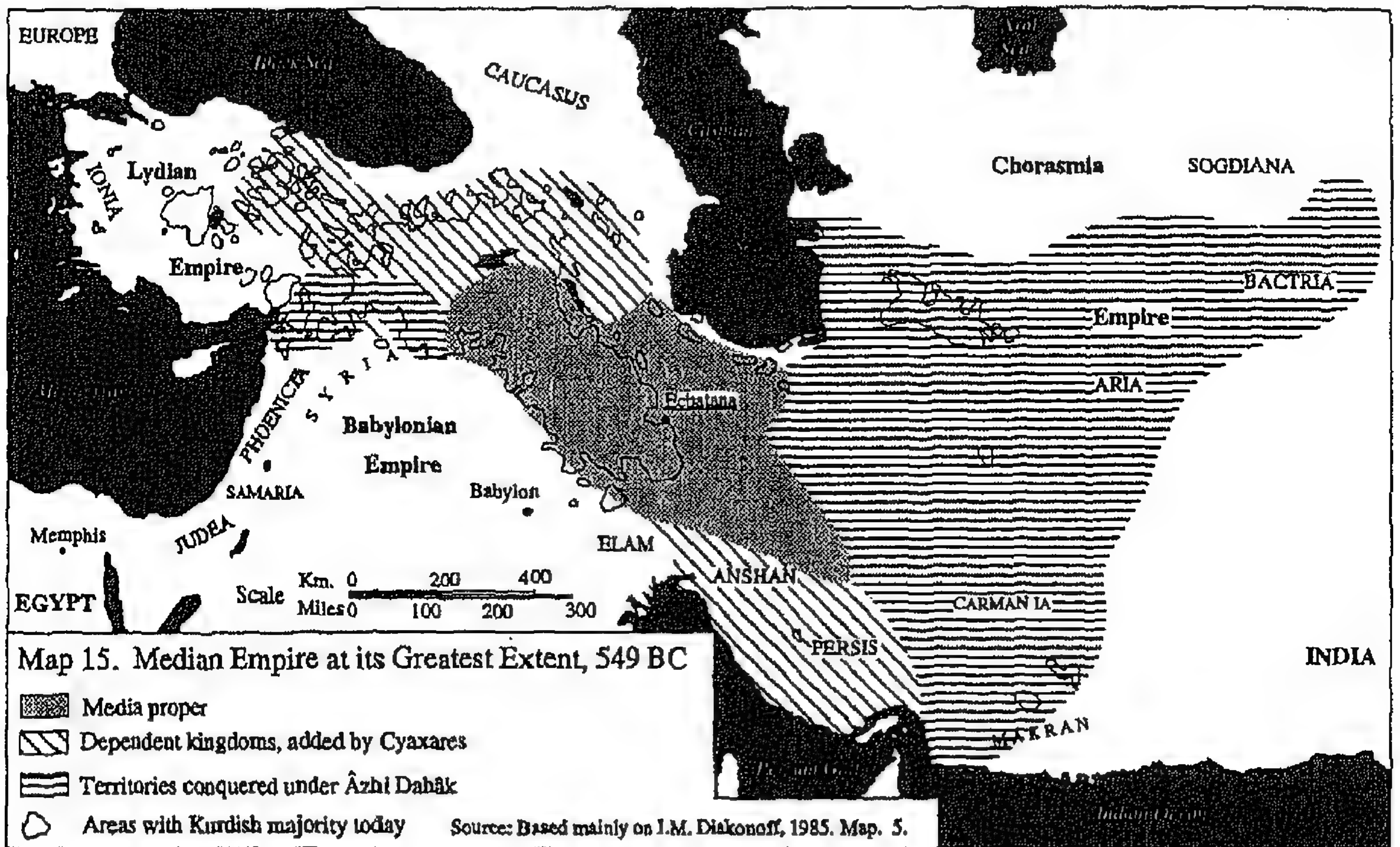
(٢) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٧٧. جيمس هنري برستد: **انتصار الحضارة**، ص٢١٦. ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٦٩.

(٣) **الكتاب المقدّس**، **العهد القديم**، سفر ناحوم، الأصحاح ٣، الآية ١٨، ١٩.

يِرْماق) حدّاً فاصلاً بين الدولتين.[1] (انظر الخريطة رقم ٦)

سقوط مملكة ميديا:

بعد وفاة كيخسرو سنة ٥٨٥ ق.م خلفه على العرش ابنه أستياگ (أستياجيس) *Astuages*، وقد حكم بين ٥٨٤-٥٥٠ ق.م، واسمه بالآريانية القديمة أرِشْتِفاكا *Arishti vaiga* أي «رامي الرمح»، وهو اسم كردي الصيغة، ويعني «الذي يرمي الرمح» *Ai recht Avaije*، وذكر مِهْرداد إيزادي أنّ أستياگ هو آزهي دهاك آژي دهاك) *Azhi Daihk*، الذي عُرف في المصادر الإسلامية باسم الطاغية (الضحّاك).[2]



إمبراطورية ميديا

---

(١) هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص٦٣-٦٤. دياكونوف: ميديا، ص٣٠٢. هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص٨٧.

(٢) دياكونوف: ميديا، ص٣٣٣. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 34.

وكان من نتائج التحالف الميدي البابلي والمصاهرة بين ميديا وليديا أن ساد الأمن والسلام في غرب آسيا، ونشطت حركة التجارة وكثر الثراء، وكان للمجتمع الميدي نصيب كبير من ذلك، قال وِل ديورانت: «وأصبحت الطبقاتُ العليا أسيرةَ الأنماط الحديثة والحياة المُترَفة، فلبس الرجالُ السراويلَ المطرّزة الموشّاة، وتجمّلت النساءُ بالأصباغ والحليّ، بل إنّ الخيل نفسها كثيرًا ما زُيّنت بالذهب، وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور كلَّ السرور في أنْ تحملهم مَرْكَبات بدائية ذات دواليب خشبية غليظة قُطعت من سوق الأشجار، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكلفة، ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة»[(١)].

وكان الانصراف إلى الترف والبذخ في العيش من أهم أسباب ظهور التناقضات الداخلية، فانتهز الفرس الفرصة للاستقلال بقيادة كُورش الثاني بن قَمْبَيز الأول، وأمه مانْدانا ابنة الملك الميدي أستياگ. وبدأ كورش العصيان في إقليم فارس حوالي سنة ٥٥٢ ق.م، وأقام تحالفًا مع الملك البابلي نابونيد ضد الميديين، وكان أستياگ قد هاجم بابل قبل ذلك، وجعل الحليف البابلي يتحوّل إلى عدو. كما كان كورش الثاني صديق دِيگْران الأول ابن يَرْوانْت حاكم أرمينيا التي كانت تحت النفوذ الميدي، وعندما قرر الثورة على الميديين أقام تحالفًا وثيقًا مع يَرْوانْت أيضًا[(٢)].

إنّ سياسات أستياگ الاستبدادية جرّت عليه نقمة بعض أعضاء الطبقة العليا في المجتمع الميدي، ومنهم هارپاگ (هارپاجوس) كبير قادة الجيش، وكان قد خان أستياگ في بعض الأمور، فقتل أستياگ ابنه وقدّم له لحمه طعامًا في وجبة عشاء حسبما زُعم؛ الأمر الذي جعل الأخير يقف ضد الملك، ويقنع بعض الكهّان الموغ والنبلاء والقادة الميد بالانضمام إلى كورش، ودارت الحرب بين أستياگ وكورش، وأخيرًا خسر أستياگ الحرب نتيجة خيانة هارپاگ وأتباعه، وابتهج بعض الميديين بالخلاص من طغيانه، وخسرت ميديا استقلالها، وأصبحت تابعة للإمبراطورية الأخمينية بدءًا من عام حوالي ٥٥٠ ق.م[(٣)].

---

(١) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/ ٤٠٢. وانظر Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 34.

(٢) حسن محمد محيي الدين السعدي: **في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٢٥٣. مروان المُدَوَّر: **الأرمن عبر التاريخ**، ص١١٩.

(٣) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٩٦، ٢٥٩. دياكونوف: **ميديا**، ص٣٤٣، ٣٨٦، ٣٩٢، =

ولما وقع أستياگ في الأسر جاءه هارپاگ يقرّعه ويهينه، فرماه الملك الميدي بنظرة ازدراء وسأله إن كان شريكًا لكورش فيما فعل، فصرّح هارپاگ أنه هو الذي حرّض كورش على الثورة، فقال له أستياگ: «إذًا فأنت لستَ الأشدَّ لؤمًا بين البشر فقط، بل أكثرَ الرجال غباءً، وإذا كان هذا من تدبيرك حقًا كان الأجدرُ بك أن تكون أنت الملك، ولكنك أعطيتَ السلطانَ غيرَك، واللؤمُ فيك جليّ، لأنك بسبب ذلك العَشاء حملتَ الميديين إلى العبودية، وإذا كان لا بدّ لك من أن تُسلّم العرشَ لآخر غيرك كان الأجدرُ بك أن تقدّم هذه الجائزة لميدي بدلاً من فارسي، لكنّ الحال القائمة الآن هي أنّ الميديين الأبرياء من كلّ جُنحة أصبحوا عبيدًا بعدما كانوا أسيادًا، وأصبح الفرسُ سادةً عليهم، بعد ما كانوا عبيدًا عندهم».[(١)]

٣- الكُرد في العَهد الأَخْميني (٥٥٠ - ٣٣٠ ق.م)

مرّ في الفصل الأول أنّ الفرس حينما قدموا إلى الهضبة الآريانية، في القرن التاسع قبل الميلاد، سكنوا المنطقة التي كانت تسمى «پارسوا» *Parsua*، وهي تقع جنوب غربي بحيرة أورميا، لكنهم هاجروا حوالي سنة ٨٠٠ ق.م من تلك المنطقة تحت ضغط شعب أورارتو (خَلْدي)، واتجهوا جنوبًا إلى أن سكنوا، حوالي سنة ٧٠٠ ق.م، في السهول الممتدة على طول جبال بَخْتياري القريبة من عِيلام، وأسسوا هناك دولتهم الأولى التي كانت تسمّى «پارسوماش».[(٢)]

نشأة الدولة الأخمينية:

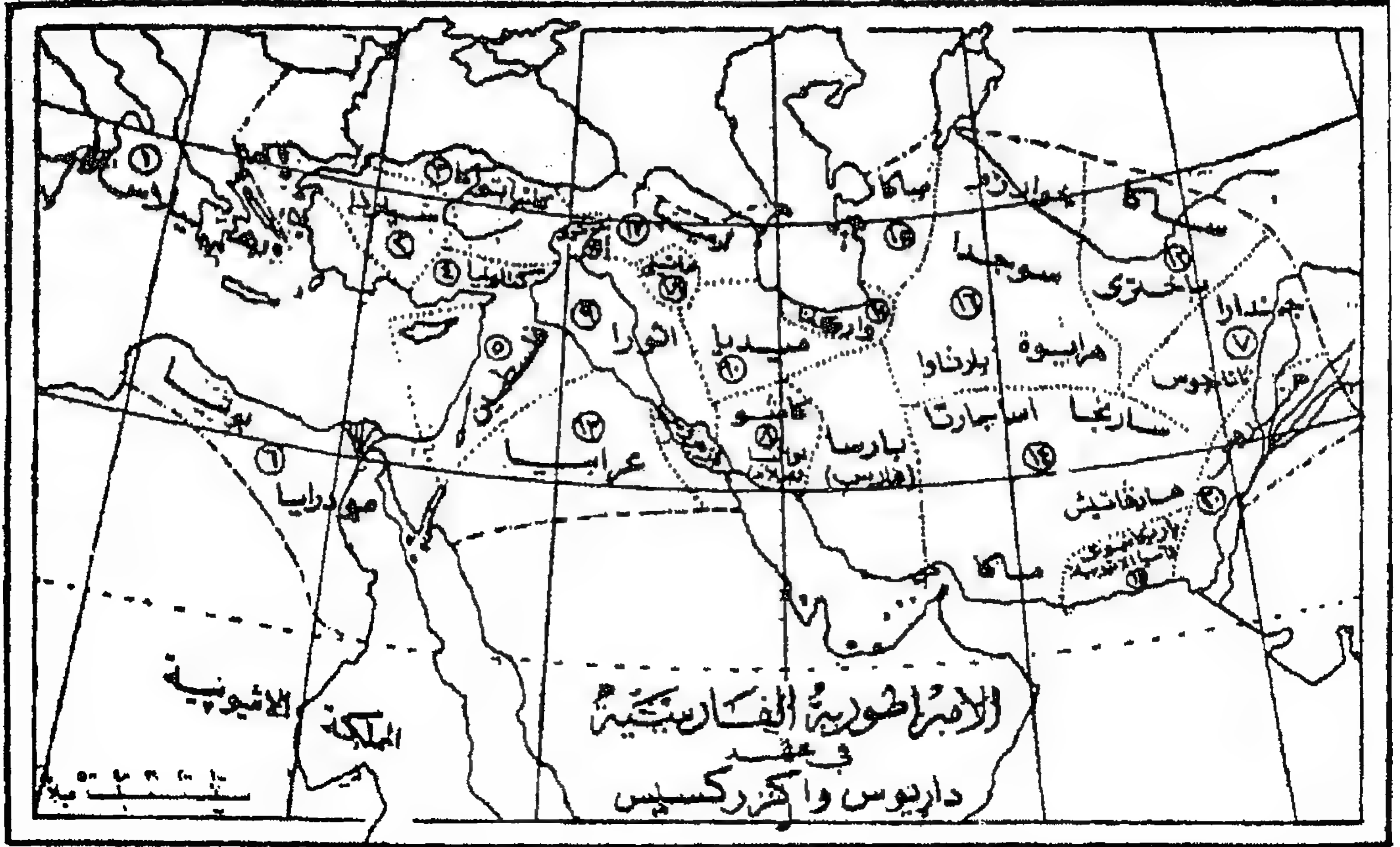
بعد فترات من التبعية، تارةً لعِيلام وأخرى للآشوريين وثالثة للميد، نهض الفرس تحت قيادة أسرة ملكية يسمّى جدّها الأول «أخميني» أو «أخماني»، ويبدو أنّ نجم هذه الأسرة كان في صعود، فقد تزوّج زعيمها قَمْبَيز الأول بن كُورش الأول من ماندانا ابنة الملك الميدي أَسْتِياگ، فولدت له كورش الثاني، ومرّ قبل قليل أنّ

= ٤١٢. أنطون مورتكارت: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٣٥٠، ٣٦٧. ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/ ٤١٠. أرنولد توينبي: **مختصر لدراسة التاريخ**، ٢/ ٣٠٢.

(١) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٨٢-٩٣.

(٢) طه باقر وآخران، **تاريخ إيران القديم**، ص٤٥.

كورش الثاني انتصر على جدّه لوالدته الملك الميدي أستياگ سنة ٥٥٠ ق.م، وأقام الدولة الأخمينية مكان الدولة الميدية.



الإمبراطورية الأخمينية

أثر الميد في الأخمين حضاريًا:

بعد سقوط مملكة ميديا خضعت كردستان للحكم الفارسي وظلت كذلك حتى سيطرة الإسكندر المكدوني على إيران بعد ذلك بقرنين من الزمان، ويبدو أنّ مقولة «فتحت روما أثينا عسكريًا، وفتحتها أثينا حضاريًا» تصحّ على الميد والفرس، فقد علمنا قبل قليل أنّ كورش الثاني الأخميني هو ابن ماندانا ابنة أستياگ آخر ملوك الميديين، وأنه رُبّي في كنف الثقافة الميدية، وعدا هذا فإنّ الأخمين اتخذوا في البداية عاصمة الميد «أگباتانا» عاصمة لهم قبل بناء عاصمتهم پرسوپوليس.

ويرى وِل ديورانت أنّ قِصر عمر الدولة الميدية لم يُتِح لها «أن تُسهم في الحضارة بقسط كبير»، وما لم يقله ديورانت هو أن التعتيم على المنجزات الميدية كان شاملاً، وهذا أمر أثار انتباه معظم من تناول التاريخ الميدي بالبحث، ومنهم دياكونوف، إذ يقول: «رغم أنّ علم التاريخ أصبح يملك أدلة أثرية ومصادر قديمة

في هذا القرن، إلاّ أنّ أحداث تاريخ ميديا لم تستفد من هذه المنجزات العلمية، بعكس الدول والبلدان الأخرى المعاصرة لميديا. إنّ ما تَقدّم كافٍ لنقول: إنّ آثار المدن والحضارة الميدية القديمة ما زالت كامنة تحت الأنقاض، وليست لدينا أية نصوص عن سلطة الميديين لمعرفة أحداث ميديا ودولتها»[١].

وأورد وِل ديورانت كثيرًا من الإنجازات الحضارية التي قام بها الميديون، وأخذها عنهم الفرس الأخمينيون، وهي دليل على أنّ ما أنجزه الميد لم يكن قليلاً؛ حيث قال: «فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية وحروفهم الهجائية التي يبلغ عددها ستة وثلاثين حرفًا، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرَّقّ[٢] والأقلام بألواحِ الطين، ويستخدمون في العمارة العَمَد على نطاق واسع، وعنهم أخذوا قانونَهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاقتصاد وحُسن التدبير ما أمكنهم وقت السِّلم وبالشجاعة التي لا حدّ لها في زمن الحرب، ودين زَرْدَشت وإلهيه أهورامزدا وأهرِمان، ونظامَ الأسرة الأبوي، وتعدّدَ الزوجات، وطائفةً من القوانين»[٣].

وذكر المؤرخون أنّ الفرس اقتبسوا الخط المسماري من الميد، كما أنّ اللغة الأدبية الفارسية تأثّرت كثيرًا باللغة الميدية، ويبدو أنّ الزيّ الميدي كان غايةً في الأناقة، بمقاييس ذلك العصر طبعًا، إلى درجة أنه كان معروفًا على النطاق الإقليمي والعالمي، وكان معظم الفرس يلبسون الملابس الميدية ويتحلّون بالحُلِيّ الميدية، بل كان من الأهمية بمكان أن يتلقّى أحد الأشراف من ملك الفرس بزّةً ميدية من باب التشريف، قال هيرودوت: «وليس هناك كالفرس شعب ينزع إلى الأخذ بمناهج من هو غريب عنه، فهم يرتدون أزياء الميديين مثلاً، لاعتقادهم أنّ تلك الأزياء أكثر أناقة من أزيائهم»[٤].

---

(١) دياكونوف: **ميديا**، ص١٧.

(٢) الرَّقّ: جلد خاص بالكتابة.

(٣) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/٤٠١. وانظر هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٣٥، ٦٢-٦٣. سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٤١، ٤٧. ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين**، ص٧٠. جيمس هنري برستد: **انتصار الحضارة**، ص٢٤٧، ٢٥٦.

(٤) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٩٦.

كان الميديون متقدمين على الفرس حضاريًا، وكان الملك الأخميني نفسه ربيب الثقافة الميدية، وكان من العاملين في الجهاز الإداري الميدي ويدرك أهمية استثمار قدرات الميديين الإدارية والحضارية بشكل عامّ في دولته الناشئة، فجعل الميد شركاء الفرس في المناصب الهامة، وهذا ما حدا بالمؤرخ أنطون مورتكارت أن يقول: «إنّ الشعب الميدي شقيق الشعب الفارسي، إنه احتل مكانًا رفيعًا بين هذه الشعوب المحكومة، وشارك في القيادة السياسية للإمبراطورية مشاركة أتت في الدرجة الثانية بعد الشعب الفارسي».(١)

ووصف هيرودوت لباس الفرس وعتادهم في الجيش الذي قاده أَحْشَوِيرَش (حكم بين ٤٨٦-٤٦٤ ق.م) لمهاجمة اليونان، فذكر أنهم كانوا يرتدون «القُبَّعة المثلّثة، وهي من اللّبّاد الناعم، والقميص المطرَّز مع أكمامه، وفوقَه الدِّرع الذي يبدو كحَراشِف السمك، والسِّروال، وأمّا عَتادهم فهو التُّرس المصنوع من قضبان الصَّفْصاف، وتحته المِقْلاع والرمح القصير والقوس القوية والسهام المصنوعة من الخَيْزُران والخنجر المربوط بالنطاق على الفخذ اليمني». ويضيف هيرودوت أنّ الفرقة الميدية في جيش أَحْشَوِيرَش كانت ترتدي الزيّ نفسه وتتسلّح بالعتاد ذاته، وأكّد أنّ «هذا النمط من اللباس ميدي الأصل، وليس زيًّا فارسيًّا بأيّ شكل».(٢)

دور الميد في عهد الأخمين عسكريًا:

شارك الميد على نحو فعّال في حروب الأخمين، لا سيّما ضد اليونان، ومن أشهر المعارك التي ساهموا فيها بفعّالية معركة «ماراثون» سنة ٤٩٠ ق.م، ومعركة «سَلاميس» سنة ٤٨٠ ق.م، ومعركة «پَلاتْيا» سنة ٤٧٩ ق.م، ويؤكد وِل ديورانت على مكانة الميد في الجيش الفارسي، فيقول: «وكان الجيش العامل كله من الفرس والميديين».(٣) وفيما يأتي بعض ما ذكره هيرودوت بشأن الدور الميدي، على الصعيد العسكري، في الدولة الأخمينية:

- في عهد الملك الأخميني أَحْشَوِيرَش الأول *Xerxes*، وهو ابن دار الأول

(١) أنطون مورتكارت: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص٣٧٤-٣٧٥.
(٢) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٥١٥-٥١٦.
(٣) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ٢/ ٤١٧.

(داريوس)، هاجم الأسطول الفارسي بلاد اليونان، و«كانت هذه السفن جميعها تحمل على ظهرها مشاةَ البحرية من الفرس والميديين والساكاي»[1].

● عبر أَحْشَوِيرَش بجيشه مقدونيا متّجهًا نحو اليونان، فتصدّى له الإغريق عند ممرّ بيلاي وأوقفوا زحفه خمسة أيام، فغضب «فوجّه إليهم الميديين والكسيسيانيين ليأتوا بهم أحياء»[2].

● في معركة سَلاميس (سنة ٤٨٠ ق.م) البحرية بين الفرس والإغريق في عهد أَحْشَوِيرَش «كان من بين من سقط في هذا الصراع. . . جَمْعٌ من مشاهير رجال فارس وميديا والأقوام المتحالفة معها»[3].

● بعد معركة سَلاميس بعام «احتشد الأسطول في سامُوس، وانضمّ إلى بقيّة السفن التي أمضت الشتاء هناك، وكان الرجال المحاربون على ظهر الأسطول إما من الفرس وإما من الميديين»[4].

قادة ميد في العهد الأخميني:

ذكر هيرودوت أنّ عددًا من الشخصيات الميدية تسلّم مناصب قيادية عليا في النظام العسكري الأخميني، وأبرزهم ثلاثة، وهم:

١- **هارپاگ**: يسميه هيرودوت «هارپاجوس»، ومرّ سابقًا أنّ هارپاگ ساعد كورش الثاني على انتزاع السلطة من الملك الميدي أَسْتِياگ، وإقامة الدولة الأخمينية. وتجلّى دور هارپاگ في المعركة الضارية التي دارت بين كورش الثاني والملك الليدي كُرُويْسوس قرب سارديس عاصمة ليديا في آسيا الصغرى سنة ٥٤٧ ق.م، إذ دهش كورش من مشهد الفرسان الليديين، وكان الليديون معروفين بالبسالة والبأس في القتال، وبحث عن طريقة يتغلّب بها على المقاومة الليدية، فقدّم له هارپاگ الطريقة التي تمكّن بها كورش من إبطال قدرات فرسان ليديا وتحقيق

---

(١) المرجع السابق، ص٥٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص٥٧١.
(٣) المرجع السابق، ص٦١٦.
(٤) المرجع السابق، ص٦٣٤.

النصر، قال هيرودوت: «ووجد الحلَّ فيما اقترحه هارْپاجوس الميدي، فعَمَد إلى حشد ما عنده من الجمال التي كانت تحمل المؤن والعتاد، وأراحها، ثم جعل على ظهورها جماعةً من محاربيه كالفرسان، ودفع بهم إلى المقدّمة في مواجهة الفرسان الليديين... أمّا السبّب في أنّ كورش جعل الجمال مقابل جياد الليديين فهو نفور الحصان من منظر الجمل ورائحته»[(١)].

٢- **مازاريس الميدي**: هكذا يسمّيه هيرودوت، فقد أوكل إليه كورش الثاني مهمة القضاء على ثورة الليديين، فأنجز المهمّة بحزم، وأعاد ليديا إلى النفوذ الفارسي[(٢)].

٣- **داتيس الميدي**: حينما أخفق القائد الفارسي ماردونيوس[(٣)] في هجومه على بلاد اليونان عيّن دارا الأول قائدين آخرين لتنفيذ المهمة، كان أحدهما داتيس الميدي، وقد أبدى داتيس احترامًا عميقًا لمقدّسات اليونان أثناء هجومه على بلادهم، وحين توجّهت سفنه بالمقاتلين إلى جزيرة ديلوس - فيها معبد الإله أبوللو بن زيوس كبير الآلهة- غادرها سكانها، فأمر داتيس السفن بألاّ ترسو في ديلوس، وبعث إلى سكان ديلوس رسالة جاء فيها: «أيها السادة المبجّلون، لماذا تهربون؟! ما هذا الرأي الغريب الذي تحملون، والذي يدفعكم إلى التواري؟! من المؤكّد أنني أمتلك من الحصافة -دونما حاجة إلى أوامر الملك- ما يكفي لأن أستثني الجزيرة التي ولد فيها أپولو وأرتميس[(٤)] وألاّ أقوم بأيّ عمل فيه ضرر لهما ولشعبهما، ولهذا فإنني أرجوكم أن تعودوا إلى بيوتكم وجزيرتكم»[(٥)].

يلاحظ بشكل عام أنّ الميد كانوا يشكلون قوات هامة في الجيش الفارسي إلى جانب المقاتلين الفرس الذين سمّاهم كورش الثاني «الخالدين»، وكان الملوك الفرس يعتمدون على المقاتلين الميد في المواقف العسكرية الحرجة كاعتمادهم على قوات الخالدين؛ ففي معركة پَلاتيا وضع القائد ماردونيوس قوات الخالدين في

(١) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٤-١٠٦.

(٣) ماردونيس هو ابن بنت دارا الأول، وقائد فارسي كبير.

(٤) من كبار آلهة اليونان.

(٥) هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ص٤٦٦-٤٧٦.

مواجهة اللاكيديمونيين، وعلى ميمنة الخالدين وضع القوات الميدية في مواجهة الكورنثيين والبوتيدائيين والأرخمينوسيين.[(١)]

٤- الكُرد بين العَهد الأَخْميني وظُهور الإسلام
(٣٣٠ ق.م - ٦١٠ م)

الكرد من السلوقيين إلى البَرْث:

بعد انتصار الإسكندر المكدوني على الملك الفارسي دارا الثالث في معركة گُوگَميلا *Gugamela* قرب أربيل، سنة ٣٣١ ق.م، أصبحت كردستان (ميديا وكوردوئين وغيرها من المقاطعات) تابعة لإمبراطورية الإسكندر، وكان حاكمَ ميديا الصغرى (أذربيجان الغربية التابعة لإيران حاليًا) زعيمٌ ميدي يدعى أتروپات *Atarapata*، وكان دارا الثالث قد استعان بالقوات الميدية بقيادة أتروپات لردّ هجوم الإسكندر، بل إنّ أتروپات كان قائد فرقة الاستطلاع في معركة گُوگَميلا.

بعد هزيمة دارا الثالث، وسقوط الإمبراطورية الفارسية في يدي الإسكندر، مارس أتروپات سياسة حكيمة مع الإسكندر ومع خلفائه بعد وفاته في بابل سنة ٣٢٣ ق.م، واستطاع رويدًا رويدًا الاستقلال بحكم ميديا الصغرى التي سمّيت في عهده باسم «أتروپاتيا»، قال دياكونوف: «دون شكّ كان أتروپات رجلاً شجاعًا وعاقلاً، ولو لم تكن الأيام والظروف الداخلية بين الأقوام الميدية مؤاتية، ولو لم يكن جيشه قديرًا، لما استطاع في ذلك الوقت أن يؤسس دولة جديدة مستقلة ويحافظ عليها مهما كان عاقلاً ومدبّرًا».[(٢)]

ويبدو أنّ أمجاد دولة ميديا الغابرة كانت لا تزال حيّة في ذاكرة أتروپات، فحرص على أن يوصل الحاضر بالماضي، فأحيا النهج الحضاري والسياسي الذي أرسى دعائمه زعماء ميديا الأوائل، قال دياكونوف: «إنّ المملكة الجديدة، التي كانت تسمّى رسميًا دولة ميديا، يسمّيها المواطنون «ميديا الأتروپاتية» أو يسمّونها

---

(١) المرجع السابق، ص٦٥٧-٦٥٨.
(٢) دياكونوف: ميديا، ص٤٢٢.

«أتروپاتيا». . . إنّ الدولة الجديدة حافظت على النهج السياسي والحضارة الميدية لعهد أيام ديوك الماضية».[1]

بعد وفاة أتروپات صارت ميديا من جملة البلاد التي كانت من نصيب سلوقس الأول، أحد كبار قادة اليونان، غير أنّ الاضطرابات ضد الحكم السلوقي لم تهدأ في ميديا، ودام الحكم السلوقي من حوالي سنة ٣١١ ق.م إلى حوالي سنة ٢٤٧ ق.م، حين سيطر الأشگان (الفرث = البرث = الأرشاك) على فارس وميديا، واستولى الأرمن على شمال ميديا بمعاونة الملك الأشگاني مِهْرداد في الربع الأول من القرن الثاني قبل الميلاد.[2]

الكرد بين الأرمن والرومان:

تابع الأرمن بسط نفوذهم على بلاد الكرد، وكان ذلك في عهد الملك الأرمني دِيگْران الثاني (الكبير)، وقد غزا هذا الملك البلدان المجاورة لأرمينيا، وأسس إمبراطورية تمتد من بحر قَزْوين غربًا إلى كَبادُوكيا وكِيلِيكْيا والساحل السوري بما فيه فِينيقيا غربًا، ومن قَفقاسيا (القوقاز) والبحر الأسود شمالاً إلى أربيل وسوريا الداخلية جنوبًا، وبنى عاصمته الجديدة دِيگْرانا كِيرْتا (فارِقِين) في كُردستان، وهذا يعني أنّ قسمًا من مناطق جنوب كردستان ومعظم مناطق شمال كردستان أصبحت تحت النفوذ الأرمني.[3]

وفي الربع الثاني من القرن الأول قبل الميلاد زحف القائد الروماني لُوكُولُّوس على ممتلكات أرمينيا، وهزم ملكها ديگران الثاني، واستولى على عاصمته الجديدة، لكنّ ديگران جدّد القتال ضد الرومان وألحق الهزيمة بلوكولُّوس بالقرب من نهر مُراد صُو، فتراجع الرومان إلى نِصِيبين، وكانوا قد اتخذوها قاعدةً لهم في حروبهم ضد الأشگان والأرمن، وهذا يعني أنّ كردستان أصبحت ميدانًا رئيسيًا للمعارك الطاحنة

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢٣-٤٢٤.

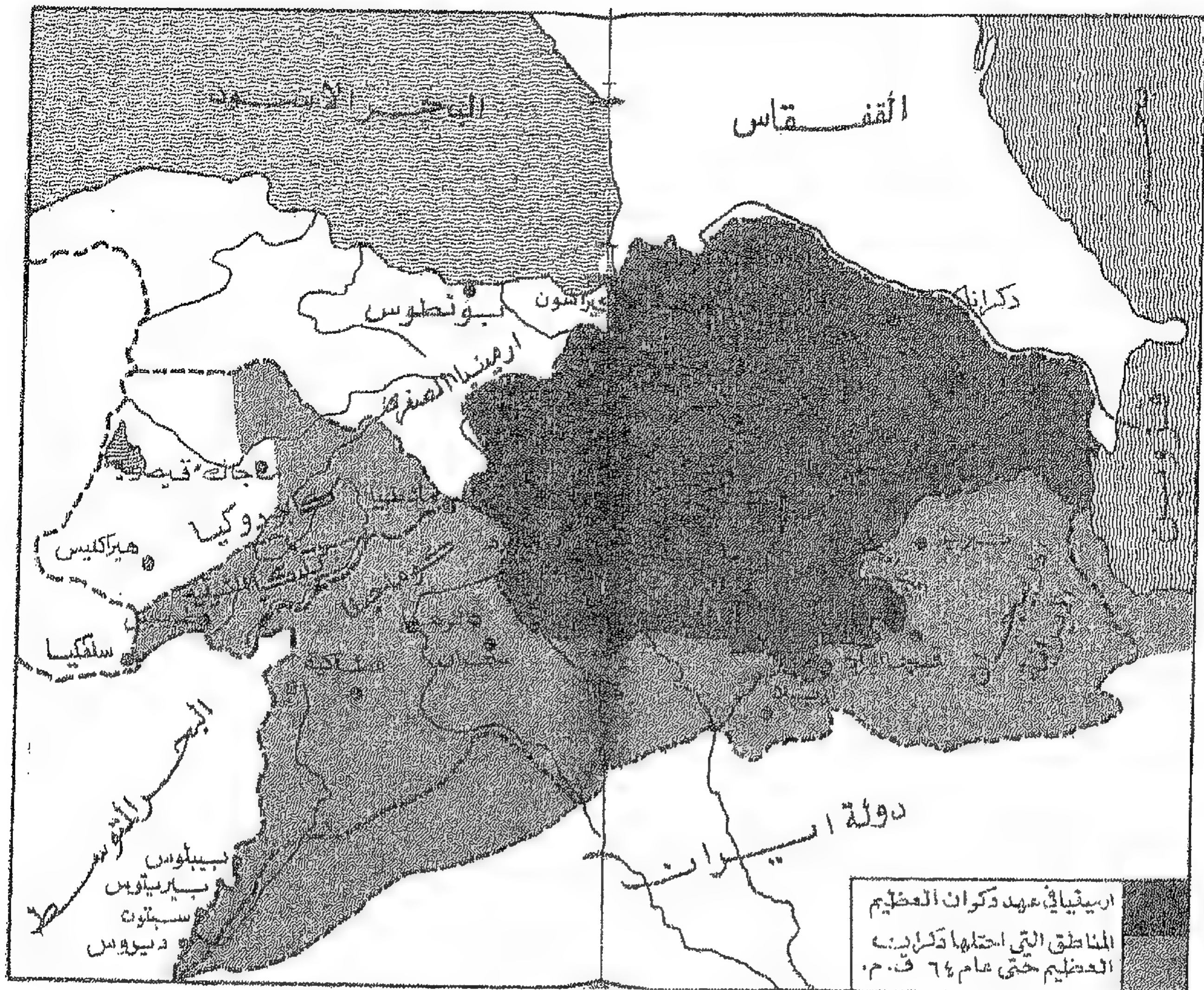
(٢) سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، ص١٣٠. وانظر مروان المُدوَّر: **الأرمن عبر التاريخ**، ص١٣٣-١٤٠.

(٣) مجموعة من الباحثين: **كركوك**، ص٣٨.

بين هذه القوى الإقليمية الثلاث حينذاك: الرومان، الأشكان، الأرمن.[1] (انظر الخريطة رقم ٨)

وفي سنة ٦٧ ق.م كلّف مجلس الشيوخ الروماني بُومْبَى بالهجوم على أرمينيا، ولم يستطع ديگران الثاني الصمود طويلاً هذه المرة، ففرّ إلى الجبال، ثم اتفق الطرفان على الصلح، لكن جُرّدت أرمينيا من ممتلكاتها في سوريا ولبنان وكبادوكيا وكيليكيا وكردستان، وتوفّي ديگران الثاني سنة ٥٥/ ٥٤ ق.م.[2]

بتدقيق النظر في التوازنات الإقليمية حينذاك يتضح أنّ الكرد - ممثّلين بالميد- لم يكونوا على هامش الأحداث، فقد كانوا يحاولون الخلاص من النفوذ الأشكاني، فكانوا يلقون التأييد والدعم من الطرف الروماني، وانجلت الصراعات الإقليمية عن معسكرين متنافسين متصارعين: الأول يضم الأشكان والأرمن، والثاني يضم الرومان والميد.



الإمبراطورية الأرمنية

(١) مروان المدوّر: **الأرمن عبر التاريخ**، ص١٥٥-١٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٧.

ونذكر -على سبيل المثال- أنّ الملك الأرمني أردافست الثاني بن ديگران الثاني (حكم بين سنتي ٥٤-٣٤ ق.م) لم يبقَ على الحياد في الصراع الأشگاني الروماني، وإنما تحالف حينًا مع الملك الأشگاني ضد الرومان، وتوطّد تحالفهما بعلاقة مصاهرة بين الأسرتين الملكيتين؛ الأمر الذي جعل القائد الروماني أنطونيو -زوج كليوباترا في مصر- يُلقي القبض على الملك الأرمني ويقوده إلى مصر ويعدمه هناك.

ويبدو أنّ الميد كانوا يقفون إلى جانب أنطونيو في الصراع، والدليل على ذلك أنّ الملك الأرمني أرداشيس الثاني (حكم بين سنتي ٣٠-٢٠ ق.م)، وهو ابن أَرْداڤَسْت الثاني، اشترك مع الملك الأشگاني فَرْهاد الرابع في حملة شنّاها معًا ضد الميد في المنطقة الواقعة بين تِبْرِيز وهَمَذان، باعتبارهم حلفاء لأنطونيو، وتمكّن أَرْداشِيس من قتل الملك الميدي أَرْداڤَسْت، مما جعل له مكانة خاصة في البلاط الأشگاني.[1]

وفي النهاية تأرجحت أرمينيا تتأرجح بين الميل مع الأشگان تارةً ومع الرومان تارةً، وظهر مركزان للقوة في القيادة الأرمنية: أحدهما أشگاني الهوى والثاني روماني الهوى. ولم يكن الميد خارج الصراع، ويبدو أنهم ظلوا على تحالفهم مع الرومان ضد الأشگان الذين يحتلون بلادهم، ونجد في الفترة بين سنتي ١-٢ م أنّ الحزب الموالي للرومان يسيطر على الأوضاع في أرمينيا، فترسل روما إليها حاكمًا من أصل ميدي يدعى أَرْيُوبارْزان، وعيّنت بعده حاكمًا ميديًا آخر، بين سنتي ٢-١١ م، يدعى أَرْداڤَسْت الخامس.[2]

الكرد في العهد الساساني:

في سنة ٢٢٦ م أسقط أَرْدَشَير بابَكان الدولة الأشگانية، وأسّس الدولة الساسانية (٢٢٦-٦٥٢ م)، وفرض سلطته على أرمينيا وكُردِستان، واتّخذ الزردشتية دينًا رسميًا لجميع إيران، وتشدّد في ذلك، حتى إنّ مَوبَذ مَوْبَذان (رئيس الكهنة وقاضي

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٨-١٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٠-١٦٢.

القضاة) كان الرجل الثاني في الدولة بعد الملك، بخلاف عهد الأشكَان الذين أفسحوا المجال للحريات الدينية. ولم تهدأ كُردِستان، وظلت الثورات والقلاقل قائمة فيها، وأصبحت مسرحًا للصراع بين الساسانيين والرومان، وكانت تقع في أيدي الروم وحلفائهم الأرمن تارةً وفي أيدي الساسانيين تارةً أخرى.[١]

بعد قيام الدولة الساسانية تغيّرت موازين القوى الإقليمية، إذ شرع الساسانيون يعملون على إخضاع أرمينيا، ويشنّون الحملات عليها، وذلك في إطار صراعهم الإستراتيجي ضدّ الرومان، فكان الأرمن بقيادة ملكهم دِرْطاد (تِيرداد) الثالث (حكم على ثلاث فترات بين ٢٥٠-٣٣٠ م) يقاومون الساسانيين، وما حلّت سنة ٢٩٤ م حتى احتل الساسانيون أرمينيا، وفرّ دِرْطاد إلى روما، وبقي هناك إلى سنة ٢٩٨ م، حين قفل راجعًا إلى أرمينيا عقب توقيع معاهدة الهدنة بين الساسانيين والرومان في نِصِيبين، ثم جرى أكثر من تقسيم للتركة الأرمينية، وبطبيعة الحال كانت كُردستان على الدوام في صميم ذلك التقسيم.[٢]

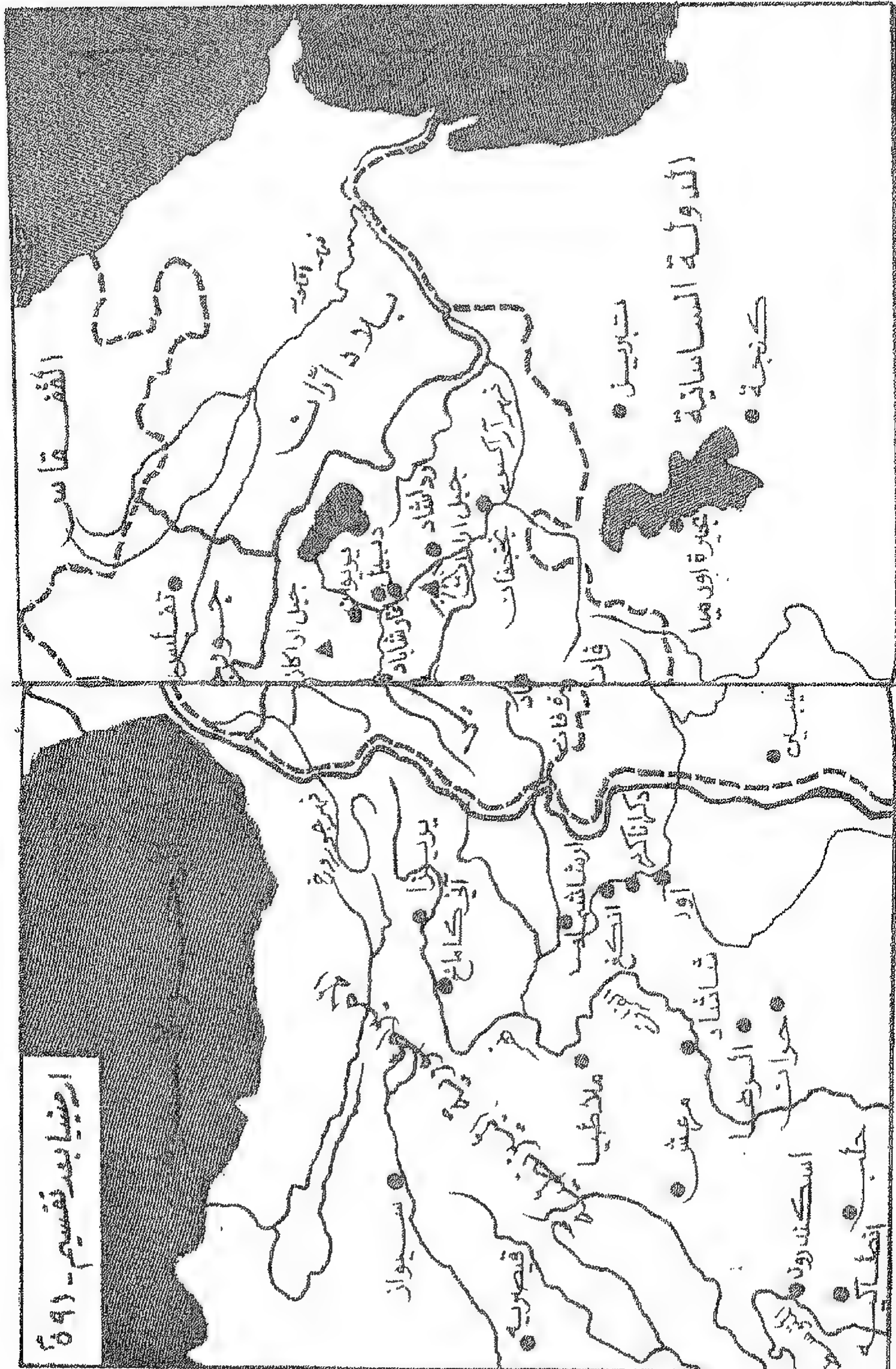
ولا ريب في أنّ العلاقات القائمة على التبعية تارةً وعلى التحالف تارةً أخرى، بين الأرمن والفرس من الأخمين والأشكَان، جعلت الأرمن يدينون بالزَّرْدَشتية، لكنّ الانعطاف الحادّ في السياسة الأرمنية -نقصد معاداة الفرس الساسانيين- كان أحد العوامل التي شجّعت دِرْطاد الثالث على اعتناق المسيحية باعتبارها عقيدة منافسة للزردشتية، وأعلنها ديانة رسمية للدولة الأرمنية، وكان ذلك في الفترة الأخيرة من حكمه؛ أي في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي.[٣]

غير أنّ سكان الجبال والقرى الكرد الواقعين ضمن النفوذ الأرمني بقوا على الزردشتية، وعندما اعتنق الإمبراطور الروماني قُسطنطين المسيحية حوالي سنة ٣١٢ م، وأعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة سنة ٣١٣ م، تعزّزت علاقات التحالف بين الأرمن والرومان، واتّخذ الصراع بين الساسانيين من جهة والرومان وحلفائهم الأرمن من جهة أخرى طابعًا دينيًا بين العقيدتين الزردشتية والمسيحية، واستمرت

---

(١) هـ. ج. ولز: **معالم تاريخ الإنسانية**، ٣/ ٧٥٠.
(٢) مروان المُدَوَّر: **الأرمن عبر التاريخ**، ص١٥٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٧٦.

الهجمات والهجمات المضادة المتبادلة بين المعسكرين المتنافسين على أرض كردستان، الأمر الذي أدّى إلى تدمير مناطق كثيرة منها، وظلت الحال كذلك حتى الفتوحات الإسلامية.



الحدود الفاصلة بين الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية

الفَصْل الرّابع

تاريخُ الكُرد
في عهد صَدر الإسلام والعَهْد الأُمَوِيّ

١- مَواطِن الكُرد في الإسلام

مدخل:

للحقائق الجغرافية أهمية بالغة في فهم تاريخ الشعوب وتفسير مسار الحضارات، وكلّ إغفال للجغرافيا هو إغفال للتاريخ نفسه، وكان الرئيس الفرنسي شارل ديغول على حق حين قال ذات مرة للرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر: «الجغرافيا هي العامل الثابت في صنع التاريخ».[١]

لذا من الضروري -ونحن نتحدث عن تاريخ الكرد في الإسلام- أن نعرف مَواطن الكرد إبّان الفتوحات الإسلامية وفي الفترات التي تلتها، فقد وقعت بلاد الكرد ضحيّة التباس حدث قبل الإسلام بقرون، حينما كانت موزّعة بين الدول الثلاث: فارس وأرمينيا وبيزنطا، ونتيجةً لذلك سُمّيت في المصادر الإسلامية «عراق العجم» حينًا، وعُدّت قسمًا من بلاد فارس وجزءًا من أرمينيا أحيانًا؛ وها هو ذا المَقْرِيزي (ت ٨٤٥هـ) يتحدّث عن أحياء الكرد، فيذكر أنهم كانوا يقيمون في فارس ويقول: «وأحياءُ الكرد تَكْثُر عن الإحصاء، غيرَ أنهم بجميع أحيائهم كانوا مقيمين بفارس، فكانوا يزيدون عن خمسمائة ألف بيت شعر، يَخرج من البيت الواحد نحوُ العشرين».[٢]

---

(١) محمد حسنين هيكل: **خريف الغضب**، ص١٤٣.

(٢) المَقريزي: **كتاب السلوك**، الجزء الأول، القسم الأول، ص٢٣.

ونرى من المفيد توضيح المصطلحات الجغرافية- الإدارية الواردة في المصادر العربية خلال العهود الإسلامية، وهي: الجزيرة وبلاد الجبل (إقليم الجبال) وأرمينية وأَذَرِبِيْجان وخُوزِسْتان وكِرْمان وفارس وخُراسان؛ فهي كثيرة التداول في تلك المصادر ولها صلة وثيقة بمَواطن الكرد.

أولاً- الجَـزيرة:

الجَزيرة تسمّى «ما بين النهرين»، كما أنها تسمّى «ميزوپوتاميا» عند اليونان والرومان، وهي المناطق الواقعة بين نهري دِجْلة والفرات في العراق وسوريا وتركيا، وتمتد من تِكْريت على دجلة إلى الحَدِيثة وعانَة على الفرات جنوبًا، ثم تتجّه شمالاً إلى منابع دجلة والفرات، هذا ما أجمع عليه أكثر الجغرافيين، ونسب بعضهم إلى هذا الإقليم مدنًا وقرى بعيدة عن ضفّتي النهرين، كالعِمادية وإربيل ومَعْلَثايا والبَوازِيج.[(١)] ويتفق الجغرافيون المسلمون القدامى المشهورون على هذا التحديد للجزيرة، ورسم أبو الفِداء (ت ٧٣٢هـ) حدودها كالآتي:

«والذي يحيط بالجزيرة الفراتُ من حدود بلاد الروم، وهو طرفُ الحدّ الغربي الجنوبي للجزيرة، فيمتدّ الحدُّ الجنوبي الغربي مع الفرات من مَلَطْيَة إلى سَمِيساط، إلى قلعة الروم، إلى البِيرَة، إلى قُبالة مَنْبِج، إلى بالِس، إلى الرَّقَّة، إلى قَرْقِيسيا، إلى الرَّحْبة، إلى هِيت، إلى الأنبار، ومن الأنبار يَخرج الفرات عن تحديد الجزيرة، ثم يَعْطِف الحدُّ من الأنبار إلى تِكْريت وهي على دِجلة، إلى السِّنّ، إلى الحَدِيثة على دِجلة، إلى المَوصل، إلى جزيرة ابن عُمَر [جزيرة بُوتان] ، إلى آمَد، ثم يصير الحدُّ غربيًا ممتدًا بعد أن يتجاوز آمَد إلى حدود أرمينية، إلى حدود بلاد الروم، إلى الفرات عند مَلَطْية من حيث ابتدأنا. فعلى هذا يكون بعضُ أرمينية وبعضُ الروم غربيَّ الجزيرة، وبعضُ الشام وبعضُ البادية جنوبيَّها والعراقُ شرقيَّها وبعضُ أرمينية شماليَّها».[(٢)]

---

(١) حسن شُمَيْساني: **مدينة ماردين**، ص١٤-١٥.

(٢) أبو الفداء: **تقويم البلدان**، ص٢٧٤. وانظر ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٨. الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص٦٥٥، ٦٦٥. والقزويني: **آثار البلاد**، ص٣٥١. ابن رَسْته: **الأعلاق النفيسة**، ٧/ ١٠٧. وسَميساط هي آدِيَمان، والبِيرة هي على الأرجح بِيرَه جيك.

خريطة الجزيرة من كتاب **صورة الأرض** لابن حَوْقَل

خلال الفتوحات الإسلامية، وفيما بعدها، قُسّمت الجزيرة إلى ثلاث مناطق بحسب القبائل العربية التي استقرت فيها، وهي:

أ - **ديارُ رَبِيعة**: من الجنوب إلى الشمال: هِيت والدَّالية وماكِسِين وسِنْجار والمَوصل ونِصِيبِين (شمالي قامشلي على الجانب التركي) وكَفْرتُوثى وبَرْقَعِيد وبَلَد وسِعِرْت (إِسْعَرْد = سِرْت).

ب - **ديارُ مُضَر**: ومن مدنها الرَّقّة وقَرْقيسيا (كَرْكَميش = قَرْقَميش) على الفرات والخابور بالقرب من الرَّقّة وحَرّان والرُّها وسَرُوج.

ج - **ديارُ بَكْر**: ومن مدنها آمِد ومَيّافارِقِين وشِمْشاط (خَرْتَبِرْت = خَرْبُوت = حِصْن زِياد = آلازيغ) وقالِيقَلا (أَرْزَن الروم) وحِصْن كَيْفا (حَسَنْكَيْف).[1]

وضروري أن نأخذ بالحسبان أنّ إقليم الجزيرة كان ينتقل قبل الإسلام من النفوذ الفارسي إلى النفوذ البيزنطي، وبالعكس، وعلى الغالب كانت المنطقة التي سُمّيت في الإسلام «ديار رَبِيعة»، والممتدّة من شمالي تِكريت إلى نِصِيبين وبَلَد وسِنْجار شمالاً بما فيها الموصل، تقع ضمن الممتلكات الفارسية، وكانت المنطقة التي سُمّيت في الإسلام «ديار مُضَر» و«ديار بَكْر» وجزءٌ من المنطقة التي سُمّيت «ديار رَبيعة»، بما فيها رأس عين ودارا وماردين، تقع ضمن الممتلكات البيزنطية.

ثانيًا - إقليم الجبال (بلاد الجبل):

هي المنطقة التي تقع غربي إيران وشماليها الغربي، وتفصل العراق العربي عن قلب إيران، وتشكّل جبال زاغروس عمودها الفقري، وقد عُرفت الأقسام الجنوبية منها في العصر الأكّادي باسم «عِلْياتيم» *Eliatim*، ودُوّنت في عهد الملك البابلي حَمُورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) بصيغة «ماتيوم عليتوم» *Matum Elitum*؛ أي البلاد العليا، وكانت تشمل في العصر البابلي أقاليم: ماراهشي، أُورْكِيش، ناوار، گُوتْيوم، زامُوا، سِيموروم، أُوربيليوم، وذكرها الفرس قديمًا باسم «قُوهِسْتان» وتعني «بلاد الجبال»، وذكرها العرب في الإسلام بالاسم نفسه «بلاد الجبل».[2]

وأفاد ابن حَوْقَل (ت بعد ٣٦٧هـ) وأبو الفِداء (ت ٧٣٢هـ) أنّ الحدَّ الشرقي لبلاد الجبل صحراء خُراسان وفارس وأَصْبَهان وشرقي خُوزِستان، وحدُّها الغربي أَذَرْبِيجان، وحدُّها الشمالي بلادُ الدَّيْلم وقَزْوينُ والرَّيُّ (قرب طهران حاليًا)، وحدُّها الجنوبي العراقُ وبعضُ خُوزِسْتان.

وتشتمل بلاد الجبل على: حُلْوان (أَلْوان = هالْمان = هاوْرامان = زَهاو) وإربل

---

(١) أبو الفداء: **تقويم البلدان**، ص٢٧٧-٢٨٩. وانظر ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص١٨٨-١٨٩.

(٢) مجموعة من الباحثين: **كركوك**، ص١٤٤.

(أربيل) وشَهْرَزُور وسُهْرَوَرْد وزَنْجان (أقصى مدن الجبال شمالاً) وقَصْر شَيرِين وقَرْمِيسِين (كِرْمَنْشاه) ودِينَوَر وهَمَذان (وسط بلاد الجبال، ومن نواحيها نَهاوَنْد وبُرُوجِرْد وقُمْ في أقصى شرقي بلاد الجبل) وأَصْبَهان (في أقصى جنوب شرقي بلاد الجبل) واللُّور (في أقصى جنوبي بلاد الجبل) وجبل دُنْباوَنْد (في أقصى شمال شرقي بلاد الجبل)، وكانت بلاد الجبل تتبع إداريًا الكوفةَ والبصرة.(١)

وحينما خصّ ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) اللُّورَ بالوصف قال: «اللُّور كُورة واسعة بين خُوزستان وأَصبهان. . . والمعروف أنّ اللُّور -وهم اللُّرُّ أيضًا- جِيلٌ يسكنون هذا الموضع. . . وذكر الإصْطَخْري قال: اللُّور بلدٌ خصيب، الغالب عليه الجبال، وكان من خُوزِستان، إلاّ أنه أُفرِد في أعمال الجبل لاتصاله به».(٢)

وقال ياقوت في مادة (اللُّرّ): «وهو جيلٌ من الأكراد في جبال بين أَصْبهان وخُوزستان، وتلك النواحي تُعرف بهم، فيقال: بلاد اللُّرّ. ويقال: لُرُستان. ويقال لها: اللُّور أيضًا».(٣)

وقال ابن حَوْقَل: «واللُّور بلدٌ بذاته خِصب، والغالبُ عليه هواءُ الجبل، وكان من خُوزِستان فضُمّ إلى أعمال الجبل، وله بادية وإقليم ورَساتيق، والغالبُ عليه الأكراد».(٤)

وكانت بلاد الجبل تسمى قديمًا بلاد البَهْلَويين، روى الإدريسي ذلك قائلاً: «وبلاد البَهلويين هي بلاد الجبل».(٥) وذكر ابن خُرْداذْبَه أنّ بلاد البهلويين تشمل «الرَّيّ وأصبَهان وهَمَذان والدِّيْنَوَر ومِهْرَجانْقَذَق وماسَبَذان وقَزْوِين. . . وقَزْوين ثغرُ الدَّيْلم، وزَنْجان. . . والبَبَر والطَّيْلَسان والدَّيْلَم».(٦) وقال الهَمَذاني في معرض

---

(١) ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص٣٠٤-٣٠٦. أبو الفداء: **تقويم البلدان**، ص٤٠٨، ٤١٢-٤٢٣.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٥/٢٩. وأعمال: تعني المناطق الإدارية التابعة لإقليم الجبل.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق، ص٢٣٢. ورساتيق: جمع رستاق، مجموعة قرى ومزارع.

(٥) الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ٢/ ٦٥٤.

(٦) ابن خُرْداذْبَه: **المسالك والممالك**، ص٥٧.

حديثه عن بلاد الجبل: «ويسمّى هذا الصّقع من بلاد البَهلويين، وهي هَمَذان وماسَبَذان ومِهْرِجانْقَذَق -وهي الصَّيْمَرة- وقُمْ وماه البصرة وماه الكوفة وقَرْمِيسِين وما يُنسب إلى الجبل»[(١)].

ويتّضح من أسماء المدن والمناطق التي ذكرها كلٌّ من ابن خُرْداذْبَه والهَمَذاني أنّ المناطق الكردية كانت تشكّل العمود الفقري لبلاد البهلويين، وبالتدقيق في المناطق التي كانت تقيم فيها القبائل الميدية يتّضح أنّ بلاد البهلويين كانت موطن الميديين، وكانت جزءًا صميمًا من ميديا الصغرى خاصةً؛ فهل البهلويون هم الكرد؟

نعم، البهلويون فرع كبير من الكرد، وبقي اسم هذا الفرع في اسم «فَيْلي»، مع الأخذ في الحسبان أنّ الصيغة الأصلية لكلمة بَهْلَوي هي «پَهْلَوي» *Pahlavic*، وهي كلمة آريانية مشتقّة من «پَهْلَو» *Pahlav*، بمعنى «مدينة»، واستُعملت في الكردية بصيغة «پالو» أيضًا، وتعني كلمة پَهْلَوي «متحضّر، مَدَني، مُثقَّف»، وكانت لغة مؤسس الدولة الساسانية أَرْدَشَير بابَكان پَهْلَوية أصلاً، وقد أكّد ابن البَلْخي في كتابه **مَجمَع الأنساب** انتماء أَرْدَشَير إلى قبيلة شُبانْكارَه (شُوانْكاره) الكردية الضخمة التي كانت تقيم في إقليم فارس، وذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أنّ أحفاد هذه القبيلة ما زالوا يقيمون في نواحي كالون عبدو بإقليم فارس، ويتكلمون بإحدى اللهجات الكردية الجنوبية المتأثرة بالفارسية[(٢)].

إضافةً إلى ما سبق فإنّ كلمة «پَهْلَوان» تعني بالكردية «بطل»، وكلمة «كُرْد» تعني بالفارسية القديمة «بطل، شجاع، باسل»، وكان الكتاب الزردشتي **أفستا** قد شُرِح في كتاب سُمّي **دِين كَرْد** بالحروف البهلوية، وهذا دليل آخر على العلاقة الوثيقة بين «كرد» و«پَهْلَوي»، وأنهما اسمان لمسمّى واحد.

ولنعد إلى الحديث عن إقليم الجبال، فقد قال القَزْويني: «الجبالُ ناحيةٌ مشهورة يقال لها قُهِسْتان، شرقيُّها مَفازةُ خُراسان وفارس، وغربُها أذربيجان، وشمالُها بحر الخَزَر، وجنوبُها العراق وخوزستان، وهي أطيب النواحي هواءً وماءً وتربة، وأهلُها أصحُّ الناس مزاجًا وأحسنُهم صورة»[(٣)].

---

(١) الهمذاني: **كتاب البلدان**، ص٤١٧.

(٢) جمال رشيد أحمد: **ظهور الكورد في التاريخ**، ١/ ١٩٤-١٩٧، والهامش (١٤٦).

(٣) القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص٣٤١. وبحر الخَزَر: بحر قَزْوين.

خريطة إقليم الجبال
من كتاب **صورة الأرض** لابن حوقل

مرةً أخرى يتأكد لنا أنّ بلاد الجبل (إقليم الجبال) كانت تشتمل على قسم كبير من بلاد الكُرد في غربي إيران حاليًا وعلى جنوبي كُردستان، وقد بيّن ابن حَوْقَل ذلك في الخريطة التي رسمها، وبعد أن ذكر مدن بلاد الجبال ونواحيها، وذكر أوصافها والمسافات فيما بينها، قال: «والغالبُ على هذه المدن المذكورة والنواحي

الموصوفة الجبالُ الشاهقة العالية والأوعارُ الصعبة المنيعة... وهذه الجبالُ مسكونة مأهولة بالأكراد الحميدية واللارية والهَذْبانية وغيرهم من أكراد شَهْرَزُور وسُهْرَوَرْد».[1] وإلى يومنا هذا تطلق إيران على معظم تلك المناطق رسميًا اسم كردستان، ومدينتها الكبرى هي كِرْمَنْشاه (قَرْمِيسِين).

ثالثًا - أرمينيا وأذربيجان:

جمع ابن حوقل في القول بين أرمينية وأذربيجان والرّان، ورسم حدود هذه البلاد في خريطة واحدة، وقال: «والذي يحيط به ممّا يلي المشرقَ فالجبالُ والدَّيلمُ وغربيُّ بحر الخَزَر، والذي يحيط به ممّا يلي المغربَ حدودُ الأرمن واللان وشيءٌ من حدود الجزيرة، والذي يحيط به من جهة الشمال فاللانُ وجبالُ القَبْق، والذي يحيط به من الجنوب حدودُ العراق وشيءٌ من حدود الجزيرة».[2]

وذكر أبو الفداء أنّ أرمينية تتألف من ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: يشمل قالِيقَلا وخِلاط وشِمْشاط.
- القسم الثاني: يشمل خَرْزان (جورجيا)، بما فيها تَفْليس (عاصمة جمهورية جورجيا)، ومدينة باب اللان.
- القسم الثالث: يشمل بَرْذَعة، وهي كبرى مدن أَرّان، ويشمل أيضًا البَيْلَقان وباب الأبواب.[3]

ونقل أبو الفداء من كتاب **المشترَك** لياقوت الحموي أنّ «أرمينية اسمٌ لأربع قِطَع فيها بلادٌ متصلة: الأولى من بَيْلقان إلى شَرْوان وما بين ذلك، والثانية تَفْلِيس، وهي خَرْزان، وباب فَيروزقُباذ، والكُرّ، والثالثة السَّفَرْجان والدَّبِيل ونَشَوى، والرابعة قرب حِصن زياد، وهو المسمّى خَرْتَبِرْت، وخِلاط وأَرْزَن الروم ما بين ذلك».[4]

ومن مدن أرمينية: وان وبَدْلِيس ومَلازْجِرْد وخِلاط (أَخْلاط) وبَرْكِرى (شرقي

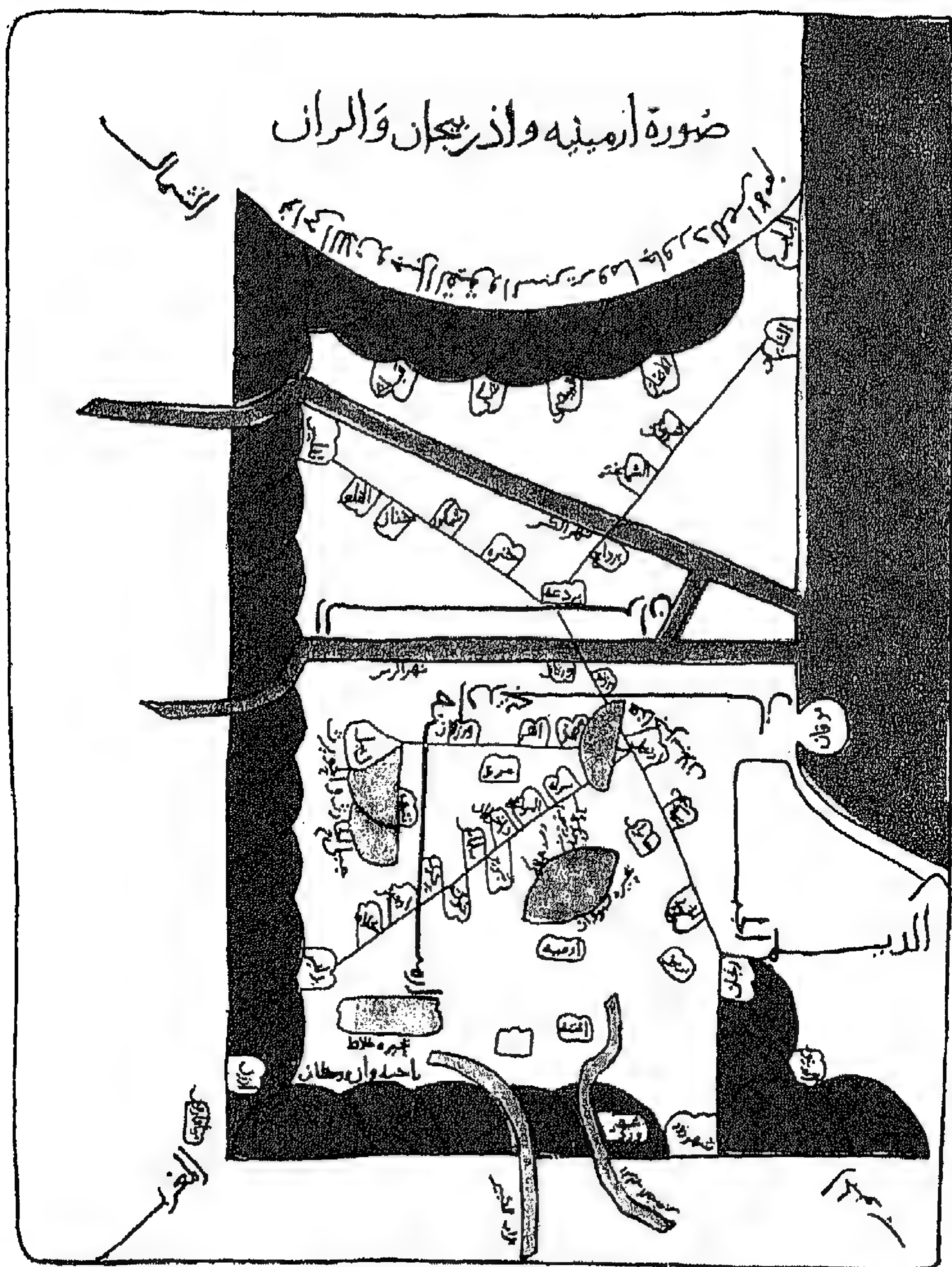
---

(١) ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص٣١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٥.

(٣) أبو الفداء: **تقويم البلدان**، ص٣٨٧.

(٤) المرجع السابق نفسه. ونَشَوي هي نَخْجُوان، وخَرْتَبِرْت هي خَرْبُوط، وأرزن الروم هي قالِيقَلا.



خريطة أرمينيا وأذربيجان والرّان
من كتاب صورة الأرض لابن حوقل

خلاط) ومُوش وأَرْزَنْجان وأَرْجِيش ونَشَوَى (نَخْجُوان) ودَوِين (إليها يُنسب الأيوبيون في أغلب الروايات).[1] وقد مرّ أنّ الجغرافي ابن حوقل قد جمع بين أرمينيا وأذربيجان في الاصطلاح، بل إنه أطلق مصطلح أرمينيا على قسمٍ كبير من أذربيجان

(١) المرجع السابق، ص٣٨٩-٣٩٨.

نفسها، وقال: «وأكبر هذه النواحي أذربيجان، وأكبر مدنها أَرْدَبِيل... ويلي أَرْدَبِيلَ في الكِبَرِ المَراغةُ... ويلي المَراغةَ في الكبر أُرْمِيَةُ... وفي ضمن أُرْمِيَة ومضافٌ إلى عملها أُشْنُة، وهي أيضًا مدينة كثيرة الشجر والخُضر والخيرات والفواكه والخِصب والأعناب، والمياهُ الجارية متوفِّرةُ القَسْم غزيرةُ القِسط من سائر ما خُصّت به أُرمية والمَراغةُ مِن رِفْق باديتها والتفافِ الخيرات بها من جهة أكرادها الهَذْبانية، وبها يَصيفون، وإيّاها يَنتجعون، وبها جميعُ ما يَملكون ويَدّخرون»[1].

الملاحظ هنا أمران:

- الأول: توزّع الكرد في أذربيجان الإدارية قديمًا.
- والثاني: اشتمال أرمينية الإدارية على أجزاء من أقصى شمال كُردِستان حاليًا، مثل وان وبَدْلِيس ومُوش وأَرْزَنْجان.

ولمصطلح «أرمينية» في كتب التراث الإسلامي دلالة إدارية أوسع بكثير من الدلالة الإثنية، شأنها في ذلك شأن فارس، وتعود هذه الدلالة إلى ما كانت عليه كُردِستان قبل الإسلام، فقد مرّ أنها كانت تتوزّع بين ثلاث دول هي فارس في الشرق وأرمينيا في الشمال وبيزنطا في الغرب، ومرّ أيضًا أنّ ملوك أرمينيا في أدوار القوة كانوا يبسطون نفوذهم على المناطق الشمالية والغربية من كُردِستان، أضف إلى ذلك أنّ الفرس (الأخمين والپارث والساسان) كانوا يجمعون بين أرمينيا والأجزاء الشمالية والغربية من كردستان ويسمّونها إداريًا «أرمينيا».

ولمّا فتح العرب المسلمون كردستان وفارس وأرمينيا أبقوا على معظم النظم الإدارية السابقة، بل إنهم أبقوا على النظم النقدية المعمول بها وعلى لغات الدواوين أيضًا، إلى أن ألغاها الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، وكان العاملون في تلك الدواوين من أبناء البلاد المفتوحة، أيْ من تبعية النظم الإدارية السابقة في فارس وأرمينيا، وكان من الطبيعي أن تنتقل التسميات الإدارية المعتمَدة في فارس وأرمينيا، قبل الإسلام، إلى السجلات الإدارية في العهد الإسلامي، ويعتمدَها المؤرخون والجغرافيون حينذاك كما هي.

وفي التاريخ أمثلة كثيرة على غياب الدلالة الإثنية لمنطقة ما، وفي مرحلة ما،

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٢٨٩. والقَسْ: الحظ.

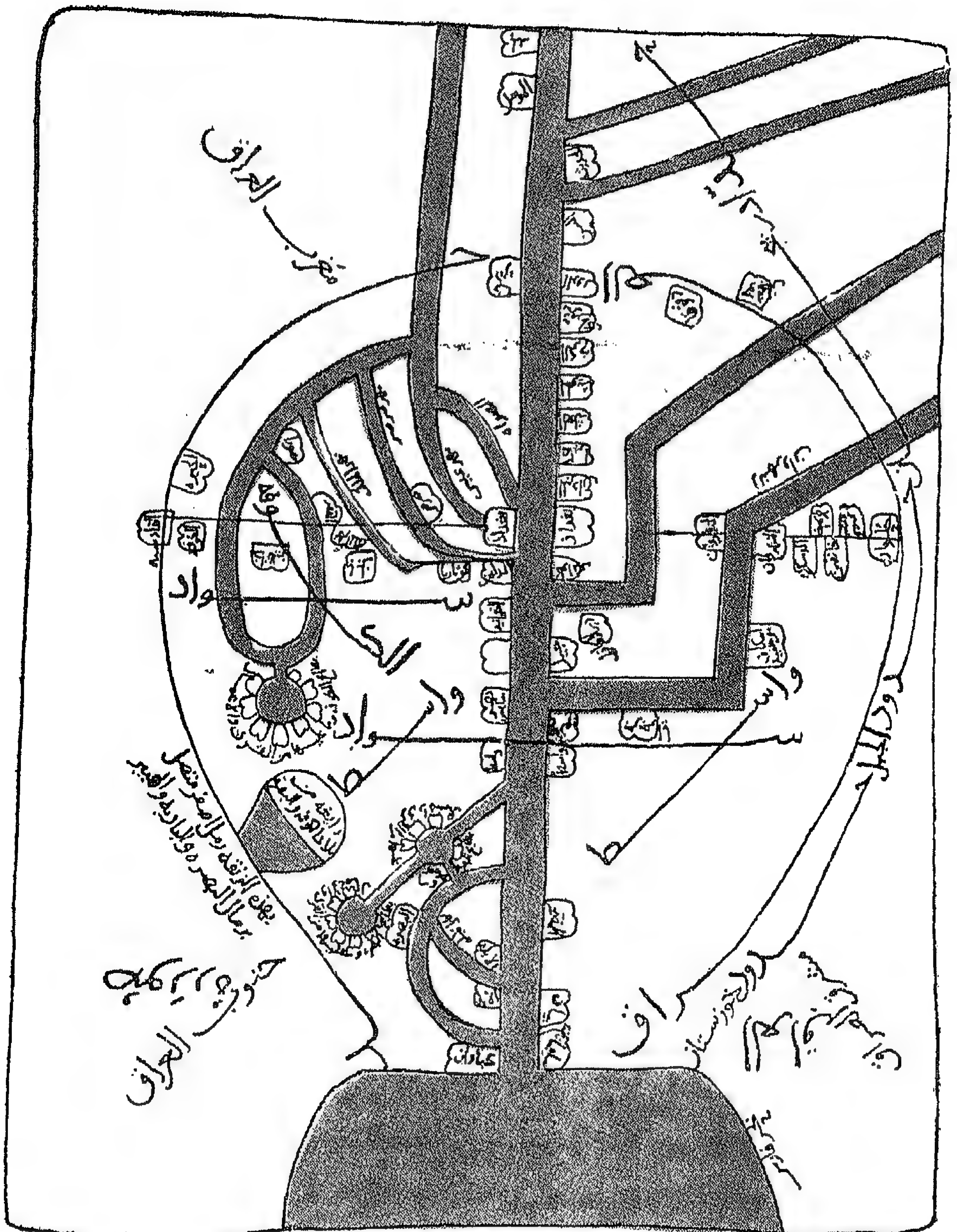
وغلبة الدلالة السياسية الإدارية، ولنأخذ على سبيل المثال دولة إيران؛ فهي تكوين سياسي إداري في الدرجة الأولى، أما إثنيًا فتتألّف من خمسة أقاليم هي: بُلوشِسْتان في الجنوب الشرقي، وفارس في الجنوب والوسط والشرق، وأذربيجان في الشمال، وكردستان في الشمال الغربي، وعربستان (الأهواز) في الجنوب الغربي، ومثال ذلك أيضًا باكستان وأفغانستان والعراق وتركيا ودول أخرى كثيرة.

رابعًا - العراق:

ذكر ابن حوقل أنّ العراق يمتد في الطول من حدّ تِكْريت شمالاً إلى عَبّادان على بحر فارس (الخليج العربي) جنوبًا، ويمتد عرضًا من القادِسيّة (قرب الكوفة) شرقًا إلى حُلْوان (على تخوم إقليم الجبال) غربًا[1]. ويُفهم مما ذكره ابن حوقل وغيره من الجغرافيين أنّ مناطق جنوبي كُردستان لم تكن معدودة من العراق قديمًا، وأنّ مصطلح «عراق العجم» الذي يراد به إقليم كُردستان (في شمال العراق) مصطلح إداري؛ ظهر في الفتوحات الإسلامية للتمييز بين الجزء الذي يسكنه العرب من العراق والجزء الذي يسكنه الكرد.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٨.

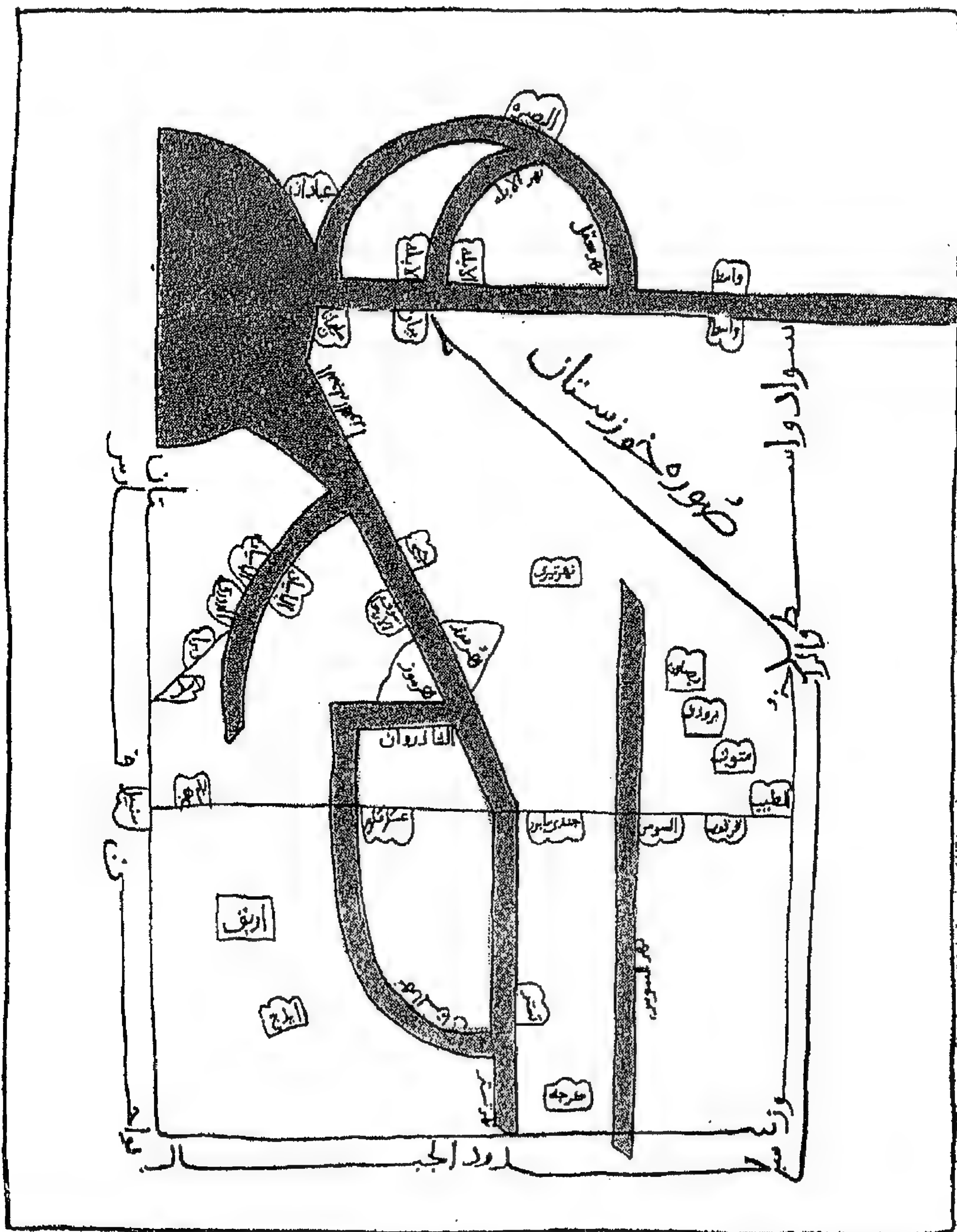


خريطة العراق

من كتاب صورة **الأرض** لابن حوقل

خامسًا - خُوزِستان:

يَحدّ خوزستانَ شرقًا إقليمُ فارس، وشمالاً إقليمُ الجبال، وغربًا العراق، وجنوبًا بحر فارس (الخليج العربي). وذكر أبو الفداء أنّ خوزستان إقليمٌ واسع بين البَصرة وفارس، ومن نواحي خوزستان بلاد اللُّور، وهي بلاد خصبة تغلب عليها



خريطة خوزستان

من كتاب صورة الأرض لابن حوقل

الجبال،[١] ونقل أبو الفداء من **كتاب الأَطْوال** لابن حَوقل أنّ: «جبل اللُّور هو بين تُسْتَر وأَصْبَهان، وامتدادُ هذا الجبل طولاً نحوُ ستّة أيام، وفيه خَلْقٌ عظيم من الأكراد، وبه ملوكٌ لهم من اللُّباب لُور هي من رُستاق خوزستان، وقال: في ظنّي أنها جبال بها يقال لها لُورستان، منها عمّارُ بن محمّد اللُّوري، الذي يروي حكاية الجَوْزة والمَوْزة والسِّلسلة بالتبسّم والضَّحِك».[٢]

ومن مدن خوزستان: جُنْدَى سابور وهُرْمُز وعَسْكر مُكْرَم وسُوق الأربِعاء والسُّوس وتُسْتَر وقَرْقُوب والباسِيان ودَوْرَق ودَيرا وآسَك ورامَ هُرْمز وإيذَج.

سادسًا - فارس:

ثمة تداخل دلالي بين ثلاث تسميات هي «فارس» و«العجم» و«إيران».

أما «إيران» فاسم استحدثه الشاه رِضا بَهْلَوي في النصف الأول من القرن العشرين، وأطلقه على الدولة التي ورثها القاجاريون عن الصَّفَويين، والأصل في هذا الاسم هو «آريان»؛ أي «موطن الآريين».

وأما «بلاد فارس» فاسم شائع في المصادر العربية الإسلامية، ويراد به، في الغالب، البلاد الواقعة بين عراق العجم (كُردستان الجنوبية) غربًا إلى أفغانستان شرقًا، والنسبة إليه «فارسي». ولم يكن اسم «فارس» بهذا الإطلاق، وإنما كان اسمًا لمنطقة جنوب غربي إيران فقط، وكانت تسمى «بارْسِيا/ بارْسُوَا»، باعتبار أنّ الفرس استقروا فيها إبّان الدفعة الأخيرة من الهجرات الآرية، وأسسوا فيها بعدئذ عاصمتهم پرسوپوليس (إصْطَخْر)، وهذا ما اعتمده ابن حوقل في كتابه **صورة الأرض** حينما تحدّث عن فارس، وكان محقًا في ذلك، فقد فقال: «أمّا فارس فالذي يُحيط بها ممّا يلي المشرقَ حدودُ كِرْمان، وممّا يلي المغربَ كُوَرُ خُوزِستان، وممّا يلي الشمالَ المُفازة التي بين فارس وخُراسان وبعضُ حدود أَصْبَهان، ومن الجنوب بحرُها. . . وشِيرازُ واسطةُ فارس».[٣]

(١) أبو الفداء: **تقويم البلدان**، ص٣١١-٣١٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٣.

(٣) ابن حوقل: **صورة الأرض**، ص٢٣٢. والمقصود ببحرها: الخليج الفارسي/ العربي.

وأما «عجم» فاسم الأسرة الفارسية الأخمينية التي حكمت فارس وميديا منذ سنة ٥٥٠ ق.م، نسبةً إلى مؤسّسها الأول هاخمانيش، يقول أرشاك سافراستيان: «يبدو لي أنّ اللفظة العِرقية «عجم» مشتقّة من الاسم الشخصي أخميني *Akhmanish* أو *Hakhamanish*، الجدّ الأسطوري لمؤسس السلالة الأخمينية الفارسية، ويقول داريوس الكبير (٥٢١-٤٨٥ ق.م) في نقش بهيستون إنّ أجداده الثمانية كانوا ينحدرون من عِرق ملكي، وأوّلُهم وأعظمهم هو أخماني (أخمين)».[١] وأطلق العرب قبل الإسلام على الفرس اسم «عجم»، وصار يُطلق في العهود الإسلامية على جميع الشعوب غير العربية.

وقال ابن حوقل في أثناء حديثه عن الزُّمُوم (القبائل) في فارس: «وأمّا زُمومُها فهي أيضًا خمسة... منها زَمُّ شَهْرَيار، ويُعرف بزَمّ المازَنْجان، والمازَنْجان قَبِيلٌ من الأكراد في حدود أَصْبَهان... فأمّا أحياءُ الأكراد فإنها تَكْثُر عن الإحصاء... يَزيدون على خمس مئة ألف بيت شعر».[٢]

وأضاف ابن حوقل قائلاً: «فأمّا زُمومُها فإنّ لكلِّ زَمّ منها قرى ومدنًا مجتمعة، قد ضُمّن خَراجَ كلّ ناحية رئيسٌ من الأكراد، وأُلزم صلاحَ أحوال ناحيته وتنفيذَ القوافل، وحِفظَ الطرق، والقيامَ بأحوال السلطان إذا عَرَضت بناحيته... وهي كالممالك».[٣]

وما اكتفى ابن حَوْقَل بذكر زُموم (قبائل) الكرد، وإنما انتقل إلى ذكر أسماء أحيائهم في فارس على نحو مفصّل، فقال: «وأما أحياء الأكراد بفارس فإنّ منهم الكِرْمانية والرامانية ومَدْيَن وحيّ محمد بن بشير والبَقِيلية والبَنْداذْ مِهْرِية وحيّ محمد بن إسحاق والصَّبّاحية والإسحاقية والأَذْرَكانية والسُّهْرَكية والطِّماذْهَنية والزيادية والشَّهْرَوية والبَنْداذْقِية والخَسْرِوية والزَّنجية والصَّفَرية والشَّهْيارية والمِهْرَكِية والمُباركية والاستامِهْرية والشاهَوِية والفُراتية والسَّلمونية والصِّيرية والأزاذْدَخْتية والمُطَّلبية والمَمّالية واللارِية والبَرازْدَخْتِية والشاهْكانِية والجَليلية».[٤]

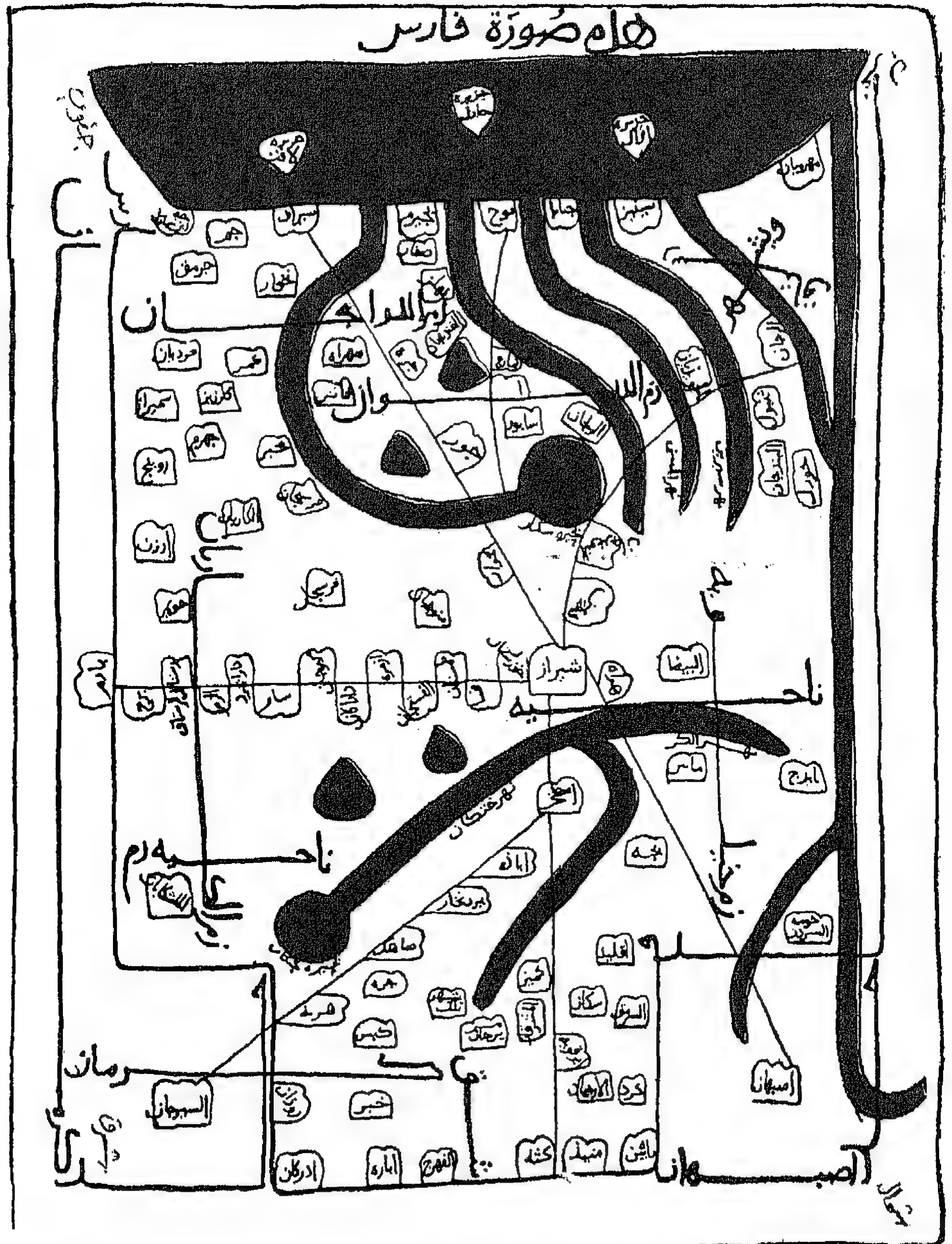
---

(١) Arshak safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 104.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٦. وتنفيذ القوافل: تسيير القوافل.

(٤) المرجع السابق، ص٢٤٠.



خريطة فارس

من كتاب صورة الأرض لابن حوقل

وذكر ابن حوقل بعد ذلك كثرة أعداد الكرد في فارس قائلاً: «وهؤلاء المشهورون من أحيائهم، ولا يُمكن تَقصّيهم إلاّ من ديوان الصَّدَقات، ويَزيدون على خمسمائة ألف بيت، ويَخرج من الحيّ الواحد ألفُ فارس، وأكثرُ وأقلّ، يَنتجعون في الشتاء والصيف المراعيَ والمَصائفَ والمَشاتي، إلا القليلُ منهم... ولهم من العُدّة والبأس والقوة بالرجال والدوابّ والكُراع ما يَستصعِب على السلطان أمرُهم إذا أراد تَحيُّفَهم وتَهَضُّمَهم» [1].

وعاد ابن حوقل ثانيةً إلى وصف حال الكرد في فارس فقال: «وهم أصحاب أغنام ورُمَيْك، والإبلُ فيهم قليلة، وليس للأكراد خيلٌ عِتاق، إلاّ ما عند المازَنْجان المقيمين بحدود أصبهان، وإنما دوابُّهم بَراذينُ وشَهاري، وهم على حُسن حالٍ ويَسار، ومذاهبُهم في القُنْية والنُّجْعة مذاهبُ العرب، ويقال إنهم يَزيدون على مائة حيّ، وإنما ذكرتُ منهم نَيِّفًا وثلاثين حيًّا» [2].

وقال ابن البَلْخي (ت ٥١٠هـ): «كان الأكراد في قديم الزمان يعيشون في خمسة زُموم... على النحو الآتي: زَمّ جِيلُويه، زَمّ الدِّيوان، زَمّ اللَّوالْجان، زَمّ الكارِيان، زَمّ البازَنْجان. وإنما قوةُ جيش فارس ناجمةٌ عن وجود هؤلاء الأكراد الأشدّاء جدًا في صفوفه مع خيلهم وأسلحتهم ودوابّهم» [3].

وذكر ابن البَلْخي كرد شَبانْكاره (شَوانْكاره) في فارس، فقال: «لم يكن للشَبانْكاريين في قديم الزمان صِيتٌ في فارس، فقد كانوا قومًا يشتغلون بالرعي وجمْع الحطب والعملِ بالأجرة اليومية، إلاّ أنه على عهد الضعف الذي ساد أواخر حُكم الدَّيْلم ظَهر فَضْلَوَيْه، فقوّى شَوكتَهم، ثم أخذوا في الزيادة إلى أن أصبحوا جميعًا جنودًا حَمَلَةَ للسلاح، ويمتلكون الإقطاعات» [4].

لسنا الآن بصدد معرفة أسباب تحامل ابن البَلْخي على الكرد والنيل منهم، تارةً بتهوين أمرهم على أنهم بين راعٍ وأجير وأنهم حديثو نعمة في فارس، وتارةً أخرى

---

(١) المرجع السابق نفسه. والكُراع: الماشية. وتحيّفهم وتهضّمهم: التسلّط عليهم وظُلمهم.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٠-٢٤١. رُميك: خيول وبراذين. والقُنية: امتلاك الغنم. النجعة: طلب المرعى.

(٣) ابن البلخي: **فارس نامه**، ص١٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٠. والدَيْلَم: بنو بُوَيْه.

بتقليل عددهم إلى درجة أن لم يبق منهم سوى رجل واحد، حيث يقول: «وكانوا قد قُتلوا في الحروب في صدر الإسلام، وتاهوا في البلاد، ولم يَبق منهم أحد سوى رجل يدعى مَلَك، أسلم، وما يزال نسلُه باقيًا حتى اليوم. وأمّا الأكراد الموجودون الآن في فارس فهم مجموعة كان عَضُد الدولة قد جاء بهم من حدود أصفهان، وظلّت أعقابهم في هذه البلاد»[(١)].

المهم أنّ ابن البلخي قد أكّد كثرة عدد الكرد في فارس قبل الفتوحات الإسلامية، وأنهم واجهوا تلك الفتوحات بقوة، فأصبحوا عرضة للتقتيل والتنكيل والتشريد، كما أنه لم ينكر أنّ الكرد كانوا قوة فاعلة في بلاد فارس، وكان لهم تأثير بالغ في الأحداث السياسية هناك.

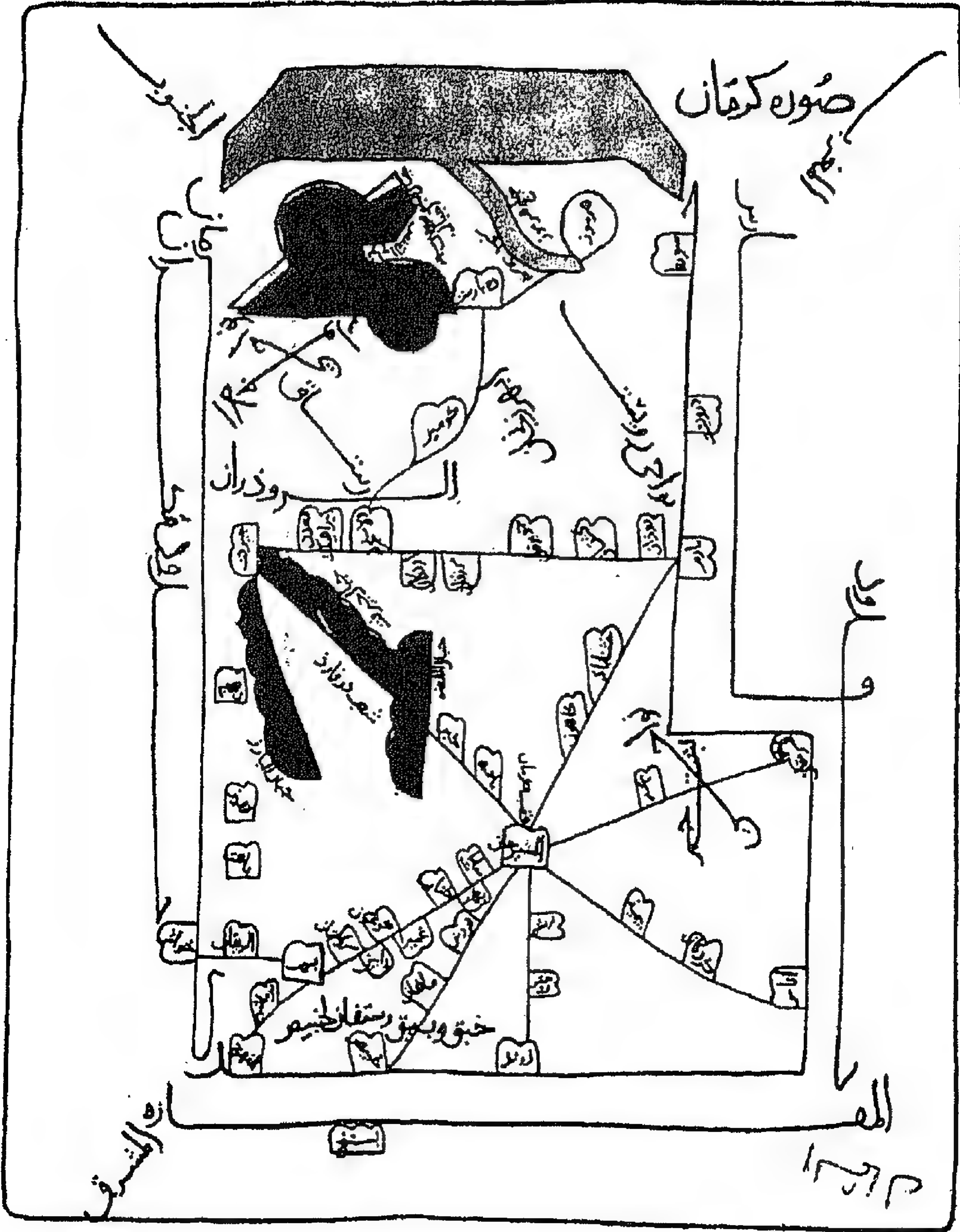
سابعًا - كِرْمان:

تقع كِرْمان في جنوب شرقي إيران حاليًا، وقد وصفها ابن حوقل بقوله: «وأما كَرْمان فشرقيُّها أرضُ مُكْران ومَفازةٌ ما بين مُكْران والبحرِ من وراء البَلُوص، وغربيُّها أرضُ فارس، وشماليُّها مَفازة خراسان وسِجِسْتان، وجنوبيُّها بحرُ فارس»[(٢)].

وذكر ابن حوقل وجود الكرد في كرمان بجبل القُفْص، فقال: «ومن مشاهير جبالها المنيعة جبالُ القُفْص... فهي جبالٌ جنوبيُّها البحرُ وشماليُّها حدودُ جِيرَفْت والرُّوذبَار وقُوهِستان... ويقال إنها سبعةُ أجيال، ولكلّ جيل رئيسٌ منهم، وهم صِنفٌ من الأكراد وحيٌّ من أحيائهم، ويكونون على ما قاله أهلُ نواحيهم نحو عشرة آلاف رجل مُستظهِرين مُمتنِعين»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٦٦. والبُلوص: البُلوش، ويسمّون البُلو أيضًا. والمفازة: الصحراء.
(٣) المرجع السابق، ص٢٦٩. ومُستظهرين مُمتنعين: أي أقوياء، لا يستطيع أحد التسلط عليهم.



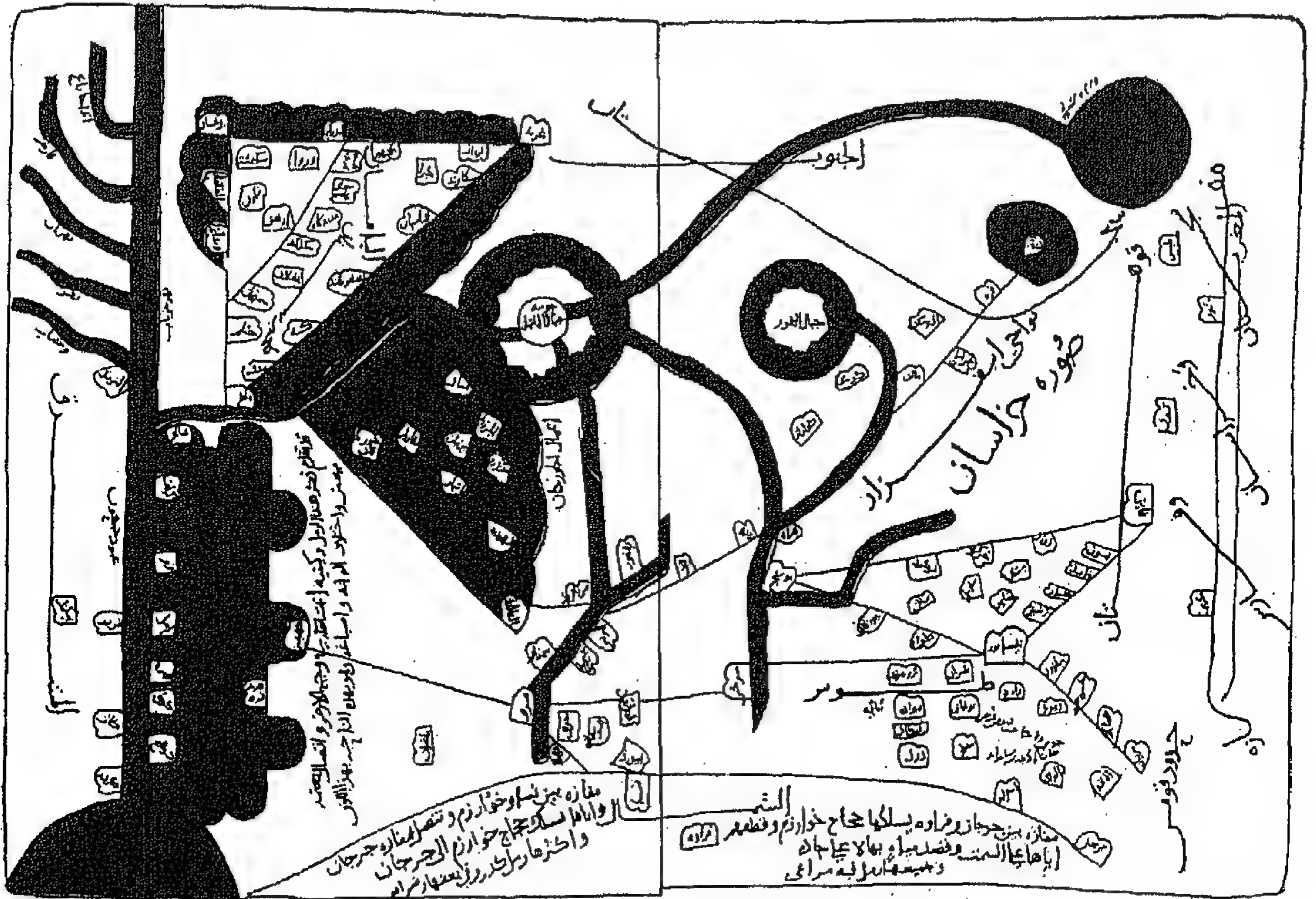
خريطة كرمان

من كتاب **صورة الأرض** لابن حوقل

ثامنًا - خُراسان:

تقع منطقة خراسان في شرقي فارس وشمالي سِجِسْتان، وهي بلاد واسعة، ويتوزع معظم منطقة خراسان حاليًا بين إيران وأفغانستان، ومن مدنها الشهيرة مَرْو

ونيسابور وبَلْخ، ومن مناطقها الفسيحة قُوهِستان[1]، وتقع في غربيّها. وذكر ابن حوقل وجود الكرد في مناطق من خراسان بأعداد محدودة، فقال: «أَنْدُخْد مدينة صغيرة في مَفازة، لها سبعُ قرى وبيوتٌ للأكراد من أرباب الأغنام، ولهم إبلٌ. . . وقُوهِستانُ ناحيةٌ بخراسان على مَفازة فارس، وليس بها مدينة بهذا الاسم، وقَصَبَتُها قايِنُ. . . وفي أضعاف هذه المدن والقرى التي بقوهستان مَفاوزُ يسكنها الأكرادُ وأصحابُ السَّوائم من الإبل والغنم»[2].



خريطة خراسان

من كتاب صورة الأرض لابن حوقل

يتبيّن لنا مما سبق أنّ القسم الأكبر من إقليم الجزيرة وإقليم الجبال يتطابق مع بلاد الكرد (كردستان) حاليًا، وأنّ المعطيات الجغرافية والديموغرافية التي مرّ ذكرها

(١) قوهستان هذه في الشرق هي غير قوهستان التي هي (إقليم الجبال) في الغرب.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٢، ٣٨٠.

هي دليل واضح على أنّ الكرد كانوا يقيمون في بلادهم قبل الإسلام، ولم يأتوا إليها مهاجرين من مناطق أخرى كما يزعم أصحاب الذهنيات الإمبراطورية من القومويين الفرس والترك والعرب، وهي دليل أيضًا على أنّ مواطن الكرد كانت تمتد إلى داخل إقليم خوزستان (الأهواز) وإقليم فارس وبعض مناطق أرمينيا وأذربيجان، وأنّ للكرد حضورًا في كلٍّ من إقليم كِرمان وإقليم خراسان.[1]

٢- الكُرد في صَدر الإسلام

الكُرد والعرب قبل الإسلام:

خسر الكُرد استقلالهم القومي والسياسي منذ سقوط دولة ميديا سنة ٥٥٠ ق.م في أيدي الفرس الأخمين، فأصبحوا تابعين لهم أولاً، ثم للإسكندر المكدوني والدولة السُّلوقية اليونانية من سنة ٣٣٠ ق.م، ثم للدولة الأشگانية (البَرثية) من سنة ٢٥٠ ق.م، ثم للدولة الساسانية من سنة ٢٢٦ م، وكانت الأجزاء الشمالية والغربية من كُردستان تقع أحيانًا تحت سلطة الأرمن والرومان، وعند ظهور الإسلام كان ثلثا كُردستان تقريبًا تابعًا للدولة الساسانية، في حين كان الثلث الباقي تابعًا للدولة البيزنطية (الرومية).

ولا نعلم تفاصيل علاقة الكرد بالعرب قبل الإسلام، فالمعروف أنّ الوجود العربي في العراق (حسب تكوينه السياسي الحديث) كان يصل إلى الحِيرة (قرب الكوفة) وإلى تخوم الشاطئ الغربي لنهر الفرات؛ أي إنّ العرب كانوا يتنقلون في غربي العراق حيث الصحراء، أما بلاد ما بين النهرين جنوبًا وشمالاً فكانت موطن الشعوب القديمة من سومريين ونَبْط (لعلهم الصابئة) وأكّاديين وبابليين وآشوريين وكِلدان، إضافةً إلى الفرس والكرد، وأما مناطق شرقي دجلة فكانت مواطن الكرد خاصةً، ولذا سمّاها العرب «عراق العجم».

وباعتبار أنّ الدولة الحاكمة في العراق كانت ساسانية فارسية فلا نعتقد أنه كانت ثمة علاقات بين العرب والكرد من حيث هما شعبان مستقلان، فالعلاقات العسكرية

---

(١) انظر حسن شُمَيْساني: مدينة ماردين، ص٤٣ .

والاقتصادية والثقافية كانت تتمّ في إطار سياسات الدولة الساسانية، ولا نستبعد أن تكون ثمة بعض العلاقات بين أفراد من العرب والكرد باعتبار أنهم كانوا جميعًا من التبعية الفارسية.

الصحابي جابان الكُردي:

الدليل على وجود العلاقات الفردية أنّ الكتب الخاصة برجال الحديث النبوي تذكر تابعيًا اسمه مَيْمُوْن الكردي، وجاء في كتاب **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** للحافظ الذَّهَبي (ت ٧٤٨هـ) أنّ كُنية ميمون هي أبو بَصِير، وذكر كلٌّ من الحافظ الذَّهَبي والحافظ المِزّي تابعيًا آخر اسمه مَيْمون بن جابان، وكُنيته أبو الحَكَم، روى عن أبي رافع الصائغ عن أبي هريرة مرفوعًا: «الجراد من صيد البحر».

وقد روى ميمون الكردي عن أبي عثمان النَّهْدي، وعن أبيه، عن النبي محمد، وروى عنه جماعة منهم الزاهد الشهير مالك بن دِينار، وعَدّه أبو داود من الثِّقات، وقال أحمد بن حَنْبَل في مُسْنَده: «حدَّثَنا يزيد، حدّثنا دَيْلم، حدّثنا ميمون الكردي، عن أبي عثمان؛ سمع عمرَ يخطب، فقال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إنّ أخوفَ ما أخاف على هذه الأُمّة كلَّ منافق عليمِ اللسان»[(١)].

قال اليَماني بشأن ميمون الكردي: «لم يُعزَ ولم أعثر عليه، ووالدُ ميمون الكردي لا يكاد يُعْرَف، وقد ذُكر في **أُسْد الغابة والإصابة** باسم جابان، ولم يذكروا له شيئًا. وسأل مالكُ بن دينار ميمونَ الكردي أنْ حدِّث عن أبيك الذي أدرك النبيَّ وسمع منه، فقال: كان أبي لا يُحدّثنا عن النبيّ مَخافةَ أن يَزيد أو يُنقص»[(٢)].

لم تُذكر السنة التي توفّي فيها التابعي ميمون الكردي، لكنّ المصادر تشير إلى أنّ مالك بن دِينار الذي روى عنه عاش في البصرة وتوفّي سنة (١٢٣ أو ١٢٧ أو ١٣٠ هـ)، وإذا أخذنا بالحسبان أنّ متوسط عمر كلّ جيل يتراوح بين ٣٥-٤٠ سنة ،

---

(١) الذَّهبي: **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، ٤/ ٢٣٦. وانظر المِزّي: **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، ٢٧/ ١٣٦، ٢٩/ ٢٣٦. ابن حَجَر العَسْقَلاني: **تهذيب التهذيب**، ١٠/ ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٢) عبد الرحمن بن يحيى اليَماني: **الأنوار الكاشفة**، ص٥٩.

فذلك يعني أنّ ميمون الكردي كان على الغالب حيًا في العَقد الأخير من القرن الأول الهجري.

مهما يكن فإنّ ما يهمّنا هو جابان والد ميمون، وجاء في **أُسْد الغابة** لابن الأثير وفي **تجريد أسماء الصحابة** للحافظ الذَّهَبي وفي **روح المعاني** للآلُوسي اسمُ صحابيٍّ يدعى جابان أبو ميمونٍ؛ سمع من النبي محمد حديثًا يفيد أنّ أيّ رجل تزوّج امرأة وهو ينوي ألاّ يعطيَها الصَّداقَ لَقِيَ اللهَ عزّ وجلّ وهو زانٍ. أمّا في كتاب **الإصابة في تمييز الصحابة** لابن حَجَر العَسْقَلاني فجاء الخبر عنه كما يأتي: «جابان والد ميمون: روى ابن مَنْدَه، من طريق أبي سعيد مَوْلى بني هاشم، عن أبي خالد: سمعتُ ميمونَ بن جابان الصَّرْدي، عن أبيه، أنه سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم غيرَ مرة، حتى بلغ عشرًا، يقول: مَن تزوّج امرأة وهو ينوي ألاّ يُعطيَها الصَّداق، لَقِيَ الله وهو زانٍ»[(1)].

ولم يذكر ياقوت الحموي في **معجم البلدان** بلدًا أو قرية باسم «صرد»، ولم ترد النسبة إلى هذا الاسم في كتاب **الأنساب** للسَّمْعاني (ت ٥٦٢هـ) ولا في كتاب **اللُّباب في تهذيب الأنساب** لابن الأثير عزّ الدين (ت ٦٣٠هـ)، لكن ورد في **معجم البلدان** لياقوت الحموي اسم «سَرْدَرُوذ»، وهي من قرى هَمَذان، وقد تكون النسبة «صَرْدي» محوّرة من «سَرْدي» نسبةً إلى سَرْدَرُوذ؛ وإذا صحّ ذلك فالأرجح أنّ جابان الصَّرْدي هو والد ميمون الكردي، لأنّ هَمَذان تقع في إقليم الجبال، وهي من بلاد الكرد، بل هي عاصمة الميديين القديمة أكْباتانا.[(2)]

وسواء أكان جابان الصَّردي والد ميمون أم لا فهذه الأخبار تقودنا إلى الحقائق الآتية:

- أولها: كردية جابان، فقد نصّت المصادر على كردية ابنه ميمون.

---

(١) الذهبي: **تجريد أسماء الصحابة**، ١/ ٧١. ابن الأثير: **أُسْد الغابة في معرفة الصحابة**، ١/ ٢٩٩. ابن حَجَر العَسْقَلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة**، ١/ ٢٠١. الآلوسي: **روح المعاني**، ٢٦/ ١٠٣.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٣/ ٢٣٦. وانظر ابن الأثير: **اللباب في تهذيب الأنساب**، ج٢، باب السين والراء. السمعاني: **الأنساب**، ج٥، باب السين والراء.

● وثانيها: أنّ جابان كان من الصحابة، وأنه كان شديد الورع إلى درجة أنه كان يتحرّج في رواية الأحاديث عن النبي محمد مخافةَ السهو أو الخطأ.

● وثالثها: أنّ سماعه من النبي محمد كان متكرّرًا؛ أي إنه كان يلتقيه مرارًا، وإلاّ فلماذا يطالب الناس ابنه ميمونًا بأن يروي لهم ما سمعه عن أبيه عن النبي محمد؟

● ورابعها: أنّ الكرد منذ فجر الدعوة الإسلامية كانوا شعبًا قائمًا برأسه معروفًا باسمه، ولذا لم يُقل «ميمون الفارسي» كما قيل عن سلمان «سلمان الفارسي»، بل قيل: ميمون الكردي.

نستنتج مما سبق أنّ جابان كان مقيمًا على الغالب في المدينة، حيث أقام النبي محمد بعد الهجرة، ولعله كان من أهل مكة، فهاجر إلى المدينة بعد إسلامه؛ فالمعروف أنّ جاليات فارسية ورومية وصابئية وحبشية كانت تقيم في مكة لأغراض تجارية أو تبشيرية أو سياسية، وقد يكون جابان أحد أفراد تلك الجاليات، على أن نأخذ بالاعتبار أنّ الكرد كانوا -في الغالب- من التبعية الفارسية سياسيًا وثقافيًا.

ويحتمل أن يكون جابان قد وقع في الأسر خلال الحروب الفارسية والبيزنطية، ثم بيع في أسواق النخاسة، وانتهى به الأمر إلى مكة أو المدينة، باعتبارهما مركزين تجاريين بين العراق وبلاد الشام من ناحية وبين اليمن بوّابة شبه الجزيرة العربية على إفريقيا وجنوبي آسيا من ناحية أخرى. وعلى أية حال لم يكن جابان حديث عهدٍ بالحجاز، وإلا فكيف أجاد اللغة العربية فهمًا وتحدّثًا إلى درجة أنه كان يفهم بدقّة ما يسمعه من النبي محمد، وينقل ما سمعه إلى الآخرين بدقة؟

الفتح العربي لكُردِستان:

بدأت العلاقة بين الكرد والعرب، بشكل مباشر، خلال الغزوات العربية، واقتضى الواقع الجيوپوليتيكي حينذاك أن يغزو العرب المسلمون كردستان عبر محورين، بصورة متواكبة تقريبًا، في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب (اغتيل سنة ٢٣ هـ):

١ - محور جنوبي: اشتمل على مناطق جنوبي كردستان التي كانت تابعة للحكم الساساني الفارسي.

٢ - محور شمالي: اشتمل على الأجزاء الشرقية من غربي كُردستان وامتد، من بعد، إلى شمالي كردستان الذي كان تحت النفوذ البيزنطي.

أولاً - المحور الجنوبي:

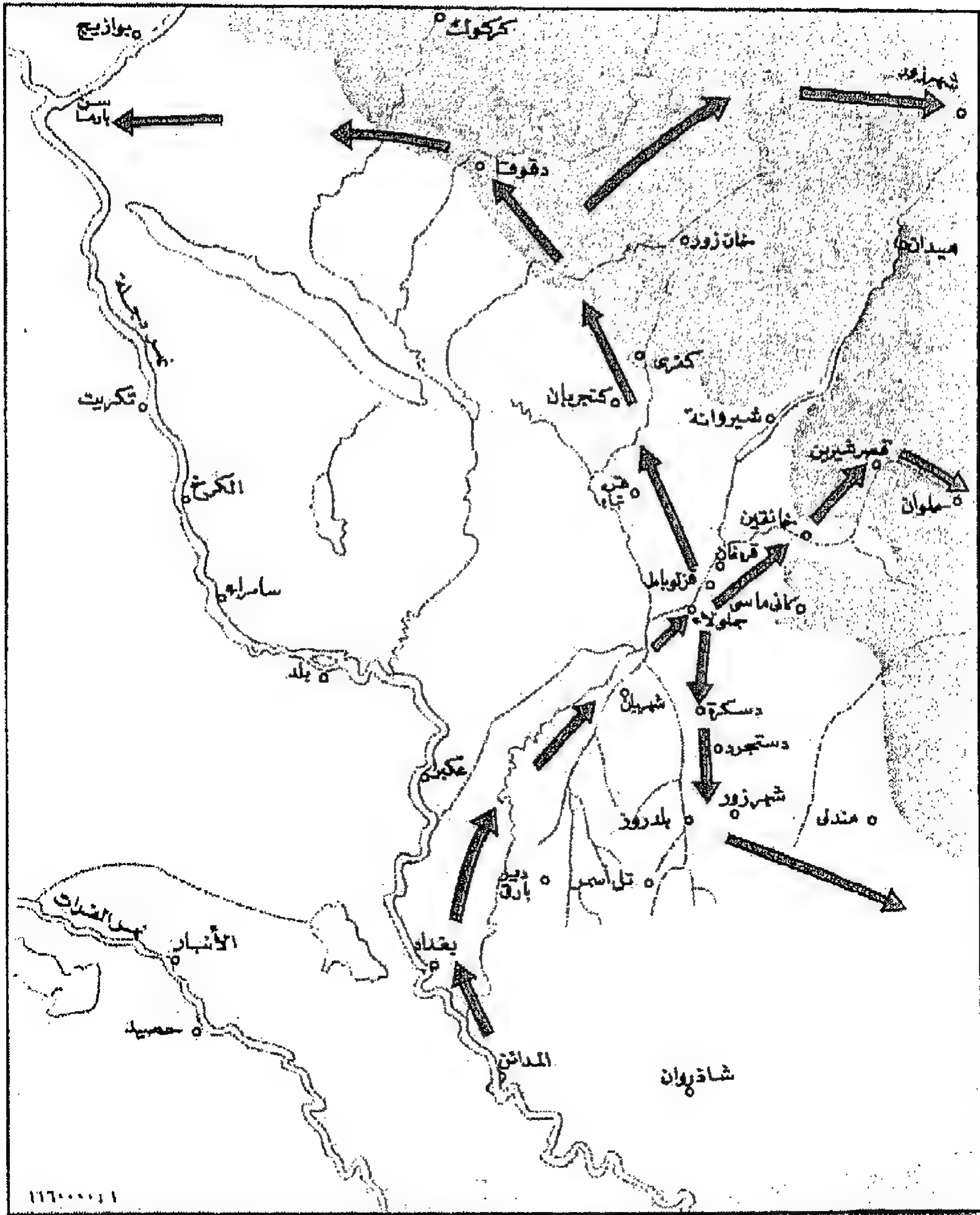
كان الخليفة عمر بن الخطّاب قد عيّن سعد بن أبي وقّاص قائدًا على جبهة فارس، وكان تقهقر الجيش الفارسي إلى داخل بلاد فارس، عبر كردستان، هو الذي جرّ الهجوم العربي على بلاد الكرد، فبعد هزيمة الفرس أمام العرب في معركة القادسية فرّ الملك يِزْدَجِرْد الثالث من المَدائن ومضى إلى حُلْوان (أَلْوان = أَلْوَنْد = دَرْتَنْك = زَهاو) في جنوبي كردستان، واتخذها مركزًا للقيادة، ووجّه الجيش الفارسي إلى مدينة جَلُولاء الكردية (قرب كركوك) لإيقاف الزحف العربي المتصاعد.[١]

وبعد أن فتح العرب المدائن أرسل سعدُ بن أبي وَقّاص جيشًا بقيادة ابن أخيه هاشم بن عُتْبة بن أبي وَقّاص إلى جَلُولاء في أواخر سنة ١٦ هـ، ودارت معركة شرسة بين الفريقين، وحلّت الهزيمة بالجيش الفارسي، واضطر يِزْدَجِرْد إلى مغادرة حُلْوان سنة ١٩ هـ وتراجع شرقًا، وشرع العرب يهاجمون الحاميات الفارسية في كردستان، وقد توجّهوا بقيادة جَرِير بن عبد الله البَجَلي إلى بَنْدَنِيجِين (مَنْدَلي)، فطلب أهلُها الأمان على أداء الجزية والخَراج، فأمَّنهم، ثم توجّه إلى خانِقين.[٢]

---

(١) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، ٤/٢٧-٢٨. البَلاذُري: **فتوح البلدان**، ص٢٩٩.

(٢) البَلاذُري: **فتوح البلدان**، ص١٧٨-١٧٩.



غزو كردستان - المحور الجنوبي

كانت المرحلة الثانية في عملية الغزو أنّ العرب رغبوا في القضاء على القيادة الفارسية ممثَّلةً في يِزْدَجِرْد ومَرازِبته، فأرسل سعد بن أبي وقّاص جيشًا إلى حُلْوان بقيادة هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص، وضمّ إليه جَرِير بن عبد الله البَجَلي، ولما اقترب الجيش العربي منها هرب يِزْدَجِرْد إلى ناحية أَصْبَهان (أصفهان)، وبعد أن فُتحت حُلوان صلحًا ترك فيها هاشمٌ جريرَ بن عبد الله البَجَلي وعَزْرَة بن قيس مع بعض الجند، وتوجّه بباقي الجيش إلى دِينَوَر فلم يفتحها، فتوجّه إلى قَرْماسين (كَرْمَنشاه) ففتحها صلحًا على ما فتح عليه حُلوان، ثم عاد إلى حُلوان فأقام فيها؛

وهذا يعني أنّ هذه المدينة الكردية أصبحت المقرّ المتقدّم للقيادة العربية على جبهة فارس.[1]

في سنة ١٩ هـ أو سنة ٢٠ هـ حشد يِزْدَجِرْد جيشًا فارسيًا كبيرًا، بقيادة مَرْدانشاه ذي الحاجب، لوقف الغزو العربي، واتخذ مَرْدانْشاه المدينة الكُردستانية نَهاوَنْد مركزًا للقيادة الفارسية، وفيها جرت المفاوضات بينه وبين المُغِيرَة بن شُعْبَة، وبعد فشل المفاوضات دارت معركة حامية بين الفريقين، وكان النُّعْمان بن مُقَرِّن المُزَني قائد الجيش العربي، ورغم مصرع النعمان حقق العرب النصر على الجيش الفارسي.[2]

وتولّى حُذَيْفة بن اليَمان قيادة الجيش العربي بعد مصرع النُّعمان، فحاصر نَهاَوْند، فكان أهلها يخرجون لقتال العرب، لكنهم اضطروا إلى الاستسلام أخيرًا، وفتح العرب نَهاوند صلحًا، وصالحهم حُذيفة على الخَراج والجِزية، وعلى أن يكون أهل المدينة آمنين، وتكون أموالهم ومزارعهم ومنازلهم آمنة، وفي البداية كانت الأموال المُجباة من نهاوند وتوابعها تُنفَق على مصالح الكوفة، وكان ما يُجبى من دِينَوَر وتوابعها من نصيب البَصرة، ثم أصبح الأمر بالعكس، فسمّيت نَهاوند «ماه البصرة» ودِينور «ماه الكوفة».[3]

بعد فتح نَهاوند توجّه أبو موسى الأَشْعَري -وكان قد جاء بالمدد في معركة نَهاوَنْد- إلى دِينَوَر، وهي مدينة كُردستانية تقع في صميم إقليم الجبال، «دار الأكراد» كما قال اليَعْقوبي في كتابه **البلدان**، وحاصر أبو موسى المدينةَ خمسة أيام، ولمّا عجز أهلها عن الدفاع عنها رضوا بدفع الجِزية والخَراج، وسألوا الأمان على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، فأجابهم أبو موسى إلى ذلك، وترك فيها واليًا عليهم.[4]

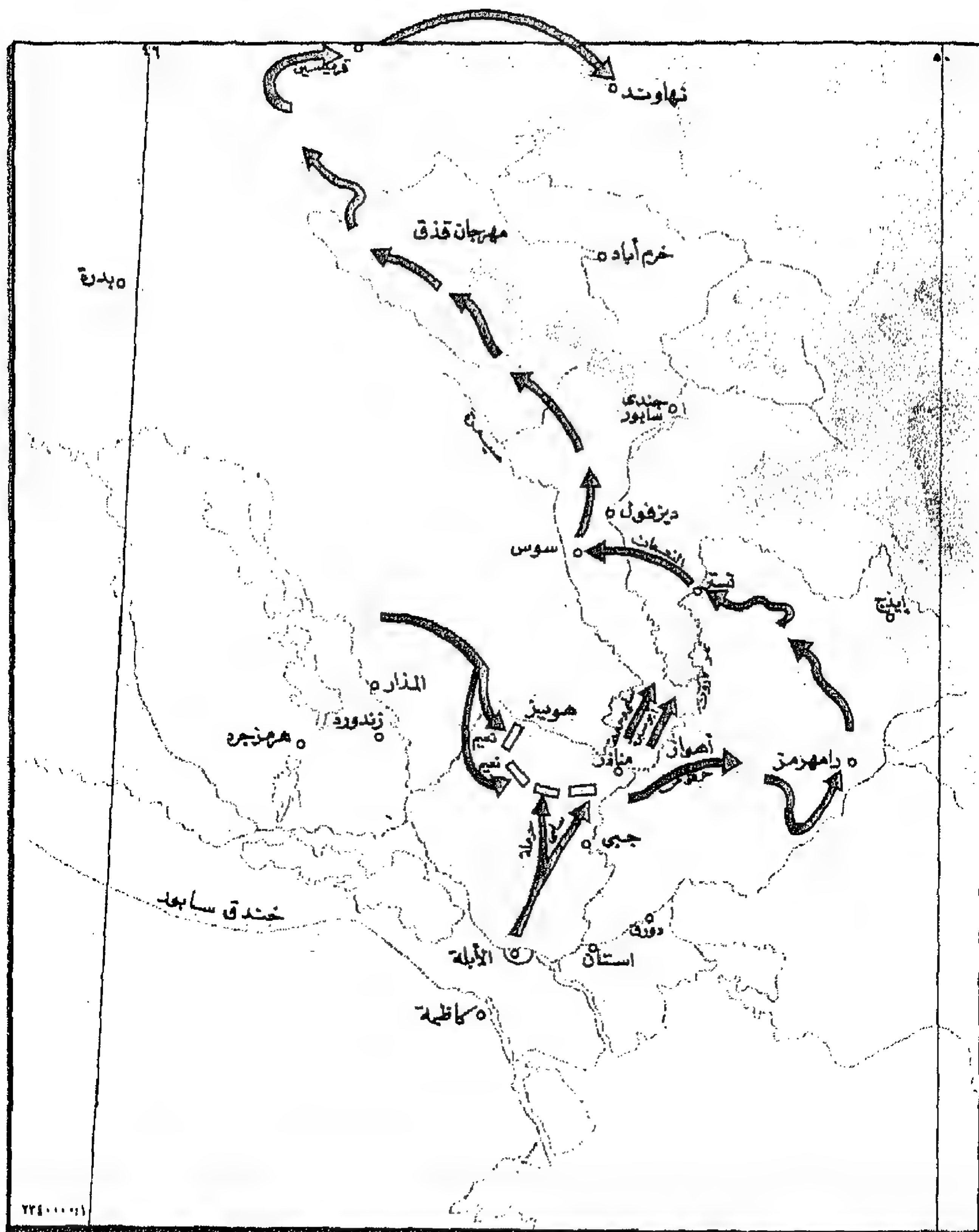
---

(١) المرجع السابق، ص٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٠٢-٣٠٣.
(٣) المرجع السابق، ص٣٠٣.
(٤) المرجع السابق، ص٣٠٤. وانظر اليعقوبي: **البلدان**، ص٦.

غزو شرقي كردستان

توجّه أبو موسى الأَشْعَري بعدئذٍ إلى مدينة ماسَبَذان، فلم يقاتله أهلها، ثم انتقل إلى مدينة سَيْرَوان (ذكرها ياقوت الحموي باسم سَيرَوانْد، وأنها تابعة لهَمَذان)، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل دِينَوَر، على أن يؤدّوا الجزية والخراج، ومن سَيرَوان راح أبو موسى يبث السَّرايا إلى الصَّيْمَرة -وهي مدينة منطقة مِهْرَجانْقَذَق- وإلى المناطق المجاورة، فأخضعها جميعها للسلطة العربية، وهي كلها مناطق من جنوبي كُردستان.(١)

(١) البَلاذُري: فتوح البلدان، ص٣٠٤.



غزو جنوبي كردستان

في أواخر سنة ٢٣ هـ وجّه المُغيرة بن شُعْبَة - والي عمر بن الخطّاب على الكوفة- جَريرَ بن عبد الله البَجَلي إلى هَمَذان (أكباتانا عاصمة الميديين سابقًا) فقاتله أهلها، حتى إنّ جَرير بن عبد الله خسر إحدى عينيه في حصارها جرّاء سهم أصيب به. وبما أنّ القيادة الفارسية كانت قد تراجعت شرقًا، وكانت الحاميات الفارسية الباقية سرعان ما تسقط، أصبح من السهل على الجيش العربي المنظّم والمعبأ عَقَديًا أن يتغلّب على الجماهير الكردية وغير الكردية المفتقِرة إلى عنصر التنظيم والتعبئة

والدعم اللوجستي؛ وهذا ما حدث في هَمَذان، فقد فتحها العرب على مثل صلح نَهاوند.[1]

وتؤكد الحقائق التاريخية أنّ مناطق جنوبي كُردستان كانت الساحة الإستراتيجية الأكثر أهمية في الصراع العربي- الساساني، وثمة دليلان واضحان جدًا على ما نقول:

- الدليل الأول: أنّ القيادة الفارسية العليا اتخذت جنوبي كُردستان مقرًا لها أكثر من مرة، بعد أن خسرت مواقعها في وسط العراق. وقد دارت على أرض جنوبي كردستان أشدّ المعارك ضراوة بين الفريقين العربي والفارسي (جَلُولاء، حُلْوان، نَهاوَنْد، دِينَوَر، هَمَذان).
- الدليل الثاني: أنّ العرب، بعد أن أحكموا سيطرتهم على جنوبي كُردستان، تمكّنوا من الاندفاع داخل العمق الفارسي على ثلاثة محاور: جنوبًا نحو الأهواز (خُوزِستان)، وشرقًا نحو أصفهان وقاشان وقُمْ، وشمالاً نحو أذربيجان.

وفي سنة ٢١ هـ وجّه عمر بن الخطّاب القائد عَزْرَة بن قَيْس من حُلْوان إلى شَهْرَزُور لفتحها، فأخفق عَزْرَة في فتحها، ثم وجّه عمر بن الخطّاب إليها عُتْبة بن فَرْقَد، ففتحها بعد حرب دامية سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين.[2] وبين سنتي ١٨-٢٣ هـ كان الكرد يشتركون مع الفرس في الدفاع عن مدينتي فَسا (بَسا) ودارابْجِرْد ضد الجيش العربي بقيادة سارِية بن زُنَيْم الكِناني، كما ساهموا في الدفاع عن الأهواز (خوزستان) ضد الجيش العربي بقيادة أبي موسى الأَشْعَري، لكنّ العرب حققوا النصر؛ ونتيجة لذلك لحقت بالكرد المدافعين خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات.[3]

ثانيًا- المحور الشمالي:

كانت الجزيرة هي المدخل إلى غربي كُردستان وشماليها، وقد كلّف الخليفة عمرُ القائدَ عِياضَ بن غَنْم بفتحها، فانتقل إليها سنة ١٨ هـ ففتحها، ثم سار إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٦.

(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٤/ ٩٩٠.

(٣) المرجع السابق، ٤/ ٩٩٠-٩٩٢.

حَرّان، فجهّز عليها صَفْوانَ بن المُعَطَّل وحَبيب بن مَسْلَمة، وسار هو إلى الرُّها فحاصرها، فخرج المقاتلون منها وقاتلوا العرب، فهزمهم العرب حتى أوصلوهم إلى المدينة، فطلب أهلُها الصلح والأمان، فأجابهم عِياض إلى ذلك وكتب لهم كتابًا نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عِياضِ بن غَنْم لأُسْقُف الرُّها. إنكم إن فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدّوا إليّ عن كل رجل دينارًا ومُدَّي قمح، فأنتم آمنون عن أنفسكم وأموالكم وأولادكم ومَن تبعكم، وعليكم إرشادُ الضالّ وإصلاحُ الجسور والطرق ونصيحةُ المسلمين. شَهِدَ الله وكفى بالله شهيدًا»[(١)].

في سنة ١٩ هـ رجع عِياض إلى حَرّان فحاصرها، إلى أن صالحه أهلها على مثل صلح أهل الرُّها، وولّى عليها رجلاً، ثم سار إلى سَمِيساط، وكان قد وجّه إليها كلاًّ من صَفْوان بن المُعَطَّل وحَبيب بن مَسْلَمة الفِهْري، فكانا محاصِرَين لها، بعد أن كانا قد غلبا على بعض قراها وحصونها، فصالح أهلُ سَمِيساط عياضًا على مثل صلح أهل الرُّها.[(٢)]

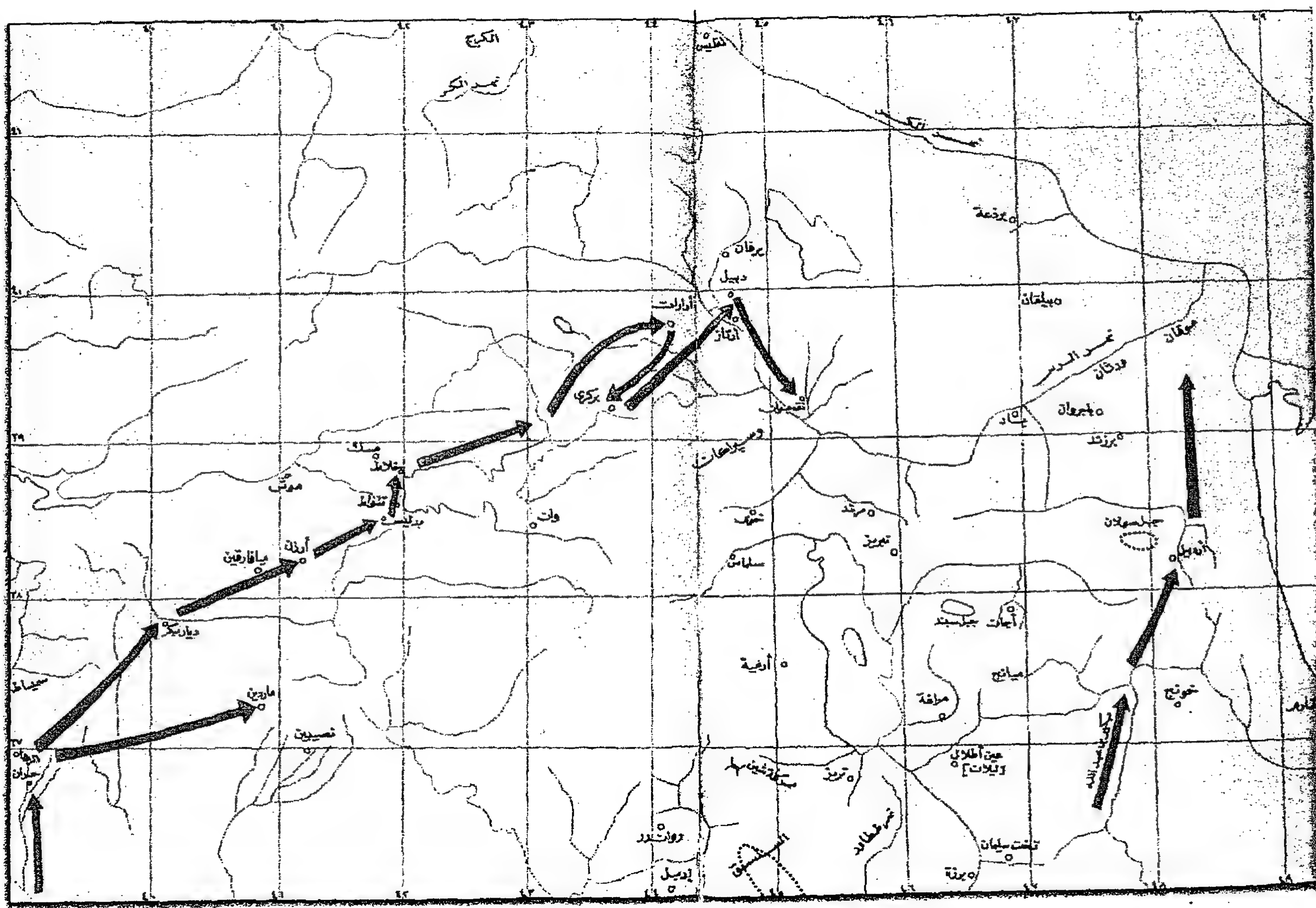
وفي سنة ١٩ هـ أيضًا توجّه عياض إلى سَروج ورأس كَيْفا (قرب حَرّان، والأرجح أنها حِصن كَيْفا نفسها) فغلب على أرضها وصالح أهلَ حصونها على مثل صلح الرُّها.[(٣)]

وفي سنة ١٩ هـ وأوائل سنة ٢٠ هـ فتح عِياض آمِد (ديار بكر) بغير قتال على مثل صُلح الرُّها، وانطلق بعدئذٍ إلى مَيّافارقين وحِصن كَفْرتُوثى ونِصِيبين، ففتحها بغير قتال على مثل صلح الرُّها، ثم فتح طُور عَبْدِين وحِصن ماردين ودارا وقَرْدَى وبازَبْدَى على مثل ذلك، وأتاه بِطْريق الزُّوزان فصالحه عن أرضه على أتاوة معيّنة.[(٤)]

وفي سنة ٢٠ هـ سار عِياض بن غَنْم إلى أَرْزَن الروم (قاليقَلا) ففتحها على مثل

---

(١) البَلاذُري، فتوح البلدان، ص١٧٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٧٩.
(٣) المرجع السابق، ص١٨٠.
(٤) المرجع السابق نفسه.



غزو أرمينيا وأذربيجان

صلح نِصِيبين، ودخل الدَّرب فبلغ بَدْلِيس ثم خِلاط فصالحوه، وانتهى إلى أطراف أرمينيا، ولما انصرف عِياض من خِلاط، وسار إلى الجزيرة، بعث جيشًا إلى سِنْجار ففتحها صلحًا، وأسكن فيها قومًا من العرب.[1]

ثم وصلت الفتوحات العربية إلى مَلَطْيَة في غربي كردستان، فقد وجّه عياضٌ حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْري من شِمْشاط إلى مَلَطية، ففتحها، ثم امتنعت على العرب، فلما أصبح مُعاويةُ بن أبي سُفيان واليًا على الشام والجزيرة وجّه إليها حَبيبَ بن مَسْلَمَة، ففتحها عَنْوَةً وجعل فيها حامية عربية، واتخذها مُعاوية مركزًا عسكريًا متقدّمًا للحملات التي كان العرب يشنّونها على الأراضي البيزنطية المعروفة باسم «الصَّوائف».[2]

وفي سنة ٢٤ هـ أثناء خلافة عثمان بن عَفّان (قُتل سنة ٣٥ هـ) امتنع أهل أذربيجان وأرمينيا عن دفع ما كانوا صالحوا عليه الدولة العربية من الجِزية في عهد عمر بن الخطّاب، فغزاها الوليد بن عُقْبة، وقد علمنا أنّ الكُرد كانوا يسكنون مناطق واسعة من هاتين المنطقتين، وكانوا عُرضةً لذلك الغزو.

والدليل على وجود الكُرد بكثافة على تخوم القوقاز أنّ حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْري - وكان يعمل بإمرة عِياض بن غَنْم- دخل أرمينيا حسبما ذكر البَلاذُري، «وأتى أَزْدَساط، وهي قرية القِرْمِز، وأجاز نهر الأكراد، ونزل مرج دَبِيل، فسَرَّبَ الخيولَ إليها».[3] ومن المحال أن يكون ثمة نهر باسم «نهر الأكراد» من غير أن يكون للكرد وجود كثيف هناك؛ هذا عدا أنّ في أحداث رحلة الإغريق العشرة آلاف بقيادة إكسنوفان (٤٠٠-٤٠١ ق.م) ما يؤكد وجود الكُرْدُوخ (أسلاف الكرد) بكثافة حتى الضفة الغربية لنهر الرَّس (آراس = أراكس).

وفي السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفّان أعلن الكرد في آمَد (ديار بكر) الثورة على السلطة العربية، فسار إليهم أبو موسى الأشعري غازيًا من البصرة، وأعادهم قسرًا إلى سلطة الدولة العربية. وأرسل مُعاوية بن أبي سُفْيان - وكان والي

---

(١) البَلاذُري: **فتوح البلدان**، ص١٨٠، ١٨٢. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٤/٩٥٥.

(٢) البَلاذُري: **فتوح البلدان**، ص١٨٩.

(٣) المرجع السابق: ص٢٠٣. وسرّب إليها الخيول: هاجمها.

الشام آنذاك- يحيى بن مَسْلَمة في أهل الشام لغزو أرمينية، ففتح قالِيقَلا وخِلاط، وسار سَلْمان بن رَبيعة الباهِلي إلى أرّان (شمال غربي أذربيجان، وكانت تعدّ من أرمينيا)، وصالح أهل البَيْلَقان (قرب باب الأبواب في القوقاز، وكانت تُعَدّ من أرمينيا) وأهل بَرْذَعَة (كبرى مدن أذربيجان)، وقاتل كُرْدَ البُوشَنْجان، وظفر بهم، وصالح بعضَهم على الجزية.[1]

إضـاءات:

لن نقف الآن عند اختلاف بعض الرواة في تحديد السنة التي فتح فيها العرب هذه المدينة أو ذلك الحِصن في كُردستان، فهي اختلافات طفيفة ولا تأثير لها على رسم الصورة الحقيقية للفتح العربي الإسلامي في كردستان، لكنّ ما يُلفت الانتباه في سير أحداث تلك الفتوحات أمور أربعة:

١ - الأمر الأول: أنّ البَلاذُري فرّق، في سرد أحداث الفتوحات، بين فتح الحواضر (المدن) وفتح الأرياف (الأرض)، فقال تارةً: «وحدّثني محمّد عن الواقِدي، عن عبد الرحمن بن مَسْلَمة، عن فُرات بن سَلْمان، عن ثابت بن الحَجّاج، قال: فتح عِياض الرَّقَّة وحَرّان والرُّها ونِصيبين ومَيّافارين وقَرْقيسيا وقرى الفرات ومدائنها صُلحًا، وأرضَها عَنْوة».[2] وقال تارةً أخرى: «وحدّثني محمد عن الواقِدي، عن ثَوْر بن يَزيد، عن راشد بن سَعد، أنّ عِياضًا افتتح الجزيرةَ ومدائنَها صلحًا، وأرضَها عَنْوة».[3]

ولا يذكر البَلاذُري، ولا غيرُه من المؤرخين، السبب في كون المدن الرئيسة فُتحت صلحًا في حين كانت الأرياف المشار إليها باسم «الأرض» فُتحت عَنوة، والسبب فيما نرى أنّ كردستان غربًا وشمالاً كانت واقعة ضمن النفوذ البيزنطي، وكانت السلطات الحاكمة تتّخذ المدن مقرات لها، يقيم فيها موظفوها وجنودها ورجال الدين التابعين لها، وهؤلاء هم الذين بادروا إلى عقد اتفاقيات الصلح مع

---

(١) الطَّبري: **تاريخه**، ٤/٢٤٦. وابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٤/ ١٠٠٠ - ١٠٠٩.
(٢) البَلاذُري، **فتوح البلدان**، ص١٧٩.
(٣) المرجع السابق نفسه.

العرب، أما الأرياف فكان أهلها - سواء أكانوا من الكرد أم غيرهم- يقاومون الفاتحين ولا يستسلمون إلا اضطرارًا.

٢ - الأمر الثاني: أنّ جنوبي كُردستان كانت بوّابة الفتوحات العربية إلى بلاد الشرق، بدءًا من بلاد فارس وانتهاء بحدود الصين، وكانت مناطق غربي كُردستان وشماليها، في الوقت نفسه، بوّابةَ الفتوحات العربية شمالاً نحو أرمينيا ومناطق القوقاز. ويعرف من له أدنى دراية بطبيعة الحروب قديمًا أنّ المناطق كانت تستمد أهميتها الإستراتيجية، على الصعيد العسكري، من معطيات ثلاثة هي: الموقع المحصّن، والعلاقة اللوجستية بالمراكز الرئيسة للسلطة، وتوافر الموارد الاقتصادية والبشرية. والحقيقة أنّ هذه المعطيات جميعها كانت متحقّقة في كُردستان بشِقَّيها: الشِّق الخاضع للدولة الساسانية جنوبًا وشرقًا، والشِّق الخاضع للدولة البيزنطية شمالاً وغربًا.

٣ - الأمر الثالث: أنّ الشعب الكردي لم تكن ناقة ولا جمل في الحرب التي دارت في بلاده بين القوى الإقليمية الكبرى الثلاث؛ نقصد الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية العربية الناشئة، ولم تكن ثمة حكومة كردية مركزية تنظّم الشعب الكردي لمواجهة الغزو العربي، ولاتخاذ قرار الحرب والسلم، وإنما كان الكرد خاضعين رغمًا عنهم للفرس الساسانيين وللروم البيزنطيين. وعندما كانت السلطات الفارسية والبيزنطية تخسر الحرب أمام العرب، وترحل هاربة، كانت بلاد الكرد تصبح بين أيدي الفاتحين الجدد، وأقصى ما كان الكرد يفعلونه هو القيام بمقاومات مبعثرة هنا وهناك، ربما تحت ضغط عمليات السلب التي كانت تصاحب الغزو العربي، وأيضًا تحت ضغط الغزو الثقافي الجديد المتمثِّل في الدين الإسلامي؛ ذلك الغزو الذي شكّل تهديدًا واضحًا للثقافة الزَّرْدَشتية التي كانت سائدة طوال قرون في المجتمع الكردي.

٤ - الأمر الرابع: أنّ كُردستان دفعت ثمنًا باهظًا بشريًا واقتصاديًا لِما جرى على أرضها من حروب، ولا داعي للهرب من عرض الحقائق كما هي، فالحرب هي الحرب، وكان القتل والسَّبْي والسَّلب (الغنائم) من الأمور المألوفة في الحروب القديمة، وكانت هذه الممارسات تَكثر حينما كان المقاتلون العرب يحاربون تحت لواء قائد صعب المراس شديد البطش، مثل خالد بن الوليد، وفي هذا الصدد نذكر

ما ذكره ابن حَجَر العَسْقَلاني: «قال عُمر لأبي بكر: اكتبْ إلى خالد لا يعطي شيئًا إلاّ بأمرك؛ فكتب إليه بذلك، فأجابه خالد: إمّا أن تَدَعَني وعَمَلي، وإلاّ فشأنَك وعملَك. فأشار عمرُ بعزله، فقال أبو بكر: فمن يَجزي عنّي جزاء خالد؟»[1]

ويبدو أنّ المؤرخين المسلمين القدامى كانوا يُعْفون أنفسَهم أحيانًا كثيرة من ذكر الحقائق المتعلقة بأعداد الضحايا كردًا كانوا أم عربًا، وكانوا أحيانًا أخرى يُغلّفون تلك الحقائق بصيغ عمومية ضبابية، ودعونا نقرأ الخبرين الآتيين اللذين ذكرهما ابن خلدون، ولا ريب في أنه نقلهما عن المؤرخين المسلمين السابقين:

- «اجتمع إلى عمر جيشٌ من المسلمين، فبعث عليهم سَلَمة بن قَيْس الأَشْجَعي، ودفعهم إلى الجهاد على عادته، فلقوا عدوًّا من الأكراد المُشركين، فدعوهم إلى الإسلام والجِزية فأبوا، وقاتلوهم، وهزموهم، وقتلوا وسَبَوا، وقسّموا الغنائم»[2].
- «غزا عُتْبة بن فَرْقَد شَهْرَزُور والصامَغان، ففتحها بعد قتال على الجِزية والخراج، وقتل خَلْقًا من الأكراد»[3].

إنّ هذين الخبرين يشتملان على مغالطة وحقيقة:

أما المغالطة فهي وصف الكرد بأنهم مشركون، وسرعان ما ناقض صاحب المعلومة نفسه بقوله: «فدعوهم إلى الإسلام والجزية»؛ ومعروف في الشرع الإسلامي أنّ المشرك أمامه خياران فقط: إما الإسلام وإما الحرب، وأنّ أهل الكتاب (اليهود، النصارى، الزَّردشتيين، الصابئة) أمامهم ثلاثة خيارات: إما الإسلام وإما دفع الجِزية وإما الحرب. فكيف تُقبل الجزية من الكرد إذا كانوا مشركين؟ ثم سبق القول في الفصل الثاني أنّ الكرد كانوا على الأزدائية، وهي عقيدة توحيدية، وأصبحوا زردشتيين في إطار التبعية للدول الفارسية، وظلوا كذلك إلى أن جاء الإسلام، ومعروف أيضًا أنّ النبي محمدًا أمر بمعاملة الزَّرْدَشْتيين في البَحْرَين معاملة أهل الكتاب؛ مع الأخذ في الاعتبار أنّ الزردشتيين كانوا يسمّون مَجوسًا، وأنّ اسم

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٤٢.
(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٤/ ٩٩٣.
(٣) المرجع السابق، ٤/ ٩٨٢.

«البَحْرين» كان يشمل المنطقة الواقعة على الساحل الغربي من الخليج من قَطر إلى الكويت.

وأما الحقيقة فهي تشبّث الكرد بعقيدتهم وإصرارهم على القتال دفاعًا عنها، شأنُهم في ذلك شأن سائر الشعوب، مما أدّى إلى تعرّضهم للقتل والسبي على أيدي الفاتحين الجدد، حتى إنّ أحد مواطني نَهاوند، وهو أبو لؤلؤة الفارسي واسمه فَيْرُوز، كان حين يلتقي بسبي نَهاوَنْد في المدينة عاصمة الخلافة، في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب، ويمسح بيده على رؤوس الأطفال القادمين في قوافل السبي، ويبكي وهو يقول: «أكل عمر كبدي». ولعلّ هذا هو السبب الحقيقي في قيامه بعدئذٍ باغتيال الخليفة عمر، وليس عدمُ إنصافه من مولاه المُغِيرة بن شُعْبَة كما ذكر الرواة.(١)

٣- الكُرد في العَهد الأُمَوي

عانى الخلفاء الأمويون طوال عهدهم من عقدة الافتقار إلى الشرعية الدينية في قيادة الدولة، فالمعروف أنهم حملوا لواء المعارضة ضد الإسلام بقيادة زعيمهم أبي سُفيان، وأنّ أبا سُفيان وبعض سادة الأمويين لم يدخلوا الإسلام إلا عندما خسروا كلّ أساليبهم وأسلحتهم في معارضته. ولذا جعل بنو أميّة الخلافة الإسلامية مُلكًا عَضوضًا كما قيل، أي مُتوارَثًا، وابتكروا إستراتيجية تتوافق مع موقعهم في خريطة المرجعيات الإسلامية، ومع طموحاتهم السياسية، وأقاموا إستراتيجيتهم تلك على أساسين اثنين: العصبية القَبَلية والعصبية العربية.

فمن ناحية أشعل الحكام الأمويون نار العصبية بين العرب العَدنانيين (عرب الشمال) والعرب القَحطانيين (عرب الجنوب)، بل تجاوزوا ذلك إلى إشعال العصبية بين قبائل قَيس وقبائل رَبيعة من العدنانيين أنفسهم، ومن ناحية أخرى أحدثوا شَرْخًا بين العرب والعجم (الشعوب غير العربية)، وأحدثوا مستوَيين من المواطنة في المجتمع: مُواطِن من الدرجة الأولى هو (العربي) ومواطن من الدرجة الثانية هو (العجمي = المولى)، غير آبهين بالمبدأ الذي سنّه القرآن «إنّما المؤمنون إخوة».

---

(١) المرجع السابق، ٤/ ٩٧٧.

ولم يكتفِ الحكام الأمويون بذلك، وإنما أحدثوا اضطهادًا اقتصاديًا أيضًا، فكان قُصارى همّ معظم خلفائهم جمعَ الأموال باسم الجِزية، حتى إنهم كانوا يَمتعِضون عندما يُقبل الموالي (العجم) على الإسلام، فتسقط عنهم الجِزيةُ نتيجةً لذلك، فأمروا ولاتَهم في بلاد فارس خاصةً أن يجمعوا بين أخذ الجِزية والزكاة من الموالي إذا اعتنقوا الإسلام، ولم يتوقّف هذا الخرق الصريح للشريعة الإسلامية إلاّ في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) الذي لم يدم حكمه سوى سنتين تقريبًا.[١]

نتيجةً لهذه السياسة القائمة على العصبية، والهادفة إلى الحفاظ على مصالح الطبقة الحاكمة، كان من الطبيعي ألاّ يرضى الكرد عن الحكم الأُمَوي، مثل سائر الشعوب في الدولة الإسلامية، وأن ينحازوا إلى كلّ من يرفع لواء الثورة ضده؛ ومثال ذلك خروج فَرْوَة بن نَوْفل الأَشْجَعي ومعه خمسمئة من الخوارج في نواحي شَهْرَزُور، فوجّه إليه المُغِيرة بن شُعْبَة والي العراق جيشًا، فلقوه بشَهْرَزُور وقتلوه. وخروج مُطْرِف بن المُغيرة بن شُعْبة في مناطق حُلْوان على الحجّاج بن يوسف الثقفي والي العراق.[٢]

وفي خضمّ الثورة الشيعية التي قادها المختار بن عُبَيد الثَّقَفي ضد الحكم الأُمَوي، وبعد الانتصار على عُبَيد الله بن زياد حاكم العراق من قبل الأمويين، أرسل إبراهيمُ بن الأَشْتَر النَّخَعي -وهو أبرز قوّاد المختار- عمّالَه إلى البلاد، فأرسل أخاه عبد الرحمن إلى نِصيبين، وغلب على دارا وسِنْجار، وأرسل حاتِمَ بن النُّعمان الباهِلي إلى حَرّان والرُّها وشِمْشاط، كما أرسل عُمَيْر بن الحُباب السُّلَمي إلى كَفْرتُوثى وطُور عابْدِين.[٣]

والملاحظ أيضًا أنّ الخلفاء الأُمويين كانوا يدركون أهمية الموقع الإستراتيجي لكُردستان والمناطق المتاخمة لها جنوبًا وشمالاً، ونجد أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان يولّي على الجزيرة وأرمينيا أخاه محمدًا (والد مروان بن محمد الخليفة

(١) المرجع السابق، ٥/ ١٦٤.
(٢) المرجع السابق، ٥/ ٣٠٤، ٣٤١.
(٣) المرجع السابق، ٥/ ٦٧.

الأُموي الأخير)، وفي سنة ٩١ هـ عزل الخليفة الوليد بن عبد الملك عمّه محمدًا، وولّى مكانه أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك،[١] وكانت مناطق شمالي كردستان موزّعة في الخريطة السياسية بين الجزيرة جنوبًا وأرمينية شمالاً، وكانت عادة الخلفاء أنهم لا يولّون على المناطق الإستراتيجية إلاّ أمراء من الأسرة المالكة أو ولاةً ممّن يثقون بهم كلّ الثقة.[٢]

وقد انضمّ بعض الكرد، في عهد الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان، إلى ثورة عبد الرحمن بن الأَشْعَث سنة ٨٣ هـ، فغضب عليهم الحَجّاج الثقفي والي العراق وانتقم منهم شرَّ انتقام وأقام فيهم مذابح شنيعة. وفي سنة ٨٦ هـ بلغ الحجّاجَ أنّ الكرد ثاروا في إقليم فارس وغلبوا عليها، فأرسل إليهم جيشًا لإخضاعهم قَسرًا، والأرجح أنّ المقصود بـ«فارس» هنا جنوب غربي إيران، ويُفهم من هذا الخبر أمران أولهما: كثرة عدد الكرد في فارس والمناطق المجاورة لها، وثانيهما: عدم خضوع الكرد بشكل كامل للحكم العربي الأموي، وإصرارهم على الثورة كلّما سنحت لهم الفرصة.[٣]

وفي سنة ١٢٩ هـ وقف بعض الكرد مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُمَيّة ضد منافسه الأموي سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي خرج عليه في كردستان، وكان هذا الخليفة كرديّ الأم، ورث منها عينيه الزرقاوين وشكله الوسيم، وقد ولد في كردستان وفيها نشأ، وكان واليًا عليها وعلى أرمينيا قبل أن يصبح خليفة.[٤]

---

(١) ذكر الأستاذ حَسُو أُومَريكُو في مخطوطه أنّ أم مَسْلَمة كانت ابنة أحد زعماء الكرد في سهل جُومَه الكردية بمنطقة عِفْرين في شمالي سوريا، لكنه لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة.

(٢) المرجع السابق، ٥/ ٢٩٣، ٢٩٥.

(٣) المرجع السابق، ٥/ ١٤٠.

(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٥/ ٣٣١ - ٣٣٣.

الفَصْل الخامِس

تاريخ الكُرد
من العَهد العبّاسي الأوّل إلى العَهد الأيُّوبي

١- الكُرد في العَهْد العبّاسي الأوّل

الكُرد وقيام الدولة العبّاسية:

مرّ فيما سبق أنّ الدولة الأُمَوية كانت تنزع إلى العصبية العربية في العلاقة بالمسلمين المَوالي (غير العرب) وإلى العصبية القبلية في العلاقة بالعرب أنفسهم، وقد أدرك منافسوهم من قادة الهاشميين (آل النبي) الجوانبَ السلبية لتلك النزعة، فأحسنوا استثمارها لصالح دعوتهم المضادّة للأُمويين، وتقرّبوا إلى المَوالي، واتخذوا بعضَ دعاتهم الكبار منهم، كما أحسنوا استثمار نقمة القبائل العربية التي لقيت الاضطهاد على أيدي الأمويين.

وجدير بالذكر أنّ الموالي كانوا قوة مهمّة في الدولة العربية الإسلامية، سواء أكان ذلك على الصعيد العددي، إذ كانوا أكثر عددًا من العرب، أم على الصعيد الجغرافي، فكردستان وبلاد فارس شاسعة وبعيدة عن دمشق عاصمة الخلافة، كما أنها كثيرة الجبال وعرة المسالك، صالحة للثورات القائمة على الكرّ والفرّ، وهذا أحد أسباب انطلاق الدعوة العباسية من خُراسان في الشرق أولاً، وامتدادها بعدئذٍ نحو الغرب.

وكان لبعض الكرد مساهمة كبيرة في الدعوة إلى آل البيت وإسقاط الأمويين وإيصال العباسيين إلى سُدّة الخلافة، ومن أبرزهم القائد الكردي الشهير أبا مُسْلِم الخُراساني (عبد الرحمن بن مُسْلِم، عاش بين ١٠٠-١٣٧ هـ = ٧١٨-٧٥٥م)،

وكان اسمه بَهْزاد، وهو يُعَدّ مؤسس الدولة العبّاسية، وهو في الأصل من كرد الجنوب، انتسب إلى دعوة آل البيت ضد الأمويين، ثم علا شأنه - بسبب ذكائه ونشاطه- حتى أصبح القائد العامّ لجيش الثورة في خُراسان، ولذلك عُرف بلقب «الخُراساني»، وهو الذي حشد الأنصار، وبدأ بالثورة في خراسان، وقضى على مراكز السلطة الأُموية، وألحق الهزائم بجيوش الأمويين واحدًا تلو آخر، ثم زحف غرباً نحو العراق، وكان من أبرز المساهمين في إسقاط الدولة الأموية.

كان أبو مسلم صاحب نفوذ كبير، وكان لقبه «صاحب الدولة»، وقال الخليفة المأمون، وقد ذُكر أبو مسلم في مجلسه: «أجلُّ ملوك الأرض ثلاثةٌ، وهم الذين قاموا بنَقل الدُّوَل: الإسكندرُ وأَرْدَشَيرُ وأبو مسلم الخُراساني». وقد خاف الخليفة العبّاسي الثاني أبو جعفر المنصور أن يستقلّ أبو مسلم بولاية خراسان، فاستضافه في قصره ببغداد، ثم أمر بقتله غدرًا وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وقد أشار الشاعر أبو دُلامَة إلى أصول أبي مسلم الكردية بعد مقتله، حينما هجاه بقصيدة قال فيها:

أبا مُجْرِمٍ، ما غيّرَ اُلله نعمةً ... على عبدِهِ حتى يُغيّرها العبدُ

أفي دولة المنصور حاولتَ غَدْرةً؟ ... ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكردُ[1]

وليس غريبًا أن ينسب أبو دُلامة الكرد- بما فيهم أبا مسلم- إلى الغدر، ويغضّ النظر عن غدر الخليفة بضيفه وفي قصره، فهو شاعر الخليفة، ومن الضروري أن يتّهم خصومه بكل الصفات الشنيعة كي يكون قتلهم مبرَّراً.

وثمّة أسرة كردية عريقة أخرى كان لها تأثير كبير في إقامة الدولة العبّاسية هي أسرة البَرامِكَة الشهيرة التي كانت مقرّبة جدًا إلى خلفاء بني العبّاس، منذ عهد الخليفة الأول أبي العبّاس السفّاح (ت ١٣٦هـ) وإلى فترة متأخرة من عهد الخليفة هارون الرشيد، وكان أبناؤها من جملة المستشارين المهمّين والوزراء المرموقين في بلاط خلفاء بني العباس، بل إنّ خالدًا البَرْمَكِي كان من جملة القادة الكبار الذين كانوا يعملون في جيش الدعوة العباسية تحت إمرة أبي مُسْلم الخُراساني منذ بدايات نشوب الثورة في خراسان.[2]

---

(١) ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، ٣/١٤٥ - ١٥٥.

(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٦/٥٠٦ - ٥٠٧. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٥/ ٢٦٧.

وإذا تتبّعنا مسار الثورة العباسية سنة ١٣٢هـ وجدنا أنّ قادة الثورة، من أمثال قَحْطَبة بن شَبِيب، بدأوا بشنّ الهجوم على مراكز السلطة الأُموية في جنوبي كُردستان، وخاصةً في حُلْوان وشَهْرَزُور، وعلى مراكزها التي تقع على تخوم كردستان، مثل الموصل، قبل أن يبسطوا نفوذهم على العراق والشام، بل إنّ المعركة الفاصلة بين الخليفة الأموي مروان بن محمّد والقائد العباسي عبد الله بن علي دارت على ضفاف نهر الزاب الأسفل (الصغير) في جنوبي كردستان، ولذا سمّيت «معركة الزاب»، وانتصر العباسيون في هذه المعركة على الأمويين انتصارًا حاسمًا.[(١)]

وأدرك العباسيون أيضًا أهمية كردستان اقتصاديًا وعسكريًا، فحرصوا على تعيين المقرّبين منهم وأهل الثقة ولاةً عليها، فقد ولّى الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفّاح (ت ١٣٦هـ) أخاه أبا جعفر المنصور على الجزيرة وأرمينيا (شمالي كردستان ضمنًا)، وولّى الخليفةُ العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ) ابنه جعفرَ على الموصل، وحينما تولّى ابنه المَهدي (ت ١٦٩هـ) الخلافة عيّن ابنَه هارون الرشيد واليًا على كردستان وأذربيجان.[(٢)]

انتفاضات. . . وثورات:

لم يخيّم الهدوء على كردستان في العهد العبّاسي، وإنما اندلعت فيها القلاقل بين حين وآخر، ففي سنة ١٣٢هـ ثار أهل الجزيرة، وخلعوا طاعة الخليفة أبي العبّاس السفّاح، وساروا نحو حَرّان لطرد عامل الخليفة في الجزيرة موسى بن كَعْب، كما أنّ الزعيم الخارجي بُرَيكة الحَرُوري اغتنم الفرصة وثار بجماعته من رَبِيعة في مناطق دارا وماردين واستقلّ بها؛ الأمر الذي حمل الخليفة على تولية أخيه أبي جعفر المنصور على تلك الديار لقمع الثائرين.[(٣)]

واشترك الكرد في كثير من الاضطرابات والثورات التي نشبت في كردستان أيام

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٥/ ٢٧١. حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي**، ١٩/٢.

(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٥/ ٤٢٥، ٤٢٧.

(٣) الطبري: **تاريخ الطبري**، ٧/ ٤٤٧.

الخليفة أبي جعفر المنصور، وقد ورد إليه الخبر بثورة الكرد في الموصل والجزيرة، فندب خالدَ بن بَرْمَك للقضاء عليها سنة ١٥٨هـ، فتوجّه خالد إلى معاقل الثوار، وأفلح في إخماد الثورة.[١]

وفي سنة ١٧١هـ نشبت في الجزيرة ثورةُ الصَّحْصَح الحَرُوري ضد الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقيل إنه غلب على ديار رَبِيعة بأكملها وجَبى أموالها. وفي سنة ١٨٠هـ ثار في الجزيرة الفَضْل بن سعيد على هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ)، وشملت ثورتُه نِصيبين وبَلَد ودارا وآمَد وخِلاط وأطراف مارْدين والموصل.[٢]

ومنذ أواخر العهد الأُموي كانت قد نشبت ثورة كبرى في غربي إيران الحالية وشمالها الغربي عرفت في كتب التراث العربي باسم الخُرَّمِيّة، ويُدعون «المُحَمَّرة» أيضًا، وقد توسّعت هذه الثورة في العهد العباسي، ولا سيّما في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ)، وقادها رجل يدعى بابَك الخُرَّمي (قتل سنة ٢٢٢هـ). وعلى عادتهم رمى مؤرِّخو السلطة أتباعَ هذه الثورة بأشنع التهم، كإباحة المحرّمات، وأغفلوا الأسباب الحقيقية للثورة، مثل انحراف الخلفاء والولاة عن مبادئ العدالة في سياسة الأمة، واستئثارهم بالأموال والمناصب دون الجماهير، والتعامل مع الموالي على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية.[٣]

وشارك كثير من الكرد في ثورة بابَك الخُرَّمي، كما أنّ مناطق شاسعة من شرقي كردستان وشماليها كانت مسرحًا للصراع بين جيوش الخلافة والثوّار، والدليل على ذلك أنه دخل في دعوتها كثير من أهل الجبال من هَمَذان وأصفهان، وذكر المسعودي أنّ «أكثر الخُرَّمية سنة ٣٢٣ هـ كانوا من الكُرْدُكِية واللُّورْشاهِيّة»، ومن أشهر القادة الميدانيين لهذه الثورة عِصْمة الكردي صاحب مَرَنْد (من أشهر مدن أذربيجان)، قُبض عليه غدرًا، وقُتل سنة ٢١٨ هـ، وكان معه في الثورة أمراء آخرون.[٤]

وفي عهد الخليفة العباسي المُعتصِم بالله (ت ٢٢٧ هـ) أصبح معظم قادة الجند

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٥/ ٤٣٠.

(٢) حسن شُمَيْساني: **مدينة ماردين**، ص٧٦.

(٣) حسين قاسم العزيز: **البابكية**، ص١٤٦، ٣٠٨.

(٤) المرجع السابق، ص١٧٧. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 42.

من المماليك الأتراك؛ إذ كانت أمه جارية تركية، فضعف نفوذ العنصرين العربي والفارسي، وكثرت الاضطرابات والثورات، وفي سنة ٢٢٤ هـ ثار الكرد القاطنون حول الموصل بقيادة جعفر بن مِهْر حسن (مِير حسن)، وهو كردي من أسرة عريقة، واستمرت تلك الثورة إلى سنة ٢٢٦ هـ، وتمكّن القائد التركي إيتاخ من القضاء عليها بعد ارتكاب الكثير من الفظائع والمذابح.(١)

وتولّى الواثق بالله الخلافة (ت ٢٣٣ هـ) بعد وفاة المعتصم بالله، فازداد نفوذ المماليك الأتراك في دار الخلافة، واستأثروا بالمناصب العسكرية الرفيعة وبالأموال، وتفجّرت القلاقل في شبه الجزيرة العربية وفلسطين وديار ربيعة. وفي سنة ٢٣٠ هـ نشبت ثورة كردية كبرى في مقاطعات أصفهان والجبال وفارس، فأخمدها القائد التركي وَصِيف بقسوة بالغة، فكافأه الخليفة بمبلغ خمسة وسبعين ألف دينار وبسيف ثمين.(٢)

كما اشترك الكرد في ثورة سنة ٢٥٢ هـ التي قادها زعيم من الخوارج يدعى مُساوِر بن عبد الحميد، قال ابن الأثير: «وكَثُر جمعُه من الأكراد والعرب». وقدّم الكرد سنة ٢٨١هـ مساعدات جليلة للدولة الحَمْدانية كما سنرى في صفحات قادمات.

وقد ولّى الخليفة المُعتمِد على الله (ت ٢٧٩ هـ) على الموصل شخصية كردية هو علي بن داود الكردي، وفي عهد هذا الخليفة كان أمير الأهواز (خُوزِستان) هو محمد بن هَزار مَرْد الكردي، وقد غلبه علي بن أَبان (من قوّاد ثورة الزنج) على رامَهُرْمُز.(٣)

وفي عهد الخليفة العباسي المُقتدِر بالله (قُتل سنة ٣٢٠ هـ) اندلع عدد من الثورات الكردية في نواحي أصفهان والموصل. وفي سنة ٣٠٩ هـ ولّى المقتدرُ على حرب الموصل محمدَ بن نصر الحاجب، فسار إليها وفتك بالكرد الماذْرانية.(٤)

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٥/ ٥٦٧-٥٦٨. وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٦/١١.

(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٥/ ٢٥٤. و ١١/ ٢٣٤.

(٣) الطبري: **تاريخ الطبري**، ٩/ ٥٥٥. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٧/ ١٧٤.

(٤) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٦/ ٧٢٩، ٧/ ٤٠.

وليس بين أيدينا ما يؤكد أنّ هذه الثورات والقلاقل كانت قومية الطابع في الدرجة الأولى، ولعلها كانت اجتماعية على الغالب، فقد كانت ثورات على الظلم الاجتماعي الذي عانت منه الجماهير في أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، وكانت الجبال المنيعة من العوامل التي تشجّع الكرد على الثورة، إضافةً إلى لجوء بعض الخارجين على السلطة العباسية إلى جبالهم تلك، وخاصةً قادة بعض فرق الخوارج من العرب. ولم تكن مناطق شمالي كُردستان بمنجاة من الغزوات البيزنطية، وما نجم عن تلك الغزوات من أسر وقتل ودمار؛ وذكر الطَّبَري أنه في سنة ٢٤٢ هـ خرج الروم من ناحية شِمْشاط حتى قاربوا آمَد، وهاجموا البلاد الجَزرية، فانتهبوا عدّة قرى وأسروا نحوًا من عشرة آلاف إنسان.(١)

نخلص مما سبق إلى أنّ جغرافية كردستان كانت مهمة في الإستراتيجية العباسية، سواء في مرحلة الدعوة (الثورة) أم في مرحلة الخلافة: أمّا في مرحلة الثورة فكانت سيطرتهم على كردستان الجنوبية (إقليم الجبال) مدخلاً إلى السيطرة على العراق؛ حيث كان يتمركز معظم أنصارهم. أما في مرحلة الخلافة فكانت جغرافية كردستان مهمة أيضًا لأسباب ثلاثة:

● أولها: أنّ كُردستان هي الجسر الرابط بين غربي آسيا ووسط آسيا، ولا ننسى أنّ الدولة العباسية كانت بحاجة ماسّة إلى السيطرة على طريق الحرير المارّ في جنوبي كردستان باتجاه الشرق.

● وثانيها: أنّ معظم الثائرين على العباسيين كانوا يلجأون إلى جبال كُردستان، وكان من الضروري أن تهيمن السلطة العباسية على تلك الجبال، وعدم السماح بتحويلها إلى ملاذ آمن لقوى المعارضة.

● وثالثها: أنّ كُردستان كانت متاخمة في الشمال للشعوب المسيحية في القوقاز، وكانت في الغرب متاخمة للدولة البيزنطية، وكانت شعوب القوقاز المسيحية في حال عداء مع الدولة العباسية، أما العداء بين العباسيين والبيزنطيين فغنيّ عن التعريف، وهذا يعني أنّ مناطق كردستان كانت تمثّل خط الدفاع الأمامي في الشمال والغرب بالنسبة إلى أمن الدولة العباسية بشكل عام.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ٩/ ٢١٨.

٢- الكُرد في العَهْد البُوَيْهي

ظهور البُوَيْهيين:

سيطر كبار مماليك الترك على دار الخلافة العباسية منذ عهد الخليفة العباسي المُتوكِّل على الله (قُتل في ٢٤٧ هـ)، فشعرت العناصر العربية والفارسية أنها مغلوبة على أمرها، لكنها لم تستسلم للأمر الواقع وحاولت جاهدة استعادة نفوذها القيادي، وبرزت أسرتان في وقت واحد تقريبًا على مسرح الأحداث: الأولى دَيْلَمية هي الأسرة البُوَيْهية، والثانية عربية هي الأسرة الحَمْدانية.

ظهرت قوة البُوَيْهيين السياسية سنة ٣٢١ هـ، وهم أسرة دَيْلَمِيّة يرجع نسبها إلى بُوَيْه بن فَنّا خَسْرو، وكنيته أبو شجاع، وقيل: إنّ نسبهم يصل إلى الملك الفارسي شابور (سابور) ذي الأكتاف تارةً، وإلى يِزْدَجِرْد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين تارةً أخرى، غير أنّ ابن خلدون نفى هذا النسب قائلاً: «والحق أنّ هذا النسب مصنوع، تقرّب إليهم به مَن لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، ولو كان نسبُهم ذا خَلَل في الدَّيْلَم لم تكن لهم تلك الرئاسة عليهم»[١].

وذكر الدكتور عصام عبد الرؤوف الفَقِي تحت عنوان **دولة الأكراد الكاكَوِيّة** قوله: «حكمتْ إيرانَ أسرةٌ دَيْلَمِيةٌ على أنقاض الحكم البُوَيهي»[٢]؛ وهو يريد أنّ بني كاكَوَيْه كرد ودَيْلَم معًا. وأورد ابن الأثير في أحداث سنة ٣٩٨ هـ أنّ علاء الدولة أبو جعفر (ابن كاكَوَيْه) هو ابن خال والدة مجد الدولة بن فخر الدولة البُوَيْهي، وعاد فذكر في أحداث سنة ٤٣٣ هـ أنّ علاء الدولة هو خال مَجْد الدولة، وذكر في أحداث هذه السنة نفسها أنّ صراعًا دار بين أبي منصور وأبي حَرْب ابنَي علاء الدولة بعد وفاة والدهما، «فجمع أبو حَرْب الأكرادَ وغيرَهم»[٣].

لا يمكننا البتُّ في نسبة الدَّيْلَم إلى الكرد إثباتًا أو نفيًا لعدم وصولنا إلى معلومات دقيقة وصريحة في هذا الميدان، ولأنّ ثمّة رواية تذكر أنّ الدَّيْلَم هم أحفاد

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٨/ ٩٠٩. وانظر ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) عصام عبد الرؤوف الفقي: **الدول الإسلامية المستقلة في الشرق**، ص٤٤.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٢٠٧، ٤٩٥.

البرث (الأشگان) الذين حكموا شعوب آريانا بين سنتي ٢٥٠ ق.م- ٢٢٦ م، وكانوا يقيمون جنوبي بحر قَزْوِين حيث يقيم الدَّيلم، لكنّ المؤكد أنّ بين الكرد والدَّيلم تداخلاً على الصعيد الجغرافي، كما أنّ بينهما تشابهًا على الصعيد الاجتماعي، إلى جانب بعض التشابه الثقافي.

وقد عمل آل بُوَيه لبسط نفوذهم على بلاد فارس، ثم تطلّعوا إلى بغداد عاصمة الخلافة، واستطاعوا بعد جهد جهيد السيطرة على فارس والعراق والفوز باعتراف الخليفة العباسي؛ فدخل أحمد بن بُوَيْه بغداد سنة ٣٣٤ هـ، ومنحه الخليفة المُستَكْفي بالله (خُلع سنة ٣٣٤ هـ) لقب «مُعِزّ الدولة»، ثم ما لبث أن أهان مُعِزُّ الدولة الخليفةَ، وقبض عليه وعزله، وسَمَل عينيه، وولّى مكانه المطيع لله (ت ٣٣٦ هـ).[١]

البُوَيهِيّون والكُرد:

في عهد آل بُوَيه أصبحت معظم مناطق جنوبي كردستان وشماليها مسرحًا للصراع بين البويهيين والحَمْدانيين، ففي سنة ٣٦٧ هـ استخلص البُويهيون الموصل من أيدي الحَمْدانيين، وفي سنة ٣٦٨ هـ استخلصوا منهم مَيّافارِقين وآمَد (ديار بكر) وغيرهما.[٢]

أما في شرقي كُردستان فكان حَسْنَوَيه بن الحسين الكردي البَرْزَيكاني أميرًا على جيش من البَرْزَيكان، واستطاع بالتعاون مع خاليه وَنْداد وغانم أميري الكرد العَيْشانية أن يسيطر حوالي خمسين سنة على نواحي دِينَوَر وهَمَذان ونَهاوَنْد وصامْغان وبعض أطراف أذربيجان إلى حدّ شَهْرَزُور، وتوفّي حَسْنَوَيْه سنة ٣٦٩ هـ.[٣]

وفي سنة ٣٦٩ هـ هاجم الملك البُوَيْهي عَضُد الدولة بلاد الكرد الهَكّارية، قال

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٤٥٠-٤٥١. حسن مُنَيْمِنَة: **تاريخ الدولة البويهية**، ص١٢.

(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٦٩٢، ٦٩٥. وابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٨/ ٩٦.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٧٠٥. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٨/ ٩٥٠، ٩٦٥، ٩٧١.

ابن الأثير: «في هذه السنة سيّر عَضُد الدولة جيشًا إلى الأكراد الهَكّارية من أعمال الموصل فأوقع بهم وحَصَر قلاعَهم، وطال مُقام الجند في حصْرها، وكان من بالحصون من الأكراد ينتظرون نزولَ الثلج لترحل العساكر عنهم، فقدّر الله تعالى أنّ الثلج تأخّر نزوله في تلك السنة، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجيبوا إلى ذلك، وسلّموا قلاعَهم، ونزلوا مع العسكر إلى الموصل، فلم يفارقوا أعمالهم غير يوم واحد حتى نزل الثلج، ثم إنّ مقدّمَ الجيش غدرَ بهم وصلَبهم على جانبي الطريق من مَعَلْثايا إلى الموصل نحو خمسة فراسخ». (١)

وكان الكرد يشكّلون مركز الثقل في الصراعات الناشبة بين الحكّام البُوَيْهيين، وكذلك كان شأنهم في الثورات التي قادها بعض الخارجين على السلطة البويهية، فقد استنجد جلال الدولة البُوَيهي بأبي الشُّوك الكردي، أحد أمراء الكرد، في صراعه ضد أبي كاليجار البُويهي، فأنجده. وشغب بعض الأتراك على ركن الدولة البويهي في طريقه إلى أصفهان، فأوقع بهم، فتردّدوا في تلك النواحي، فكتب مُعزّ الدولة البُوَيْهي إلى ابن أبي الشُّوك، فتتبّعهم وقتل منهم وأسر. (٢)

وكذلك كان حَسْنَوَيه بن الحسين الكردي من رجالات الكرد المرموقين في ذلك الحين، قال ابن أبي الهَيْجاء الإرْبِلي (ت ٧٠٠ هـ)، وهو كردي أيضًا، يصف مكانة حَسْنَوَيْه: «وكان عَضُد الدولة قد ولاّه الجبال وهَمَذان والدِّينَوَر ونَهاوَنْد وسابور، وكان شجاعًا مَهيبًا عادلاً كثير الصدقة». (٣)

وكان لحَسنويه دور مهمّ في الصراع الذي نشب بين قادة الدَّيْلَم بعد وفاة ركن الدولة ووصول عَضُد الدولة إلى السلطة، وقد استعان أبو الفوارس بن سلطان الدولة أبي شُجاع البُوَيْهي بعشرة آلاف من فرسان الكرد في بلاد فارس، وزحف لمقاتلة أخيه أبي كاليجار الذي نافسه. (٤)

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٧٠٩. وخمسة فراسخ هي حوالي (٢٧) كيلو مترًا، باعتبار أنّ الفرسخ يساوي (٥.٥) كم تقريبًا.

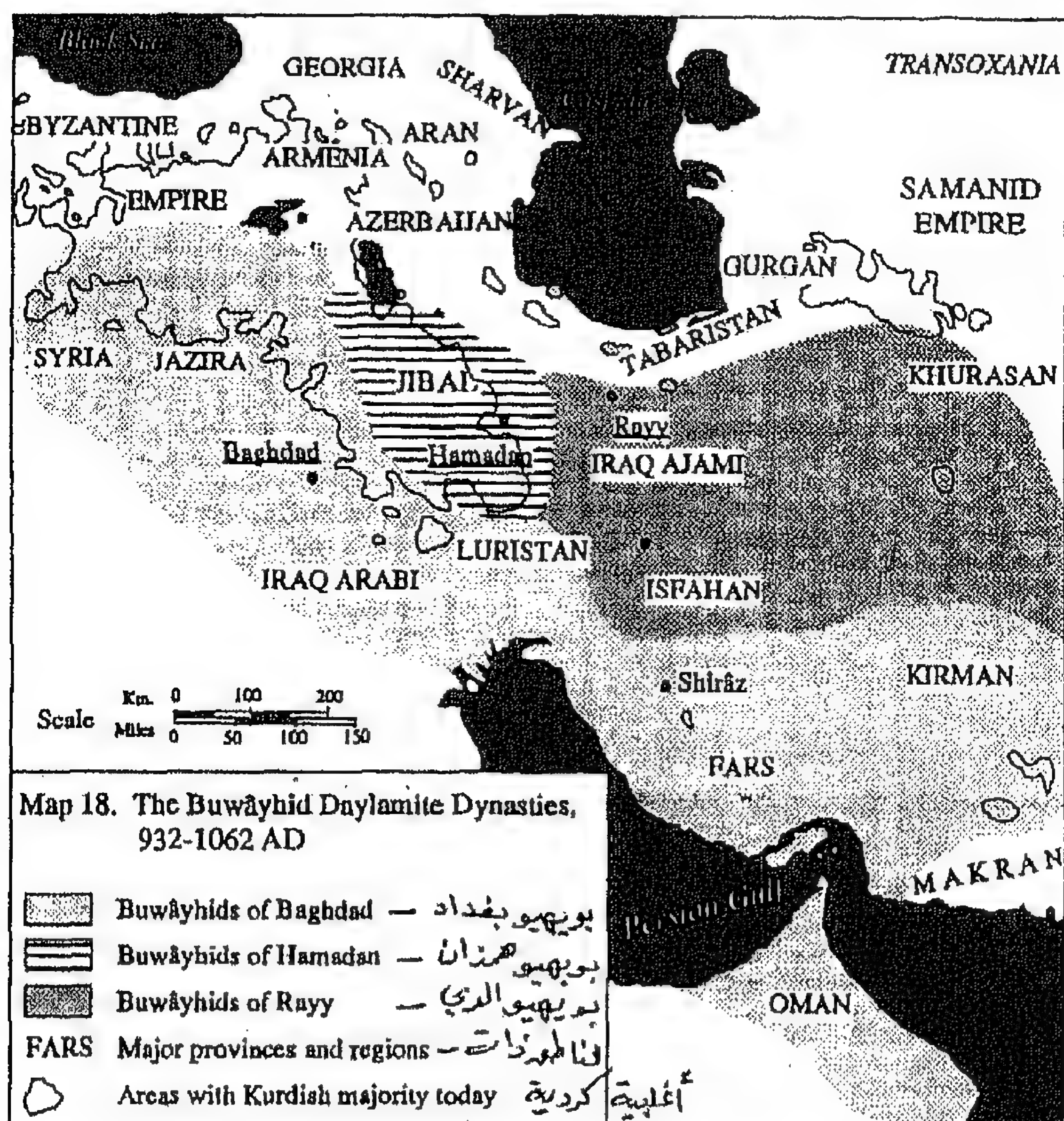
(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٧/ ٥٩٣، ٨/ ٩٣٦.

(٣) ابن أبي الهيجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص٨٤.

(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٣٣٩.

وفي أثناء الصراع الذي نشب بين بني مَزْيَد والبُوَيْهيين كان للكرد موقعهم المهم في التوازنات السياسية والعسكرية، وكذلك كان شأنهم في الصراع بين بني مَزْيَد وبني دُبَيْس في خُوزِستان سنة ٤٠٥ هـ؛ إذ استعان أبو الحسن علي بن مَزْيَد بكُرد الشاهَجان لترجيح كفّته.(١)

وفي سنة ٣٩٦ هـ «سيّر عَميد الجيوش عسكرًا إلى البَنْدَنِيجِيْن [مَنْدَلي]، وجعل المقدَّم عليهم قائدًا كبيرًا من الدَّيلم، فلما وصلوا إليها سار إليهم جمعٌ كثير من الأكراد، فاقتتلوا، فانهزم الدَّيلم، وغَنِم الأكراد رَحْلَهم ودوابّهم، وجُرّد المقدّمُ عليهم من ثيابه، فأخذ قميصًا من رجل سَوادي، وعاد راجلاً حافيًا».(٢)



خريطة الدولة البويهية

(١) المرجع السابق، ٧/ ٥٩١، ٦٠٨.

(٢) المرجع السابق، ٩/ ١٨٩. وبندنيجين هي مَنْدَلي، في جنوبي كردستان. والسوادي نسبة إلى منطقة السَّواد في جنوبي العراق.

وفي سنة ٤١٧ هـ «كانت حربٌ شديدة بين عساكر علاء الدولة بن كاكَوَيْه وبين الأكراد الجُوزَقان»، لأنّ علاء الدولة استعمل ابن عمّه أبا جعفر على خُوَاست وتلك النواحي، وقتل أبا الفرج البابوني زعيم الجُوزَكان (الجُوزَقان/ الجَوْزَقان)، وهو من أحد بطونهم، لخلافٍ وقع بينهما، ونشب القتال بين الطرفين أكثر من مرة، وقُتل أبو جعفر في إحدى المعارك.[١]

وفي سنة ٤٤٠ هـ أيام الملك الرحيم البُوَيْهي «اختلف قِرْواش والأكراد الحَمِيدية والهَذْبانية، وكان للحميدية عدّة حصون تجاور الموصل منها العَقْر وما قاربها، وللهَذْبانية قلعة إربِل وأعمالها، وكان صاحبَ العَقْر حينئذ أبو الحسن بن عَيْسَكان الحَمِيدي، وصاحبَ إربل أبو الحسن بن مُوسَك الهَذْباني».[٢]

وفي سنة ٤٤٥ هـ «وصل الخبر إلى بغداد بأنّ جمعًا من الأكراد وجمعًا من الأعراب قد أفسدوا في البلاد وقطعوا الطريق ونهبوا القرى طمعًا في السلطنة بسبب الغُزّ (أُوغوز)، فسار إليهم البَساسيري جَريدةً، وتبعهم إلى البَوازيج، فأوقع بطوائف كثيرة منهم وقتل فيهم وغَنِم أموالهم».[٣]

جملة القول أنّ السيطرة على كردستان كانت في صميم الخطط البويهية، وكان من الأهمية بمكان أن ينفّذوا تلك الخطط ويضمّوا كردستان إلى دولتهم، وإلاّ ما كان باستطاعتهم الاستمرار في التحكّم بالعراق والسيطرة على بغداد دار الخلافة خاصة.

وثمة شخصيات كردية بارزة قامت بأدوار هامة في العصر البُوَيهي، منهم: حَسْنَوَيه الكردي وحسام الدولة أبو الشُّوك، وهو من الكرد القُوهيّة،[٤] وأبو الفتح بن أبي الشُّوك والأمير مُوسَك من الكرد الهَذْبانية، إضافةً إلى هَزارسْب بن بَنْكِير بن عِياض الكردي الذي كانت له مكانة مرموقة عند البُوَيهيين، واحتفظ بالمكانة نفسها عند السلطان السلجوقي طُغْرُلْبَك، حتى إنّ هزارسْب وابن أبي الشُّوك كانا من جملة

---

(١) المرجع السابق، ٩/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) المرجع السابق، ٩/ ٥٤٧. العقر تسمى بالكردية: آكْرَى.

(٣) المرجع السابق، ٩/ ٥٩٦. وجريدة: أي جماعة من الفرسان.

(٤) كان الفرس الساسانيون يطلقون على بلاد الكرد في جبال زغروس اسم (كُوهِسْتان)، أي بلاد الجبال، وقد سمّاها الجغرافيون المسلمون (قُوهِستان) وعرّبوها باسم (إقليم الجبال/ بلاد الجبل)، والأرجح أنّ الكرد القوهية هم من سكان ذلك الإقليم.

الأمراء المدعوّين إلى حفل عقد نكاح الخليفة القائم بأمر الله على أَرْسَلان خاتون ابنة داود أخي السلطان السلجوقي طُغْرُلْبَگ.

٣- الكُرد والحَمْدانيّون

وئام . . . وخصام:

في الوقت الذي برز فيه البويهيون المحسوبون من الفُرس للوقوف في وجه تسلّط العسكريين الأتراك على دار الخلافة، برزت أسرة الحَمدانيين من العنصر العربي، والأرجح أنها أسرة تنتسب إلى قبيلة تَغْلِب، على أنّ الهَمْداني (ت بعد ٣٤٤ هـ) يقول: «نِصِيبين موضعُ العقارب، وهي دار حَمدان بن حَمْدون موالي تَغْلِب».[(١)] وقال ابن خلدون نقلاً عن ابن حَزْم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ) أنهم موالي بني أسد.[(٢)]

والملاحَظ أنّ علاقة المصاهرة كانت قائمة بين الحمْدانيين وبعض الكرد؛ إذ نجد أمهات بعض الأمراء الحَمْدانيين المشاهير وزوجاتهم كرديات، ومن ذلك أنّ أم أبي الهَيْجاء عبد الله بن حَمْدان والد سيف الدولة كردية، وحين أعلن أبو الهيجاء العصيان في الموصل سنة ٣٠١ هـ كان يؤيّده جماعة من الكرد أخواله، وكانت زوجة ناصر الدولة بن حمدان كردية أيضًا، وتدعى فاطمة بنت أحمد الكردية، وهي أمّ أبي تَغْلِب الحمداني.[(٣)] وكانت أمّ سيف الدولة -أشهر أمراء بني حمدان- كردية، ويبدو أنه تزوّج امرأة كردية، فكان منها ابنه سَعد الدولة الذي تسلّم الإمارة بعده؛ إذ في خضمّ الصراع بين سعد الدولة وقَرَعَوَيْه (غلام أبيه، وفي رواية: قَرْغَوَيه) التجأ سعد الدولة إلى والدته المقيمة في مَيّافارِقين.[(٤)]

وقد تنبّه كلٌّ من البُويهيين والحَمْدانيين إلى أهمية السيطرة على كُردستان، وكثيرًا ما تصارعا لهذا الغرض، وكان الحمدانيون في البداية ولاة على بعض مناطق

---

(١) الهَمَداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٧٥.
(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٧/ ٤٨٩.
(٣) المرجع السابق، ٧/ ٥٢٠. أحمد عَدْوان: **الدولة الحَمْدانية**، ص١١١.
(٤) أحمد عَدْوان: **الدولة الحمدانية**، ص٢٩٧.

جنوبي كردستان وشماليها من قِبل الخليفة العباسي في بغداد، لكنهم استقلّوا بالسلطة إلى حدٍّ ما عن دار الخلافة بعد أن تغلّب عليها البويهيون، وتجدّدَ الصراع بين العناصر العربية والفارسية.

وفي سنة ٣٠٣ هـ أعلن الحسين بن حمدان، أخو أبي الهَيْجاء، العصيان على الخلافة العباسية، ودارت عدة معارك بين الفريقين، وكان جيش الحسين مكوَّنًا من الأعراب والكرد، وكانت الموصل هي الموقع الأكثر أهمية في الصراع بين الحَمْدانيين والبُويهيين، وكان الكرد يغلبون عليها وعلى النواحي التابعة لها.[١]

وفي سنة ٢٩٣ هـ ثار الكرد الهَذْبانية في جنوبي كردستان على أبي الهَيْجاء عبد الله بن حَمْدان بن حمدون التَّغْلِبي، والي الخليفة العباسي المُكْتَفي بالله (ت ٢٩٥ هـ) على الموصل، وكان قائد الكرد هو محمد بن بلال، واعتصم الكرد بالجبل المشرف على مدينة شَهْرَزُور، وعجز أبو الهَيْجاء عن إخضاعهم، لكنه وُفّق إلى ذلك أخيرًا بفضل النجدات التي أمدّه الخليفة بها، واستسلم محمد بن بلال، وتتابع الكرد الحَمِيدية في طلب الأمان، وكذلك فعل كرد جبل داسِن الواقع في منطقة دَهُوك في كردستان الجنوبية.[٢]

وفي سنة ٣١٤ هـ ثار الكرد الجَلالية بمناطق شَهْرَزُور، متعاونين مع بعض القبائل العربية في مناطق الموصل، وكان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان واليًا على الموصل، فسار إليهم و«قاتلهم، وانضاف إليهم غيرُهم، فاشتدّت شوكتُهم، ثم إنهم انقادوا إليه لِما رأوا من قوّته».[٣]

وقُتل أبو الهيجاء حين ثار الجند على الخليفة القاهر بالله وخلعوه أول مرة سنة ٣١٧ هـ، وكان أبو الهيجاء قد شارك في خلع الخليفة المُقتدِر بالله، والبيعة للخليفة القاهر بالله، وخلال هذه الفتنة الداخلية عجزت الثغور (الجبهة) الجَزَرية عن ردّ هجمات البيزنطيين، ومنها مَلَطْيَة وآمَد ومِيّافارِقين وأَرْزَن، وطلب أهلها المساعدة من بغداد، ولما خاب أملهم اضطروا إلى مسالمة ملك الروم، وسلّموا إليه

---

(١) المرجع السابق، ص١١٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٥٤٠.
(٣) المرجع السابق، ٨/ ١٦٣.

مدنهم.[1] وأسند الخليفة المُقتدِر بالله إلى الأمير الحمداني ناصر الدولة بن أبي الهيجاء الولاية على كلٍّ من نِصيبين وسِنْجار وخابور ورأس العين، وعلى مَيّافارِقين وأَرْزَن الروم (قاليقَلا) من ديار بكر.[2]

بعد أن استقلّ الحمدانيون بالحكم في الموصل وشمالي سوريا، وبسطوا نفوذهم على مناطق واسعة من شمالي كردستان (في شرقي تركيا حاليًا)، اضطروا إلى الدخول في صراع مرير وطويل ضد الروم، وأبرز من قاد هذا الصراع من الحمدانيين هو الأمير سيف الدولة الحمداني.

الكرد والصراع الحمْداني البيزنطي:

صحيح أنّ سيف الدولة اتّخذ حلب عاصمة لإمارته، إلاّ أنه كان ينظر إلى شمالي كردستان باعتبارها العمق الإستراتيجي له جغرافيًا وبشريًا واقتصاديًا، ثم لا ننسى أنّ أمه كانت كردية كما سبق القول، وكانت له صلات وثيقة بأخواله الكرد، فقد ولد سنة ٣٠٣ هـ في مدينة مَيّافارِقين الكردية، ولمّا توفّي بحلب نقل جثمانه إلى مَيّافارِقين ودفن فيها، وهذا دليل على ارتباطه الشديد بكردستان.[3]

وظلّت أرض كردستان منطقة صراع عسكري محموم بين الحمدانيين والروم بعد وفاة سيف الدولة، واستفحل عدوان الروم على المنطقة الكردية بعد أن ضعفت قوة الحمدانيين. وذكر ابن الأثير أنه في سنة ٣٦١ هـ «أغار ملكُ الروم على الرُّها ونواحيها، وسار في ديار الجزيرة حتى بلغوا نِصِيبين، فغنموا وسبَوا وأحرقوا وخرّبوا البلاد، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر، ولم يكن من أبي تَغْلِب بن ناصر الدولة بن عبد الله بن حَمْدان في ذلك حركة ولا سعي في دفعه، لكنه حمل إليه مالاً كفّه به عن نفسه. . .

فسار جماعة من أهالي تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في الجوامع والمشاهد، واستنفروا المسلمين، وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي، فاستعظمه الناس، وخوّفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم،

---

(١) أحمد عَدْوان: **الدولة الحمدانية**، ص١٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٩.

(٣) سامي الكَيّالي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، ص٢٨٨.

وأنهم لا مانع لهم عندهم، فاجتمع معهم أهلُ بغداذ، وقصدوا دار الخليفة الطائع لله، وأرادوا الهجوم عليه، فمُنعوا من ذلك، وأُغلِقت الأبواب، فأَسمعوا ما يَقْبُح ذِكرُه». [1]

وذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٣٦٢ هـ معركةً حصلت بين هِبَة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين القائد البيزنطي المعروف باسم الدُّمُسْتُق في ناحية مَيّافارِقين، بسبب الغزو الذي شنّه الدُّمُسْتُق على بلاد المسلمين، ونهب ديار رَبِيعة وديار بكر، وأخذ المسلمون الدُّمُستق أسيرًا. [2] إنّ هذه الأخبار -وغيرها كثير- لا تدع مجالاً للشك في أنّ كردستان كانت تمثّل موقعًا إستراتيجيًا مهمًا، حتى إنّ عامة الناس كانوا يدركون العواقب الوخيمة التي ستنجم عن سيطرة الروم على شمالي كردستان، ولذا ثاروا وهاجموا دار الخلافة لتقاعس الخليفة وبطانته عن تدارك الأمر.

ومن المواقف التي تدلّ على استبسال الكرد للدفاع عن ديار المسلمين الخبر الذي أورده ابن أبي الهيجاء في تاريخه، وهو الآتي:

في سنة ٣٨٧ هـ هاجم الدُّوقِس عظيمُ الروم بلادَ الشام في عسكر جرّار، فوصل إلى منطقة حِمْص، وكانت بلاد الشام تابعة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله (ت ٤١١ هـ) ونزل على حِصن أَفامْيا، وحاصر الحِصن، حتى أكل أهلها الجِيَفَ والكلاب، فخرج إليهم جند طرابلس والمتطوّعة من عامتهم، ونزلوا بإزاء الروم، وبينهم نهر العاصي، فحمل الروم على القلب فكسروه، وانهزمت الميسرة ولحقتها الميمنة، وركب الروم المسلمين، وقتلوا منهم ألفي رجل، واستولوا على سلاحهم وخيولهم، وأيقن أهل أفاميا بالهلاك.

وكان ملك الروم قد وقف على رابية تطلّ على ميدان المعركة، وبين يديه ولدان له وعشرة نفر من غلمانه، ليشاهد ظَفَر عسكره، فقصده كردي يعرف بأبي الحَجَر أحمد بن الضحّاك السليل على فرس جواد، وعليه كَزاغَنْدَه (درع) وخوذة، وبيده اليمنى خِشْت (حديدة حادّة)، وباليسرى العنان وخِشْت آخر، فظنّه الدُّوقس مستأمِنًا له ومستجيرًا به، فلم يَحفِل به ولا تَحرَّز منه، فلما دنا منه حمل عليه،

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٨/ ٦١٨.

(٢) المرجع السابق، ٨/ ٦٢٧.

والدُّوقس متحصِّن بدرعه، وضربه بالخِشت فقتله، وصاح بالمسلمين: قُتل عدوُّ الله! فرجع المسلمون، ونزل من كان في الحِصن فأعانوهم، وانتصر المسلمون على الروم فقتلوهم وأسروهم، وبات المسلمون غانمين مسرورين.(١)

٤- الكُرد في العَهد السَّلْجوقي

ظهور السلاجقة:

ينتمي السلاجقة إلى التركمان الغُز (أُوغُوز)، وقد هاجروا من أقاصي تركمانستان لسوء الأحوال الاقتصادية وتحت ضغط القبائل الطورانية الأقوى، وسكنوا أيام الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩ هـ) بجوار بحيرة آرال (أُورال) وفي السواحل الشرقية لبحر قَزْوِين (الخَزَر) وفي الوديان العليا لنهري سَيْحون وجَيْحون، واعتنقوا الإسلام، ويرجع اسمهم إلى زعيمهم سَلْجُوق بن دُقاق (تُقاق).(٢)

وفي سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م وصل فريق من الغُز إلى كردستان، فأغاروا على القبيلة الهَذْبانية الكردية الكبيرة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. لكنّ القبائل الكردية ما لبثت أن وحّدت صفوفها بقيادة الحكومة الرَّوادِية الكردية (رَوادي فرع من قبيلة هَذْباني)، وألحقت بهم هزيمة نكراء، وكان فريق آخر من الغُزّ قد توجّهوا إلى أرمينيا، وتوجّه فريق آخر إلى هَكّاري وآمَد (ديار بكر)، وكانوا يمارسون النهب والسلب والتدمير حيثما حلّوا وارتحلوا.

وكان السلاجقة في البداية مرتزقة في الجيش الغَزْنَوي، ثم انقلبوا عليهم، ودخلوا في صراع ضد السلطان مسعود الغَزْنَوِي، واستطاعوا في النهاية القضاء على الدولة الغَزْنَوية، واختاروا طُغْرُلْ بَگ محمد بن ميكائيل بن سَلجوق ليكون زعيمًا لهم، وليجلس على عرش الحكم في نيسابور سنة ٤٢٩ هـ، وهو أول ملوك السلاجقة.(٣)

---

(١) المرجع السابق، ٨/ ٦٢٧.

(٢) ابن أبي الهَيْجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص٩٤-٩٥. ابن القَلانِسي: **ذيل تاريخ دمشق**، ص٥٠.

(٣) عبّس إقبال: **الوزارة في عهد السلاجقة**، ص٢٩. أحمد كمال الدين حلمي: **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ص٢١. عبد النعيم محمد حسنين: **سلاجقة إيران والعراق**، ص١٦.

تقدّم السلاجقة غربًا نحو إيران فالعراق وكُردستان، ووجد فيهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت ٤٦٧ هـ) المنقذ الذي يخلّصه من تسلّط البُوَيْهيين ذوي الميول الشيعية، ودخل طُغْرُلْ بَگ بغداد سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، وقضى على النفوذ البُوَيهي، ومنحه الخليفة لقب «سلطان»، وهو أول مرّة يُستحدَث فيها لقب «سلطان» في تاريخ الإسلام.(١)

السلاجقة في كُردستان:

حرص السلاجقة على إلحاق كردستان بمناطق نفوذهم، ففي سنة ٤٤٨ هـ أرسل السلطان طُغْرُلْ بگ ابن عمه قُتُلْمُش بن إسرائيل بن سَلجوق إلى الموصل وديار بكر، ثم إلى هَمَذان، وفي هذه السنة نفسها، وقيل في سنة ٤٤٩ هـ، سار طُغْرُلْ بگ إلى الجزيرة وحاصرها، وصالح الملك نَصْر الدولة أحمد بن مروان الكردي، صاحب مَيّافارقين وديار بكر، على مئة ألف دينار، ثم سار إلى سِنْجار ففتحها عَنوة واستباحها.(٢)

وفي عهد السلطان السلجوقي أَلْب أَرْسَلان تطلّع السلاجقة إلى بلاد الشام، وبعد نشوب الصراع بينهم وبين الروم ازداد الاهتمام بكُردستان، وكانت الدولة الدُّوسْتِكية (المروانية) الكردية في شمالي كردستان أضعف من أن تصمد أمام القوات السلجوقية، وما لبث أن توجّه السلطان السلجوقي أَلْب أَرْسَلان إلى ديار بكر، فحمل إليه ملكها الكردي نصر الدولة أحمد بن مروان مئة ألف دينار، سعيًا لإرضائه.(٣)

بعد مقتل السلطان مَلِكْشاه بن أَلْب أَرْسَلان سنة ٤٨٥ هـ على يدي صبي دَيْلَمي تنازع خلفاؤه على المُلك، وأصبحت كُردستان، ولا سيّما ديار بكر والمناطق الكردية في الجزيرة، مرة أخرى، ساحة للصراع بين المتنازعين، شأنها في ذلك

---

(١) أحمد كمال الدين حِلمي: **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ص٢٥.
(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٦٠٩.
(٣) الأصفهاني: **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص١٤-١٥. ابن أبي الهَيْجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص١٠٤.

شأن الديار الأخرى في غربي آسيا.[1] ويبدو أنّ الكرد في العراق كانوا يشكّلون قوة سياسية وعسكرية لا بأس بها إلى جانب بعض القوى الأخرى، إذ قال ابن الأثير في أحداث سنة ٤٥٥ هـ بصدد وفاة السلطان طُغْرُلْ بَگ: «وأمّا الأحوال بالعراق بعد وفاته فإنه كُتب من ديوان الخلافة إلى شرف الدولة مُسلِم بن عَقِيل صاحب الموصل، وإلى نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيَد، وإلى هَزارَسْب، وإلى بني وَرّام، وإلى بدر بن المُهَلْهِل، بالاستدعاء إلى بغداذ».[2]

ثم أضاف ابن الأثير قائلاً: «وقَدِم إلى بغداذ دُبَيْس بن مَزْيَد، وخرج الوزير بن جَهِير لاستقباله، وقدم أيضًا بنو وَرّام، وتوفّي ببغداذ أبو الفتح بن وَرّام، مُقدّمُ الأكراد الجاوانية، فحُمل إلى جَرْجَرايا، وفارق شرف الدولة مسلم بغداذ، ونهب النواحي، فسار نور الدولة والأكراد وبنو خَفاجَة إلى قتاله».[3]

وفي سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م كانت مناطق شمالي كردستان مسرحًا لمعركة فاصلة بين الترك السلاجقة بقيادة أَلْب أَرْسَلان والروم البيزنطيين بقيادة الإمبراطور أرمانوس، وذلك بالقرب من مَنازِگِرد (مَلاذْكِرد = مَلازْجِرْد)، وكان جيش أَلْب أَرْسَلان يتألّف من أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليه عشرة آلاف مقاتل من فرسان الكرد، وحقق ألب أرسلان نصرًا ساحقًا على الروم، ووقع أرمانوس أسيرًا.[4]

أضف إلى هذا أنّ كُردستان أصبحت، لفترة طويلة، مسرحًا للحروب الدائرة بين السلاجقة أنفسهم تارةً وبينهم وبين أعدائهم تارةً أخرى، وكان هؤلاء وأولئك يستعينون بالقبائل الكردية لرجحان كفّتهم وتحقيق الانتصار؛ قال ابن خلدون: «كان بِكِرمان قاوُرْت بك أخو السلطان أَلْب أَرْسَلان أميرًا عليها، فلما بلغه وفاة أخيه سار إلى الرَّيّ يطلب المُلك، فسبقه إليها السلطان مَلِكْشاه ونظام الملك، ومعهما مُسلِم

---

(١) الأصفهاني: **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٥١. ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٩. وبنو وَرّام من الكرد الجاوانية المستعربين في الحِلّة بالعراق، والجد الأعلى لهذا البيت هو الأمير وَرّام الكردي الجاواني، ونشأ وَرّام أول الأمر على طريقة أهل بيته، فتربّى تربية عسكرية وصار أميراً من الأمراء العسكريين، ثم ترك سلك الجندية وزهد في الدنيا وانصرف إلى الدراسة والعلم.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٠/ ٢٧. وجَرْجَرايا بلدة كانت تقع بين واسط وبغداد.

(٤) ابن أبي الهَيْجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص١١٨.

بن قريش ومنصور بن دُبَيْس وأمراء الأكراد، والتقوا، . . . فانهزم قاوُرْت بگ. . . وأقطع العرب والأكراد مجازاةً لما أبلوا في الحرب».[1]

وذكر ابن خلدون أنّ شِمْلَة التركماني منع السلطان مَلِكْشاه من العبور في مناطق خُوزستان، فنزل مَلِكْشاه على الكرد الذين هناك، فاجتمعوا إليه من الجبال والسهول، وحارب شِمْلَة فهزمه، واستولى على البلاد.[2]

وفي سنة ٤٧٢ هـ حاصر مُسلم بن قُرَيش العَقِيلي دمشقَ بجيش من العرب والكرد، وكانت في يد تاج الدولة تُتُشْ بن أَلْب أَرْسَلان، كما أنّ أبا الهَيجاء الكردي الهَذْباني - ولعله أبو الهيجاء بن مُوسَك صاحب إربيل- وقف إلى جانب محمد بن مُسلِم بن قريش في صراعه ضد السلاجقة، ذاك الصراع الذي دار في مناطق الموصل ونِصيبين وجزيرة ابن عُمَر.[3]

وفي سنة ٤٧٧ هـ سيّر السلطان السلجوقي مَلِكْشاه الوزير فخر الدولة بن جَهِير وزير الخليفة المقتدي بأمر الله (ت ٤٨٧ هـ) إلى ديار بكر ليتملّكها ويجلي عنها حكامها الكرد الدُّوستكيين (المروانيين)، وسيّر عميد الدولة بن فخر الدولة بن جَهَير إلى الموصل، وأرسل معه جيشًا عظيمًا، وجعل المقدَّم عليه آقْسُنْقُر قَسِيم الدولة.[4]

بعد مقتل مَلِكشاه تولّى ابنه بَرْكْيارُوق السلطة، فطمع عمّه تاج الدولة تُتُش، صاحب بلاد الشام، في السلطنة، وتوجّه سنة ٤٨٠ هـ إلى الموصل، وحارب العَقِيليين وانتصر عليهم، وقتل إبراهيم بن قُرَيش العَقيلي الذي رفض الخطبة له، ثم قصد آمَد ومَيّافارِقين فاستولى عليهما، وبعث عمّاله إلى كلٍّ من الموصل وسِنْجار.[5]

ثم اختلف بَرْكْيارُوق مع كلٍّ من أخويه محمد وسَنْجَر، وذكر ابن الأثير أنه في سنة ٤٩٧ هـ تحقّق الصلح بين الإخوة الثلاثة، واتفقوا على أن تكون السلطنة

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٧. وانظر: ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٠/ ٢٢٢، ٢٣٢.

(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ١٦١.

(٣) المرجع السابق، ٩/ ١٠، ٣٤-٣٥.

(٤) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٥.

(٥) ابن أبي الهيجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص١٤٣.

لبَرْكْياروق، وتكون له بلاد الجبل وهَمَذان وأصبهان والرَّيّ وبغداد وأعمالها، ويكون لمحمد أرمينيا وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، وتكون خراسان لسَنْجَر.[1]

واستغلّ بنو أُرْتُق (جدّهم أُرتق تركماني من مماليك مَلِكْشاه) نشوب الخلافات بين ملوك السلاجقة، فعُيّن إيلْغازي بن أُرْتُق على بغداد، وبسط أخوه سُكْمان (سُقْمان) نفوذه على الرُها وحِصن كَيْفا وماردين ونِصيبين، وكان ذلك بدءًا من سنة ٤٩٥ هـ. وفي أوائل سنة ٥٠٢ هـ تقاسم بنو أُرْتُق بلاد الجزيرة، وتفرّعوا، بعد أن تلقّبوا بالملوك، إلى ثلاثة فروع:

- فرع حِصْن كَيْفا وآمَد، ويعرف بالسُّكْماني.
- فرع خَرْتَبِرْت (خَرْبوط)، ويعرف بالعِمادي.
- فرع ماردين، ويعرف بالإيلْغازي.[2]

وقفة تحليلية:

بشكل عام كانت نتائج الغزو السلجوقي لكردستان سيئة جدًا على الكرد، ولا مبالغة في أنّ أكثر الشعوب التي ألحقت الضرر بالكرد في تاريخ الإسلام هم الترك، سواء أكانوا سلاجقة أم عثمانيين، بل أعتقد أنّ دخول الكرد إلى القرن العشرين من غير كيان قومي سياسي مستقل إنما يعود، بشكل رئيسي، إلى الاحتلال التركي لبلاد الكرد حوالي ألف عام، وها قد اجتاز الكرد عتبة القرن الحادي والعشرين وهم لا يزالون يدفعون ثمن ذلك الاحتلال.

ففي الوقت الذي غزوا فيه السلاجقة كُردستان كانت هناك خمس دول أو حكومات، أو دويلات كردية، قائمة في بلاد الكرد، هي الحكومة الرَّوادية في أَذَرْبَيجان والحكومة الشَّدّادية في أَرّان (تتوزّع أرّان حاليًا بين جمهوريات أذربيجان وأرمينيا وجورجيا) والحكومة الدُّوستكية (المروانية) في شمالي كُردستان وفي مناطق من غربيها والحكومة العَنازية في حُلْوان بجنوبي كردستان.

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٠/ ٣٧٠. وانظر ابن الجَوْزي: **المنتظم**، ١٧/ ٨٥.

(٢) حسن شُمَيْساني: **مدينة ماردين**، ص١٤٠-١٤٣.

وقد اكتسح السلاجقة هذه الحكومات الكردية جميعها، فضيّقوا عليها أولاً، ثم جعلوها تابعة لهم ثانيًا، ثم قضوا عليها أخيرًا، وكان نفوذ هذه الحكومات يمتد على ثلاثة أرباع مساحة كُردستان تقريبًا، ولولا الغزو السلجوقي لكان من الممكن أن تتطور الأمور في بلاد الكرد نحو الأفضل، كأن تتمكن دولة أو دويلة أو إمارة كردية من بسط سيطرتها على بقية مناطق كردستان، وتنضوي هذه الحكومات مع الأيام تحت لواء حكومة واحدة، وتتأسس نواة دولة كردية؛ تمامًا كما حصل الأمر في العهد الميدي.

وحتى لو ظلت تلك الحكومات الكردية منفصلة كان من الممكن - في أسوأ الأحوال- أن تهيّئ المناخ لظهور مؤسسات ثقافية كردستانية متطوِّرة، على الصعيدين الأدبي والعلمي، مثلما حصل في بلاد فارس خلال العهد الساماني، وكان من الممكن لتلك المؤسسات الثقافية أن تضع نواة ثقافة كردية قومية متجانسة، وتعمّمها على أجيال الكرد عبر التاريخ، فتحصّن المجتمع الكردي ضد الاختراقات الصفوية والعثمانية في القرن الخامس عشر، وتعبر بالكرد، وقد امتلكوا شخصية قومية واضحة الملامح، من العصور الوسطى إلى مشارف العصور الحديثة.

٥- الكُرد في العَهد الزَّنْكي

عماد الدين زَنْكي والكرد:

كلمة «أتابَكْ» تركية الأصل، تتألّف من كلمتين هما «آتا = والد» و«بَكْ = أمير»، وتعني «الأمير الوالد»، وكان هذا اللقب يطلق في أوائل العهد السَّلجوقي على من يعهد إليهم بتربية الأمراء وتصريف شؤونهم، وتحت ستار هذه المهام تمكّن عدد من الأتابكة ذوي الحزم والتدبير من الوصول إلى أرفع الدرجات والسيطرة على بعض البلدان في غربي آسيا، وخاصة بعد وفاة السلطان السلجوقي مَلِكْشاه.(١)

ومن أبرز هؤلاء الأتابكة آقْسُنْقُر قَسِيم الدولة، وهو من قبائل «سابْ يُو» التركمانية، ومن أتباع مَلِكشاه السَّلجوقي وأترابه، ولما أفضت السلطنة إلى مَلِكْشاه

---

(١) أحمد كمال الدين حلمي: **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ص١٤٧.

بعد أبيه أَلْب أَرْسَلان جعل آقْسُنْقُر من أعيان أمرائه وأخصّ أوليائه، واعتمد عليه في المهمّات الخطيرة، لِما رأى من شجاعته وحزمه وسَداد رأيه. وقُتل آقْسُنْقُر سنة ٤٨٧ هـ في معركة قرب حلب كان يخوضها ضد تاج الدولة تُتُشْ بن أَلْب أَرْسَلان، وقد قتله تاج الدولة بعد أن أخذه أسيرًا.[١]

وفي سنة ٥٢١ هـ عُيّن عماد الدين زنكي بن آقسُنقر حاكمًا على الموصل ومعظم ديار الجزيرة (بعض مناطق كردستان في العراق وتركيا وسوريا ضمنًا)، الأمر الذي مكّنه من فرض سيطرته على بلاد الشام ومناطق الموصل وما يجاورها في كردستان الوسطى، والاشتباك مع الكرد في الحروب، والتنكيل بهم.[٢] وذكر ابن الأثير حِرْصَ عماد الدين على توسيع نفوذه في كُردستان، فقال في أحداث سنة ٥٢٨ هـ: «في هذه السنة استولى عماد الدين زَنكي على جميع قلاع الأكراد الحَمِيدية، منها قلعة العَقْر وقلعة شُوش وغيرهما»، وبسط سيطرته سنة ٥٣٤ هـ على مناطق شَهْرَزُور.[٣]

وكان الفرنجة آنذاك يسيطرون على مواقع هامة من غربي العالم الإسلامي، تمتد من ماردين في كردستان شمالاً إلى العَرِيش في مصر جنوبًا، وكانت سراياهم تغزو ديار بكر ونِصيبين ورأس العين والرَّقّة وحَرّان، وكانوا يأخذون ما تدرّه المناطق التابعة لحلب مناصفة.[٤] وقد سيطر عماد الدين على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام (حلب وحماة وحمص)، وحاصر دمشق أكثر من مرة، إلا أنه كان يدرك أهمية أرض جنوبي كردستان (شمالي العراق حالياً) وشمالي كردستان (شرقي تركيا حالياً)، خاصةً ضمن الخطة البعيدة المدى التي أوكلها السلاجقة إلى آقْسُنْقُر البُرْسُقي ضد الفرنجة.

قال ابن الأثير في أحداث سنة ٥٠٨ هـ: «في هذه السنة سيّر السلطانُ محمدُ الأميرَ آقْسُنْقُر البُرْسُقي إلى الموصل وأعمالها واليًا عليها. . . وسيّر معه ولده الملكَ

---

(١) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٤، ١٥. أبو شامة: **الرّوضتين**، ١/ ٩٣.

(٢) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٣٥-٣٧. أحمد كمال الدين حِلْمي: **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ص١٤٨.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ١٤، و**التاريخ الباهر**، ص٤٨.

(٤) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٣٢-٣٣.

مسعودًا في جيش كثيف، وأمره بقتال الفرنج، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته»[١].

وقال في أحداث سنة ٥٣٤ هـ: «في هذه السنة ملك أتابك زَنكي شَهْرَزُورَ وأعمالَها وما يجاورها من الحصون»[٢].

وفي سنة ٥٣٧ هـ سار عماد الدين زنكي بجيشه إلى مواطن الكرد الهَكّارية شمالي الموصل، فحاصر قلعة أَشْب، وكانت من أحصن قلاع الكرد، فاستولى عليها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية بدلاً منها، وسماها العمادية نسبة إلى لقبه.[٣]

وفي أحداث سنة ٥٣٨ هـ قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى ديار بكر، ففتح منها عدّةَ بلاد وحصون، فمن ذلك: مدينة طَنْزَة ومدينة سِعِرْد ومدينة حِيزان وحِصن الرُّوق وحِصن قَطْليس وحِصن ناتاسا وحِصن ذي القَرْنَين، وغير ذلك مما لم يبلغ شهرة هذه الأماكن، وأخذ أيضًا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج: حَمْلِين والمُوزَّر وتل مَوْزَن وغيرها من حصون جُوسْلِين، ورتّب أمور الجميع، وجعل فيها من الأجناد من يحفظها، وقصد مدينة آمَد وحاني فحاصرهما، وأقام بتلك الناحية مصلحًا لما فتحه، وحاصرًا لما لم يفتحه»[٤].

وفي إطار التوجّه العام للوقوف في وجه الأطماع الفرنجية واسترداد الأرض المحتلة من قبل الفرنج، عزم عماد الدين على انتهاج خطة هجومية مُحكمة، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٥٣٩ هـ: «في هذه السنة، سادس جُمادى الآخرة، فتح أتابك عماد الدين زنكي بن آقْسُنقُر مدينة الرُّها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضًا، وكان ضررُهم قد عمّ بلادَ الجزيرة، وشرُّهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتُهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمَد ونِصيبين ورأس عين والرَّقّة»[٥].

وقال ابن أبي الهيجاء في أحداث سنة ٥٤١ هـ: «وفيها أرسل الشهيد عماد الدين زنكي عسكرًا كبيرًا، وحاصر قلعة فَنَك المطلّة على الشط قريب جزيرة ابن

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٠/ ٥٠١ و١١/ ٧٥.
(٢) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٥٧-٥٨.
(٣) ابن أبي الهيجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص٢٠٣. ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٦٤.
(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٩٤.
(٥) المرجع السابق، ١١/٩٨. ابن أبي الهيجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص٢٠٤-٢٠٥.

عُمر، وهي قلعة منيعة للغاية، وأصحابها الأكرادُ البَشْنَويّة، وهي بيدهم من مدة ثلاثمائة سنة، فلم يزالوا يحاصرونها إلى أن قتل الشهيد بقلعة جَعْبَر، فرحلوا عنها»[(١)].

وكان للكرد دور كبير في صعود مكانة عماد الدين، فقد وقفوا إلى جانبه في واحدة من أكثر المواقف حرجًا، وساعدوه على النجاة بحياته وبمستقبله السياسي أيضًا، ففي سنة ٥٢٦ هـ كان عماد الدين يخوض معركة في العراق ضد جند الخليفة العباسي المُسترشِد بالله (قُتل في ٥٢٩ هـ) والأتابك السلجوقي قَراجَه الساقي، وحلّت به الهزيمة، فتراجع إلى تِكريت، وكان حاكمَها نجمُ الدين أيوب (والد صلاح الدين)، فقدّم له المساعدة، وأقام له الجسر فعبر نهر دجلة بسلام، وأفلت من قبضة أعدائه، ثم تبعه أصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم، وسيّرهم إليه؛ وقد أثار نجم الدين بذلك غضب السلطة في بغداد، وغامر بمستقبله السياسي، وكان موقفه هذا من العوامل التي أدّت إلى عزله سنة ٥٣٢ هـ.[(٢)]

وقد أدرك عماد الدين أهمية استقطاب القوة القتالية الكردية، فوظّفها بذكاء لتحقيق تطلعاته التوسعية، مستعينًا بأخوين كرديين قديرين هما نجم الدين أيوب وأسد الدين شَيركُوه ابنا أيوب، وكانا قد التحقا به في الموصل بعد عزل نجم الدين من مدينة تِكْريت.

نور الدين زنكي وبطولات الكرد:

إثر مقتل عماد الدين غيلة على يد بعض خدمه سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م حاول أكثر القادة إسناد مقاليد الأمور إلى سيف الدين غازي الابن الأكبر لعماد الدين، لكنّ الجناح الآخر من القادة، وعلى رأسهم القائد الكردي شَيركُوه (عم صلاح الدين الأيوبي)، وقفوا إلى جانب الابن الثاني نور الدين محمود، وأفلحوا في جعل مقاليد السلطة بين يديه.

انتهج نور الدين (ت ٥٦٩ هـ) نهج والده ضد الفرنج، فأخذ أهمية كُردستان

---

(١) أبن أبي الهيجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص٢٠٧.
(٢) أبو شامة: **عيون الروضتين**، ١/ ٣٢٩-٣٣٠.

جغرافيًا وبشريًا بالحسبان، واستمرّ في مهاجمة حصون الفرنج في جنوب غربي كردستان وبمحاذاتها، ومن تلك الحصون تل باشِر وعَين تاب وإعْزاز وتل خالد وقُورْس (في منطقة عِفرين بأقصى غربي كردستان، وتسمى قلعة النبي هُوري) والرّاوَنْدان (في حوض نهر عِفرين، ويقال: في منطقة جُومَه بعفرين) وبرج الرّصاص وحِصن البارة وكَفْر سُود وكَفْر لاثا ودُلُوك ومَرْعَش.[١]

إن الأدلة كثيرة على أنّ الكرد كانوا يشكّلون قوة قتالية مهمة في جيش نور الدين، وكانوا يباشرون الحروب بإخلاص، وحسبُنا دليلاً على ذلك أنّ نجم الدين أيوب وأخاه شَيرْكُوه كانا من أعظم قوّاده، وهما اللذان قاما بدور كبير في الانتصارات التي حققها نور الدين، وقد ساعده نجم الدين في فتح دمشق، وكان لفتحها تأثير خطير؛ إذ أصبح نور الدين يتاخم المناطق التي كان الفرنج يسيطرون عليها في بلاد الشام، وإنّ سيطرته على دمشق وما جاورها من بلاد الشام كان تمهيدًا لبسط سيطرته من بعد على مصر، ووضْع الفرنج بين فكّي كمّاشة على الصعيد الإستراتيجي.[٢]

كان شَيركُوه يقوم في دولة نور الدين بمنصب يماثل منصب وزير الدفاع في عصرنا هذا، وكان نور الدين يندبه للمهام العسكرية الجسام، فعيّنه قائدًا على الجبهة الغربية (منطقة حِمْص) في مواجهة الفرنج. يقول البُنْداري (ت ٦٤٣ هـ): «ولمّا كان ثغرُ حِمْص أخطرَ الثغور تعيّن أسدُ الدين لحمايته وحفظه ورعايته، لتفرّده بجِدّه واجتهاده وبأسه وشجاعته».[٣]

وقال ابن الأثير في مكانة شَيركُوه عند نور الدين: «فقرّبه نورُ الدين، وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهدِه آثارًا يَعجز عنها غيرُه لشجاعته وجرأته، فزاده إقطاعًا وقربًا، حتى صار له حِمْص والرَّحْبة وغيرهما، وجعله مُقدَّمَ عسكره».[٤]

كما أنّ نور الدين ندب شَيركُوه لإنقاذ مصر من تهديد الفرنج أكثر من مرة، ويعرف المختصون في التاريخ السياسي والعسكري خطورة دخول قائد مع عدد

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ١٥٥. ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٨٦، ٩٥

(٢) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١٢٠.

(٣) الفتح بن علي البُنْداري: **سنا البرق الشامي**، ص٢٤.

(٤) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١٢٠.

محدود من الجند من سوريا إلى مصر حينذاك، بعيدًا عن مراكز الإمداد والتموين وعن مركز قيادته، خاصةً أنّ مناطق النفوذ الفرنجية وقواتهم المتقدمة كانت تقع حينذاك في الأردنّ (على الطريق بين مصر وسوريا)؛ قال ابن الأثير في أحداث سنة ٥٥٩ هـ: «فلمّا كانت هذه السنة، وعزم نورُ الدين على إرسال العساكر إلى مصر، لم يرَ لهذا الأمر الكبير أَقْومَ ولا أشجعَ من أسد الدين، فسيّره»[١].

وظهرت شجاعة شَيركُوه في خروجه من بَلْبِيس في مصر، وكان الجيشان الفرنجي والمصري قد حاصراه فيها ثلاثة أشهر، ثم اصطلحوا على أن يخرج منها بجنده، ويعود إلى بلاد الشام؛ قال أبو شامَة: «حدّثني مَن رأى أسد الدين حين خرج من بَلْبِيس، قال: رأيتُه وقد أخرجَ أصحابَه بين يديه، وبقيَ آخرَهم وبيده لَتّ من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: وأتاه فرنجيٌّ من الغرباء، فقال له: أما تخاف أن يَغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يَبقى لك معهم بقيّة؟! فقال شَيركُوه: يا ليتهم فعلوا! كنتَ ترى ما لم تَرَ مثله، كنتُ والله أضعُ سيفي فلا أُقتَل حتى أَقتُلَ رجالاً... فوالله لو أطاعني هؤلاء - يعني أصحابَه- لخرجتُ إليكم أوّلَ يوم، لكنهم امتنعوا. فصلّب الفرنجيُّ على وجهه وقال: كنّا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفِهم منك، والآن قد عذرْناهم»[٢].

وفي الخبر الآتي الذي ذكره ابن أبي الهيجاء في أحداث سنة ٥٤٤ هـ دليل آخر على الدور الفعّال للكرد في الجهود الحربية للدولة الزنكية: «وفيها جمع نورُ الدين، وطلب من دمشق نجدة، فأرسلوا إليه الأميرَ مجاهد الدين بُزان[٣] الكردي، وجاء عسكرُ أخيه سيف الدين غازي، وسار إلى أنطاكية، وخرج إليه البُرْنُس، وجرت بينهما وقعةٌ عظيمة، فكسرهم نورُ الدين الكسرةَ المشهورة، وفتح حارِم، وقتل

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٠.

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين، ١/٣٣٦. ولَتّ: فأس حديدية. والمسلمون هم الجيش المصري.

(٣) بُزان أصله بالكردية «بُوزان»، وهو اسم كردي عريق من كلمة «بُوز»، بمعنى الأبيض الضارب إلى الحمرة فيما أعلم، وعُرّب هذا الاسم بصيغة «بُوظُو»، وتحمل أُسَر كردية عديدة هذا الاسم.

الفرنج، وكان لأسد الدين شَيركُوه في هذه الوقعة اليدُ الطُّولى، وأبان عن شجاعة وبسالة. . . وكذلك مجاهدُ الدين بُزان بن مامِين مُقدَّمُ العسكر الدمشقي أبان عن شجاعة وبراعة». (١)

بل إنّ أحد المقاتلين الكرد ضحّى بنفسه لينقذ نور الدين من موت محقَّق خلال معركة ضد الفرنج قرب حِمْص، ففي أحداث سنة ٥٥٨ هـ ذكر ابن الأثير الخبر الآتي:

«في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زَنْكي من الفرنج تحت حِصن الأكراد، وهي الوقعة المعروفة بالبُقَيْعَة، وسببُها أنّ نور الدين جمع عساكره ودخل بلاد الفرنج ونزل في البُقيعة، تحت حِصن الأكراد، محاصرًا له وعازمًا على قصْد طَرابلس ومحاصرتها، فبينما الناس يومًا في خيامهم وسط النهار لم يَرُعْهم إلاّ ظهورُ صُلْبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حِصن الأكراد، وذلك أنّ الفرنج اجتمعوا، واتّفق رأيُهم على كَبْسَة المسلمين نهارًا، فإنهم يكونون آمنين، فركبوا في وقتهم، ولم يتوقّفوا حتى يجمعوا عساكرهم، وساروا مُجِدّين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلاّ وقد قَرُبوا منهم، فأرادوا مَنْعَهم فلم يطيقوا ذلك، فأرسلوا إلى نور الدين يعرّفونه الحال، فرَهَقَهم الفرنجُ بالحملة، فلم يَثْبُت المسلمون، وعادوا يطلبون معسكرَ المسلمين، والفرنج في ظهورهم، فوصلوا معًا إلى العسكر النُّوري، فلم يتمكّن المسلمون من ركوب الخيل وأَخْذِ السلاحِ إلاّ وقد خالطوهم، فأكثروا القتلَ والأسر.

. . . وقصدوا خيمةَ نور الدين وقد ركب فيها فرسَه ونجا بنفسه، ولسرعته رَكِب الفرسِ والشَّبْحَةُ في رجله [الفرس]، فنزل إنسان كردي وقَطَعَها، فنجا نورُ الدين وقُتِل الكردي، فأحسن نورُ الدين إلى مُخلَّفيه ووقّف عليهم الوَقوف». (٢)

دور العلماء الكرد:

لم يقتصر الزنكيون على الاستعانة بالمقاتلين الكرد، بل استعانوا بجهود العلماء

---

(١) ابن أبي الهيجاء: **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص٢١٤. وسيف الدين غازي هو أخو نور الدين زنكي. والبرنس هو ريموند حاكم طرابلس لبنان الفرنجي.

(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٢٩٤-٢٩٥ . والشبحة: نوع من القيود.

الكرد أيضًا، سواء أكان ذلك في مجال تثبيت أركان دولتهم أم في مواجهة الفرنج، ومن أبرز هؤلاء العلماء القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشَّهْرَزُوري، إذ قام هذا القاضي بدور فعّال في تولّي عماد الدين زنكي أمور البلاد سنة ٥٢١ هـ؛ ولذا جعله عماد الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من بلاد.(١)

على أنّ أبرز العلماء الكرد الذين قاموا بجهود جليلة في العهد الزنكي الذهبي (عهد عماد الدين وعهد نور الدين) هو القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرَزُوري (ت ٥٧٢ هـ)، وكان قاضي دمشق وجميع بلاد الشام في عهد نور الدين، وقال فيه ابن الأثير: «وكان جوادًا فاضلاً رئيسًا، ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول».(٢)

وقد سعى القاضي كمال الدين بقوة لدعم سياسة عماد الدين في مقاومة الفرنج، وكان عماد الدين ينيط به المهامَّ الخطيرة، فكان رسوله إلى ديوان الخلافة في بغداد، بشأن خلْع الخليفة الراشد بالله سنة ٥٣٠ هـ والبيعة للخليفة المُقْتَفي بالله (ت ٥٥٥ هـ)، كما كانت له اليد الطولى في إقناع ديوان الخلافة بتسليم مقاليد السلطة إلى نور الدين محمود بعد مقتل والده عماد الدين، ففي سنة ٥٦٨ هـ أرسله نور الدين إلى الخليفة: «وحمّله رسالةً مضمونُها الخدمةُ للدِّيوان، وما هو عليه من جهاد الكفّار، وفتْح بلادهم، ويطلب تقليدًا بما بيده من البلاد؛ مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته كديار بكر، وما يجاور ذلك... فأُكرم كمالُ الدين إكرامًا لم يُكرَم به رسولٌ مثلُه، وأُجيب إلى ما التمسه».(٣)

وكان القاضي كمال الدين يشير على نور الدين بما يحفظ للدولة الزنكية قوّتها، ويبصّره بما يمكن أن يكون سببًا في ضعفها، ومن ذلك أنه لما امتلك نور الدين الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه قطب الدين، وأقطع مدينة سِنْجار لعماد الدين ابن أخيه قُطْب الدين، فنبّهه القاضي كمال الدين إلى وجه الخطأ في

---

(١) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٣٤-٣٥.

(٢) ابن الأثير: **الكامل**، ١١/ ٤٤.

(٣) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٥٤، ٦٣. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٣٩٥. والمقصود بالكفّار: الفرنج. وتقليد: مرسوم.

ذلك. قال ابن الأثير في أحداث سنة ٥٦٦ هـ: «فلمّا فعل ذلك قال كمال الدين بن الشَّهْرَزُوري: هذا طريقٌ إلى أذًى يَحصل لبيت أتابك، لأنّ عماد الدين كبير، لا يَرى طاعةَ سيفِ الدين، وسيفُ الدين هو المَلِك لا يَرى الإغضاءَ لعماد الدين، فيحصلُ الخُلْف ويطمعُ الأعداء. فكان كذلك على ما سنذكر سنة سبعين وخمسمائة»[١].

وتتجلّى في الخبر الآتي أهمية مواقف القاضي كمال الدين في اللحظات الحرجة التي تمرّ بها شعوب غربي آسيا عامةً، والدولة الزَّنكية خاصةً، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٥٣٢ هـ:

«ولمّا كان الفرنج على بُزاعَة[٢] أرسل زنكي [= عماد الدين] القاضيَ كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجدُه ويطلب العساكر، فمضى إلى بغداد، وأنهى الحالَ إلى السلطان، وعرّفه عاقبةَ الإهمال، وأنه ليس بينه وبين الروم إلاّ أن يَملكوا حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد، فلم يَجِدْ عنده حركة، فوضع إنسانًا من أصحابه يومَ جُمعة، فمضى إلى جامع القصر ومعه جماعة من رُنُود[٣] العجم، وأمر أن يثور بهم إذا صعدَ الخطيبُ المنبرَ، ويصيح ويصيحوا معه: وا إسلاماه! وا دين محمّداه! ويشقَّ ثيابَه، ويرمي عمامتَه من رأسه، ويخرجَ إلى دار السلطان والناسُ معه يستغيثون كذلك، ووضع إنسانًا آخر يفعل بجامع السلطان مثلَه.

فلمّا صعد الخطيبُ المنبر، قام ذلك الرجل ولطم رأسه وألقى عِمامته وشقّ ثوبه، وأولئك معه، وصاحوا، فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وساروا - من الجامع- يتبعون الشيخَ إلى دار السلطان، فوجدوا الناس في جامع السلطان كذلك، وأحاط الناسُ بدار السلطان يستغيثون ويبكون، فخاف السلطان، فقال:

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٢) بُزاعة: بلدة كثيرة البساتين تقع قرب مدينة الباب في شمال شرقي حلب بأربعين كم تقريبًا، كانت أكثر شهرة من الباب قديمًا.

(٣) لعل كلمة رنود تعني «مشاغبين»، والأرجح أنّ العجم هنا هم الكرد وليس الفرس، وكان العرب بعد الفتح الإسلامي يطلقون على المنطقة الكردية في شمالي العراق اسم «عراق العجم».

أَحضروا إليّ ابن الشَّهرزوري؛ فأُحضِر؛ فقال كمال الدين: لقد خفتُ ممّا رأيت، فلما دخلتُ عليه قال لي: أيَّ فتنة أثرتَ؟! فقلت: ما فعلتُ شيئًا، أنا كنت في بيتي، وإنما الناس يغارون للدين والإسلام، ويخافون عاقبةَ هذا التَّواني. فقال: اخرجْ إلى الناس ففرّقْهم عنّا، واحضُرْ غدًا، واخترْ من العسكر ما تريد. ففرّقتُ الناس، وعرّفتُهم ما أمر به من تجهيز العساكر، وحضرتُ من الغد إلى الديوان، فجهّز لي طائفةً عظيمة من الجيش»[1].

يتضح مما أورده ابن الأثير، ومما أورده غيره من الذين أرّخوا لعهد الزنكيين، أنّ قوة هذه الدولة والانتصارات العسكرية الإستراتيجية التي تحقّقت فيها ضد الفرنج إنما قامت، إلى حدٍّ كبير، على كاهل جغرافية كردستان، وبفضل ثروات كردستان، وبمساهمة الإنسان الكردي معرفيًا وعسكريًا.

٦- الكُرد في العَهد الأَيُّوبي

قيادات متتابعة:

تاريخ غربي آسيا، في العهود الإسلامية وقبلها أيضًا، هو نتاج جهود جميع شعوبها، وفي كلّ مرة كان أحد تلك الشعوب يتسلّم دفّة القيادة ويدافع عن الأرض والهوية، مع اختلاف في الأداء والأهداف طبعًا، فكانت القيادة عربية في العهود الأولى من تاريخ الإسلام، ثم أصبحت دَيْلَمية بُوْيهية، ثم تركمانية سلجوقية، ثم كردية أيوبية، ثم تركمانية مملوكية، ثم شِركسية مملوكية، ثم تركية عثمانية.

وفي جميع عهود تاريخ هذه المنطقة -نقصد تاريخ غربي آسيا- كان للجغرافيا الكردية وللإنسان الكردي حضورهما المؤثر، وتُوِّج ذلك الحضور بقيام الدولة الأيوبية، وهي دولة كردية من حيث القيادة والقرار والممارسة، وبما أنّ لنا وقفة متأنّية عند إنجازات الدولة الأيوبية في الفصل السابع، لذا نكتفي الآن بالوقوف عند أهمية كُردستان جغرافيًا وبشريًا في الصراع الذي دار بين شعوب المنطقة والفرنج خلال العهد الأيوبي.

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٥٨-٥٩. ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص٦٢-٦٣.

والحقيقة أنّ الدولة الأيوبية تولّت استكمال تنفيذ الإستراتيجية العامة ضد الوجود الفرنجي في غربي آسيا، تلك الإستراتيجية التي بدأها السلاجقة، ثم تصاعدت بقوة في العهد الأتابكي الزنكي، وعلمنا في صفحات سابقات أنّ كُردستان، أرضًا وشعبًا وموارد، كانت تحتل موقعًا مهمًا في صميم تلك الإستراتيجية، وقد أخذت الدولة الزنكية هذه الحقيقة بعين الاعتبار، وبنت عليها خططها، فأحرزت انتصارات هامة على الفرنج.

وكان الصراع الشرق أوسطي- الفرنجي في العهد الزنكي مقتصرًا على كُردستان وبلاد الشام، أما في العهد الأيوبي فأصبح الصراع شاملاً، وامتدت ساحته من جنوبي كُردستان وشماليها شرقًا إلى الحدود التونسية غربًا وجنوبًا، مرورًا ببلاد الشام ومصر، وكان من الطبيعي أن تصبح كردستان أكثر أهمية في خطة الأيوبيين التحريرية.

إستراتيجية صلاح الدين الأيوبي:

لعلّ هذا الأمر يصبح أقرب إلى الفهم إذا أخذنا بالاعتبار الرؤية التي كان صلاح الدين يصدر عنها في إدارة دفّة الصراع ضد الفرنج؛ فقد كان يدرك ببصيرته النافذة أنّ الصراع شامل، ولتحقيق النصر لا بدّ من توحيد غربي آسيا وشمالي إفريقيا، أرضًا وشعوبًا وقدرات.

وفي هذا المجال رأى صلاح الدين ضرورة أن تشترك دولة الموحِّدين بالمغرب في خوض الصراع ضد الفرنج، لأنها تمتلك أسطولاً قويًا يمكنه قطع طرق الإمدادات الفرنجية في البحر المتوسط، لا سيّما أنّ الأسطول المصري لم يستطع بمفرده إنجاز هذه المهمّة، فأرسل صلاح الدين الأميرَ العربي أُسامة بن مُنقِذ (ت ٥٨٤ هـ) رسولاً إلى الملك المُوَحِّدي أبي يوسف يعقوب المنصور (ت ٥٩٥ هـ)، يحمل معه هدايا لطيفة، مع رسالة استنجاد.

التقى أُسامة بالملك الموحِّدي في مدينة فاس، لكنّ الأخير أحجم عن نجدة المسلمين في المشرق، وذكر المؤرخون أنه انزعج لأنّ صلاح الدين افتتح رسالته إليه بقوله: «من الفقير إليه تعالى يوسف بن أيوب إلى أمير المسلمين»، ولم يكتب له: «إلى أمير المؤمنين» حسبما كان ملوك الموحِّدين يسمّون أنفسهم، إذ كانوا

يعدّون أنفسهم خلفاء، ولا يعترفون بالخلافة العباسية التي أرسى صلاح الدين أركانها في مصر بالقضاء على الخلافة الفاطمية؛ ولعلّ الملك الموحِّدي كان منزعجًا أيضًا من توسّع صلاح الدين بحدود دولته إلى تونس غربًا، فقد خُطب له فيها سنة ٥٨٣ هـ.(١)

حرص صلاح الدين على إحياء العقيدة النقية في القلوب والعقول، واستثارَ القدرات القتالية لكلٍّ من العرب والترك والكرد، ووظّفَها في ردّ الغزو الفرنجي، وبسطَ النفوذَ الأيوبي على شمالي كُردستان (جنوب شرقي تركيا) وأجزاء من جنوبي كردستان (في شمال العراق)، وعلى بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن وشمالي السودان وشرقي ليبيا.

أدركَ صلاح الدين أهمية كُردستان، فلم يتركها بين أيدي بعض المتسلّطين الذين تحكّموا في مصير البلاد باسم الملوك الضعفاء من آل زنكي، وما إن توفّي السلطان نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ حتى بسط صلاح الدين نفوذه على بلاد الشام، فهيمن على دمشق سنة ٥٧٠ هـ، وتوجّه بعدئذ شمالاً نحو حِمص وحَماة وحلب، وفي سنة ٥٧٨ هـ عبر الفرات إلى الديار الجَزَرية: نِصيبين والبِيرة والرُّها وسَروج وسِنْجار (في غربي كردستان)، وسيطر عليها.(٢)

وفي سنة ٥٧٩ هـ توجّه صلاح الدين إلى آمَد (ديار بكر) فملكها، وحاول أكثر من مرة السيطرة على الموصل لكنه لم يفلح في ذلك لمناعتها، وفي سنة ٥٨١ هـ سار إلى خِلاط ومَيّافارِقين فملكهما، قال ابن الأثير: «وخُطِب للسلطان صلاح الدين في جميع بلاد الموصل وديار بكر أيضًا، بعد قطع الخطبة السَّلجوقية، وضُرب باسمه الدينارُ والدِّرهم».(٣)

وفي سنة ٥٨٣ هـ، واستعدادًا للمعركة الفاصلة مع الفرنج في حِطِّين، كتب صلاح الدين إلى مصر والشام والموصل وديار الجزيرة وإرْبِيل، يستنفر المسلمين

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ١٢/ ٥١٤. علي محمد محمد الصَّلابي: **دولة الموحِّدين**، ص١٨٨-١٨٩. وانظر عبد المنعم ماجد: **الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي**، ص١٦٦-١٦٧.

(٢) أبو شامة: **عيون الروضتين**، ٢/ ٨٣. وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٤٨٢-٤٨٦.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/ ٤٩٣، ٥١٦.

للجهاد؛ فلبّوا النداء، وتحقّق النصر الكبير الذي مهّد لفتح مدينة القدس في السنة نفسها، وقد أبلى المقاتلون الكرد في معركة حِطّين بلاء حسنًا، وكان الفتى الكردي دِرْباس -من أتباع الأمير الكردي إبراهيم المِهْراني- هو الذي أسر ملكَ القدس نفسه، وكان القائد العام للفرنجة وأرفعهم مكانة، وفي رواية أنه أسر الفارسَ الفرنجي الشهير أَرْناط (رينو دو شاتيون) أيضًا، وسنأتي على الدور الخطير الذي كان أرناط يقوم به في الصراع الإسلامي الفرنجي.(١)

وجدير بالذكر أنّ الكرد المِهْرانيين كانوا حينذاك من أتباع العقيدة الأيزدية (اليزيدية)، هذا ما أكّده الأستاذ حَسُو أُومَريكو، وهو نفسه أيزدي وخبير بقبائل الكرد الأيزديين، وهذا دليل على أنّ صلاح الدين كان يفهم طبيعة الصراع الإسلامي الفرنجي، ويراه امتدادًا للصراع التاريخي بين الشرق ممثّلاً في شعوب الشرق الأوسط والغرب ممثّلاً في الشعوب الأوربية. وشارك كثير من الشخصيات الكردية القيادية في المعارك التي خاضها المسلمون ضد الفرنج، ونذكر منهم إخوة صلاح الدين:

- نور الدولة شاهِنْشاه: وهو أسنّ من صلاح الدين، استشهد سنة ٥٤٣ هـ في معركة ضد الفرنج حين كانوا يحاصرون مدينة دمشق.(٢)

- شمس الدولة تَوْرانْشاه: أكبر إخوة صلاح الدين، قاد الجيش الأيوبي في فتح اليمن، وكان من أجود الناس وأسخاهم كفًّا، يوزّع على الناس جميع ما يصل إليه من مال، توفّي سنة ٥٧٦ هـ.(٣)

- تاج الملوك بُوري: أصغر إخوة صلاح الدين، كان فارسًا شجاعًا كريمًا حليمًا، جامعًا لخصال الخير ومحاسن الأخلاق، وله ديوان شعر، توفّي على أثر جرح أصيب به حينما كان صلاح الدين يحاصر حلب سنة ٥٧٩ هـ.(٤)

---

(١) المرجع السابق، ١١/٥٢٩، ٥٣٥. أبو شامة: الرّوضتين، ٢/٨١-٨٢. محمد ماهر حَمادة: وثائق الحروب الصليبية، ص١٣٢.

(٢) أبو الفِداء: المختصَر في أخبار البشر، ٣/ ٢٠-٢١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١١/٤٦٨. أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١١/٤٩٨.

- سيف الإسلام طُغْتِكين: كان شهمًا شجاعًا شديد السيرة، أرسله صلاح الدين إلى اليمن سنة ٥٧٨ هـ، وكانت ولايته باليمن ست عشرة سنة، وتوفّي سنة ٥٩٣ هـ.[١]

- الملك العادل سيف الدين بن أيوب: كان نبيلاً حازمًا سديد الآراء، حسن التدبير، حليمًا صفوحًا، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، شارك مع صلاح الدين في ميادين القتال وفي مجالات الإدارة، توفي سنة ٦١٥ هـ.[٢]

ومن الشخصيات التي شاركت في الصراع ضد الفرنج أبناء إخوة صلاح الدين، ونذكر منهم: عزّ الدين فَرُّوخْشاه بن شاهِنْشاه، كان ينوب عن صلاح الدين في دمشق، وله مواقف مجيدة ضد الفرنج، وكان اعتماد صلاح الدين عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعًا يغشى الحروب بنفسه، ولا يَكِلها إلى أحد غيره، ولا يهاب الموت، وكان كريمًا فاضلاً عالمًا بالأدب، وله شعر جيد، توفّي سنة ٥٧٨ هـ.

ومن الشخصيات الكردية التي اعتمد عليها صلاح الدين أيضًا ابنُ أخيه المظفّر تَقِيّ الدين عمر بن شاهِنْشاه، وكان يقود جند صلاح الدين في كثير من المعارك، وابنُ عمه ناصر الدين محمد بن شَيركُوه، إضافةً إلى الفقيه عيسى الهَكّاري وأخيه ظَهير الدين الهَكّاري وعزّ الدين جُرْدِيك وعمر بن لاجِين وعلي بن أحمد المَشْطوب الهَكّاري.[٣]

وحرص ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين على استمرار نفوذهم في كُردستان؛ كي يضمنوا الأمن في الحدود الشرقية والشمالية لبلاد الشام، إضافةً إلى إفادتهم من القوة القتالية الكردية في المواقف الصعبة، فكان الملك العادل (أخو صلاح الدين) يسيطر على مناطق حرّان والرُّها ومَيّافارِقين ونِصيبين والخابور، كما أنّ الملك

---

(١) المرجع السابق، ١٢/١٢٩.

(٢) ابن شدّاد: **النوادر السلطانية**، ص١٨٤.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١١/٤٥٢، ٤٦٩، ٤٩١، ١٢/٤٢. ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١٤٢. أبو شامة: **الروضتين**، ٢/١٨٥. أبو الفداء: **المختصَر في أخبار البشر**، ٣/٦٧. ابن شدّاد: **النوادر السلطانية**، ص١١٢، ١٤٦-١٤٧.

الكامل بن العادل ولّى ابنَه نجم الدين أيوب على شمالي كردستان، وحينما تولّى نجمُ الدين السلطنة عيّن ابنَه تَوْرانْشاه واليًا على المنطقة نفسها.[1]

ظلّ بعض ملوك بني أيوب يحكمون مناطق عديدة من شمالي كُردستان على نحوٍ خاص أيام الغزو المغولي والتَّيْمُوري، واستمرّ نفوذهم إلى بدايات العهد العثماني، كما سنرى في الفصول القادمة من هذا الكتاب.

---

(١) ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ١/٢٢٩، ٢٤٧.

الفَصْل السّادس

تاريخ الكُرد
من الغَـزْو المَغـوليّ إلى أواخِر العَـهد العُـثْمـانيّ

١- الكُرد والغَزو المَغُولي

العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي:

في البداية دعونا نلقِ نظرة سريعة على الخريطة السياسية لشعوب الشرق قُبيل الغزو المغولي، فحينذاك كانت أربع قوى سياسية تحكم العالم الإسلامي، هي:

١ - الخلافة العباسية في العراق.

٢ - بقايا السلاجقة في إيران وفي أجزاء من آسيا الصغرى.

٣ - بقايا الأيوبيين في أجزاء من كُردستان وبلاد الشام.

٤ - الدولة الخُوارِزْمية في أقصى شرقي العالم الإسلامي.

وكان في وسط وجنوب غربي آسيا أربع قوى غير إسلامية، هي:

١ - المغول شرقي نهر سَيْحُون.

٢ - دولة الروم (بيزنطا) في غربي آسيا الصغرى.

٣ - دولة أرمينيا الصغرى في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى.

٤ - الإمارات الفرنجية في بعض مناطق سواحل بلاد الشام.

أما الخلافة العباسية فإنّ قادة الجند -ومعظمهم من المماليك الترك- تسلّطوا على دار الخلافة منذ عهد الخليفة العباسي المتوكِّل على الله (قُتل سنة ٢٤٧ هـ)، وراحوا يعيّنون ويعزلون من يشاؤون من الخلفاء والوزراء، بل كانوا يقتلون كلّ

خليفة يقف في طريقهم، أو يَسْمُلون عينيه كي لا يصلح للخلافة شرعًا، أو يُذيقونه الهوان والعذاب ألوانًا.

وأما السلاجقة فكانت قوتهم قد تقلّصت كثيرًا في شرقي العالم الإسلامي، نتيجة توسّع النفوذ الخُوارِزْمي، واقتصر نفوذهم في الغالب على الجزء الشرقي من آسيا الصغرى.

وأما الدولة الأيوبية فكانت قد تفكّكت وضعفت وانحصرت في إمارات عديدة امتدت في شمالي كُردستان (مَيّافارِقين، حِصن كَيْفا) وغربًا وجنوبًا عبر سوريا (حلب، حماه، حمص، دمشق)، وانتهاءً بإمارة الكَرَك في الأُردنّ (جنوبي بلاد الشام)، إضافةً إلى أنّ نفوذهم في مصر كان قد زال، وأصبحت مقاليد الأمور في أيدي المماليك بعد أن قتلوا آخر سلاطين بني أيوب تَوْرانْشاه سنة ٦٤٨ هـ.

وأما الدولة الخُوارِزْمِية فكانت القوةَ الشرقية الفتية آنذاك، وكانت في أول أمرها تابعة لحكم سلاجقة إيران والعراق، ثم قامت على أنقاض دولة السلاجقة في المشرق، وكان جدهم مملوكًا تركيًا اسمه أَنُوشْتِكِين، اشتراه الأمير السَّلجوقي بُلْكَباي، وولد لأنُوشتِكين ابنه محمد، وعهد إليه السلطان السلجوقي سَنْجَر بحكم خُوارِزْم، وولد لمحمد ابنه أَتْسِزْ، وتولّى أَتْسِزْ الحكمَ سنة ٤٩٠ هـ وتوفّي سنة ٥٥١ هـ، فخلفه ولده أَرْسَلان، وقد ولاّه سَنْجَر على ولاية خوارزم.[١]

وبعد أَرسلان تولّى السلطة ابنه خُوارِزم شاه علاء الدين تُكُشْ، ولما توفّي سنة ٥٩٦ هـ تولّى ابنُه محمد السلطنة، وتلقّب بلقب أبيه علاء الدين، وحكم مستقلاً عن السلاجقة، ووسّع رقعة الدولة من تركمانستان الحالية إلى حدود العراق، وفتح بلاد غَزْنَة وسِجِسْتان وكِرْمان وطَبَرِسْتان وجُرْجان وبلاد الجبل وخُراسان وبعض فارس وبعض الهند، واستخلص الرُّها وهَمَذان وبلاد الجبل من أيدي أمراء السلاجقة.[٢]

وكان لخُوارزم شاه علاء الدين محمد مطامع سياسية واسعة، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٦١٤ هـ: «كان يَهوى أن يُخطَب له في بغداد ويُلقَّب بالسلطان، وكان الأمرُ بالضد، لأنه كان لا يجد من ديوان الخلافة قَبولاً».[٣] وسبب إخفاق خُوارزم

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٣٩، ١٩١. حسن الأمين: **جنكيز وهولاكو**، ص٣٤.

(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٢٣٠. حسن الأمين: **جنكيز وهولاكو**، ص٣٤-٣٥.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٢/ ٣١٦. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٢٣٢.

شاه في تحقيق طموحه أنّ الخليفة الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـ) كان من الدهاة، وأعاد للخلافة بعض هيبتها، فأعرض عن مطالب خُوارزم شاه.

وبعد فشل خُوارزم شاه في احتلال المنزلة الأولى في بغداد لجأ إلى القوة، وصمّم على غزو بغداد، متذرِّعًا بأنّ الخليفة الناصر قد أساء معاملة رُسله ورفض ذكرَ اسمه في الخطبة على منابر بغداد، كما كانت عليه الحال في عهد البُوَيْهيين والسلاجقة، وأعلن خُوارزم شاه أنّ الخلفاء العباسيين تقاعسوا عن الجهاد، وأنهم مغتصبون للخلافة، وأنّ آل علي بن أبي طالب أحقّ بها منهم، واعتنق مبادئ الشيعة، واستصدر فتوى من العلماء بعزل الخليفة العباسي الناصر وإسقاط اسمه من السِّكّة (النقود) والخطبة، ووقع اختياره على رجل علوي من مدينة تِرْمِذ، فنادى به خليفة للمسلمين، وخطب له على المنابر، وضرب النقود باسمه، ثم عزم سنة ٦١٤ هـ على غزو بغداد.

فأرسل الخليفة الناصرُ الشيخَ الكردي شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي إلى خُوارزم شاه طلبًا للصلح، فأساء خوارزم شاه استقبال الشيخ شهاب الدين، وزحف بقواته نحو بغداد، لكنه اضطر إلى التراجع بعد أن وصل إلى منطقة أَسَد آباد في كُردستان الشرقية (غربي إيران حاليًا) بسبب الثلوج والبرد الشديد، فأرسل الخليفة العباسي إلى جَنْگيزخان ملك المغول طالبًا مساعدته ضد خُوارِزم شاه.(١)

ونتيجة لحماقات خُوارزم شاه وجشعه من جانب، والصراع الدائر بينه وبين الخليفة العباسي الناصر من جانب آخر، والتطاحن المذهبي (السني- الشيعي) من جانب ثالث، دفعت شعوب غربي آسيا ثمنًا رهيبًا يندر أن يوجد له مثيل في التاريخ القديم.

المغول في كُردستان:

كان خان المغول الأكبر جَنْگِيْزخان قد أرسل تجّارًا من بلاده إلى بلاد خُوارِزْم شاه، فدخل التجار المغول مدينة أُوتْرار ببضاعتهم، فطمع خُوارِزم شاه في أموالهم، وأمر واليه هناك بقتلهم وسلب ما معهم من فضّة وذهب وفراء ثمينة، فقتل الوالي

(١) إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، ص٥٠-٤٩.

التجار وقبض ثرواتهم وأرسلها إلى خُوارِزم شاه، فأسرع ببيعها لتجّار بُخارى وسَمَرْقَنْد، وقبض أثمانها.[١]

طلب جَنگيزخان من خُوارزم شاه تسليمه والي أُوتْرار لمعاقبته، فرفض خُوارزم شاه ذلك، فأعلن جنگيزخان الحرب عليه، وعبر بجحافله نهر سَيْحون، ودخل بلاد خُوارِزم شاه، وفتح بُخارى سنة ٦١٦ هـ وسَمَرْقَنْد سنة ٦١٧ هـ، وفرّ خُوارزم شاه أمامه غربًا من بلد إلى آخر حتى انتهى إلى هَمَذان (في إقليم الجبال بكُردستان)، وعاد منها إلى مازَنْدَران، ثم توجّه إلى قلعة «آبْ سُكون» في بحر قَزْوين، وتوفّي هناك سنة ٦١٧ هـ، وكان المغول يتتبّعون أثره، فوصلوا في مطاردتهم له إلى هَمَذان وأراضي كُردستان المقسّمة الآن بين العراق وإيران، إلاّ أنّ بردها أجبرهم على الانتقال إلى أذربيجان.[٢]

هكذا أصبحت كُردستان مسرحًا للصراع بين المغول وخُوارزم شاه، واستمر الأمر على ذلك في عهد جلال الدين بن خُوارزم شاه الذي تصدّى للمغول بعد فرار والده، وبعد أن خاض عددًا من المعارك الناجحة ضدهم في الهند، تراجع أمامهم إلى إيران، ثم استولى على عراق العجم (جنوبي كردستان)، وصرف همّه إلى الفتح داخل بلاد المسلمين وإلى ما بأيدي الخليفة العباسي، وانتشر جندُه حتى بلغوا أطراف بغداد والبصرة، وافتتحوا دَقُوقا عَنْوة، وأنسَوا السكان هناك ما فعله المغول من قتل ونهب وتخريب، لكثرة ما قاموا به من بطش وتنكيل وما مارسوه من نهب وسلب.[٣]

وفي سنة ٦٢٥ هـ، وفي طريق تراجعه هربًا من المغول، حاصر جلال الدين مدينة خِلاط، وارتكب فيها الفظائع، ثم إنه «تَعدّى خِلاط إلى صحراء مُوش وجبل جُور، ونهب الجميع وسبى الحريم واسترقّ الأولاد وقتل الرجال وخرّب القرى، وعاد إلى بلاده».[٤] والمقصود مقرّه في أَذَربيجان.

---

(١) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٢٣٧. إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، ص٤٩.

(٢) حسن الأمين: **جنكيز وهولاكو**، ص٥٤-٦٣. إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، ص٨١.

(٣) حسن الأمين: **جنكيز وهولاكو**، ص٧٠. ودَقوقا تقع جنوبي كركوك بحوالي ٤٥ كم.

(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٢/ ٤٨١. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٢٧٥.

وفي سنة ٦٢٦ هـ هاجم جلال الدين كُردستان ثانية، فحاصر خِلاط واحتلها عَنْوة بعد أن استبسل أهلها في الدفاع عنها، قال ابن الأثير يصف بشاعة أفعال الخوارزميين: «وخرّبوا خِلاط، وأكثروا القتلَ فيها، ومَن سلم هرب من البلاد، وسَبَوا الحريم واسترقّوا الأولاد وباعوا الجميع، فتمزّقوا كلَّ مُمَزَّق، وتفرّقوا [الخوارزميون] في البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على أهلها ما لم يَسمع بمثله أحد»[١].

ظلّ جلال الدين يتنقّل في كردستان من منطقة إلى أخرى والمغول يطاردونه، ويعيث هو والمغول فسادًا وتدميرًا حيثما حلّوا وارتحلوا، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٦٢٨ هـ: «لمّا انهزم جلال الدين من التَّتَر إلى آمَد نهب التترُ سواد آمَد وأَرْزَن ومَيّافارقين، وقصدوا مدينة إسْعِرد [إسْعَرْد]، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التترُ الأمانَ، فوثِقوا منهم واستسلموا، فلمّا تمكّن التترُ منهم وَضَعوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم، فلم يَسْلَمْ منهم إلاّ مَن اختفى، وقليلٌ ما هم... ثم ساروا منها إلى طَنْزَة ففعلوا فيها كذلك... فوصلوا ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها... ثم وصلوا إلى نِصِيبين الجزيرة، فأقاموا عليها بعض نهار، ونهبوا سوادها، وقتلوا من ظفروا به، وغُلّقت أبوابُها فعادوا عنها، ومضوا إلى سِنْجار ووصلوا إلى الجبال من أعمال سِنْجار، فنهبوها، ودخلوا الخابور، فوصلوا إلى عَرابان، فنهبوا وقتلوا وعادوا»[٢].

وأضاف ابن الأثير واصفًا ما لقيه الكرد من أذى المغول وبطشهم حينما كانوا يطاردون جلال الدين وجنده: «ومضى طائفة منهم إلى نِصيبين الروم، وهي على الفرات، وهي من أعمال آمَد، فنهبوها وقتلوا فيها، ثم عادوا إلى آمَد، ثم إلى بَدْليس، فتحصّن أهلها بالقلعة وبالجبال، فقتلوا فيها يسيرًا وأحرقوا المدينة... ثم ساروا من بَدليس إلى خِلاط، فحصروا مدينة من أعمال خِلاط يقال لها باكِرى، وهي من أحصن البلاد، فملكوها عَنوة وقتلوا كلَّ من بها، وقصدوا مدينة أَرْجِيش من أعمال خلاط، وهي مدينة عظيمة، ففعلوا كذلك»[٣].

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٢/ ٤٨٨.

(٢) المرجع السابق، ١٢/ ٤٩٩-٥٠٠. وسواد نِصيبين: ضواحيها العامرة بالمزارع والبساتين.

(٣) المرجع السابق، ١٢/ ٥٠٠.

لم تقتصر حملة التدمير المغولية على شمالي كُردستان، بل كان لمناطق جنوبي كردستان نصيبًا من التدمير وافيًا، ويذكر ابن الأثير في هذا الصدد أن في سنة ٦٢٨ هـ «وصل طائفة من التَّتر من أذربيجان إلى أعمال إربل، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوانية والأكراد الجُوزَقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إرْبِل، فنهبوا القرى وقتلوا من ظَفِروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التي لم يُسمْع بمثلها من غيرهم»[(١)].

جدير بالذكر أنّ السلطان جلال الدين، حينما كان يهرب من المغول غربًا، اتّخذ أذربيجان مركزًا لقيادته، لكنّ ذلك لم يحمه من المغول، فتوجّه إلى كردستان بحثًا عن الملاذ الآمن، واستنجد بأمراء ديار بكر والجزيرة (ملوك بني أيوب)، فلما وصل إلى مدينة آمَد لحق به المغول وهزموه شرَّ هزيمة، فلجأ إلى إحدى قرى الكرد في جبال مَيّافارقين، وأفصح لكبير القرية عن نفسه، فآواه وأمّنه وشرع يُعِدّ له العُدّة للعودة به إلى بلاده، غير أنّ كرديًا آخر قتله ثأرًا لمقتل أخيه على أيدي الخوارزميين، ولِما اقترفه جلال الدين وجنوده بحق الكرد من بطش وسفك للدماء[(٢)].

إضافةً إلى الصراع بين الخلافة العبّاسية والدولة الخُوارِزمية، كان ثمة صراع بين الخلافة العبّاسية والإسماعيليين (الحشّاشين) في شمالي إيران، وكانت تلك ثغرة أخرى مكّنت المغول من اجتياح العالم الإسلامي والتوغّل فيه غربًا؛ إذ كان شيخ الإسماعيلية الحسن بن الصَّبّاح قد استولى على قلعة «أَلَمُوت» سنة ٤٨٣ هـ، واتخذها قاعدةً لجماعته ينطلق منها أتباعه لاغتيال الشخصيات الكبيرة في الشرق الأوسط، ومن أولى الشخصيات التي اغتالوها الوزير السلجوقي نِظام المُلْك سنة ٤٨٥ هـ.[(٣)]

نتيجةً لما قام به الحشّاشون من فساد وبطش وإرهاب، وعجْز الدولة عن القضاء عليهم، توجّه شمس الدين أحمد الكافي القَزْوِيني قاضي قَزوين، بأمرٍ من

---

(١) المرجع السابق، ١٢/ ٥٠١.

(٢) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٩/ ٣٠٥.

(٣) إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، ص٥١-٥٣. حافظ أحمد حمدي: **الدولة الخوارزمية والمغول**، ص٢٢٤-٢٢٥.

الخليفة العبّاسي المستعصِم بالله، إلى مَنْكُوقاآن، حفيد جنگيزخان، طالبًا منه القضاء على الحشاشين «الملاحدة»، فهاجم هولاكو قلاعهم وأزال حكمهم سنة ٦٥٤ هـ، وكان حكمهم قد بدأ سنة ٤٧٧ هـ.[١]

ثم انتهز المغول الفرصة، فكلّف الخانُ الأكبر مَنْكُوقاآن أخاه هولاكو بغزو غربي آسيا ثانيةً، وأوصاه قائلاً: «وأمّا مَن يعصيك فأغرِقْه في الذِّلّة والمَهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكلِّ ما يتعلق به، وابدأْ بإقليم قُوهِسْتان فخرّب القلاع والحصون، فإذا فرَغتَ من هذه المَهمّة فتوجّهْ إلى العراق، وأَزِلْ من طريقك اللُّورَ والأكرادَ الذين يقطعون الطرق على سالكيه، وإذا بادر خليفةُ بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرّضْ له مطلقًا، أمّا إذا تكبّر وعصى فألحقْه بالآخرين من الهالكين».[٢]

وهكذا كان الكرد - واللُّور فرع منهم- يُعتبَرون من الأعداء الخطرين للمغول، وكان من الأهمية بمكان أن يقضوا عليهم، بل كان من الضروري أن يسيطر المغول على أرض كُردستان المقسّمة حاليًا بين غربي إيران وشمالي العراق وجنوب شرقي تركيا، كي يتمكّنوا من إحكام قبضتهم على غربي آسيا، ويسيطروا على مراكز القوى الرئيسة فيها، ولا سيّما الخلافة العباسية في بغداد.

وقبل ذلك كان المغول قد اصطدموا بالكُرد في غربي إربيل في جنوبي كُردستان سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م، وحول إربيل نفسها سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥م، واجتاحوها سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦م، وارتكبوا فيها الفظائع، ووصلوا إلى خانِقين سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧م، وهزموا فيها جيوش الخليفة المُستنصِر بالله (ت ٦٤٠ هـ)، وفي سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١م ملكوا أَرْزَن الروم (قاليقَلا) في شمالي كردستان، وقتلوا منها خلقًا كثيرًا.

وفي سنة ٦٤٠ هـ انتصر المغول على سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كَيْخَسْرو بنواحي أَرْزَنْگان (أَرْزَنْجان) في شمالي كردستان، وانتشروا في بقاع آسيا الصغرى يقتلون وينهبون، وصار العراق مطوّقًا من الشرق والشمال. وفي سنة ٦٤١ هـ غزا المغول أطرافَ بلاد الشام، ووصلوا إلى قرى حلب. وفي سنة ٦٤٢ هـ

---

(١) الهَمَذاني: جامع التواريخ، ١/ ٢٥٠-٢٥٨.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٢٣٧.

تقدّموا من هَمَذان نحو العراق، فوصلوا إلى خانِقين، واقتربوا من بَعْقُوبا. وفي سنة ٦٤٧ هـ كبس المغول أبواب خانِقِين، ووصلوا إلى نواحي بغداد. وفي سنة ٦٥٠ هـ أغاروا على بلاد الجزيرة، حتى بلغوا حَرّان والرُّها، ونهبوا ديار بكر ومَيّافارقين.[(١)]

وفي سنة ٦٥٥ هـ انطلق هولاكو من ضواحي قزوين، وأرسل القائد بايْجُو نحو شمالي كُردستان وبلاد الروم وبلاد الشام، ونزل مع كبار الأمراء «في هَمَذان بالقرب من خانَه آباد التي هي عبارة عن مرعى من كردستان، وصار يشتغل بترتيب الجيش وتجهيزه».[(٢)]

ثم تقدّم هولاكو غربًا في السنة نفسها، وبلغ دِينَوَر (في شرقي كردستان) قاصدًا بغداد، ثم رجع إلى هَمَذان، وأرسل رسالة إلى الخليفة العباسي المُستعصِم بالله يتهدّده ويتوعّده، لأنه لم يرسل جيشًا يساعد المغول في القضاء على الإسماعيليين (الحشّاشين).[(٣)] لكنّ الخليفة المستعصم كان غارقًا في أوهامه، وتفصح طريقة تعامله مع الخطر المغولي عن سَذاجة سياسية بالغة، كما تؤكد عجزه عن تقدير قوته الحقيقية بدقة، فتارةً كتب إلى هولاكو يقول: «ألا لِيعلم الأميرُ أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشَّحّاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب، ممّن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلُّهم عبيدُ هذا البَلاط وجنودٌ لي، إنني حينما أشير بجمْعِ الشَّتات سأبدأ بحسْم الأمور في إيران، ثم أتوجّه منها إلى بلاد تَوْران، وأضعُ كلَّ شخص في موضعه».[(٤)] وتارةً أخرى قال المستعصم لوزيره مُؤيِّد الدين العَلْقَمي الذي نصحه بإرسال الهدايا الثمينة إلى هولاكو لاسترضائه: «لا تخشَ القضاءَ المُقبل، ولا تَقُلْ خُرافة، فإن بيني وبين هولاكو وأخيه منكّوقاآن صداقةً وألفة، لا عداوة وقطيعة، وحيث إنني صديق لهما فلا بدّ أنهما أيضًا يكونان صديقَين ومواليَين لي».[(٥)]

---

(١) إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، ص٧٥.

(٢) الهَمَذاني: **جامع التواريخ**، ١/ ٢٦١.

(٣) المرجع السابق، ١/ ٢٦٧.

(٤) المرجع السابق، ١/ ٢٦٩.

(٥) المرجع السابق، ١/ ٢٧٢.

وفي سنة ٦٥٥ هـ نفسها قرّر هولاكو احتلال بغداد، فشنّ الهجوم عليها من محورين اثنين يقعان في كردستان:

- **المحور الأول**: محور الموصل- إربيل- بغداد، «فأمر بأن تتحرك جيوش جَرْماغون وبايْجو نُويان اللذَين كانت معاقلهما في بلاد الروم، وأن تسير على الميمنة إلى الموصل عن طريق إربل، ثم تعبرَ جسر الموصل، وتعسكرَ في الجانب الغربي من بغداد» من طريق شَهْرَزُور ودَقُوقا.(١)

- **المحور الثاني**: محور كِرْمَنشاه- حُلْوان- خانِقين- بغداد، وذكر الهَمَذاني أنه في أوائل شهر مُحَرَّم سنة ٦٥٥ هـ سار هولاكو بالجيوش عن طريق كِرمَنشاه وحُلوان، وكان معه كبارُ الأمراء، وعندما بلغ مدينةَ أَسَد آباد أوفد رسولاً يدعو الخليفة مرة أخرى للحضور، فكان الخليفة يماطل ويتعلّل. وتحرّك المغول من هناك إلى جبال الكرد، ونزلوا بكِرمَنشاه، وقاموا بالقتل والسلب، وعسكر هولاكو بجنوده على شاطئ نهر حُلوان في التاسع من شهر ذي الحِجّة سنة ٦٥٥ هـ، وفي تلك الأثناء استولى القائد المغولي كَيتُوبُوقا على كثير من بلاد لورستان (موطن الكرد في خُوزستان).(٢)

وفي سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م احتل المغولُ بغداد، وأعملوا فيها الدمارَ والسلب والنهب وسفك الدماء وانتهاك الأعراض، وقتلوا الخليفة المُستعصِم بالله بطريقة مهينة، وتمّ لهم ذلك بعد أن احتلوا كردستان الجنوبية والوسطى.(٣)

وفي الوقت الذي كان هولاكو يحاول فيه احتلال بغداد كلّفَ أَرْقِيُو نُويان بفتح قلعة إربيل، فحاصر أَرْقِيُو القلعةَ مدة، واستعان بصديقهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (أرمني من مماليك سلاطين السلاجقة)، فأمدّهم بالجنود، قال رشيد الدين الهَمَذاني: «وذات ليلة نزل أهل القلعة، وشَنّوا غارةً ليلية على المغول، وقتلوا كلَّ من وجدوه، وأشعلوا النارَ في المَجانيق وأحرقوها، وعادوا إلى القلعة، فلما عجز أَرْقِيُو استدعى بدرَ الدين لؤلؤ وتشاور معه، فقال بدر الدين لؤلؤ: التدبيرُ هو أن تَدَع

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٢٨١. عطا مَلَك الجُوِيني: **تاريخ فاتح العالم**، ٢/ ٣٦٣-٣٦٥.

(٢) الهَمَذاني: **جامع التواريخ**، ١/ ٢٨١-٢٨٣.

(٣) المرجع السابق، ١/ ٢٩٠.

هذا العمل حتى الصيف؛ لأنّ الأكراد يَفِرّون من الحر ويلجأون إلى الجبال، أما الآن فالجوُّ معتدل، وعندهم ذخائرُ وافرة، والقلعةُ في غاية الإحكام، فلا يتيسّر فتحُها إلا بالحيلة والتدبير»[(١)].

اقتنع أرقيو بخطة بدر الدين، فأخذ بها، وفي الصيف هاجم المغول القلعة ففتحوها، وسلّموها إلى بدر الدين لؤلؤ، فهدم أسوارها. وفي سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م سار هولاكو في قلب جيوشه من أذربيجان متوجّهًا إلى بلاد الكرد، فكانت طريقه على خِلاط وجبال هَكّار الكردية، فقتل كل مَن لقيَه من الكرد، ووصل إلى ديار بكر (آمَد)، وفتح الجزيرة، ووجّه ابنه يَشْمُوت لحصار مَيّافارقين.[(٢)]

الصمود الكردي:

يتّضح ما سبق أنّ مناطق شرقي كُردستان وجنوبي كُردستان كانت مدخل المغول إلى العراق، لكنّ أطماع المغول لم تكن مقتصرة على احتلال العراق، وإنما كان ذلك الاحتلال حلْقة من حلَقات المخطط الإستراتيجي المغولي الأكبر؛ وهو الوصول إلى الموانئ المطلة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط والسيطرة على شبكة الطرق التجارية في بلاد الشام، فالمعروف أنّ شبكة طريق الحرير (شرق/ غرب) وشبكة طريق البخور (شمال/ جنوب) كانتا تلتقيان وتتداخلان في بلاد الشام.

إن مناطق شمالي كردستان، على الصعيد الجغرافي، كانت بوّابة إستراتيجية لاحتلال بلاد الشام، لذلك بدأ المغول بالتوجّه إلى مَيّافارقين، فلما اقتربوا منها أرسلوا إلى الملك الكامل الأيّوبي يدعونه إلى الاستسلام، فرفض قائلاً: «إنني لن أنخدع بكلامكم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف ما دمت حيًا»[(٣)].

وشرع الملك الكامل يقوّي عزائم شعبه، وقال: «سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضة والغَلاّت الموجودة في المخازن، وسأُوثِر بها كلّها المحتاجين،

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٢٩٨-٢٩٩.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٠٥-٣٠٦.
(٣) المرجع السابق، ١/ ٣١٩-٣٢٠.

فإني -بحمد الله- لست كالمُستعصِم عبدًا للدينار والدِّرهم، الذي طرح برأسه وبمُلك بغداد بسبب بخله وشُحّه». [1]

وأصبح سكان المدينة طوع أمر الملك الكامل، وتصدّوا للهجوم المغولي، وكانت فِرَق أرمنية حربية قد شاركت في حصار مَيّافارقين مع المغول، وكذلك فعل بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل. واستمرّ الحصار مدة طويلة أظهر فيها الكرد ضروبًا من الشجاعة المنقطعة النظير، مقتدين بملكهم الذي قدّم للمعركة كلّ ما يملك، وكان بين جنوده فارسان بارعان دوّخا المغول ببسالتهما وإتقانهما الرماية، وأوقعا بهم أفدح الخسائر. وطال الحصار فنفدت المؤن وجاع الناس في المدينة، فأكلوا المَيتة والكلاب والقطط والفئران، وبلغت الأزمة أوْجها فأكل الأحياءُ الأمواتَ، ولم تنهض الإمارات الأخرى لنجدة مَيّافارقين، فسقطت بين أيدي المغول. [2]

أما الملك الكامل فقد قبض عليه المغول واقتيد إلى هولاكو، وكان هذا غاضبًا عليه أشدّ الغضب؛ لأنّ الملك الكامل ذهب إلى الشام عندما قصد هولاكو بغداد، وقال للملك الناصر صاحب دمشق: «إنّ المصلحة تقضي بأن نذهب بجيش جرّار لمدد الخليفة». لكنّ الناصر لم يأخذ برأيه. وقد عنّف هولاكو الملكَ الكامل، ثم أمر بتقطيعه إرْبًا إرْبًا، وكان المغول يضعون أعضاء جسده المقطوعة في فمه حتى هلك، وكان ذلك سنة ٦٥٧ هـ، وكان الملك الكامل زاهدًا عابدًا، يعيش من أجر الحياكة. [3]

ثم توجّه المغول إلى ماردين، وكان حاكمها الملكُ السعيد الأيّوبي فقرّر المقاومة، وحاصر المغول المدينةَ ثمانية أشهر، ثم ظهر الغَلاء والقَحْط والوباء في المدينة، فكان يموت في كل يوم خلقٌ كثير، ومرض الملكُ السعيد نفسه، فنصحه ابنُه مظفَّر الدين بتسليم القلعة، فلم يفعل، فسقى الابنُ أباه دواء سامًا فمات، وسلّم مظفَّر الدين المدينة للمغول. [4]

أثناء حصار مَيّافارقين استولى هولاكو على نِصيبين وحَرّان والرُّها، وأمر بقتل

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٣٢٠.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٣٢١ - ٣٢٤.
(٣) المرجع السابق، ١/ ٣٢٢ - ٣٢٣.
(٤) المرجع السابق، ١/ ٣٢٥.

أهالي سَرُوج عن آخرهم، لأنهم قاوموه، ثم احتل مدينة بِيرَه (الأرجح أنها بِيرَه جِيك)، وعبر الفرات، وأغار على مَنْبِج، وسفك دماء الكثيرين من سكانها.

بعد أن أحكم المغول سيطرتهم على مناطق شمالي كُردستان صار من السهل عليهم أن يتوغّلوا غربًا في بلاد الشام، فتوجّه هولاكو إلى حلب وحاصرها، يعاونه في ذلك الأرمن من كيليكيا والفرنج من أنطاكيا، وطلب من حاكمها الأيّوبي تَوْرانْشاه التسليم فرفض، فأخذ المغول يدكّونها بالمجانيق حتى اضطرت إلى التسليم، فاستباحوها سبعة أيام قتلاً ونهبًا وسبيًا للنساء، وقد انتهز هِيثُوم ملك أرمينيا الفرصة فأحرق الجامع الكبير، وأخذ جزءًا كبيرًا من الغنائم، وأعاد إليه المغول ما كان أخذه المسلمون من أقاليم، وأعادوا إلى بُوهيمَنْد أمير أنطاكيا الفرنجي جميعَ الأراضي التي كان المسلمون قد استردّوها منه.[1]

ثم توجّه المغول إلى حارِم، في شمال غربيّ سوريا، فاحتلوها، ثم سقطت المَعَرَّة وحَماه وحِمص في أيديهم، واستسلمت لهم دمشق سنة ٦٥٨ هـ، ووصل المغول إلى غَزّة دون قتال، وكانوا يخططون للانقضاض على مصر، لكنهم دُحروا في معركة عَين جالُوت بفلسطين على أيدي المماليك في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م.[2]

٢- الكُرد في العَهد المَمْلُوكي

نشأة المماليك:

المملوك عبد يُشترى ويباع، واكتسبت هذه الكلمة دلالة اصطلاحية خاصة في العهد العباسي؛ إذ أصبحت تدلّ على فئة من الرقيق الأبيض كان الخلفاء وكبار القادة والولاة يشترونهم من أسواق النِّخاسة، ويستخدمونهم في فرق عسكرية خاصة، ويعتمدون عليهم في مقاتلة أعدائهم وبسط نفوذهم.[3]

وقد بدأت ظاهرة تجنيد المماليك الأتراك في الجيش العباسي في عهد الخليفة

(١) إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، ص٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص٩٨. حسن الأمين: **جنكيز وهولاكو**، ص١٤٤-١٤٥.
(٣) محمد سُهَيْل طَقّوش: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، ص١٥.

العباس المأمون بن هارون الرشيد (ت ٢١٨هـ)، وأكثر الخليفة المُعتصِم بالله (ت ٢٢٧ هـ) من الاعتماد عليهم لكونهم أخواله، ولضعف ثقته بالعرب والفرس، وسرعان ما تزايدت قوة الجند الأتراك، وبرزت منهم شخصيات عسكرية كبيرة، مثل طولون والأَفْشِين وأَشْناس ووَصِيف وبُغا وإيتاخ وسِيما الدمشقي، ولم يقتصر اهتمام هؤلاء المماليك على الميادين العسكرية، وإنما أخذوا يتدخّلون في شؤون الخلافة وسياسات الدولة، فيعزلون خليفة ويولّون آخر، بل لم يتورّعوا عن سَمْل أعين بعض الخلفاء وقتل آخرين.(١)

ومنذ العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤ هـ/ ٨٤٧-٩٤٦ م) أصبح العنصر التركي قوة هامة على الصعيد العسكري، وجنّدتهم الدول الناشئة مرتزقةً في جيوشها، فاستعان بهم الصَّفّاريون والسامانيون في بلاد فارس، والطُّولونيون في مصر، والإِخْشِيديون والفاطميون في مصر وبلاد الشام، والسلاجقة في العراق وبلاد الشام، والزَّنكيون في الجزيرة وبلاد الشام، واهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم وفق نظام خاص، وهم أول من وضع نظامًا منهجيًا في تربية المماليك بمصر.(٢)

وقد أقام صلاح الدين الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية مع وفاة الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٦٧ هـ، وبسط نفوذ دولته على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين زَنكي سنة ٥٦٩ هـ، وصحيح أنّ الكرد والتركمان كانوا قوة قتالية أساسية في الدولة الأيوبية منذ نشأتها، لكنّ كثرة الحروب من ناحية، وضخامة أعداد القوات الفرنجية من ناحية أخرى، جعلت صلاح الدين يستعين بالمماليك الأتراك في حروبه ضد الفرنج، وازداد عددهم في مصر وبلاد الشام بعد وفاته.(٣)

تسلّط المماليك على الدولة الأيوبية:

المماليك أنواع تبعًا لأسيادهم، فثمة المماليك الصالَحية نسبةً إلى صلاح الدين، والعادِلية نسبةً إلى الملك العادل أخي صلاح الدين، والكامِلية نسبةً إلى الملك الكامل ابن الملك العادل، والبَحْرية في عهد الملك الصالح نجم الدين

---

(١) المرجع السابق، ص١٧. وانظر عبد الباري محمد: **فرسان الخلافة**، ص ١٣٥.
(٢) محمد سُهَيْل طَقّوش: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، ص١٧-٢٠.
(٣) المرجع السابق، ص٢٣-٢٤.

أيوب، والعَزيزية نسبةً إلى الملك العزيز الأيوبي، والبُرْجِية في عهد الملك المملوكي قَلاوُون.

بعد وفاة الملك الأيوبي الكامل سنة ٦٣٥ هـ أقام الكرد ابنه العادل الثاني سلطانًا، لكنّ المماليك الكاملية تآمروا على العادل الثاني سنة ٦٣٧ هـ، وهزموا أنصاره من الكرد، وأقاموا الصالحَ نجم الدين أيوب سلطانًا سنة ٦٣٨ هـ، وكان حاكمًا على الجزيرة الفراتية (المناطق الكردية في جنوب شرقي تركيا)؛ وكان ذلك مؤشّرًا على بداية تراجع النفوذ السياسي والعسكري الكردي في الدولة الأيوبية، وصعود نجم العنصر التركي ممثّلاً في المماليك منذ ذلك الحين.

وبسبب عدم ثقة السلطان الصالح نجم الدين بالنخب الكردية -خاصةً أنّ كثيرين منهم وقفوا ضد تولّيه السلطنة- زاد من شراء المماليك إلى درجة لم يبلغها أحد من الأيوبيين، حتى أضحى معظم جيشه منهم، واعتنى بتربيتهم، ثم جعلهم بِطانته وحرسه الخاص، وهذا مؤشّر آخر على تحجيم وتقليص الدور الكردي في هَرم السلطة، وعُرف هؤلاء المماليك بالبحرية؛ إذ جعل السلطان الصالح جزيرة الروضة في نهر النيل مقرًّا لهم.(١)

وفي سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٨ م، وبتأييد من البابا أَنُوسِنْت الثالث، قاد لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة على الشرق، فهاجم مدينة دِمْياط الساحلية في مصر، واستولى عليها. وارتاع المسلمون لسقوط دمياط؛ لأنها كانت محصَّنة ومزوَّدة بالذخائر والأقوات، وحزِن السلطان الصالح حزنًا شديدًا على سقوطها، وكان مريضًا حينذاك، وعنّف مماليكه ووبّخهم لإهمالهم في الدفاع عنها.

تخوّف المماليكُ من نوايا السلطان الصالح، وقرّروا التخلص منه، لكنّ قائدهم فخر الدين بن شيخ الشيوخ نصحهم بالصبر، وأكّد لهم أنّ الأطباء قد يئسوا من شفاء السلطان، وأنه ميّت لا محالة، فلا داعي إلى الفتك به، ولم يلبث السلطان الصالح أن توفّي فعلاً في العام نفسه؛ وهذا دليل آخر على أنّ المماليك الأتراك كانوا أقوياء وقادرين على الإطاحة بالسلطان الأيوبي نفسه إذا شاؤوا، وأنّ العنصر الكردي كان أضعف من أن يقف في وجوههم، ولا ريب في أنّ سياسات السلطان الصالح القائمة

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥-٢٧.

على تقديم المماليك الترك على القادة الكرد هي التي أوصلت الموقف الكردي إلى ذلك المستوى من الضعف.

أدارت شَجَرة الدُّر، زوجة السلطان الصالح الأثيرة (تركية الجنس، وقيل: أرمنية) شؤون البلاد بتأييد من المماليك، وأخفت خبر وفاته؛ كي لا تهبط معنويات الجيش الأيوبي، ولا ينتهز الفرنج الفرصة، فيشنّوا الهجوم، واستدعت تَوْرانْشاه، الابن الوحيد للسلطان الصالح، من حِصْن كَيْفا في شمالي كردستان ليتولّى مقاليد الحكم.

لكنّ جواسيس الفرنج نقلوا إليهم خبر وفاة السلطان الصالح، فانتهزوا الفرصة، وتركوا دِمْياط، وتقدّموا نحو المَنْصورة، فدخلوها بعد معارك شرسة. وفي هذه الأثناء وصل الملك المعظَّم تَوْرانْشاه إلى مصر، وتسلّم من شجرة الدُّرّ مقاليدَ مقاليد السلطة، وأعدّ خطة عسكرية كفلت له النصر الحاسم على الفرنج، واضطر هؤلاء إلى التراجع، فطاردهم الجيش الأيوبي، ووقع الملك الفرنسي لويس التاسع نفسه في الأسر.

بعد النصر على الفرنج اتّجه تَورانشاه إلى الجبهة الداخلية، إذ لم يرتح للنفوذ الكبير الذي كان المماليك يتمتعون به، وقرر إبعادهم وإحلال أنصاره الكرد القادمين معه من الجزيرة محلّهم، فامتعض المماليك، فردّ عليهم بالتهديد والوعيد وأبعدهم عن المناصب الكبرى، وأخيرًا أمر باعتقالهم. كما أنه جرّد شجرة الدرّ من سلطاتها، وطالبها بما أخفته من ثروة أبيه، فخافت على نفسها، وضمّت جهودها إلى جهود المماليك الحانقين، واستطاعوا في النهاية تنفيذ المؤامرة التي انتهت بقتله سنة ٦٤٨ هـ.[(١)]

بمقتل السلطان المعظَّم تَوْرانْشاه انتهى الحكم الأيوبي في مصر، وبدأ حكم المماليك. لكنّ الأيوبيين في الشام وكُردستان رفضوا الخضوع للأمر الواقع، وعَدّوا المماليك مغتصبين للسلطة، وقاد الملكُ الناصر يوسف، ملكُ حلب وملك دمشق بعدئذٍ، حملة أيوبية مناهضة للمماليك، وزحف بجنده نحو مصر لاستعادتها، ولجأ المماليك إلى مناورة سياسية ذكية؛ إذ اختاروا صبيًا من الأسرة الأيوبية لا يتجاوز

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢-٣٣.

عمره العاشرة، هو الملك الأشرف موسى، وأقاموه سلطانًا بشكل صوري، في حين كانت السلطة الحقيقية بيد المملوك عزّ الدين أَيْبَك ومن معه من كبار المماليك.

بقليل من التحليل للمعطيات السياسية والعسكرية آنذاك يتّضح أنّ الصراع كان يدور في الحقيقة بين العنصر الكردي ممثَّلاً في الأيوبيين والعنصر التركي ممثَّلاً في المماليك، وتجلّى ذلك بوضوح في المعركة التي دارت بين الجيش الأيوبي بقيادة الملك الناصر يوسف والجيش المملوكي بقيادة عزّ الدين أَيْبَك بين بَلْبِيس والصالحية بمصر سنة ٦٤٨ هـ، فقد انتصر فيها الملك الناصر في البداية، لكنّ فِرقة من جيشه؛ وهم من المماليك العزيزية الترك (نسبة إلى العزيز محمد والد الملك الناصر يوسف)، تخلّت عن مواقعها في أَوْج القتال، وانحازت إلى الجيش المملوكي بدافع العصبية العرقية، فحلّت الهزيمة بالجيش الأيوبي.

وبُعيْد ظهور الخطر المغولي من الشرق تدخّل الخليفة العباسي المُستعصِم بالله لعقد المصالحة بين الملك الناصر وعز الدين أَيْبَك، وتقرّر ما يلي:

١ - اعتراف الناصر بسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن.

٢ - اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام.

بتدقيق النظر في بنود هذه الاتفاقية يتضح أنها تعني اعترافًا أيوبيًا صريحًا بشرعية الحكم المملوكي في مصر.(١)

وبعد انتصار المماليك على المغول في عَين جالوت بفلسطين سنة ٦٥٨ هـ توسّع النفوذ المملوكي في بلاد الشام، بدءًا من دمشق جنوبًا وانتهاء بحلب شمالاً، وأعاد السلطان المملوكي المُظفَّر قُطْز بعض الأمراء الأيوبيين إلى إماراتهم، بعد أن أخذ عليهم العهود بالتبعية له.(٢)

ثم تولّى الظاهر بَيْبَرْس مقاليد السلطنة في مصر وبلاد الشام ٦٥٨-٦٧٦ هـ، فعزّز نفوذه بأن بايع بالخلافة أميرًا عباسيًا هاربًا من المغول، هو أبو القاسم أحمد، سنة ٦٥٩ هـ، وتلقّب أبو القاسم بلقب الخليفة المُستنصِر بالله، وقام بتقليد الظاهر بَيْبَرْس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وبهذه المناورة الدينية شكلاً، السياسية

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣-٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٠.

هدفًا ومقصدًا، أضحى الظاهر بَيْبَرْس سلطانًا شرعيًا، فأمِن بذلك منافسة ملوك بني أيّوب وأمرائهم وخروج كبار قادة المماليك عليه.(١)

وفي العهد المملوكي الأول كانت كردستان في معظمها تعاني من الغزو المغولي، والمعروف أنّ نهر الفرات أصبح الحدّ الفاصل بين المغول والمماليك بعد معركة عَين جالوت، وتقع كردستان في معظمها شرقي هذا النهر، في حين بسط المماليك نفوذهم على المناطق الكردية الواقعة غربي الفرات، وهي المناطق الحدودية الملاصقة للنفوذ المغولي، وأمر السلطان الظاهر بَيْبَرْس بتجديد القلاع الواقعة في تلك المناطق الحدودية، وشحن قلعة البِيرة (بِيرَه جِيك) بالمقاتلين، وزوّدها بالعتاد والمؤن من مصر وبلاد الشام لمساعدة سكّانها على مقاومة المغول.(٢)

وفي عهد السلطان قَلاوُون أرسل القائد المغولي آباقا خان قوة استطلاعية سنة ٦٧٩ هـ إلى شمالي بلاد الشام، فاحتلّت عَينْتاب وبُغْراس ودَرَبْساك وحلب، وارتكبت فيها أعمالاً وحشية، وظلّ المغول يتّخذون أرض كُردستان قاعدة انطلاق لتهديد شمالي بلاد الشام كلما سنحت لهم الفرصة؛ ففي سنة ٦٨٠ هـ توجّه إلى بلاد الشام جيشان مغوليان:

- خرج الجيش الأول من إقليم الجزيرة (في غربي كُردستان)، وعدده ثلاثة آلاف فارس بقيادة آباقا خان، وتولّى إخضاع المدن والحصون الواقعة على امتداد نهر الفرات.
- وخرج الجيش الثاني من كَبادُوكيا قاصدًا حِمْص، وعدده مئة ألف جندي بقيادة مَنْكُوتْمِر، أخي آباقا خان، وانضم إليه لِيُون الثالث ملك أرمينيا الصغرى، ودارت معركة فاصلة بين المغول والجيش المملوكي قرب حِمص، واستطاع المماليك إلحاق الهزيمة بالمغول وحلفائهم الأرمن.(٣)

وفي سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م اختير تَكُودار أكبر أبناء هولاكو إيلْخانًا، واعتلى عرش مغول فارس وكان قد اعتنق الإسلام، وسمّى نفسه أحمد تَكُودار، وحاول

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤-٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص٩٨.
(٣) المرجع السابق، ص١٩٠-١٩٢.

توطيد علاقته بالشعوب المسلمة، لا سيّما مع المماليك في مصر وبلاد الشام. وفي سنة ٦٩٤ هـ اعتلى قازان (غازان) عرشَ مغول فارس، واعتنق الإسلام، وتسمّى باسم محمود، لكنّ ذلك لم يمنعه من السعي لتحقيق الحلم المغولي التاريخي؛ وهو احتلال الشام ومصر، فنشب الصراع مرة أخرى بين المغول والمماليك.

كانت مدينة تِبْرِيز في شمال غربي إيران عاصمة للمغول، لذا أصبحت أرض كُردستان ثانيةً معبرًا لهم إلى الشام ومسرحًا للعمليات الحربية؛ فقد عبرت القوات المغولية نهر الفرات سنة ٦٩٩ هـ، ووصلت إلى حلب، ثم انتصرت على الجيش المملوكي شرقي حِمص، ووصلت إلى دمشق في العام نفسه. وفي سنة ٧٠٠ هـ قام قازان بحملة أخرى على بلاد الشام، فخرج من تِبْريز متّجهًا إلى حلب عن طريق الموصل، فأخلى الحلبيون مدينتهم، وعمّ الذعر مدن بلاد الشام.[(١)]

ونتيجة الصراع بين قادة المماليك على السلطة بعد وفاة بَيْبَرْس فَقَدَ الملك قَلاوُون الثقة بالمماليك الظاهرية (البَحرية)، وأنشأ سنة ٦٨١ هـ طائفة من المماليك الشراكسة عُرفوا بالمماليك البُرْجية، واستطاع هؤلاء المماليك الوصول إلى السلطة في مصر وبلاد الشام على يد أول سلاطينهم بَرْقُوق (٧٨٤-٧٩٠ هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٨ م). وذكر فيليب حِتّي أنّ جميع المماليك البرجية كرد، إلاّ اثنين منهم كانا يونانيين، وكان مجموعهم ثلاثة وعشرين ملكًا، وحكموا في الفترة ١٣٨٢-١٥١٧ م؛[(٢)] وهذا خبر غريب لا ندري من أيّ مصدر استقاه الكاتب، فالمشهور أنّ المماليك البُرجية كانوا شراكسة، ولم يكن الكرد مماليك قطّ.

ويبدو أنّ بعض مناطق كُردستان ظلّت تحت النفوذ المغولي، في حين وقعت مناطق أخرى ضمن نفوذ إمارة «ذو القَدْر»، وهي إمارة تركمانية تأسّست سنة ٧٤٠ هـ/ ١٣٣٩ م، وبسطت سيطرتها على مَرْعَش وعَيْنتاب وخَرْبُوط وحِصن منصور (آدِي يَمان) والرُّها وديار بكر وجَرْمِيك، ورأى العثمانيون في خضمّ صراعهم ضد المماليك البرجية ضرورة إحكام سيطرتهم على شمالي كُردستان وجنوبيها قبل التوجّه إلى بلاد الشام سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م.[(٣)]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤١-٢٤٣.

(٢) فيليب حِتّي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ١/ ٢٧٣.

(٣) محمد سُهَيل طَقّوش: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، ص٤٤٦، ٤٩٩.

ومن الأمراء والقادة الكُرد الذين قاموا بأعمال جليلة في عهد المماليك الغُوريين الأمير حسين الكُردي الذي كان الساعد الأيمن للسلطان قانْصُوه الغُوري، وكان البرتغاليون قد سيطروا على موانئ الهند حوالي سنة ٩٢٢ هـ، ووصلت غزواتهم إلى سواحل شبه الجزيرة العربية وموانئ اليمن، فأرسل السلطان قانْصُوه الغُوري حملة عسكرية بقيادة الأمير حسين الكردي، وجعل له مدينة جُدّة (جَدّة) إقطاعًا، فشرع حسين الكردي في بناء سورها وإحكام أبراجها، ثم توجّه بعسكره إلى الهند، واجتمع بسلطان كُجَرات خليل شاه، فهرب البرتغاليون من الموانئ حين سمعوا بقدومه، وعاد حسين الكردي إلى اليمن فافتتحها من بني طاهر، وقُتل القائد حسين الكردي بأمر السلطان العثماني سليم الأول بعد انتصار هذا الأخير على المماليك في معركة «مَرْج دابِق» بشمالي سوريا.[(١)]

وذكر الكاتب التركي يِلْماز أُوزْتُونا أنه كان للمماليك، حين صراعهم ضد العثمانيين، جيش احتياطي من الكرد تَعداده عشرون ألف مقاتل، أكثرهم خيّالة، وكانت هذه القوات تُجمع من الأناضول وشمالي سوريا، وتُستدعى عند الحاجة.[(٢)]

٣- الكُرد والغَزو التَّيمُوري

تَيمُورلَنْك (٧٦٥-٨٠٧ هـ/ ١٣٦٣-١٤٠٥ م) وقومه هم من العناصر المغولية التي اعتنقت الإسلام، وقد تسلّط تَيمُورلَنْك على شرقي العالم الإسلامي، وأحيا سُنّة أجداده المغول، فاندفع في بلدان غربي آسيا يدمّر مراكز الحضارة ويسفك الدماء وينهب الأموال ويكرّس في هذا الشرق البائس عهدًا مروِّعًا آخر من التخريب والتدمير.

بعد أن احتل تَيمُورلَنْك إيران خطّط للتوجّه إلى آسيا الصغرى (غربي تركيا) وبلاد الشام، ولتحقيق ذلك كان لا بدّ من السيطرة على كُردستان، وهذا ما فعله سنة ٧٩٦ هـ؛ إذ وجّه أحد قادته ويدعى سلطان محمود بجيش كثير العدد إلى آمَد، فحاصرها خمسة أيام، وأرسل هذا القائد يطلب المدد، فتوجّه تَيمُورلَنْك بنفسه إلى

(١) عبد الكريم شاهين: **تراجم أعلام الكرد**، ص٢٤.
(٢) يِلْماز أُوزْتُونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ١/ ٢٢٧.

آمَد وضيّق عليها الحصار، فطلب أهلها الأمان وفتحوا له أبواب المدينة، فدخلها ووضع السيف في الكبار وأسر الصغار وهتك الأعراض، ولجأ بعض الناس إلى الجامع فقتل جند تَيْمُورلَنْك منهم نحو ألفين وأحرقوا الجامع.[(١)]

ثم زحف تَيْمُورلَنْك في العام نفسه إلى الموصل، فقام بتخريبها وتدميرها، وتوجّه بعدئذٍ إلى رأس عين فنهبها وأسر أهلها، ثم توجّه إلى الرُّها ودخلها، فزاد عيثًا وفسادًا، ثم سار إلى ماردين، وكان صاحبها الملك الظاهر عيسى الأيّوبي، فجمع هذا الملك حاشيته وقال: «إني ذاهبٌ إلى هذا الرجل ومُظهِرٌ له الانقياد، فإن ردّني حسبما أريد فهو المراد، وإن طالبني بالقلعة فامتنعوا أنتم، وإيّاكم أن تسلّموها، وإذا خُيّرتم بين تسليم القلعة وقتلي فاختاروا قتلي، وأنا أجعل نفسي فداكم».[(٢)]

واستخلف الملكُ الظاهر ابنَ أخيه الملكَ الصالح على ماردين، ونزل يوم الأربعاء ١٥ شهر ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ، واجتمع بتَيْمُورلَنْك في مكان يسمّى الهِلالية، فقابله بشناعة وقبض عليه وطلب منه تسليم القلعة، فقال: القلعةُ بيد أصحابها، ولا أملك إلاّ نفسي، وقَدِمْتُ بها عليك، فلا تحمّلني فوق طاقتي، فأتى به إلى القلعة وطلبها منهم فأبوا.

ثم هاجمت قوات تَيْمُورلَنْك مدينة ماردين على حين غفلة، وأخذوها عَنوة، ولجأ أهل المدينة إلى القلعة، وشرع جنود تَيْمُورلَنْك في قتل الناس صغارًا وكبارًا، وصمد لهم بعض السكان حتى امتلأت المدينة من الجرحى والقتلى، وحين خاب أمله في فتح القلعة لجأ إلى الحيلة، إذ أصدر عفوًا عن أهل ماردين، وأعطاهم الأمان على نفوسهم ودمائهم، لكنّ أهل المدينة لم يغترّوا بقوله، فارتحل عنها.[(٣)]

توجّه تَيْمُورلَنْك بعدئذٍ بقواته إلى مدينة أَرْجِيش (قرب خِلاط في شمالي كُردستان)، وحطّ على قلعة أُونِيك فحاصرها وأخذها بالأمان، وقتل من بها من الجند. ثم رحل عنها سنة ٧٩٦ هـ مُستصحبًا معه الملكَ الظاهر عيسى، وحبسه في

---

(١) ابن عَرَبْشاه: **عجائب المَقْدور في نوائب تَيمور**، ص٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص٦٩-٧٠.
(٣) المرجع السابق، ص٧٠-٧٣.

مدينة سُلطانية وحبس معه أمراءه، وضيّقَ عليه، وأمر أن يقطعوا عن أهله خبره، وبقي الملك الظاهر سنةً لا يَعرف أحد عنه شيئًا.[1] ثم توجّه تَيْمُورلَنْك إلى «دَشْت قَبْجاق»، ووفدت الملكةُ إلى سلطانية، فخفّفت عن الملك الظاهر، وسمحت له بمراسلة جماعته، وحثّته على الدخول في طاعة تَيْمُورلَنْك، وكان هذا كله بتدبير من تَيْمُورلَنْك نفسه.

عاد تَيْمُورلَنْك من «دَشْت قَبْجاق»، فمكث في سلطانية ثلاثة عشر يومًا، ثم توجّه منها إلى هَمَذان، واستدعى الملكَ الظاهر عيسى من سلطانية، وبالغ في إكرامه، وقبّله في وجهه مرارًا، واعتذر إليه عما بدر منه، واستضافه ستة أيام، وخلع عليه، وأعطاه مالاً جزيلاً، وولاّه البلادَ من الرُّها إلى آخر مناطق ديار بكر إلى حدود أذربيجان وأرمينيا، ويكون له خَراجُها، لا يَحمل منه إلى تَيْمُورلَنْك شيئًا، ثم عانقه وودّعه. وكان ذلك مكرًا منه ودهاء؛ فقد أراد بذلك أن يُلقي العداوة والبغضاء بين الملك الظاهر عيسى وجيرانه من الحكام، فيضطر الملك الظاهر إلى الاستعانة به والاتّكال عليه، وبذلك يتمكن من جعله طيّعًا له.[2]

لمّا وصل خبر عودة الملك الظاهر عيسى إلى العشائر الكردية ابتهج الناس، وأقيمت الأفراح، وخرجوا لاستقباله، وفي مقدّمتهم وليُّ عهده الملكُ الصالح، وعزم الملك الظاهر عيسى على اعتزال السلطة، والتوجّه إلى الحجاز ليحيا حياة الزهد، لكنّ الخاصة والعامة من رعيته رجوه البقاء فبقي.[3]

وفي سنة ٨٠٢ هـ توجّه تَيْمُورلَنْك ثانية نحو كُردستان، ووصل إلى أَرْزَنْجان، ثم تحوّل إلى ماردين وهو يظن أنّ الملك الظاهر عيسى سيكون حليفَه وطَوْعَ أمره، غير أنّ الملك الظاهر لم يطعه ولم يقف إلى جانبه، لِما كان قد قاساه منه، فندم تَيْمُورلَنْك على إطلاقه من الأسر.[4] ثم توجّه تَيْمُورلَنْك إلى مدينة سِيواس، وكانت ضمن سلطة سليمان ابن السلطان العثماني بايَزِيد بن مراد، فحاصرها، ثم أعطى أهلَها الأمان، لكنه نكث بوعده، فسفك الدماء ونهب الأموال، وانطلق بعدئذٍ إلى

(١) المرجع السابق، ص٧٣-٧٤.
(٢) المرجع السابق، ص٧٤-٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص٧٦.
(٤) المرجع السابق، ص١٢٤.

حلب ففتحها سنة ٨٠٣ هـ، ثم اندفع في بلاد الشام غربًا وجنوبًا.[(١)]

وفي سنة ٨٠٥ هـ/١٤٠٢ م هاجم تَيْمُورلَنْك المناطق الواقعة تحت النفوذ العثماني في آسيا الصغرى، وانتصر على السلطان العثماني بايزيد الأول قرب أَنْقَرة، وأخذه أسيرًا، وتركه في الأسر إلى أن مات قهرًا، وقيل: انتحر.[(٢)] وقال ابن عَرَبْشاه: «وقيل: لم يتضرّر عسكرُ تَيْمُورلَنْك مدة استيلائه مع كثرة حروبه ومصافاته وإبلائه إلاّ من ثلاثة أنفار أضرّوا به وبعساكره غاية الإضرار، وأوردوا كثيرًا منهم مَوارد النار: أحدهم أبو بكر الشاشباني، وثانيهم سيّد علي الكردي، وثالثهم أَمَتْ التركماني».[(٣)]

وقد تأكّد لنا مرة أخرى أنّ كُردستان كانت مهمة جدًا في التوازنات السياسية الإقليمية خلال الغزو التَّيْمُوري، وكانت جيوش تَيْمُورلَنْك مضطرة إلى السيطرة على قلاع كردستان وحصونها، للانقضاض من بعد على آسيا الصغرى غربًا، والتوغّل في بلاد الشام جنوبًا وغربًا، والسيطرة من ثم على المفاصل الأساسية لكلٍّ من طريق الحرير وطريق البخور.

٤- الكُرد في العَهد العُثماني - الصَّفَوي

قبل البحث في أوضاع كُردستان خلال الحكم العثماني (السُّنّي) والحكم الصَّفَوي (الشِّيعي)، دعونا نلقِ نظرة سريعة على البدايات التاريخية لكلٍّ من هاتين الدولتين.

من هم العثمانيون؟

تنحدر قبيلة قايي من فرع الغُزّ (أُوغوز) التركمانية، وانتقلت هذه القبيلة من بَلْخ في خراسان (شمالي أفغانستان) إلى الأناضول بزعامة أَرْطُغْرُل في عهد السلطان السَّلجوقي علاء الدين بن كَيْقُباد الأول (١٢١٩-١٢٣٧ م)، وكان عددها أربعمئة

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٦، ١٢٨.
(٢) المرجع السابق، ص٣٩٨.
(٣) المرجع السابق، ص٣٦.

خيمة (أسرة)، وطلبت منه السماح لها بالاستيطان في قَرَه جَه طاغ الواقعة بين قَرَه حَصار وبَيلَه جِك، فسمح له بذلك. ونتيجةً للدعم الذي قدّمته هذه القبيلة للسلطان السلجوقي ضد البيزنطيين حاز زعيمها عثمان بن أَرْطُغْرُل على لقب بَگ «أمير» إثر استيلائه على قَرَه حَصار، وهكذا ولدت الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على الحدود البيزنطية.[1]

وفي سنة ١٣٢٦ م توفّي الأمير عثمان وانتقلت السلطة إلى ابنه أُورْخان، ففتح مناطق جديدة، واستولى على مدينة بُورْصَه واتخذها عاصمة لإمارته، وبنصيحة من قاضي العسكر چَنْدَرْلي قَرَه خليل أسّس الجيشَ الإنكشاري (يني شاري = النظام الجديد)، وهو نمط من المماليك يقوم على أخذ صغار الأسرى من البلاد المغلوبة وتربيتهم تربية عسكرية دينية، ليحترفوا الحرب والجهاد، وفتحت الدولة العثمانية كثيرًا من البلاد بهذه القوات الجديدة.

سار مراد الأول سيرة والده أُورخان في توسيع رقعة دولته. فضمّ إليها أنقرة عاصمة القَرَه مان، ونهج بايزيد الأول نهج والده مراد الأول، فضمّ مناطق من بلاد البيزنطيين، ودحر حكام الدويلات المنتشرة في الأناضول، وحصل من الخليفة العباسي في مصر على تفويض بحكم الأناضول وعلى لقب «سلطان الروم». وحين تسلّم السلطانُ محمد الفاتح الحكم سنة ١٤٥١م كانت معظم مناطق الأناضول تخضع للحكم العثماني، وفي سنة ١٤٥٣م تكلّلت جهوده في التوسّع بالاستيلاء على قُسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.[2]

كان معظم المشرق العربي آنذاك واقعًا تحت السيادة المملوكية، وكي يرسّخ العثمانيون دعائم سلطتهم كان عليهم مواجهة المماليك في الغرب (الشام ومصر) ومواجهة الصَّفويين في الشرق (إيران وأذربيجان). وقد تسلّم السلطانُ سليم الأول عرشَ السلطنة سنة ١٥١٢م، واستطاع تحقيق النصر على الشاه إسماعيل الصَّفوي سنة ١٥١٤م في معركة «چَلْديران»، واحتل عاصمته تِبريز، كما أنه انتصر على المماليك في معركة «مرج دابِق» بشمالي سوريا سنة ١٥١٦م، وانتصر عليهم أيضًا

---

(١) يِلْماز أُوزْتونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ١/ ٨٨.

(٢) عبّاس إسماعيل صبّاغ: **تاريخ العلاقات العثمانية - الإيرانية**، ص٢٧-٣٣.

في معركة الرَّيْدانية بمصر سنة ١٥١٧م، وأصبحت الشام ومصر تابعتين للدولة العثمانية، ودانت لهم بالولاء كلٌّ من الحجاز واليمن. وفي عهد السلطان سليمان القانوني، الذي خلف أباه سنة ١٥٢٠م، بسط العثمانيون نفوذهم على كافة أراضي العراق سنة ١٥٣٤م.[١]

من هم الصَّفَويون؟

شمل نفوذ الدولة الصفوية فارس وأفغانستان وبُلوشِسْتان، إضافةً إلى أَذربيجان وخُوزِستان وشرقي كُردستان. والجدّ الأعلى للشاه إسماعيل الصفوي هو الشيخ صفيّ الدين إسحاق الأَرْدَبِيلي (١٢٥٣-١٣٣٤م)، وهو منسوب إلى موسى الكاظم، سابع الأئمة عند الشيعة الإمامية، وصفيّ الدين أول شيوخ الطريقة الصفوية، وكان سنّيًا شافعي المذهب.

وقد أورد الباحث الكردي مِهْرداد إيزادي معلومة استمدها من كتاب بالفارسية لابن البَزّاز الأَرْدَبِيلي عنوانه **صَفْوة الصَّفاء في مناقب الشيخ صَفِيّ الدين**، وكتب **مِهْرداد** ما يلي: «ذكر ابن البَزّاز أن بِيرُوز شاه زَرِّينْ كُولاَه *Piroz Shah Zarrin Kullah*، جدّ الشيخ صفيّ الدين، كان كرديًا، وقد هاجر مع عشيرة كردية كبيرة من منطقة سِنجار في سوريا الحديثة خلال القرن العاشر الميلادي، وكانت العشيرة دِمِلية *Dimila* على الغالب، واستقرت في المنطقة الجبلية الواقعة جنوب غربي بحر قَزوين، قرب أَرْدَبيل. . . وعاش صفيّ الدين حياة تقية في أَرْدَبِيل، وكان سُنّيًا شافعي المذهب، مثل معظم الكرد إلى الآن، والأبيات القليلة الباقية من شعره أقرب إلى اللهجة الدِّمِلية (الدُنْبُلية) منها إلى اللهجة الكُرْمانجية».[٢]

وذكر مترجما كتاب **مذكّرات مأمون بَگ بن بَيگه بَگ**، الأستاذان محمد جميل رُوژْبِياني وشكور مصطفى، أنّ الشيخ صفي الدين الأردبيلي كان صوفيًا ورعًا من قرية سَنْجان الكردية، صاهر الشيخَ زاهد الگَيلاني الكردي، ولا نعتقد أنّ هؤلاء الباحثين الثلاثة يرمون الكلام كيفما كان، ولا بدّ أنهم استقوا هذه المعلومات من

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥-٣٦.

(٢) Mehrdad Izay: *the Kurds*, p. 50.

مصادر معيّنة، ومع ذلك فالأمر بحاجة - فيما نرى- إلى مزيد من التحقيق والتوثيق.[١]

وفي عهد الشيخ علاء الدين علي (١٣٩٢-١٤٤٨م) حدث الاجتياح التَّيْموري للعالم الإسلامي، وكان تَيْمُورلَنْك شيعيّ الهوى، وقد حاز الشيخ علاء الدين على ثقته، وإكرامًا له أفرج تَيْمُورلَنْك عن ثلاثين ألفًا من التركمان الذين كان قد أسرهم في حروبه ضد السلطان العثماني بايزيد الأول ووهبهم للشيخ، وصار هؤلاء وأبناؤهم وأحفادهم فيما بعد من أبرز مريدي الأسرة الصفوية، وقوام جيشها.[٢]

وفي عهد الشيخ حَيدر (١٤٦٠-١٤٨٨م) ابن الشيخ جنَيْد انتقلت الطريقة الصفوية من الطور الديني إلى الطور العسكري؛ إذ نظّم هذا الشيخ مريديه تنظيمًا عسكريًا جيدًا، وتخلّى عن المذهب السُّنّي واعتنق المذهب الشيعي، واختار لأنصاره لباسًا خاصًا يتميّز بقلنسوة حمراء ذات اثنتي عشرة شقّة (تيمّنًا بالأئمة الاثني عشر)، لذلك عُرف الصفويون عند العثمانيين بأصحاب الرؤوس الحمر (قِزِلْ باش).[٣]

والشاه إسماعيل (١٥٠١-١٥٢٤م) هو ابن الشيخ حيدر، وهو مؤسس الدولة الصفوية، وقد ساعده زعماء القبائل التركمانية الشيعية في حروبه ضد القبائل التركمانية السُّنّية المذهب، وتوّجوه شاهًا، وكانت القوة التي رافقته في حروبه تتألف على الغالب من القبائل التركمانية، ومن أبرز تلك القبائل: رُومْلو، شامْلو، استاجْلو، تَكَه لُو، ذُلْقادر، قاجار، أَفْشار، ومن أفشار برز نادر شاه حاكم إيران بين سنتي ١٧٣٦-١٧٤٧م.[٤]

كُردستان بين العُثمانيين والصَّفَويين:

كانت كُردستان ميدانًا للصراع الرئيسي بين الصفويين والعثمانيين، وقد لاقت من الأهوال في هذا العهد ما لا يقلّ قسوة عن الأهوال التي لاقتها خلال الغزو

---

(١) انظر مأمون بك بن بيگه بك: **مذكرات مأمون بگ بن بيگه بگ**، ص١٩، هامش٩.

(٢) عبّاس إسماعيل صبّاغ: **تاريخ العلاقات العثمانية-الإيرانية**، ص٤٠-٤١. Mehrdad Izady: *The Kurds*, p. 50.

(٣) عبّاس إسماعيل صبّاغ: **تاريخ العلاقات العثمانية-الإيرانية**، ص٤١.

(٤) المرجع السابق، ص٤٢-٤٤.

المغولي والتَّيموري، والمشكلة أنّ كلاً من العثمانيين والصفويين كانوا يعتبرون السيطرةَ على كردستان، أرضًا وشعبًا، من الأمور الإستراتيجية والمصيرية التي لا يمكن التفريط فيها، لذلك كان كلّ فريق يستميت لإدخالها في دائرة نفوذه. ولا ننسى في الوقت نفسه أنّ الصراع العثماني- الصفوي كان اقتصاديًا إلى جانب كونه مذهبيًا وجغرافيًا، وكانت كردستان مهمّة بالنسبة إليهم؛ لأنّ أجزاء من طريق الحرير العالمي كان يمرّ بها، وكان الطريق البرّي القادم من حدود الصين شرقًا يتفرّع في قزوين إلى فرعين:

● **الفرع الأول**: يذهب إلى مدينة هَمَذان باتجاه جنوب غرب، وإلى مدينة أَسَدآباد الواقعة على المنحدر الغربي لجبل رَوَنْد، ومن أسدآباد يتجه الطريق إلى مدينة كِرْمَنشاه، ليهبط منها إلى حُلْوان فبغداد؛ وهذا يعني أنّ الطريق كان يخترق إقليم كُردستان الفاصل بين المنطقة العربية العراقية والمنطقة الإيرانية.[١]

● **الفرع الثاني**: كان يساير بحيرة وان من جهة الشمال، ليصل إلى خِلاط، ومن خِلاط كان ثمة فرع يذهب إلى بَدْليس، ومنها إلى ديار بكر (آمد) الواقعة على نهر دجلة الذي يصلها بالموصل وبغداد، ومن ديار بكر يهبط الطريق باتجاه جنوب غرب ليصل إلى الرُّها (أُورْفا)، ومن الرُّها يسير إلى عَيْنتاب، ومن ثم يذهب فرع إلى أنطاكيا وآخر إلى إزْمير.[٢]

ونعرض فيما يأتي أبرز الأحداث التي جرت في كردستان حينذاك:

في سنة ١٥٠٦م غادرت القوات الصفوية مدينة تِبْريز واتجهت إلى كُردستان التي تفصل الهضبة الإيرانية عن العراق العربي والأناضول، في محاولة للاستيلاء عليها، لكنّ تلك المحاولة باءت بالفشل لوقوف الزعيم الكردي صارم بن سيف الدين المُوكَري في وجهها، على أنّ تلك الحملة أفلحت في إخضاع عدد من أمراء كردستان طَوعًا أو كَرهًا للنفوذ الصفوي.[٣]

وفي سنة ١٥٠٧م هاجم الشاه إسماعيل الصفوي حكومة آقْ قُويُونْلو (الخروف

(١) المرجع السابق، ص٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص٥٧-٥٨.
(٣) المرجع السابق، ص٤٦-٤٧.

الأبيض) في مَرْعَش وأَلْبُستان، ودخل بقواته مدينة ديار بكر فاتحًا، ثم غادرها بعد أن عيّن محمد خان استاجْلو نائبًا عنه فيها.[1]

وفي سنة ١٥١٤م كانت چَلْدَيران الواقعة في شمال شرقي كردستان ميدانًا للمعركة الشهيرة التي دارت بين الدولتين الصفوية والعثمانية، وانتصر فيها السلطان سليم الأول العثماني على الشاه عبّاس الصفوي انتصارًا ساحقًا، ودخل عاصمته تِبريز، ولم يكن السلاح الناري الذي استخدمه العثمانيون -لا سيّما المدافع- هو وحده الذي حسم المعركة لصالحهم، وإنما كان انضمام أمراء الكرد السُنّيين إلى الصف العثماني من العوامل الحاسمة أيضًا لانتصار سليم الأول.[2]

وفي سنة ١٥١٥م ندب السلطانُ سليم الأول الزعيمَ الديني الكردي الشيخ إدريس بَدْليسي لإثارة الأمراء الكرد ورؤساء العشائر وحكّام المقاطعات ضد الشاه إسماعيل الصفوي، وحصل هذا الشيخ على ولاء ثلاثة وعشرين أميرًا كرديًا للسلطان العثماني في ديار بكر وماردين والموصل وسِنْجار وحِصن كَيْفا والعمادية وجزيرة ابن عُمَر، ووافق هؤلاء على ضمّ مناطقهم إلى الدولة العثمانية بما يشبه الاتحاد الفيدرالي في عصرنا هذا، وقد نصّت المعاهدة بين الكَرد والعثمانيين على ما يلي:

١. تحتفظ كافة الإمارات الكردية الموقّعة على المعاهدة باستقلالها التام.

٢. تستمرّ وراثة الإمارة من الأب إلى الابن، أو تنظّم وفق أعراف القبيلة، ويعترف السلطان بالوريث الشرعي بفَرْمان خاص.

٣. يساهم الكرد في الحروب التي توكل إليهم من قبل السلطنة.

٤. تقوم السلطنة بمساعدة الكرد ضد كلّ عدوان خارجي.

٥. يساهم الكرد بتقديم الهدايا للسلطنة بشكل مصاريف فعلية.

وهذا يعني أنّ النفوذ العثماني بات من الناحية الإستراتيجية ممتدًا إلى معظم أجزاء مناطق جنوبي كُردستان وشماليها، وكان ذلك تمهيدًا لبسط النفوذ العثماني على بلاد الشام وعلى مصر من بعد. وبالسيطرة على كردستان وضعت الدولة

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧.

(٢) يِلْماز أوزْتونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ١/ ٢١٩. عبد الرحمن قاسِمْلو: **كردستان إيران**، ص٤٥.

العثمانية يدها على كثير من الموارد الاقتصادية، فديار بكر الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة كانت محطة إستراتيجية لطرق المواصلات الدولية آنذاك، إضافةً إلى أنّ مناطق كردستان كانت غنية بالمزروعات والجلود والأنسجة والنحاسيات والفخاريات، وكان دَخْل ديار بكر سنة ١٥٢٨م مثلاً يتساوى مع مجموع الدخل الذي كانت تحصل عليه الدولة من جميع ولاياتها في البلقان؛ إذ قُدّر بخمسة وعشرين مليون آقْجَة عثمانية.(١)

بعد أن فتح السلطان سليمان القانوني (١٥٣٠-١٥٦٦م) العراق نجح في إخضاع كافة الإمارات الكردية للنفوذ العثماني، وأهمها:

١ - الإمارة الأَرْدَلانية في شَهْرَزُور: يقع إقليم شهرزور غربي سلسلة جبال هاوْرامان (أَوْرامان = حُلْوان)، وحدُّه الشمالي نهر دِيالَى، ويمتد في الجنوب الغربي حتى ممرّ دَرْبَنْدِخان، وتحدّه من الغرب منطقة سُليمانية. وكلّف السلطان قائده حسين باشا بمهمة ضمّ إقليم شَهْرزور، فاصطدم هذا القائد بحاكم شهرزور مأمون بَگ من أسرة أَرْدَلان، وساقه أسيرًا إلى إستانبول، وعلى الرغم من بعض المقاومة تمكّن السلطان العثماني من ضمّ شَهْرزور إلى الولايات العثمانية في سنة ١٥٦١م.

٢ - الإمارة الصُّورانية في راوَنْدُوز: تقع راوندوز على جانب نهر الزاب الكبير (الأعلى) في جنوبي كردستان، وترجع أهميتها إلى صلتها بالطرق الرئيسة في كردستان.

٣ - الإمارة البابانية في سُليمانية: تقع سليمانية في جنوبي كردستان، بين نهر دِيالَى وتخوم كركوك والزاب الصغير، وقد أسند السلطان العثماني حكمها إلى الأمير الباباني بُوداق بن سليمان.

٤ - الإمارة البهادينية في عِمادية: تقع عِمادية (آمادي) في شمال شرقي الموصل، وأهم قلاعها: عَقْرَة ودُهوك وعمراني.

إضافةً إلى هذا دان كثير من حكّام الكرد بالولاء للدولة العثمانية، ومنهم حكام صاصون في نواحي أرمينيا وحكام دَرْتَنك (زَهاو) وحكام ماهِي دَشْت وحكام

---

(١) محمد سُهيل طَقّوش: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، ص٧٨-٧٩. و آقجة: وحدة نقدية أساسية في العهد العثماني.

كُورْكَيل في جبل جُودي وحكام هَكّاري وحكام حِصن كَيْفا الأيوبيون وحكام باكو وحكام خَيْزان وحكام مُكْس وحكام باطْمان وحكام ميّافارقين.[(١)]

ودان بعض الحكام الكرد بالولاء للعثمانيين تارةً وللصفويين أخرى، ومن هؤلاء حكام بازُوكي في مناطق أَرْجِيش وعادِلْجَواز وألشگرد وحكام دُنْبُلي في سكمان آباد وحكام بدليس، ودان حكام كرد آخرون بالولاء للصفويين، وعلى رأسهم حكام سِنَنْدَج وحكام مُوكَري وأمراء منصوري في سلطانية وزَنْجان وحكام كَلْهُور وحكام اللُّور الصغير في خُرَّم آباد وحكام بِرادُوسْت وحكام تَرْكُور وحكام كاباغي وحكام زَنْكَنه.[(٢)]

وبتدقيق النظر في الصراع العثماني- الصفوي يتّضح أنّ جغرافية كُردستان وقواتها كانت تشكّل عنصرًا فاعلاً في حسم ذاك الصراع لصالح هذا الطرف أو ذاك، وقد مرّ قبل قليل دور الكرد في انتصار العثمانيين بچَلْدَيران، ونذكر -على سبيل المثال أيضًا- أنه في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) تمكّن الشاه الصفوي عباس الأول من امتلاك العراق سنة ١٦٢٤م، فاستعان والي ديار بكر العثماني أحمد باشا بكرد مَرْعَش وسِيواس والموصل وكركوك وعِمادية لاسترداد العراق، وما كان من الشاه عباس إلاّ أن استعان بقوات كردية من لُورستان وأَرْدَلان، الأمر الذي أربك أحمد باشا وأضعف موقفه وأحبط خطته.[(٣)]

معاهدة (١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م) وتقسيم كُردستان:

علمنا فيما سبق أنّ معظم الكرد وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية السُّنية في صراعها المرير ضد الدولة الصفوية الشيعية، وأنهم ساهموا في تحقيق انتصارات العثمانيين الكبرى على الجبهة الشرقية، ونتيجة لذلك اكتفى السلاطين العثمانيون بالسيادة الاسمية على كردستان، وبقي النفوذ العثماني نوعًا من الشكليات المقتصرة على إصدار الفرمانات (المراسيم) بتسمية الأمراء والحكام الكرد، وتوزيع النَّياشين

---

(١) المرجع السابق، ص١٣-١٣٧.
(٢) المرجع السابق، ص١٣-١٣٩.
(٣) المرجع السابق، ص١٤٧.

والألقاب عليهم، لقاء تلقّي الدعم الكردي من المال والجنود في الحروب العثمانية المتلاحقة.[١]

وذكر شَرَف خان بَدْليسي أنّ الإمارات الكردية في العهد العثماني كانت تتمتّع بالحكم الذاتي، فالضفة اليسرى من نهر الفرات الغربي، وجميع مناطق الضفة الشرقية من نهر مُراد صُو (أحد فرعي الفرات)، كانت تحت حكم الإمارات الكردية، وكان الأمراء الكرد يقدّمون الطاعة والهدايا إلى السلطان، ويقدّمون الجيوش الاحتياطية للدولة.[٢]

وفي سنة ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م اتفق السلطان العثماني مراد الرابع والشاه الصفوي عباس الثاني على رسم الحدود بين الدولتين العثمانية والصفوية، ووقّعت الدولتان معاهدة عرفت باسم «معاهدة تنظيم الحدود» تقاسمتا فيها كردستان، وبموجبها أصبحت الأجزاء الشرقية من كردستان تابعة لإيران، وغدت الأجزاء الشمالية والغربية والجنوبية تابعة للدولة العثمانية، وعُزّزت تلك المعاهدة بمعاهدة أَرْضَرُوم الثانية سنة ١٨٤٧م، ثم باتفاقية تخطيط الحدود سنة ١٩١٣م، ثم بمعاهدة لُوزان سنة ١٩٢٣م، وأخيرًا بصكّ الانتداب البريطاني على العراق.[٣]

وفي عهد السلطان محمود الثاني، وحوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ألغت الدولة العثمانية استقلالية الأمراء الكرد، وقضت على الإمارات الكردية المستقلة، وفرضت الحكم العثماني المباشر على المناطق الكردية التابعة لها.[٤]

وبعد القضاء على الاستقلال النسبي للكرد، وتجريد المجتمع الكردي من قياداته الوطنية، استغل العثمانيون القوة البشرية والاقتصادية الكردية كما يحلو لهم، سواء أكان ذلك في حروبهم الخارجية أم في قمع الانتفاضات الداخلية، وظهر هذا الاستغلال بدرجة كبيرة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني؛ فقد كانت الألوية الحميدية المشهورة باسم «حميدية آلايْلَري» تضم الشراكسة والألبان وحوالي عشرة

---

(١) منذر الموصلّي: **عرب وأكراد**، ص١٧٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٧٦-١٧٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٧٩.
(٤) المرجع السابق، ص١٩٦-١٩٧.

آلاف من فرسان الكرد، واستخدمت الدولة هذه الفرق للتنكيل بالأرمن والتضييق على غيرهم من المسيحيين، إضافةً إلى التنكيل بالكرد أنفسهم في شرقي الدولة.(١)

وساهمت شخصيات كردية كثيرة في الإدارة العثمانية، منها:

- إبراهيم باشا: أصله من مدينة مَلَطْيَة، انخرط في سلك الانكشارية سنة ١١٥٨هـ، ثم أصبح محافظ بِلْغِراد سنة ١١٦١هـ.
- إسماعيل حَقّي باشا: كان حقوقيًا بارعًا، تولّى منصب وزارة المعارف (ت ١٣٢٩هـ).
- حَجّو باشا: من مواليد وان، وقائد من الطراز الأول، كان الساعد الأيمن لمحمد علي باشا والي مصر، وساعده في القضاء على المماليك، وفي أثناء الحملة الفرنسية على مصر كان حَجّو باشا يهاجم الفرنسيين كالصاعقة، فأطلق عليه محمد علي لقب يِلْدِيرِم حجَو «حجّو الصاعقة».(٢)

أما على الجانب الإيراني- الصفوي فبرزت شخصية كريم خان زَنْد (ت ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م)، وهو زعيم قبيلة زَنْد الكردية، وسنتناول سيرته في الفصل التالي.

٥- أبرزُ ثورات الكُرد في العَهد العُثماني-الصَّفوي

كانت الانتفاضات والثورات الكردية، بدءًا من العهد الأُمَوي وانتهاء إلى بداية القرن الثامن عشر الميلادي، مُواكبةً بشكل عام لانتفاضات وثورات شعوب الشرق الأوسط الأخرى، فقد شارك الكرد في بعض ثورات الخوارج على الأُمويين والعبّاسيين، ووقفوا إلى جانب بعض الأئمة من أهل البيت حين أعلنوا الثورة على الخلفاء في دمشق وبغداد، وكان لهم أثر فعّال في انتصار العباسيين على الأمويين، كما أنهم ثاروا أحيانًا على البُوَيْهيين الفرس والحَمْدانيين العرب والسَّلاجقة الترك، ولم ينفردوا بهذه المواقف، وإنما كان شأنهم في ذلك شأن العرب والفرس.

أما في العهد العثماني- الصَّفَوي، وبدءًا من أوائل القرن التاسع عشر

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) عبد الكريم شاهين: تراجم أعلام الكرد، ص٤، ٥، ١٤، ٢٥.

الميلادي، فاختلفت المعطيات السياسية، واتخذت الانتفاضات والثورات الكردية منحىً أكثر التصاقًا بالشعور القومي، وفي البدايات لم يكن ذلك سعيًا لتكوين دولة كردية على أساس قومي، كالدول القومية الشرق أوسطية في القرن العشرين، وإنما كان سعيًا عفويًا إلى الخلاص من هيمنة الجار الشرقي الفارسي والجار الغربي التركي من ناحية، وكان من ناحية أخرى ردَّ فِعل إزاء انحياز الدولة الصَّفَوية للعنصر الفارسي تحت مظلة الإسلام الشيعي، وانحياز الدولة العثمانية للعنصر التركي باسم الدفاع عن الإسلام السُّنّي.

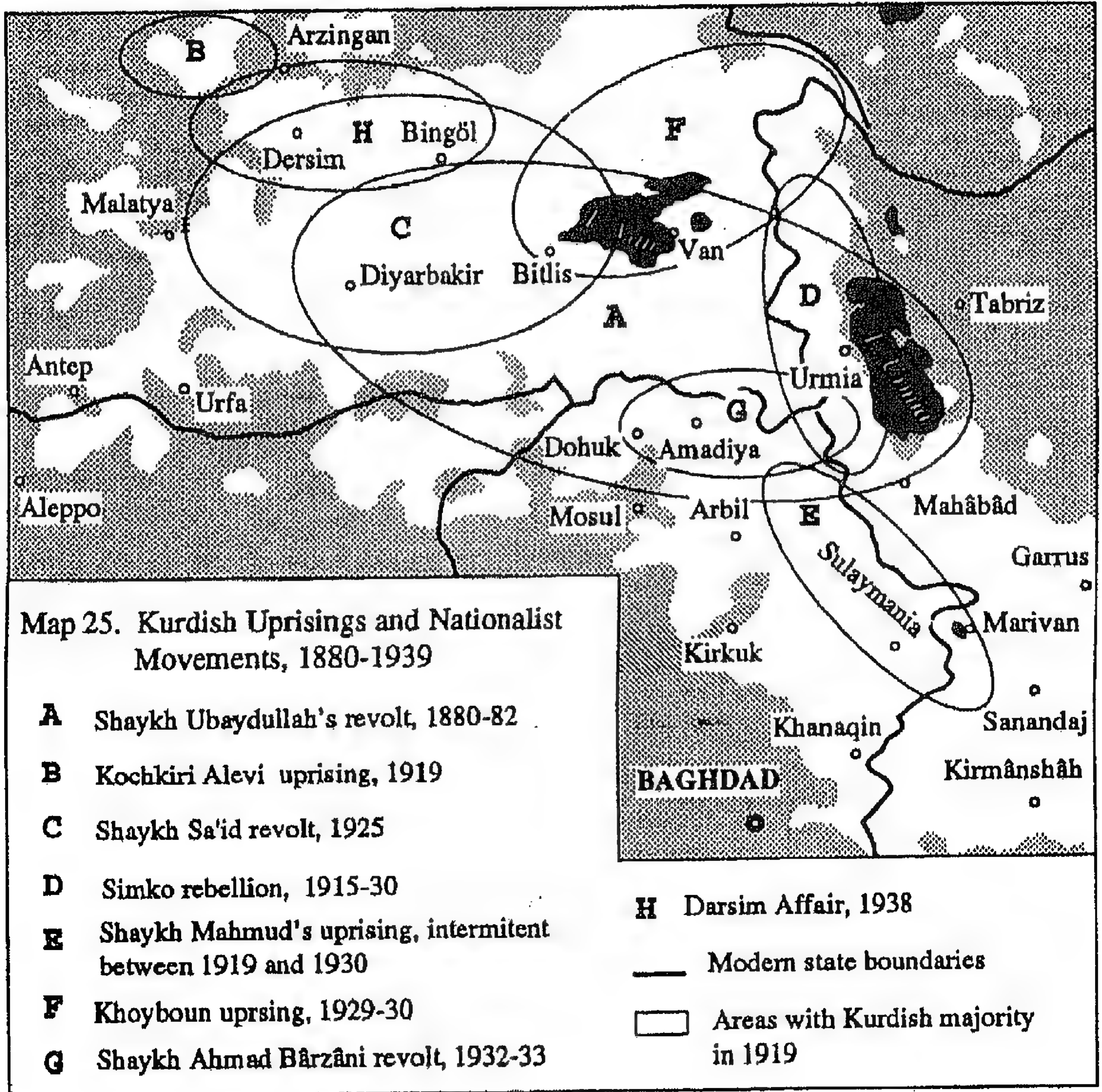
وجدير بالذكر أنّ الثورات الكردية استمرت ضد دولة إيران وريثة الصَّفَويين، وضد دولة تركيا وريثة العثمانيين، طوال القرن العشرين، وما زالت مستمرة إلى يومنا هذا، ونتناول فيما يلي، وبإيجاز شديد، أبرز ثورات الكرد على الصفويين والعثمانيين.

١ - ثورة أَرْدَلان (١٥٣٨ م):

تقع أَرْدَلان في جنوب غربي إيران، وتقع فيها اليوم مدينة كِرْمَنْشاه (قَرْمِيسِين) ومدينة سِنَنْدَج، وهي تقع في صميم المنطقة التي عرفت في العهد الإسلامي الأول ببلاد الجبل (إقليم الجبال)، وفي سنة ١٥٣٨م ثار أميرها الكردي سلطان حسين على الحكم العثماني، واعترف بسلطة الشاه الإيراني، فسارعت إستانبول إلى تجريد حملة عسكرية ضده، وقضت على ثورته، وثار سلطان حسين مرة أخرى سنة ١٥٤٩م، فوجّهت إليه الدولة العثمانية حملة أضخم من الأولى، وساعدتهم الإمارات الكردية الأخرى، فباءت ثورته بالفشل مرة أخرى.[1] (انظر خريطة الثورات الكردية)

---

(١) منذر الموصلي: **عرب وأكراد**، ص١٨١. عباس إبراهيم صباغ: **تاريخ العلاقات العثمانية-الإيرانية**، ص١٩٤.



الثورات الكردية

٢ - ثورة عبد الرحمن باشا الباباني (١٨٠٤-١٨١٣م):

ينتمي الأمير عبد الرحمن إلى عشيرة بابان الكردية العريقة، ويقع موطنها في منطقة سُليمانية بجنوبي كُردستان، وقد تولّى الإمارة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وثار ضد الحكم العثماني أكثر من مرة بين عامي ١٨٠٤-١٨١٣م، وفي النهاية تعاونت السلطات الإيرانية والعثمانية معًا للقضاء على ثورته.[١]

(١) منذر الموصلي: عرب وأكراد، ص١٩١.

٣ - ثورة كُور أحمد باشا راوَنْدُوز (١٨٣٦م):

كور أحمد باشا يُلقّب بأمير كُور (الأمير الأعمى)؛ إذ كانت عينه اليسرى عوراء أو عمياء، وهو من أمراء الأيزديين في راوَنْدُوز، تلك المقاطعة الجبلية الواقعة بين الزاب الكبير والحدود الفارسية، وينحدر كُور أحمد باشا من عشيرة راوَنْدي (رَوادي = رُوآدي)، وقد ورث السلطة من أجداده الذين احتفظوا بها من عهد صلاح الدين الأيوبي، وكانت سلطته تمتد من نهر دجلة غربًا إلى أُشْنُو (أُشْنُه) شرقًا (في طرف أذربيجان من جهة إربيل)، وكان قد ألحق القلاعَ الكردية في عِمادية وزاخو بالمناطق التابعة لنفوذه.

كان كُور أحمد يزوّد قواته من قبائل صُوران وشِكاك وهارْتُوشي؛ ولهذا السبب كان في خصومة مع أمراء بابان في الجنوب ومع البدرخانيين في الغرب، ولم يكن يعترف بسلطة غير سلطته هو، وكان مضرب المثل لرجاله في استعمال القوس، وقد هاجمته القوات العثمانية سنة ١٨٣٦م، لكنها لم تتمكّن من الوصول إليه في قلعته الحصينة الرابضة على قمة شاهقة.

نتيجةً لذلك أمرت الدولة العثمانية كُلاً من باشا بغداد وباشا وان بإرسال فرق نظامية وفرق الباش بُوزُوق الجبلية المشهورة بالوحشية(١)، ليدمّروا قلعة كُور أحمد، وصمد الأمير الكردي للهجوم العثماني، لكنّ انقطاع إمدادات المياه اضطره إلى الاستسلام شريطة أن يُعامَل معاملة لائقة، فنفي إلى إستانبول مع أفراد عائلته وزعماء عشيرته، ومع ذلك استمر هجوم الجيش العثماني على الكرد في منحدرات ساسُون- مُوتْكان، وفي الأجزاء الرئيسة من الجبال العالية والأودية الضيقة في منطقة بَدْليس، وأبدت قبيلة «بادِيكان» مقاومة فائقة ضد الجيش العثماني.(٢)

---

(١) باش بوزوق لفظة تركية مؤلفة من باش «رأس» وبوزوق «مختلّ، غير متوازن»، كانت فرقة الباش بوزوق غير منتظمة، مستقلة في إرادتها، مؤلفة من عناصر تميل بطبعها إلى الشغب والفوضى، وكان معظمهم من المرتزقة الألبان والكرد والشركس. انظر نوفل نعمة الله: **كشف اللثام**، ص٢٣٤ ، هامش٩.

(٢) Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, p. 52.

٤ - ثورة بَدْرخان بَگ سنة (١٨٤٢-١٨٤٧م):

في قلعة بلدة دَرْ كُلْ *Der gul* (بوّابة الأزهار) على سفح جبل جُودي، وعلى بعد ثمانية عشر ميلاً شرقي جزيرة ابن عُمر (جزيرة بُوتان)، كان يقيم بَدْرخان بَگ، وكانت القلعة محاطة بحراسة محاربين أيزديين ومن قبائل كردية أخرى، وكان بدرخان بگ يفخر بأنه «رجل الكلمة الواحدة»؛ أي إنه يفعل ما يقول، وكان يحرص على التزام هذا المبدأ.

كان بدرخان بگ دقيقًا في تنفيذ عباداته الدينية، وكان يقضي وقتًا طويلاً في العبادة، وقد امتدت سلطته من الحدود الفارسية شرقًا إلى أقاصي بلاد ما بين النهرين غربًا، ومن بوّابات ديار بكر (آمَد) إلى بوّابات الموصل، وذاعت شهرته، وكان جميع زعماء قبائل شمالي كُردستان تقريبًا يقدّمون له الاحترام، وما كان المذنبون يجدون ملجأ تحت سقف حكومة بدرخان بگ، وقضى على الرشوة والتحيّز والمحسوبية، وكانت اليد اليمنى للصّ تُقطَع حالما تثبت إدانته، ولذا ساد الأمن في تلك الأنحاء من كردستان، رغم أنها كانت مشهورة بالفوضى قبل ذلك.

وقد عبّر بَدْرخان بگ عن نواياه الثورية ضد الدولة العثمانية حينما رفض الاستجابة لطلبها بإرسال فرق عشائرية للقتال ضد الروس سنة ١٨٢٨-١٨٢٩م، وكان يعمل خلال ذلك بدأب لأجل مشروعه في تأسيس كردستان مستقلة، وقد تعلّم من سقوط القلاع الكردية أمام الهجمات العثمانية في الثورات السابقة، وما لقيته النساءُ الكرديات وأطفالهن من معاملة وحشية على أيدي الجند العثماني، أنّ من العبث خوضَ الصراع ضد العثمانيين بشكل منفرد.

بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بالجيش العثماني في معركة نِزيب عام ١٨٣٩م على أيدي الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا، اعتلى السلطان عبد المجيد العرش العثماني، وبشّر بعهد من الإصلاحات، وكان من جملتها ما يدعى بـ«تنظيمات» *Tanzimat*، وأدرك الزعماء الكرد أنّ هذه الإصلاحات ما هي إلا قناع لطمس هويتهم القومية، وسلبهم كل امتيازاتهم الموروثة؛ والحقيقة أنّ المتسلّطين على رقاب الشعب الكردي كانوا حريصين، في كل العصور، على ضرب القيادات الكردية والخلاص منها، سواء أكانت تلك القيادات قَبَلية أم إقطاعية أم دينية أم

سياسية، كي يبقى الكرد جسداً بلا رأس، وعندئذٍ يسهل على المتسلّطين تمزيق الكرد، وطنًا وشعبًا وثقافة، كما يشاؤون.

وكان موضوع الخدمة العسكرية العامل الرئيسي الذي حشد الكرد تحت قيادة بدرخان بگ، وجاءت الضرائب الكبيرة التي فرضها العثمانيون، وسياسات تعيين حكام أتراك بدلاً من زعماء العشائر التقليديين، لتعزّز انضمام الكرد إلى صفوف بدرخان بگ، بل إنّ العشائر الكردية في جبال طوروس وفي الجنوب، والتي كان من المفترض أن تكون قد خضعت للسلطات العثمانية في سنوات ١٨٣٤-١٨٣٩م، رفضتْ تزويد الجيش العثماني بالجنود، كما رفضت دفع الضرائب. أما الشباب الكرد الخاضعون للخدمة العسكرية فقد فرّوا إلى الجبال، وشكّلوا عصابات مسلّحة، وانعدم الأمن من جبال أرارات (آغِري) *Agirî* شمالاً إلى بغداد جنوبًا.

إزاء هذا الوضع شنّت الدولة العثمانية حملة جديدة بقيادة عثمان باشا، واتّخذ هذا القائد مدينة ديار بكر (آمَد) مركزًا لقيادته، وفي سنة ١٨٤٤م دعا الزعماءَ الكرد للحضور إلى الاجتماع به في ديار بكر، لمناقشة طرق جباية الضرائب وكيفية تزويده بالجنود الكرد، غير أنّ بدرخان بگ لم يكترث لتلك الدعوة، وقام بدلاً من ذلك بجولة زار خلالها زعماء العشائر الكردية من جزيرة بُوتان إلى الشواطئ الجنوبية لبحيرة وان، وكان يُستقبَل في كلّ مكان باعتباره أمير كردستان، سواء من قبل الكرد أم من قبل السكان المسيحيين، ودعاهم جميعًا إلى الإسهام في خزانة الحرب ضد الدولة العثمانية، بل ألزمهم بذلك أحيانًا.

ورفع بطاركة الملل المسيحية الموالون للعثمانيين شكوى جماعية إلى الباب العالي ضد ممارسات بدرخان بگ، وأرسلوا الرسائل إلى المجامع الكنسية والقيادات المسيحية للثورة ضده ولدعم الجيش العثماني، إلاّ أنّ تلك النداءات لم تلقَ آذانًا صاغية عند الفلاحين المسيحيين الذين كانوا يقيمون في مناطق الكرد وبجوارها. وحشد عثمان باشا قوات كبيرة في ديار بكر جنوبًا، وفي وان شمالاً، وزحفت قواته على محور هَكّاري- مُوك (مُكْس) على طول ضفاف دجلة، لتشتيت قوات الزعيمين نُور الله ومحمود خان، شريكَي بدرخان بگ في الثورة، باتجاه مرتفعات بُوتان- بَرْواري، تمهيدًا لأن يهاجمها الجيش المتمركز جنوبًا في ديار بكر، وسعيًا إلى تطويق قوات بدرخان بگ.

بعد فترة من الحروب بين الطرفين توصّل الوسطاء بينهما إلى اتفاقية يستسلم بموجبها محمود خان، شريطة أن يُعامَل هو وعائلته بكرامة، وأقسم عثمان باشا أغلظ الأيمان على تنفيذ هذا الشرط، ولكنه سرعان ما تنكّر لوعوده، وسلّم محمود خان إلى العساكر الترك والباش بُوزوق، فربطوه إلى شجرة بطريقة شنيعة، وجلدوه، وبصقوا عليه، ثم سكبوا العسل على وجهه، لتجتمع الدبابير والذباب عليه، بينما كانت يداه مربوطتين، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل أعمل الجنود العثمانيون السلب والنهب في المنطقة، ولم يتورّعوا عن ذبح النساء والأطفال.

فور استسلام محمود خان حشد العثمانيون قواتهم في وادي بُوتان، بعد أن تلقّوا تعزيزات من الجنود والأسلحة، إضافةً إلى فرقة ألبانية متخصّصة في قتال الجبال، غير أنّ فرسان بدرخان بگ الخبيرين بكلِّ شبر في الجبال والوديان فاجأوا الفرق العثمانية بهجوم صاعق، وأبادوها، ومع هذا لم يحالف الحظ بدرخان بگ لسببين:

- الأول: وقوف الدول الكبرى في أوربا إلى جانب العثمانيين.
- الثاني: أنه في الوقت الذي كان بَدْرخان بگ يقترب من تحقيق النصر على العثمانيين خانه ابن أخيه، ويدعى يَزْدانْ شَير،[1] وكان قائد أحد أجنحة الجيش الكردي، وانضمّ إلى الجيش العثماني، وأصبح بدرخان بگ محاصرًا، وقُطعت عنه الإمدادات.

إزاء هذا الوضع الجديد اضطر بدرخان بگ إلى الاستسلام لعثمان باشا في آب/ أغسطس ١٨٤٧م، فعومل هو وعائلته على نحوٍ لائق، غير أنّ أنصاره من الزعماء القبليين طُعِنوا بالحراب على نحوٍ فظيع، ونفي بدرخان بگ وعائلته وأقرباؤه إلى استانبول، ثم إلى ڤارْنا (في غربي تركيا)، واحتُجز بعضهم في جزيرة كِريت. أما مناطق شمالي كردستان فتحوّل ثلاثة أرباعها إلى أنقاض وخرائب.[2]

٥- ثورة عثمان بگ وحسين بگ (١٨٧٨ م):

كان لسوء الأوضاع الاقتصادية وانتشار المجاعة في مناطق كُردستان أثر كبير في

---

(١) يعني «أسد يزدان»، ويزدان من أسماء الإله عند الكرد قبل الزردشتية.

(٢) المرجع السابق، ص٥٤-٦٠.

انتفاضة الكرد سنة ١٨٧٨م، ففي خريف هذه السنة شملت الاضطرابات مناطق وان ومُوش وبَدْليس، واتّسعت الحركة المعادية للعثمانيين على نطاق واسع في مناطق بُوتان (جزيرة ابن عُمَر) وهَكّاري، وأخذت الاضطرابات العفوية تكتسب طابعًا منظّمًا بقيادة ولدَي بدرخان بگ، عثمان بگ وحسين بگ، وكانا قبل ذلك ضابطين في قيادة الأركان في الجيش العثماني.

وأصبحت بُوتان مركز الانتفاضة، وانضمت إليها الفرق الكردية من بقية مناطق كردستان، وهاجم الثائرون جزيرة بُوتان، واستولوا على الذخيرة، وسيطروا بعدئذٍ على مدن جُولاميرگ وزاخو وعِمادية وماردين ونصيبين وغيرها. وأعلنت تلك المناطق استقلالها عن الدولة العثمانية، ونصب عثمان بگ نفسه أميرًا، وقُرئ اسمه في خطبة الجمعة بدلاً من اسم السلطان العثماني.

لكن الدولة العثمانية شنّت حملات عسكرية كبيرة على الثائرين، وعزلت مناطق الثورة عن المناطق الكردية الأخرى، لقطع الإمدادات عن الثوار، وتغلبت على قوات عثمان بگ وحسين بگ، كما لجأت في الوقت نفسه إلى الضرب على وتر الأخوّة الإسلامية، ووعد السلطانُ قادةَ الثورة بالحرية وبسيادتهم على الكرد، وأطلقت السلطات سراح السجناء من عائلة بدرخان بگ، فوافق قائدا الثورة على المفاوضات، وخدعت السلطات حسين بگ فاعتقلته، وأرسلته إلى استانبول، وقضي على الثورة، لكنها كانت مقدمة لنشوب ثورة أقوى وأوسع، هي ثورة ١٨٨٠م.(١)

٦ - ثورة الشيخ عُبَيْد الله نَهْري سنة ١٨٨٠م:

في هذه الثورة دخلت الحركة الكردية مرحلة جديدة من الكفاح المنظم ضد السيطرة العثمانية والصفوية معًا، وقامت السلالة الصوفية النَّقْشَبَنْدية بدور مهم في التحضير لهذه الثورة، وكان قائد هذه الثورة هو الشيخ عُبَيْد الله، الزعيم النقشبندي والشخصية البارزة بين الكرد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان هو نفسه من كبار الإقطاعيين الكرد آنذاك، وكان يعيش في مدينة شَمْدِينان الصغيرة بمنطقة هَكّاري.

---

(١) جليلَى جليل: **انتفاضة الأكراد عام ١٨٨٠**، ص٤٦-٤٨.

وقد شملت ثورة عُبيد الله منطقة واسعة من كردستان في إيران وتركيا، كما حرص قائد الثورة على الفوز بدعم الشعوب المجاورة للكرد، فأقام اتصالات مباشرة مع مار شَمْعون، الزعيم الديني للآشوريين، ومع شريف مكّة، وليس هذا فحسب، بل أقام اتصالات مع خُدَيوي مصر أيضًا، وأعلن العرب في ولاية بغداد، وعلى رأسهم فَرْحان پاشا، عن تأييدهم لقائد الثورة، وحسب الاتفاق كان على الفرق الكردية الاتحاد مع القوات العربية بعد استيلاء الكرد على الموصل.

بدأ الكرد ثورة ١٨٨٠م على شكل تمرد، وبدأت شرارات هذه الثورة سنة ١٨٧٩م في منطقة هَكّاري برفض دفع الضرائب للولاة العثمانيين، ولقيت تمرّدات هَكّاري قبولاً حسنًا عند كرد إيران، وكانت قبيلة شِكاك من أولى القبائل التي أيّدت التمرد، وعبر مقاتلوها الحدود، وانضموا إلى قوات الشيخ عُبيد الله.[1]

أدرك الشيخ عبيد الله أنّ منطقة هَكّاري وحدها غير قادرة على تحقيق النصر، فسعى لإشراك سائر المناطق الكردية في الثورة، وأرسل مبعوثيه إلى مناطق كُردستان داعيًا زعماء الكرد إلى المشاركة في النضال ضد الدولتين العثمانية والفارسية، كما سعى إلى إقامة اتحاد قبلي كردي موسّع لتوحيد القوى الكردية وتوظيفها في الثورة بفعّالية، وبما أنّ إستراتيجية الشيخ عُبيد الله قامت على الإفادة من الدعم الروسي وليس الدعم البريطاني، فقد عملت بريطانيا بقوة لإعاقة قيام ذلك الاتحاد، كما عملت للحؤول دون وقوف الآشوريين مع الكرد، وأفلحت في ذلك.

وفي نهاية تموز/ يوليو ١٨٨٠م عقد الكرد أول مؤتمر لهم في القرن التاسع عشر، وكان الهدف هو إنشاء اتحاد بين القبائل الكردية، وعُقد المؤتمر في شَمْدِينان، وحضره كثير من ممثلي القبائل الكردية، وأعلن فيه الشيخ عُبيد الله عن رأيه في ضرورة إنشاء كردستان مستقلة. واندلعت الثورة بقوة في شرقي كردستان.

وفي سنة ١٨٨١م وصل إلى مقرّ الشيخ عبيد الله ما يقارب خمسة آلاف عربي جاؤوا من ولايتي بغداد والموصل، وعبّروا عن استعدادهم للوقوف إلى جانب الشيخ في ثورته، وكانت للرابطة الصوفية النَّقْشَبَنْدية علاقة وثيقة بهذا التضامن؛ وبعد معارك ضارية خاضها الكرد في كردستان الشرقية ضد الجيش الإيراني، وفي

---

(١) المرجع السابق، ص٤٩-٥٥.

كردستان الشمالية ضد الجيش العثماني، انهارت الثورة، واعتقل الأتراكُ الشيخَ عبيد الله وابنَه عبد القادر، ونقلوهما إلى الموصل، ثم نفوهما بعدئذ إلى مكة.(١)

وقد انهارت الثورة لأسباب أهمها:

- الخلافات بين زعماء القبائل الكردية، وتخاذل بعض زعماء القبائل، بل انحيازهم إلى صفوف الجيش المعادي وقت نشوب المعارك.
- لجوء الفرس والعثمانيين إلى جميع أساليب البطش والدسيسة والمكر والخديعة والرشوة.
- الموقف العدائي الذي كانت تقفه بريطانيا من أية ثورة كردية، ومن ثورة الشيخ عبيد الله على نحو خاص.

وجملة القول أنّ القرن التاسع عشر بطوله كان قرن الانتفاضات والثورات في كردستان، وإذا كان النزوع المذهبي سهّل للعثمانيين السيطرة على كردستان، بمساعي الشيخ إدريس بدليسي، فإن النزوع الديني نفسه كان العامل المحرّض للثورة على الصفويين والعثمانيين معًا، حينما اتّضح للقيادات الكردية الدينية- الاجتماعية أنّ السلطات الفارسية والعثمانية تستخدم الدين والمذهب وسيلة لترسيخ المزيد من التبعية في المجتمع الكردي، وللاستمرار في تفريغ الذاكرة الكردية من الهوية القومية، ولتكريس المزيد من التسلط على الوطن الكردي وثرواته، ولم تكن الشعارات الدينية والمذهبية البرّاقة إلا وسائل لتخدير الوعي الكردي القومي، وإبقاء الكرد في قبضة السلطتين العثمانية والفارسية إلى الأبد.

(١) المرجع السابق، ص٥٦-٦٤.

الفَصْل السّابع

من الدُّوَل الكُرْدِيّة في التاريخ الإسلامي

مدخل: أبرز الدُّول والإمارات الكُردية

ذكر العلاّمة محمد أمين زكي في المجلّد الثاني من كتابه **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ج٢، ص٨٢، أربع عشرة دولة وإمارة كردية، بدءًا من القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري؛ أي على امتداد ألف سنة، وتلك الحكومات- بحسب التسلسل التاريخي لقيامها- هي:

١- الحكومة الرَّوادِيّة في أَذَربَيْجان (٢٣٠-٦١٨ هـ).

٢ - الحكومة السالارية في أذربيجان (٣٠٠-٤٢٠ هـ). وقد ذكر الدكتور جمال رشيد أحمد في كتابه **لقاء الأسلاف**، ص٢١٢، هامش٤٤، أنّ هذه الأسرة دَيْلَيمية الأصل؛ فهل يعدّ محمد أمين زكي الدَّيْلَم فرعًا من الكرد؟

٣ - الحكومة الحَسْنَوَيْهِية/ البَرْزَيكانية في هَمَذان (٣٣٠-٤٠٥ هـ).

٤ - الحكومة الشَّدّادِية في أَرّان (٣٤٠-٤٦٥ هـ)، وتتوزّع أرّان بين جمهوريات أذربيجان وأرمينيا وجورجيا، ومن مدنها نَخْجِوان، وتَفْليس، وقَرَه باغ.

٥ - الحكومة الدُّوسْتِكية، المشهورة في كتب التاريخ الإسلامي باسم «المروانية»، في شمالي كردستان بجنوب شرقي تركيا (٣٥٠-٤٧٨ هـ).

٦ - الحكومة العَنازِية في حُلْوان بجنوبي كردستان (٣٨٠-٤٤٦ هـ).

٧ - الحكومة الشَّبانْكارية في فارس (٤١٢-٦٥٨ هـ).

٨ - الحكومة اللُّورِية الكبرى في لورستان (٥٥٠-٨٢٧ هـ).

٩ - الحكومات الأيُّوبية في مصر والشام (٥٦٧-٩٥٠ هـ).

١٠ - الحكومة اللُّورِية الصغرى في لُورِستان (٥٧٠-١٢٥٠ هـ).
١١ - الحكومة الأَرْدَلانية في جنوب غربي إيران (٦١٧-١٢٨٤ هـ).
١٢ - الحكومة المَلَكية الكردية في خراسان (٦٤٣-٧٨٥ هـ).
١٣ - الحكومة الزَّنْدية في إيران (١١٦٧-١٢٠٢ هـ).
١٤ - الحكومة البِراخُوئية في بُلوشِسْتان (١١٧٢-١٣٠٠ هـ).

إضافةً إلى هذه الحكومات الكردية قامت في أرجاء كردستان إمارات كردية تتمتع بالاستقلال الذاتي، وهي:

١ - **إمارة حِصْن كَيْفا**: أسسها أحفاد صلاح الدين الأيوبي سنة ٧٣٦هـ في جهات سِعِرْد (سِرْت) بين ديار بكر وجزيرة ابن عُمَر (جزيرة بُوتان).

٢ - **إمارة سِليماني** (سِلِيڤاني): وتقع هذه الإمارة في منطقة بَدْليس، وامتدت إلى البلاد الواقعة على نهر دجلة جنوبًا، وظلت قائمة حتى أوائل القرن العشرين.

٣ - **إمارة بَدْليس**: ينتسب أمراؤها إلى الأسرة الساسانية الفارسية، وهذا أمر يثير إشكالية العلاقة بين الساسانيين والكرد، ومن أشهر أمراء إمارة بَدْليس الأمير شَرَف خان بَدليسي صاحب كتاب **شَرَف نامَه**، وقد بقيت الإمارة حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي؛ إذ انتزعتها الدولة العثمانية من شرف بگ آخر أمرائها سنة ١٨٣٦م.

٤ - **إمارة بابان**: بسطت هذه الإمارة نفوذها على المنطقة الواقعة بين نهر سَيرَوان (دِيالى) جنوبًا ونهر الزاب الصغير (الأسفل) شمالاً، وقد ثارت هذه الإمارة على الدولة العثمانية، وأفلح العثمانيون في إخضاعها وضمّها سنة ١٨٥٠م.

٥ - **إمارة سُوران**: قامت هذه الإمارة في منطقة وان، وتوسّعت بعد ذلك فشملت المنطقة الواقعة بين نهري الزاب الكبير والزاب الصغير، وأشهر مدنها: إربيل (هَوْلَير) وكُويسَنْجَق وراوَنْدُوز ورانيا، وكانت إربيل مركز هذه الإمارة، وقضى العثمانيون على هذه الإمارة سنة ١٨٥٠م.

٦ - **إمارة بادِينان** (بَهْدِينان): الأرجح أنّ هذه الإمارة تأسّست في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، وظلت قائمة إلى منتصف القرن التاسع عشر، وشمل نفوذها منطقة بادينان (بَهْدينان) في جنوبي كردستان، ويرفع أمراؤها نسبهم إلى الأسرة العربية العباسية، وكانت مدينة عِمادية قاعدة هذه الإمارة.

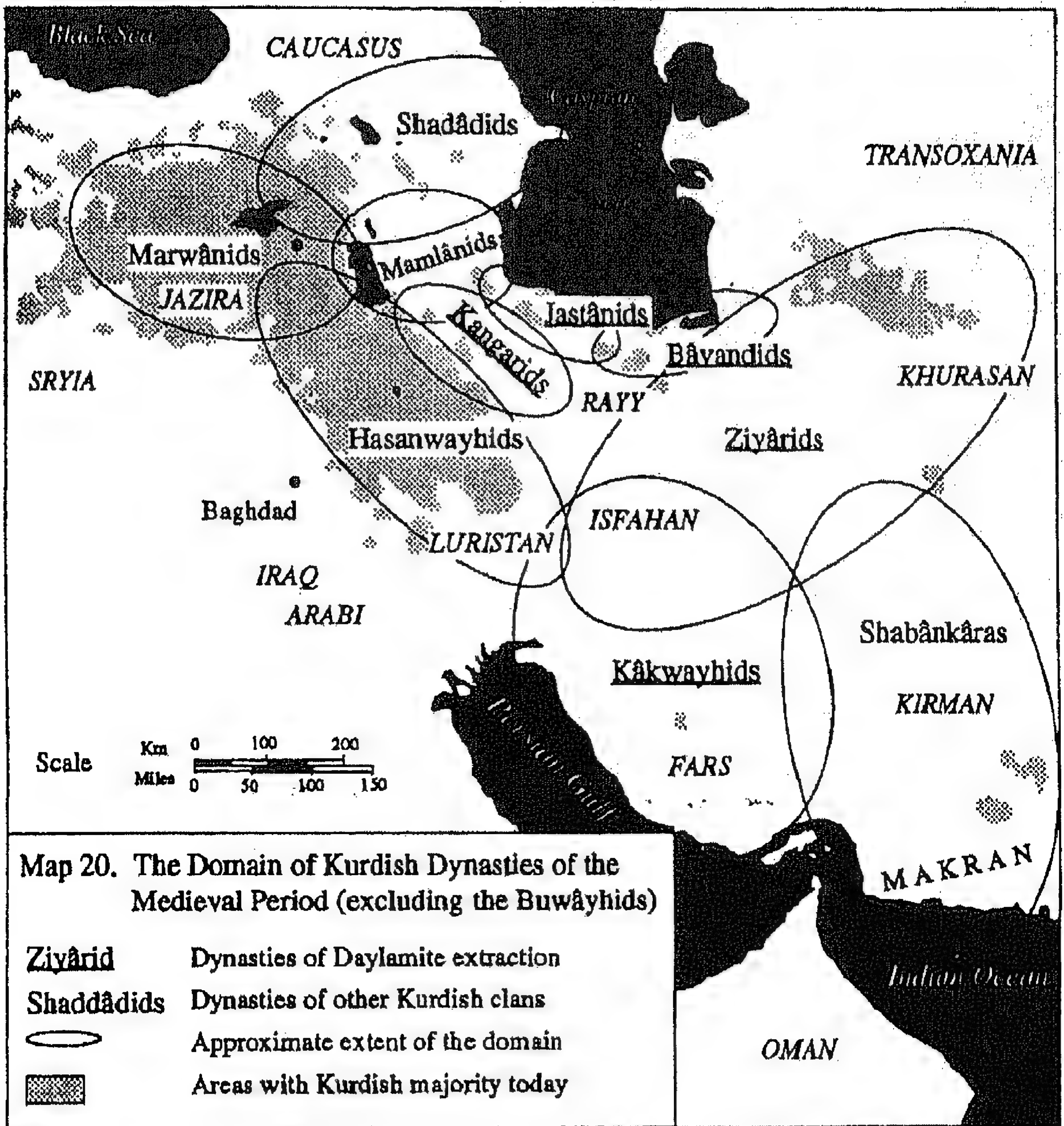
٧ - **إمارة الهَكّارية**: هي من أكبر الإمارات في كردستان الوسطى، وكانت تقع شمالي إمارة بادِينان، واستمرت حتى القرن التاسع عشر، إذ ضمتها الدولة العثمانية إلى ممتلكاتها سنة ١٨٤٥م.[١]

وتوضّح الخريطة التالية ثلاث دول كردية كانت قائمة في مناطق كردستان وعلى أطرافها إبّان الغزو السلجوقي، وكانت تلك الدول متزامنة؛ وهي الدولة الحَسْنَوَيْهِية في الجنوب، والدولة الشَّدادية في الشمال الشرقي، والدولة الدُّوستِكية (المروانية) في الشمال الغربي، لكنّ هذه الدول كانت متخاصمة فيما بينها، فكان من السهل على السلاجقة القضاء عليها. ونكتفي في هذا الفصل بالحديث عن ثلاث دول كردية هي:

- الدولة الدُّوسْتِكية (المروانية).
- الدولة الأيُّوبية.
- الدولة الزَّنْدِية.

---

(١) المعلومات الخاصة بالدول والإمارات الكردية واردة في كثير من المصادر التاريخية والجغرافية، منها: **تاريخ الفارقي**، و**وفيات الأعيان** لابن خَلّكان، و**رحلة ابن جُبَيْر الأندلسي**، و**المُختصَر في أخبار البشر** لأبي الفِداء، و**المُنْتَظَم في تاريخ الأُمم** لابن الجَوْزي، و**معجم البلدان** لياقوت الحَمَوي، و**الكامل في التاريخ** لابن الأثير، و**البداية والنهاية** لابن كَثِير، و**تاريخ ابن خَلدون**، و**لقاء الأسلاف** لجمال رشيد أحمد، و**تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة** لأحمد السَّعيد سليمان (نقله عن التركية)، و**موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها** لشاكر مصطفى.



خريطة الدول الكردية إبّان الغزو السلجوقي

١- الدولة الدُّوسْتِكِيّة (المَرْوانِيّة) (٣٧٢- ٤٧٨ هـ)

تُسمى الإمارة الدُّوْسِتكية في المصادر الإسلامية باسم الدولة المروانية، وقد نشأت هذه الدولة سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م، وظلت قائمة إلى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٦م، وتأسّست في شمالي كُردستان، وشمل حكمها جميع الأراضي الواقعة في ولايات ديار بكر وماردين وسِعِرْد (سِيرت) وبَدْليس، وقسمًا من ولاية مُوش، إضافةً إلى قضاء أَرْدِيش (أَرْجِيش) من ولاية وان وأجزاء من ولايات آلَزِگ (العزيز = خَرْبوت =

خَرْتَبِرْت = حِصن زياد) وولاية أُورفا (رُها) وجزءًا من مناطق غربي كردستان حتى نهر دجلة.[1]

أما أهم مدن الإمارة الدُّوستكية فكانت ديار بكر (آمَد) ومَيّافارقين (فارْقين = سِليڤان *Slivan*) ونِصيبين وجزيرة بُوتان (جزيرة ابن عُمَر) وأَرْزَن (قاليقَلا) وبَدْليس وخِلاط وأَرْدِيش (أَرْجيش) وحَسَنْكَيف (حِصْن كَيْفا)، وقدّر عبد الرقيب يوسف مساحة الدولة الدوستكية بأكثر من ستين ألف كيلومتر مربع.[2]

عَهْد التّأسيس:

مؤسّس هذه الإمارة هو «باد»، ويسمّى «باذ» أيضًا، وسمّاه محمد أمين زكي «باز»، وتعني كلمة «باز» بالكردية «صَقْر»، واسمه حسين بن دُوسْتِك، أحد أمراء العشيرة الحَمِيدية أو العشيرة الشَّيرَوِيّة، ويذكر الفارِقي (أحمد بن يوسف توفي بعد ٥٧٧هـ/ ١١٨١م) في تاريخه أنّ باد هو باد بن دُوسْتِك الحارْبَخْتي، وهو أبو عبد الله الحسين بن دُوسْتِك، و«باد» تعني بالكردية «الريح»، ولعلّ لهذا اللقب علاقة بخفّة حركة حسين بن دُوسْتِك في حروبه وسرعة انقضاضه على الأعداء وتراجعه، كما هو الأمر في حروب الكرّ والفرّ.[3]

وذكر عبد الرقيب يوسف أن حارْبَخْت اسم مركّب من «حار» ويعني «الأصلي، العريق» و«بَخْت»، وهي من «بُخْتان» (= بُهتان = بُوتان) الاسم التاريخي لمقاطعة «بوتان» التي تقع فيها جزيرة ابن عمَر. و«حارْ بَخْت» كان يُطلَق إلى عهد الفارِقي على المقاطعة المعروفة اليوم باسم «شَيرَوا»، فالبَخْتيون هم القاطنون في المقاطعة الجنوبية (بوتان)، والحاربَختيون هم كرد المقاطعة الشمالية (شَيرَوا)، والطائفتان من أصل واحد، ويرجِّح عبد الرقيب يوسف نسبة «الحاربختي» على نسبة «الحميدي».[4] وكان باد يمتاز بالحِنكة ورجاحة العقل وكرم الطبع، وقد التفّ حوله المعجبون به، فهاجم أَرْدِيش (أَرْجِيش)، وكانت أول مدينة دانت لسلطانه، وأقام

---

(١) عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدوستكية**، ١/ ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ١/ ص١٤-١٥، ٢٣.

(٣) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص٥٠. عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدوستكية**، ١/ ص٣٢، ٣٦.

(٤) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص٤٩٠. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٣٥.

علاقات ودّية مع الملك البُوَيْهي عَضُد الدولة، بل إنه أمدّ الجيش البُوَيْهي بمساعدات قيّمة لكسر شوكة الأمير أبي تَغْلِب الحَمْداني.[1]

وحينما دخل البُوَيْهيون الموصلَ، سنة ٣٦٨هـ، جاء أبو شُجاع للقاء عَضُد الدولة، وما إن اجتمع بالملك البويهي حتى فطن إلى أنه لن يُبقي عليه، وكان ظنه صائبًا؛ إذ قال عَضُد الدولة بعد أن خرج باد من مجلسه: «له بأس وشدة، وفيه شَر، لا يجوز الإبقاءُ على مثله»، وأمر بالقبض عليه، لكنّ أبو شجاع كان قد غادر المدينة سرًّا، ولحق بجيشه.[2]

بعد وفاة عَضُد الدولة، سنة ٣٧٢هـ، ضمّ أبو شجاع إلى ممتلكاته كلاًّ من آمَد ومَيّافارقين وماردين وحِصْن كيفا وهَتاخ وغيرها، واتّخذ مَيّافارِقين عاصمةً لدولته، ثم امتد نفوذه إلى نِصيبين وأطراف الموصل، ودخل بعدئذٍ الموصل وخلّصها من أيدي البُوَيهيين، ولعله كان يمهّد بذلك لإنقاذ بغداد مركز الخلافة من سلطة بني بُوَيه الذين تسلّطوا على الخلفاء واستبدّوا بشؤون الدولة، وما كان الخليفة العباسي إلا ألعوبة بين أيديهم.

ولمّا علم صَمْصام الدولة بن عَضُد الدولة بخطط أبي شُجاع قلق أشد القلق، وسرعان ما تفاوض البويهيون مع الأمير الحَمْداني سَعْد الدولة بن سيف الدولة، وأطمع الحمْدانيين في البلاد الواقعة ضمن نفوذ أبي شُجاع، لكنّ سعد الدولة أخفق في كسب المعركة ضد أبي شجاع، فلجأ إلى الحيلة، ودبّر له من يقوم باغتياله، فخابت مساعيه أيضًا.

ثم هاجم أبو شجاع الموصل، وخاض معركة ضارية ضد بني بُوَيه والحَمْدانيين وبني عَقِيل، وجُرح في المعركة إثر سقوطه حين قفز من على ظهر فرسه إلى ظهر فرس آخر، ثم قُتل، وحلّت الهزيمة بجنده، وكان ذلك سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، «وحُملت جثّتُه إلى الموصل. . . وصُلّيَ عليها بالموصل، ودُفِنت، ولحق أهلَ الموصل من الحزن عليه والأسف لقتله ما لا يوصف، وعملوا عليه المآتمَ والنّدب والبكاء».[3]

---

(١) عبد الرقيب يوسف: الدولة الدوستكية، ١/ ٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٥. عبد الرقيب يوسف: الدولة الدوستكية، ١/ ٥٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٢، ١٣، ٢٤، ٢٧. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص٥٢-

وجملة القول أنّ الأمير باد كان أحد قادة الكرد الميامين، توافرت في شخصيته صفات قيادية هامة ونادرة، منها علوُّ الهمة وبُعد النظر والفروسية والجود والعدل والذكاء والصبر على الشدائد، إضافةً إلى القوة البدنية الفائقة، قال ابن الأثير: «كان ابتداءُ أمره أنه كان يغزو بثغور ديار بكر كثيرًا، وكان عظيم الخِلْقة، له بأسٌ وشِدّة. . . وكان كريمًا جَوادًا، وكان يذبح الغنم التي له ويُطعم الناس، فظهر عنه اسمُ الجود، فاجتمع عليه الناس».(1)

إنّ صفات الأمير باد تذكّر بصفات القائد الميدي التاريخي دَياكو (دَهْياكو)، وهذه الصفات هي التي جعلته يتحوّل من رجل عادي إلى زعيم بارز، ويوحّد القوى الكردية المتفرقة، ويقارع الدولة البُوَيهية في أوج سطوتها.

عهد النهوض:

بعد مصرع باد تولّى القيادةَ ابنُ أخته الأمير أبو علي حسن بن مروان، وكان شهمًا جريئًا، ودارت معارك بينه وبين الحَمْدانيين جنوبًا، وبينه وبين الأرمن شمالاً، هذا إلى جانب صراعه مع الدولة البيزنطية من ناحية الغرب، وكان ينوب عنه في شؤون الحكم سياسي كرديٌّ موهوب يدعى مَمْ، «وكان شيخًا مِقدامًا مُجرَّبًا شَهمًا من الرجال، قد حنّكته التجارب، وبقي يَسوس دولة أبي علي ويدبّرها أحسن تدبير».(2)

على أنّ الأمور تحسّنت بين أبي علي والحَمْدانيين، فخطب سِتَّ الناس، أختَ الأمير أبي الفضائل بن سَعد الدولة بن سيف الدولة الحَمْداني، وفي غمرة انشغاله بشؤون الزفاف فوجئ بمؤامرة أَوْدَت بحياته، وأُعيدت الأميرة إلى حلب، قبل أن يصل موكبها إلى ديار بكر، وكان ذلك سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م.(3)

وأصبح الأمير سعيد بن مروان ملكًا على الدولة الدوستكية بعد مقتل أخيه أبي

---

٥٨. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ٦/٩٠٢، ٩٠٤. عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدُّوستكية**، ١/٨٥-١١٧.

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/٣٥، ٣٦.

(٢) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص٦١.

(٣) عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدُّوستكية**، ١/١٤.

علي، ولقبه مُمَهِّد الدولة، وكنيته أبو منصور، واعترفت القوى الإقليمية حينذاك بحكومة الملك الكردي الجديد؛ فقد أرسل الخليفةُ العباسي القادر بالله وفدًا رسميًا لتهنئته، كما اعترف بها كلٌّ من الملك البُوَيهي بَهاء الدولة في العراق وفارس، والخليفة الفاطمي الحاكِم بأمر الله في مصر، واجتمع مُمهِّد الدولة بالإمبراطور البيزنطي باسيل سنة ٣٩٠هـ في المنطقة الحدودية بين الدولتين، واتفقا على التفاهم والتحالف.(١)

وقد حرص مُمهِّد الدولة على تجنّب الأزمات الخارجية، وإقامة علاقات متوازنة مع الدول المجاورة، إضافة إلى اهتمامه على الصعيد الداخلي بالمحافظة على الأمن والاستقرار، وتوفير العدالة والحياة الرغيدة والسعيدة لشعبه، مسلمين وغير مسلمين، حتى إنّ مدير الأوقاف في عهده كان رجلاً مسيحيًا يدعى ابن شَلِيطا، ويظهر من اسمه أنه سرياني.(٢)

اغتيل مُمهِّد الدولة حوالي سنة ٤٠١هـ بمؤامرة دبّرها حاجبه شَيرُوه بن مَمْ، وتعرّض كيان الدولة الدوستكية للخطر، فقد حاول شَيرُوه الاستئثارَ بالحكم والقضاء على الأسرة المالكة، لكنّ رؤساء العشائر الكردية وقفوا إلى جانب الأمير نصر الدولة أحمد بن مروان، فتولّى الحكم بعد أخيه مُمهِّد الدولة، وبدأ معه عهد القوة والازدهار في الدولة الدوستكية.(٣)

عهد الازدهار:

أعظم أمراء الدولة الدوستكية هو نصر الدولة أحمد بن مروان، واستمر حكمه من سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م إلى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، وقد ذكر المؤرخ الكردي أحمد بن يوسف الفارِقي تفاصيل عهد هذه الدولة، فقد باشر نصر الدولة تنظيم شؤون دولته على قواعد متينة، فعيّن الولاة والموظفين على أساس من الكفاءة والإخلاص، وأعاد إلى الدولة هيبتها، ورسّخ في حكمه دعائم العدل والمساواة، وهيّأ لشعبه حياة

(١) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص٨٤. عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدُّوستكية**، ١/ ١٤٢.
(٢) عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدُّوستكية**، ١/ ١٥٤.
(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٧٣. عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدُّوستكية**، ١/ ١٥٦- ١٦١.

يسودها الأمن والاستقرار، وأعاد الأمور إلى نصابها بعد أن تزعزعت بشدة إثر اغتيال سلفه وأخيه مُمهِّد الدولة.

ولما انتهى نصر الدولة من تنظيم أمور الدولة، وإرسائها على العدل والأمن والرخاء، اهتم بتعزيز المكانة السياسية لدولته على الصعيد الإقليمي، وكان حصيفًا في بناء العلاقات الخارجية المتوازنة، فكسب احترام الدول المجاورة، وتجنّب الانضمام إلى التحالفات المتعادية، واستعان بعلاقات المصاهرة لتأمين سلامة بلاده، وتعزيز مركزها، فتزوّج بالفَضْلونية بنت فَضْلُون بن مَنُوجَهْر الكردي صاحب أَرّان وأرمينيا العليا، كما تزوّج بالسيدة بنت شرف الدولة قِرْواش بن المقلّد العَقِيلي الذي كان يهيمن على الموصل، وتزوّج بنت سَنْخاريب ملك السِّناسنة الأرمن التي كانت زوج أخيه الأمير أبي علي.[1]

واستطاع بهذه السياسة الحكيمة أن يجنّب بلاده كثيرًا من ويلات الحروب، ويحقق لرعيته الهدوء والاستقرار والسلام، رغم أنّ دولته كانت تقع في منطقة تتقاطع فيها مصالح سياسية إقليمية حادة (العباسيون، والبُوَيْهِيون، والأرمن، والبيزنطيون، والحَمْدانيون، والفاطميون). وأثمرت سياسة نصر الدولة الحكيمة سلامًا ورخاء، فاعترفت الدول الشرق أوسطية الثلاث الكبرى في ذلك العصر بالدولة الدُّوستكية؛ وهي الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والدولة البيزنطية، ووَطّدت علاقةَ الصداقة معها، وأرسلت كلُّ دولة ممثّلها إلى العاصمة مَيّافارِقين سنة ٤٠٣هـ/١٠١٣م، مصحوبًا بالهدايا والتحف الثمينة، لإبلاغ الملك الدُّوستكي اعترافها بحكومته حسب منطق السياسة آنذاك، وهذا دليل على أمرين:

- أولهما، حِنكة الأمير الكردي في بناء علاقات سياسية متوازنة مع دول الجوار المتعادية، وكسب ودّها.
- وثانيهما، الأهمية الإستراتيجية التي كانت تحظى بها الإمارة المروانية، وتأثيرها في التوازنات الإقليمية والحسابات العسكرية.

والطريف أنّ ممثلي هذه الدول وصلوا إلى العاصمة مَيّافارِقين في يومٍ واحد، وزاد في سرور نصر الدولة مصادفة وصولُ الوفود مع الانتهاء من بناءِ القصر

(١) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص١٢١.

الملكي، وإطلالةُ عيد الأضحى، ولندع الفارقي يصف طرفًا من الأحداث السياسية التي ازدانت بها الإمارة الدوستكية:

«في ذي الحِجّة من سنة ثلاث وأربعمائة... قبل العيد بثلاثة أيام، وصل خادم من خدم الخليفة القادر بالله، ومعه حاجب من سلطان الدولة ابن بُوَيْه يسمّى أبا الفرج محمد بن أحمد بن مَزْيَد، ووصل معهما الخُلَع والتشريف والمنشور بديار بكر أجمع من الخليفة والسلطان، ولُقّب بنصر الدولة وعمادها ذي الصّرامتين».(١)

«وفي عشيّة ذلك اليوم وصل رسولٌ من خليفة مصر، وهو الحاكم بأمر الله أبو علي منصور، وورد معه من الهدايا والتحف والألطاف شيء كثير، ولَقَّب نصرَ الدولة بعزّ الدولة ومجدها ذي الصّرامتين، فخرج كلُّ مَن في الدولة إلى لقائه، ودخلَ البلد. ومن بُكرة ذلك اليوم ورد رسول من ملك الروم باسيل الصِّقِلّي، وكان ملكَ القسطنطينية، فخرج الناس إلى لقائه، ووصل معه من القُود والجنائب والتُّحَف ما لا يُوصَف».(٢)

«وكان اليومُ الرابع للعيد، وجلس نصر الدولة لهناء العيد على التَّخْت، وحضر رسول الخليفة والسلطان، فجلسوا على اليمين، وحضر رسول مصر، ورسول ملك الروم، فجلسا على الشمال، وحضرت الشعراء والقرّاء، وكان يومًا عظيمًا وعيدًا مشهودًا، وقرئت المناشير على الناس بحضور الرسل والأمراء، ولبس الأمير الخِلَع، وخَلَع على الرُّسُل من الخِلَع ما لم يمكن أن يكون مثلها».(٣)

نفهم من هذا أنّ الدول المجاورة كانت تتعامل مع الإمارة الكردية باهتمام، وتقدّر مُناخ الأمن والاستقرار والغنى فيها، فراحت تخطب ودّها، وتقيم معها أفضل العلاقات، ولا ريب في أنّ السياسة الحكيمة التي رسمها نصر الدولة لإمارته كانت سبب ذلك الاهتمام، فقد قامت سياسته على الحياد وعدم التدخل في الصراعات

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٨. والخادم: موفد الخليفة. والمنشور: المرسوم.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٩-١١٠. والقُود: الإبل الطويلة العنق. والجنائب: الإبل القوية على التحمل.

(٣) المرجع السابق، ص١١٠. والتخت: كرسيّ الحكم.

والنزاعات الناشبة في المنطقة، وتجنّب الحروب، والانصراف إلى الشؤون الداخلية، والسهر على مصالح الشعب الذي كان آنذاك أغنى شعب وأسعده في المنطقة؛ إضافةً إلى ترسيخ مبدأ التسامح بين الأديان والمذاهب.

إنجازات حضارية:

عُني نصر الدولة بالمشاريع العمرانية، منها بناء مدينة النَّصْرية على ضفة نهر باطْمان، وصرف اهتمامه إلى بناء المساجد والجسور وقنوات المياه والتحصينات الدفاعية، وخاصةً في المناطق المتاخمة للحدود البيزنطية، وقرّر تشييد قصر ملكي فخم في العاصمة ميّافارقين، يدلّ على أبّهة الملك، فحشد له المهندسين ورجال الفن، وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب، وعمل فيه ما لا نظير له، وزوّده بأسباب الراحة والعيش الرغيد، واشتمل القصر على قاعات للاجتماعات والاحتفالات، وأجرى إليه قناة الماء من رأس العين، وعمل فيه البرك والحمّام.[1]

ولما ذاعت شهرة نصر الدولة، وتناقلت الألسن أخبار عدالته وجوده، أقبل عدد كبير من الشعراء على بلاطه، وتغنّوا بأمجاد الدولة الدوستكية، ومدحوا نصر الدولة بالقصائد الرائعة، لينالوا من هباته وجوائزه؛ ومنها القصيدة التي قال فيها أبو الحسن علي بن محمد التِّهامي:

إنْ قال: لا، فهْي آلاءٌ مُضاعَفةٌ وإن يقلْ نَعَمًا أفضتْ إلى نِعَمِ

وكان لنصر الدولة شعراء يلازمون بلاطه، منهم ابن الظَّريف الفارِقي وابن السَّوادي وابن الفَطِيري والشاعر الأمير حسين بن داود البَشْنَوي والمَنازي، ولم يكن الشعراء وحدهم المعجبون بنصر الدولة وعهده الزاهر، بل شاطرهم العلماء وأصحاب الفن الشعور ذاته، قال ابن الأثير يصفه: «وكان مَقصَدًا للعلماء من سائر الأفاق، وكثروا ببلاده. . . وقصده الشعراء، وأكثروا مدحه، وأجزل جوائزهم».[2]

ولم يكن نصر الدولة محبًا للحروب، بل كان حريصًا على الأرواح من الهلاك، وعلى البلاد من الخراب، لذا اختار منهجًا سلميًا في علاقات دولته بالدول

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١١٠.
(٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٧٤.

المجاورة، وحلّ المشاكل عن طريق التفاوض والتفاهم، قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في ذلك: «وكان كثير المُهادنة للملوك، إذا قصده عدوٌّ أرسل إليه بمقدار ما يصالحه به، فيرجع عنه».[١] وقال ابن الجَوْزي (ت ٥٩٧هـ): «وكان إذا قصده عدوّ يقول: كم يَلزمني من النفقة على قتال هذا؟ فإذا قالوا: خمسون ألفًا. بعث بهذا المقدار، أو ما يقع عليه الاتفاق، وقال: ادفعوا هذا العدوّ».[٢]

أما على الصعيد الداخلي فقد شهد المؤرخون لنصر الدولة بنشر العدل بين الرعية، وبالعطف على الشعب، فهذا ابن كثير يصف انتشار الأمن والعدل في ربوع الدولة الدوستكية قائلاً: «وكانت بلاده آمن البلاد وأطيبها وأكثرها عدلاً».[٣] وقال ابن الأثير يشيد بسيرة نصر الدولة في رعيته: «وسيرتُه في رعيته أحسنُ سيرة».[٤] وقال الفارِقي يصف ابتعاد نصر الدولة في حكمه عن الطغيان: «وعظُم شأن نصر الدولة، وكبُر أمره، وتقرّرت مملكته، وفَعَل الخير، وعَدَل في الناس، . . . وفَعَل من الخير ما لم يفعله أحد من بيته وأهله».[٥]

وبتحقيق العدل والأمن وحسن المعاملة مع الرعية، تحقّق الازدهار الاقتصادي، فأصبحت كردستان واحة وارفة الظلال، يقصدها التجّار والصنّاع وأهل العلم؛ وهذا ما أكده الفارقي بقوله: «وانعمرت مَيّافارِقين أيام نصر الدولة، وقصدها الناس والتجّار وجماعة من كل الأطراف، واستغنى الناس في أيامه، وكانت أحسن الأيام ودولته غير الدول».[٦]

مواقف إنسانية:

اشتهرت الدولة الدُّوستكية في عهد نصر الدولة بالعطف على الغرباء، وأصبحت ملاذًا آمنًا لعدد غير قليل من اللاجئين السياسيين في ذلك العصر، بغضّ

---

(١) ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، ١٢/ ٨٧.
(٢) ابن الجَوْزي: **المُنتظَم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٦/ ٧٠.
(٣) ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، ١٢/ ٨٧.
(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٢٦.
(٥) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص١١٠.
(٦) المرجع السابق، ص١٦٦.

النظر عن الدين والمذهب والقومية، وفيهم الملك والأمير والوزير، فكان نصر الدولة يرحّب بهم، ويعطف عليهم، ويبالغ في إكرامهم، ويوفّر لهم العيش اللائق بمكانتهم، فقد لجأ إليه -على سبيل المثال- الملك العزيز البُويهي، ووزير الدولة الفاطمية أبو القاسم المغربي الشيعي، والوزير ابن جَهِير الثعلبي الموصلي، وابن خان التركي، قال الفارقي في ذلك: «وقصده الناس من كلّ جانب، وحصل كهفًا لمن التجأ إليه».[1]

وفي سنة ٤٥٠هـ خرج البَساسِيري التركي (قُتل سنة ٤٥١هـ) على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وكان البَساسيري من زعماء الأتراك ومن مماليك الملك بهاء الدولة البُوَيْهي، وخطب البَساسيري للخليفة الفاطمي المُستنصِر بالله صاحب مصر، فهرب الخليفة القائم من بغداد إلى الحَدِيثة، وضاقت الدنيا بأسرته، فلم تجد أمُّ وليّ العهد الملاذ الآمن إلاّ في كنف الملك نصر الدولة، قال الفارقي: «وخرجت السيّدةُ ومعها أبو العبّاس محمد بن القائم -وهو الذَّخيرة أبو المُقتَدى- فقصدت السيدة مَيّافارِقين ومعها الذخيرة صغيرًا، وخرج نصر الدولة إلى لقائهم، فأنزلهم واحترمهم وأضافهم، وأنفذهم إلى آمَد، وأنزلهم في القصر، وتقدّم بما يحتاجون إليه».[2]

والطريف أنّ رعاية هذا الملك لم تقتصر على الناس، بل شملت الحيوانات أيضًا، وبكيفية لم نعهدها من سائر الملوك، فقد بلغه أنّ الطيور تجوع شتاءً لكثرة الثلج، وأنّ الناس يصطادونها بسبب حاجتها إلى الحب، فأمر بفتح مخازن الحبوب، وإلقاء ما يكفيها من الغَلاّت طوال الشتاء، فكانت الطيور في ضيافته طوال الشتاء مدة عمره.[3]

ومن تتبّع سيرة الملوك الدُّوسْتِكيين يجد أنهم كانوا ينزعون إلى رغد العيش والترف، وذكر الفارقي أنه كان لنصر الدولة ثلاثمئة وستّون جارية حظايا، وكانت نوبة إحداهن لا تصل في السنة إلاّ مرة واحدة، وكان في كلّ ليلة له عروس جديدة، وكان له من المغنيات والرقّاصات وأصحاب سائر الملاهي ما لم يكن لسواه من

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٣-١٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٣-١٥٤. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٠/ ٦٤١-٦٥٠. وانظر ابن خَلِّكان: **وَفَيات الأعيان**، ١/ ١٩٢.

(٣) ابن كَثير: **البداية والنهاية**، ١٢/ ٨٧.

سائر الملوك والسلاطين، وكان كلما سمع بجارية مليحة أو مغنّية مليحة طلب شراءها، وبالغ في مشتراها، ووزن أضعاف قيمتها.[١] وقال الفارقي ملخِّصًا النعيم الذي عاشه نصر الدولة، مع مقارنته بغيره من الملوك: «واستقرّ نصر الدولة في المُلك، ومَلك ما لا يَملك أحدٌ مثله، وتنعّم بما لا يتنعّم أحد غيره».[٢] ووصف عهده السعيد قائلاً: «وكانت أيامه كالأعياد».[٣] وقال ابن الأثير في هذا الصدد: «وتنعّم تنعّمًا لم يُسمَع بمثله عن أحد من أهل زمانه».[٤]

عَهْدُ الانحدار:

لا نستبعد أن يكون في الأخبار المتعلقة بإقبال نصر الدولة على الملذات شيء من المبالغة، لكن مع ذلك يبدو أنه أسرف في الترف والرغد، وأنفق كثيرًا من الأموال في هذا الباب، في وقت كانت المخاطر تتربّص بدولته، لا سيّما من قبل السلاجقة الذين احتلوا فارس والعراق، وكانوا يخططون لاحتلال كُردستان، كان الأمر يتطلّب أن يشمّر نصر الدولة عن ساعد الجد، ويتحلّى بالعزم والحزم وبُعد النظر، ويهيّئ لدولته من القوة الذاتية، عسكريًا واجتماعيًا، ما يجعلها قادرة على مواجهة الأطماع المتربّصة بها؛ فالتوازنات الإقليمية وحدها غير كفيلة بصيانة استقلال الدول، لأنها عرضة للاختلال في كلِّ وقت.

ولم يطل الأمد حتى بدأ السلاجقة بتنفيذ مخطط احتلال كُردستان؛ وذكر الفارِقي أنه في سنة ٤٣٤هـ أرسل السلطان طُغْرُلْ بَگ أميرين من أصحابه، أحدهما بُوقا والآخر ناصُغْلي، وكانا من كبار الأتراك، ومعهما عشرة آلاف فارس إلى ديار بكر، وأقطعهما البلاد، فوصلا والجيوش معهما، وأغاروا على البلاد ونهبوا ونزلوا على باب مَيّافارِقين، وكان هذا أول ظهور الترك بهذه الديار، ولم يكن الكرد رأوا صورهم قبل ذلك.[٥]

---

(١) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص١٦٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٩.
(٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ١٠/١٧.
(٥) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص١٦٠-١٦١، ١٧٨.

ولم تقرّ عين طُغْرُلْ بَگ ببقاء الدولة الدوستكية خارج نفوذه، فقام بخطوة سياسية في سنة ٤٤١هـ، الهدف منها تجريد الدولة الكردية من استقلاليتها؛ إذ «أرسل إلى نصر الدولة بن مروان يطلب منه إقامةَ الخُطبة له في بلاده. فأطاعه وخَطَبَ له في سائر ديار بكر».[١] وخسرت الدولة الدوستكية استقلالها، وأصبحت تابعة للدولة السلجوقية، ومع ذلك احتفظ نصر الدولة بمكانته السياسية الإقليمية الرفيعة، ففي سنة ٤٤١هـ نفسها سأل إمبراطورُ الروم نصرَ الدولة أن يسعى في فداء ملك الأَبْخاز الذي كان في الأسر عند طُغْرُلْ بَگ، «فأرسل نصرُ الدولة شيخَ الإسلام أبا عبد الله بن مروان في المعنى إلى السلطان طُغْرُلْ بَگ، فأطلقه بغير فداء، فعظُم ذلك عنده وعند ملك الروم».[٢]

وبعدئذ تولّى السلطان السلجوقي طُغْرُلْ بَگ بنفسه الهجوم على الدولة الدُّوستكية، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٤٤٨هـ: «لمّا فرغ طُغْرُلْ بَگ من العرب سار إلى ديار بكر التي هي لابن مروان، وكان ابنُ مروان يرسل إليه كلَّ يومٍ الهدايا والثلج، فسار السلطان إلى جزيرة ابن عُمَر فحصرها، وهي لابن مروان. . . ولما كان السلطان يحاصر الجزيرة سار جماعة من الجيش إلى عُمْر أَكْمُن، وفيها أربعمائة راهب، فذبحوا منهم مائة وعشرين راهبًا، وافتدى الباقون أنفسهم بستة مَكاكيك ذهبًا وفضة».[٣]

توفّي نصر الدولة سنة ٤٥٣هـ، وكان عمره نيّفًا وثمانين سنة، بعد حكم دام قرابة ثلاث وخمسين سنة، وخلّف من الذكور نيّفًا وعشرين ولدًا، وتلاه في الملك من بعده ولده نظام الدين، ونافسه أخوه الأمير سعيد مستعينًا بالسلاجقة، لكنّ نظام الدين استطاع أن يكسب الوزير السلجوقي نِظام المُلْك وعطفه، وبتدبير من هذا الوزير أبقاه السلطان السلجوقي أَلْب أَرْسَلان أميرًا، ومنحه لقب سلطان الأمراء، وهذا يعني أنّ الدولة تقلّصت من مملكة إلى إمارة في نهاية الأمر.

ونهج نظام الدين نهج أبيه في إشاعة العدل وحسن السيرة بين الرعية، وفي

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ٩/ ٥٥٦.

(٢) المرجع السابق، ٩/ ٥٥٦-٥٥٧.

(٣) المرجع السابق، ٩/ ٦٣٠. ومكاكيك جمع مَكُّوك، وهو مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، وقيل: يسع صاعًا ونصف الصاع.

الاهتمام بالتعمير والازدهار، قال الفارِقي في ذلك: «وبقي نظام الدين في الإمارة، وكان ملكًا عادلاً، خفيف الوطأة حَسن السيرة، كثير الإحسان إلى الناس، وعَمَرتْ مَيّافارِقين في أيامه أحسن عَمارة، ولقيَ الناسُ منه الخيرَ والبركة»[١].

بعد وفاة نظام الدين سنة ٤٧٢ هـ خلفه في الإمارة ابنُه ناصر الدولة منصور، وكان سيئ التدبير، لا يقبل مشورة أصحابه، فتعرضت الدولة لكثير من القلاقل الداخلية، كما أنه لم يكن يملك المؤهلات السياسية التي امتاز بها والده نظام الدين وجدّه نصر الدولة في مداراة السلاجقة، فلم يستطع الصمود طويلاً أمام التهديد السلجوقي المتواصل، وبعد صراع مرير سقطت ديار بكر في أيدي السلاجقة، ثم سقطت العاصمة مَيّافارقين، وتبعتها جزيرة بُوتان (جزيرة ابن عُمَر)، حدث ذلك سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٦ م على الأرجح، وتتابع بعدئذ سقوط بقية أجزاء الدولة، وزال ذلك العهد الزاهر من كردستان.

قال الفارقي: «ولما أُخذت البلادُ منه نفذ إليه السلطانُ [= ملكشاه] وقال له: انظرْ ما تريد عِوَضَ بلادك حتى أُعطيك. فقال: حَرْبة تقع في صدري تخرج من ظهري! فقيل للسلطان: قد طلب حَرْبى، فأُقطع القرية المعروفة بحَرْبَى»[٢].

الانتفاضة الأخيرة:

أقام ناصر الدولة منصور في قرية حَرْبى، مترقبًا الفرصة لاسترجاع بلاده وإحياء دولته، وقد سنحت له الفرصة بوفاة السلطان السَّلجوقي مَلِكْشاه سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٣ م، فتوجّه إلى كُردستان، واسترجع مدينة جزيرة بُوتان، ثم تمكّن بمساعدة الشاعر والأديب الشيخ أبي نَصْر بن أَسَد من استرجاع العاصمة ميّافارِقين، ودخلها سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٤ م، واتخذ ابن أسد وزيرًا، ومنحه لقب مُحيي الدين[٣].

غير أنّ الأمور لم تسر كما كان يريد ناصر الدولة، فقد تحرك الملك السَّلجوقي تُتُش بن أَلْب أَرْسَلان من دمشق طمعًا في السلطنة، ومنافسًا لابن أخيه السلطان بَرْكْيارُوق بن مَلِكْشاه، وتوجّه بجيشه شمالاً، فاحتلّ حلب والرَّقّة وحَرّان وسُروج،

---

(١) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٨-٢١٤. وحربى: تقع بين بغداد وتكريت.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٢-٢٣٥.

وحاصر نِصيبين إلى أن «فتحها سيفًا، وقتل من أهلها ما لا يُحصى، ونهب البلد أجمع وسَبى الناس، وجرى على أهل نِصيبين ما لم يجر مثله على الكفّار».(١)

إزاء هذا الخطر القادم من الجنوب تحالف ناصر الدولة مع الأمير العَقِيلي إبراهيم بن قُرَيش بن المقلّد حاكم الموصل، وخاض الجيشان الكردي والعربي معركة عنيفة ضد قوات تُتُشْ المتفوقة سنة ٤٨٦ هـ، لكنّ الهزيمة حلّت بالجيشين، وارتكب السلاجقة مجزرة هائلة، إذ بلغ عدد القتلى عشرة آلاف قتيل، هذا عدا الأسرى والنساء السبايا.(٢)

بعد أن احتل تُتُشْ مدينتي نِصيبين والموصل توجّه إلى الدولة الدُّوستكية، فاحتل ديار بكر، ثم احتل العاصمة مَيّافارقين، وخرج ناصر الدولة متخفِّيًا، واستجار بوزير السلطان تُتُشْ، وكانت مدة ولايته الثانية خمسة أشهر فقط.(٣)

وهكذا زالت الدولة الدوستكية بعد أن عاشت مائة وست سنوات.

أسماء حكام الدولة الدوستكية، وفترة حكم كل منهم

الأمير/ الملك	هجري	ميلادي
باد بن دوستك	٣٧٢ - ٣٨٠	٩٨٢ - ٩٩٠
حسن بن مروان	٣٨٠ - ٣٨٧	٩٩٠ - ٩٩٧
سعيد بن مروان (ممهّد الدولة)	٣٨٧ - ٤٠١	٩٩٧ - ١٠١١
أحمد بن مروان (نصر الدولة)	٤٠١ - ٤٥٣	١٠١١ - ١٠٦١
نصر بن نصر الدولة (نظام الدين)	٤٥٣ - ٤٧٢	١٠٦١ - ١٠٨٠
ناصر الدولة بن نظام الدين (المنصور)	٤٧٢ - ٤٧٨	١٠٨٠ - ١٠٨٦

---

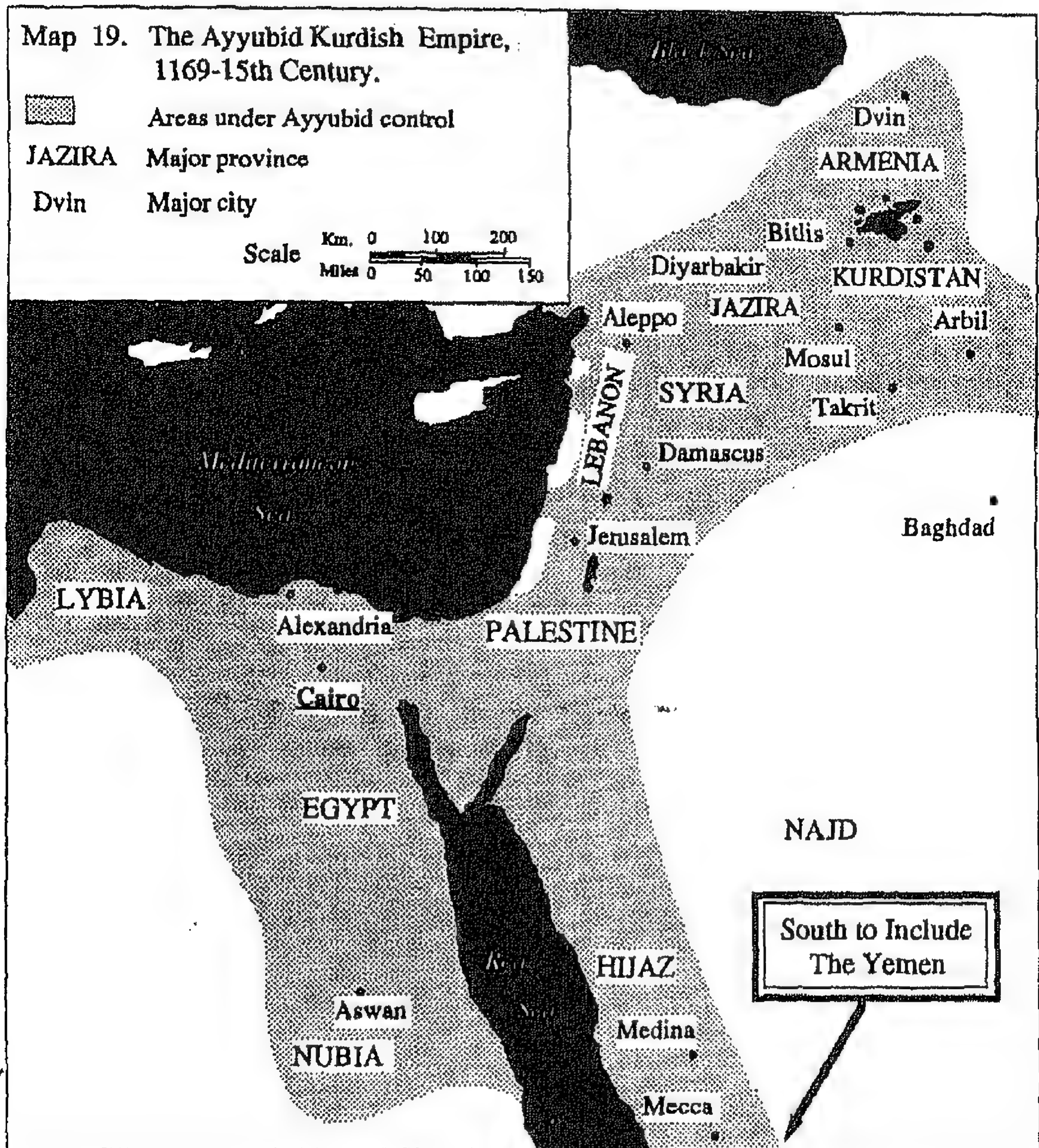
(١) المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٣. عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدوستكية**، ١/٣١٨-٣٢٠.

(٣) الفارقي: **تاريخ الفارقي**، ص٢٣٦. عبد الرقيب يوسف: **الدولة الدوستكية**، ١/٣٢١-٣٢٢.

٢- الدَّولة الأيُّوبيّة (٥٦٧ - ٩٥٠ هـ)

لا تقاس قيمة الدول بطول المدة التي عاشتها، ولا بسعة الأراضي التي حكمتها، وإنما بالإنجازات التي حققتها، وبالأدوار التي قامت بها في عصرها، وبالآثار التي تركتها في العصور اللاحقة؛ وفي إطار هذه الرؤية الواقعية والشمولية تتحدد أهمية الدولة الأيوبية، والدولة الأيوبية هي أعظم الدول الكردية شأنًا في التاريخ الإسلامي، وأوسعها رقعة، وكانت أكثر الحكومات والإمارات الكردية قد قامت في أرض كردستان. أما هذه الدولة فقامت في الأصل خارج كردستان، ثم توسّعت بعدئذ، فشملت مناطق مهمة من كردستان نفسها (انظر خريطة الدولة الأيوبية).



الدولة الأيوبية

وقد أدرك المؤرخون المسلمون، بل الأوربيون أيضًا، قديمًا وحديثًا، أهمية الدولة الأيوبية، فكتبوا عنها الكتب الكثيرة، واستفاضوا في ذكر الأحداث التي عاصرتها تلك الدولة، كما عُنوا بتحليل إنجازاتها، ونحسب أنّ أهمية هذه الدولة ترجع إلى ما حققته من إنجازات كبيرة على صعيدين هما: الصعيد الإقليمي والصعيد العالمي. وقبل القيام بجولة في تاريخ هذه الدولة، دعونا نلق نظرة على أوضاع الشرق الأوسط قبل العهد الأيوبي.

الشرق الأوسط قبيل العهد الأيوبي:

كان الشرق الأوسط، في نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الهجريين، يفتقر إلى الوحدة السياسية، وكانت ثمة مراكز قوى عديدة تتحكّم فيه، وتجرّه بين حين وآخر إلى الخلافات والحروب الداخلية، وأبرز تلك القوى السياسية هي:

١ ـ **الخلافة العباسية**: كان خلفاء بني العباس قد خسروا النفوذ القوي الذي عُرف به أجدادهم الأوائل؛ من أمثال أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمُعتصِم بالله، وأصبحوا ألعوبة بين أيدي الوزراء والحجّاب ونساء قصر الخلافة، ورضوا من الحكم بالاسم، حتى إنّ أحد الشعراء قال في ذلك:

خليفةٌ في قفصٍ ... بين وَصِيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له ... كما يقول البَبَّغا

ونتيجة لذلك خرجت غالبية أراضي الدولة من سلطة الخلافة العباسية، واقتصر نفوذها على بغداد والمناطق المحيطة بها، وكان النفوذ الحقيقي على جميع الأصعدة في أيدي ملوك البُوَيْهيين الدَّيلم، ثم في أيدي سلاطين السَّلاجقة الترك الذين حلّوا محل البُوَيهيين.

٢ ـ **السَلاجقة**: قبل أن يبسط الترك السلاجقة نفوذهم على الخلافة، وعلى أجزاء هامة من شعوب الشرق الأوسط، كان البُوَيهيون هم الذين يقومون بهذا الدور في القرن الرابع الهجري، وبنو بُوَيه أسرة دَيْلَمية شيعية الهوى، وهذا ما كان يؤرّق الخليفة العباسي السُّنّي، لذا وجد المخرج على أيدي السلاجقة السنّة، فاستعان بهم، وتخلّص من النفوذ البويهي، لكنه وقع في قبضة السلاجقة.

وتوسّع النفوذ السَّلجوقي تدريجيًا، وشمل معظم الأراضي الشرقية للخلافة،

وتصدّى السلاجقة، ولا سيّما في أيام سلاطينهم الأقوياء (طُغْرُلْ بَگ، أَلْب أَرْسَلان، مَلِكْشاه)، لجهود الدولة البيزنطية في استرجاع المناطق التي خسرتها، وفتحوا الكثير من الأراضي الواقعة في دائرة النفوذ البيزنطي، غير أنّ قوة السلاجقة بدأت بالانحسار بعد وفاة مَلِكْشاه سنة ٤٨٥ هـ، وانقسموا على أنفسهم، ودبّ التناحر فيما بينهم، وانتهى بهم الأمر إلى التعارك فالضعف مع نهاية القرن الخامس الهجري.

٣ ـ **الخلافة الفاطمية**: أقام الفاطميون دولتهم في شمالي إفريقيا بعيدًا عن مركز الخلافة العباسية، واتخذوا مدينة المَهديّة في تونس عاصمة لهم، ثم فتحوا مصر، وبنى لهم قائد الجيش وفاتح مصر جَوْهَر الصِّقِلّي مدينة القاهرة، واتخذوها عاصمة، وشرعوا يقارعون الخلافة العباسية كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، كما نافسوا الحَمْدانيين على بلاد الشام، ودخلوا بعد ذلك في صراع مع السلاجقة، وتمكن السلاجقة من دحرهم في النهاية، ولم يبق للفاطميين نفوذ في الشام سوى في القدس، مع مساحة ساحلية محدودة، بدءًا من جُبَيْل (في لبنان) وإلى الجنوب.

وتفاقم التنافس على الخلافة في الأسرة الفاطمية، وخاصة بعد وفاة الخليفة المُستنصِر بالله سنة ٤٨٧ هـ، إذ ولّت مراكز القوى ابنه الأصغر المُستَعلي بالله أحمد الخلافة، بدلاً من ابنه الأكبر وولي العهد أبي منصور نزار، الأمر الذي أدّى إلى حدوث انشقاق عقائدي عميق كان من أخطر نتائجه ظهور طائفة الإسماعيلية (الحشّاشين) بقيادة الحسن بن الصَّبّاح. وعندما بدأت الحروب الفرنجية (الصليبية) كانت الخلافة الفاطمية في أدنى دَرَكات الضعف لعوامل كثيرة أبرزها عاملان: أولهما، انعدام التجانس بين عناصر الجيش الفاطمي، والصراع بين الجنود الأتراك والمغاربة والسودان والأرمن، وثانيهما، استبداد الوزراء بالحكم نظرًا لصغر بعض الخلفاء وضعفهم.

٤ ـ **الحملات الصليبية**: كانت معركة مَنازْكِرد سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م حدثًا سياسيًا خطيرًا في تاريخ شرقي البحر المتوسط؛ فبعد أن انتصر السلاجقة، بقيادة أَلْب أَرْسَلان، انتصارًا ساحقًا على الإمبراطور البيزنطي أَرْمانوس، أصبحت أبواب آسيا الصغرى مفتوحة أمام السلاجقة للاندفاع في غربي آسيا الصغرى.

وكانت تلك المعركة أهم أسباب الحروب المعروفة باسم «الحروب الصليبية»، فقد عقد البابا أُورْبان الثاني مجمع كِليرمُونْت في فرنسا سنة ١٠٩٥ م، ودعا شعوب

أوربا وملوكها وأمراءها إلى المشاركة في الحرب المقدّسة ضد المسلمين، وانطلقت الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م شرقًا، وعبرت البوسفور، واقتحمت أراضي آسيا الصغرى (غربي تركيا حاليًا) الخاضعة للسلطان السَّلجوقي قِليجْ أَرْسَلان، وأسست إمارة الرُّها سنة ٤٩٠/٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م، ثم إمارة أنطاكيا سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م، ومملكة القدس سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م، وإمارة طرابلس سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ م.[1]

٥ ـ **الدولة الزَّنكية**: مرّ أنّ الزنكيين تركمان من قبائل سابْ يو، ولمع نجمهم على يد جدهم قَسِيم الدولة آقْسُنْقُر في عهد السلطان السَّلجوقي مَلِكْشاه، وبعد مقتل آقْسُنْقُر في حرب سلجوقية داخلية حلّ ابنه عماد الدين محلّه في الولاية على الموصل والجزيرة، فبسط سيطرته على مناطق هامة من شمالي كُردستان (نِصيبين، سِنْجار، منطقة الخابور، حَرّان، جزيرة ابن عُمَر)، إضافةً إلى المناطق الكردية المحيطة بالموصل، ثم ضمّ حلب إلى إمارته، وتطلّع إلى جنوبي بلاد الشام، وسيطر على بَعْلَبَك (في لبنان).

وهكذا أصبح عماد الدين على تماسّ مع الفرنج: شمالاً وشرقًا مع إمارة الرُّها، وجنوبًا وغربًا مع إمارتي أنطاكيا وطَرابلس، فخاض سلسلة من المعارك ضدهم، وقضى على إمارة الرُّها سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م، وشرع بعدئذ يقضي على بقية معاقل الفرنج شرقي الفرات. وبعد مقتل عماد الدين انتهج ابنه نور الدين نهجه في الصراع ضد الفرنج، وكان الغضب قد استبدّ بهم لسقوط إمارة الرُّها، فشنّوا الحملة الصليبية الثانية ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م. وقد استعان نور الدين بحنكة قائد جيوشه شَيركُوه وببسالته، فاستولى على عدد من حصون الفرنج في بلاد الشام، واستخلص دمشق من أيدي بني أُرْتُق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٣ م، وامتد بنفوذه إلى مصر.

ولمّا توفي نور الدين سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٦٤ م، نشب الصراع على السلطة بين ورثته ومن وراءهم من مراكز القوى، وضعفت الدولة الزنكية، في حين كان الفرنج يتربّصون بها، فلم يرَ صلاح الدين بُدًّا من التدخّل، وتأسيس الدولة الأيوبية.

---

(١) عبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية**، ١/١٨٢، ٢٠٤، ٢٤٠، ٣١٦.

٦ ـ **دولة المُوحِّدين**: طوال قرن ونصف القرن من الزمان هيمن المُرابطون على شمالي إفريقيا والأندلس، ومع بدايات القرن السادس الهجري تضاءلت قوتهم، وظهرت قوة منافسة جديدة تحت اسم «المُوحِّدين».

ومع سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م قضى المُوحِّدون على الدولة المُرابطية، وبسطوا نفوذهم على شمالي إفريقيا من المحيط الأطلسي غربًا إلى تونس شرقًا بقيادة عبد المؤمن بن علي ت ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م، وهو شخصية أمازيغية (بربرية)، إضافةً إلى أنهم عبروا إلى الأندلس (إسبانيا) التي كانت ممزّقة بسبب خصومات ملوك الطوائف، وسيطروا عليها سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦٠ م، وحمل عبد المؤمن لقب أمير المؤمنين، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين، واحتفظت دولة المُوحِّدين بقوتها زمن السلطان أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (ت ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م).

غير أنّ أقوى عهود الدولة المُوَحِّدية هو عهد السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور (ت ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م)، وقد أنشأ هذا السلطان قوة ضاربة برًا وبحرًا، وحقّق الانتصار على ملوك إسبانيا في معركة «أَرَك» سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م، رغم أنّ جيوشًا أوربية متمرّسة في القتال هبّت إلى نجدة الإسبان، قادمةً من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الدول الأوربية؛ وكان الصراع بين المُوحِّدين والدول الأوربية المتعاطفة مع الإسبان موازيًا، من حيث الزمان، للصراع بين المسلمين والفرنجة في شرقي المتوسط.[١]

الأسرة الأيوبية:

تؤكد الروايات التاريخية الموثَّقة أنّ والد صلاح الدين هو يوسف بن نجم الدين أيّوب بن شادي (شاذي) بن مروان، وتنتسب أسرته إلى عشيرة رَوادي (رَواندي = رَوَنْدي) الكردية، و«رَوَنْد» بالكردية تعني «الرحّال/ المتنقّل»، وهي فرع من قبيلة هَذْباني الكبيرة القاطنة في منطقة دَوِين (دُوِين) في أرمينيا، وجدير بالذكر أنّ ثمة بلدة تحمل هذا الاسم في منطقة إربيل (جنوبي كردستان)، وكانت عاصمة لحكومة

---

(١) انظر شارل اندرى جوليان: **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ٢/ ١٣٦-١٥٠. علي محمد محمد الصّلابي: **دولة الموحّدين**، الفصل الأول والفصل الثاني.

سُوران الكردية فترة من الزمن، وذكر محمد أمين زكي أنّ قسمًا كبيرًا من قبيلة هَذْباني كان يسكن تلك الجهة في عهد الأتابَكة، أما دَوِين الأرمينية فكانت مركز الحكومة الشَّدادية الكردية ٣٤٠-٤٦٥ هـ.(١)

وعُيّن نجم الدين، في عهد السلطان السَّلجوقي مَلِكْشاه، واليًا على تِكْريت بمساعي صديقه مجاهد الدين بَهْرُوز قائد شرطة بغداد، وفي سنة ٥٢٦ هـ اشتبك أتابگ الموصل عماد الدين زَنْكي في معركة ضد الخليفة وأنصاره من السلاجقة، ولحقت به الهزيمة، فتقهقر إلى الموصل، ومرّ في طريقه بقلعة تِكريت حيث نجم الدين أيوب، فأحسن نجم الدين استقباله، وسهّل له ولجنده عبور دجلة بسلام، ويسّر له النجاة، فأثار غضب حكومة بغداد.

وزاد الأمر تعقيدًا أنّ شَيرْكُوه أخا نجم الدين قتل واحدًا من كبار الضباط من حامية قلعة تِكريت بسبب تحرّش الضابط بامرأة، فطلب بَهْرُوز من نجم الدين مبارحة تِكريت، وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م في الليلة ذاتها التي رحل فيها نجم الدين من تِكريت، متوجّهًا إلى عماد الدين زَنكي في الموصل، وقد أكرمه عماد الدين، وعيّنه حاكمًا على قلعة بَعْلَبَك في لبنان حينما بدأ هجومه على سوريا سنة ٥٣٤ هـ.(٢)

بعد اغتيال عماد الدين تقاسم أولاده البلاد، واستغل حكّام الشام من بني أُرْتُق الوضع، وسيطروا على بَعلبك بعد أن تقاعس الزنكيون عن نجدة نجم الدين، فأصبح نجم الدين تابعًا للأراتقة مرغَمًا، وانتقل معهم إلى دمشق، وأصبح قائد كافة جند الشام «وزير الدفاع». أمّا شَيركُوه فعمل تحت إمرة نور الدين زنكي، وتدرّج في المناصب حتى أصبح من أكبر قادة الجيش الزنكي، لما كان يتميّز به من مواهب عسكرية ومن بسالة، واستطاع نور الدين فتح بلاد الشام ودخول دمشق بمساعدة من نجم الدين، وكافأه على ذلك مكافأة كبرى.(٣)

وكانت مصر حينذاك مركز الخلافة الفاطمية، غير أنّ تلك الدولة كانت تعاني

---

(١) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١١٩. ابن شدّاد: **النَّوادر السلطانية**، ص٦. أبو شامة: **عيون الروضتين**، ١/ ٣٢٩.

(٢) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١١٩. أبو شامة: **عيون الروضتين**، ١/ ٣٣٠.

(٣) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١٢٠.

الضعف، وأصبحت ألعوبة بين أيدي الوزراء والقوّاد والنساء في القصر، الأمر الذي أحدث كثيرًا من الاضطرابات، وأسال لعاب الأطماع الفرنجية. وقد استعانَ الخليفة الفاطمي العاضِد لدين الله بالسلطان نور الدين؛ لينقذ البلاد من صراع الوزيرين ضِرْغام وشاوَر، ومن هجوم الفرنج، فانتدب نور الدين قائده المحنّك أسد الدين شَيركُوه لهذه المهمّة، وأرسل معه ابن أخيه الشاب صلاح الدين يوسف.

بدأت حملة شَيرْكُوه الأولى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، وأتبعها بحملة ثانية سنة ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦-١١٦٧ م، وبحملة ثالثة سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م، واستطاع، بعد حروب ضارية ضدّ كلٍّ من ملك القدس الفرنجي أَمُوري الأول والوزير المصري المتآمر مع الفرنج شاوَر، أن يُخرج الفرنج من مصر، ويقضي على ألاعيب الوزير المتآمر، وعينّه الخليفة الفاطمي وزيرًا بدلاً من شاور، وكان كلّ ذلك بمشاركة مباشرة من ابن أخيه صلاح الدين.[١]

عهد التأسيس:

بعد وفاة شَيرْكُوه، سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م، أسند الخليفة الفاطمي العاضِد منصب الوزارة إلى صلاح الدين، وكان لا بدّ من توحيد صف شعوب غربي آسيا في مواجهة الهجوم الفرنجي، وما كان ذلك ليتحقّق والمنطقة منقسمة بين خلافتين متناحرتين: العباسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة. وباشر صلاح الدين -وهو مرغَم- عملية التغيير بإلحاح شديد من الخليفة العباسي، وبأمر من نور الدين، فأُلقيت أولُ خطبة في مصر باسم الخليفة العباسي المُستضيء بأمر الله، في أوّل جمعة من شهر محرّم سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م.

وكان الخليفة العاضِد مريضًا يعيش أيامه الأخيرة، فأمر صلاح الدين بإخفاء الخبر عنه رحمةً به، فتوفّي في السنة نفسها وهو لا يعلم بقطع الخطبة الفاطمية، وأصبحت مصر وما يتبعها من بلاد تحت سلطة صلاح الدين التابعة بدورها للسلطان نور الدين محمود، وهكذا تمّ توحيد مصر والشام في مواجهة الغزو الفرنجي.[٢]

---

(١) المرجع السابق، ص١١٩، ١٣٢، ١٣٧. وابن شداد: **النوادر السلطانية**، ص٤٠.

(٢) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١٤٢. ابن شدّاد: **النوادر السلطانية**، ص٤٥. أبو شامة: **عيون الروضتين**، ١/ ٤٩٢.

غير أنّ بعض كبار القادة الذين رافقوا شَيرْكُوه إلى مصر -خاصةً التركمان بقيادة عين الدولة اليارُوقي- لم يرضوا بصلاح الدين قائدًا عامًا، وكانوا يرون أنهم أجدر منه بالمنصب، لذا تركوا مصر وتوجّهوا إلى دمشق، وراحوا يوغرون صدر السلطان نور الدين على صلاح الدين، ويوهمونه بأنّ صلاح الدين يحاول الاستقلال بحكم مصر.

ويبدو أنّ نور الدين زنكي كان يفكّر في الاتجاه نفسه، لذا شرع يستفزّ صلاح الدين على نحوٍ متعمّد، ويضيّق عليه؛ بغية استدراجه إلى إعلان العصيان، فيكون عصيانه حجة لإزاحته أو القضاء عليه. ذكر أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) في هذا الصدد: «أنّ نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين، ووزارة صلاح الدين، وما انعقد له من المَحبّة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره، وتأفّف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئًا بغير أمري؟ وكتب في ذلك عدّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره».(١)

كان صلاح الدين أذكى من أن يقع في الخطأ، فتحلّى بالصبر، كما أنه استرشد بآراء والده نجم الدين السديدة، وحرص على تجنّب الاصطدام بالسلطان، وذكر صلاح الدين محنته مع مضايقات نور الدين قائلاً: «والله لقد صبرتُ منه على حَزّ المُدى وخَزّ الإبر... وما قدَرِ أحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعتدّه ذنبًا، ولقد اجتهد هو نفسه أيضًا أن يجد لي هَفوةً ويعتدَّها عليّ فلم يَقدر، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلتي الأشياءَ التي لا يُصبَر على مثلها، لعلي أتضرّر أو أتغيّر، فيكون ذلك وسيلةً إلى مُنابذتي، فما أبلغته أَرَبَه يومًا قطّ».(٢)

بوفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م دبّ الخلل في التوازن العسكري بين المسلمين والفرنج، وكانت الدولة الزنكية تمتد من النُّوبة غربًا وجنوبًا إلى جوار هَمَذان شرقًا وشمالاً، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج، وقد تسلّم الملك الصالح إسماعيل السلطة بعد وفاة والده، وكان له من العمر خمسة عشر عامًا، لكنّ رجال والده وقواد جيشه استأثروا بالحكم، وثار عليه بعض أقاربه، ونازعوه السلطة، وكان

---

(١) أبو شامة: **عيون الروضتين**، ١/ ٤٤٠-٤٤١.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٤٤٢. والمنابذة: الحرب.

لا بدّ من توحيد شعوب غربي آسيا مرة أخرى، للوقوف في وجه الفرنج، خاصةً أنّ الأمور في بلاد الشام ازدادت سوءًا.

عندئذٍ تحرّك صلاح الدين بجيشه من مصر إلى سوريا، بعد أن راسله الأمراء في دمشق، وحصل على تأييد الخليفة العباسي في بغداد، ودخل دمشق سنة ٥٧٠ هـ، ونظّم شؤون البلاد، واضطر إلى خوض معركة فاصلة ضد الحلف الزنكي الذي كان بقيادة الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين، وجرت المعركة على مقربة من حماه سنة ٥٧٠ هـ، وانتصر على الزنكيين، وبسط نفوذه على سائر الديار الشامية، وتوسّع نفوذه فشمل اليمن سنة ٥٦٩ هـ، وسِنْجار وآمَد سنة ٥٧٨ هـ، وحلب سنة ٥٧٩ هـ، ومَيّافارِقين سنة ٥٨١ هـ، وامتدت الدولة الأيوبية في عهده من سِنْجار والموصل شرقًا إلى تونس غربًا، ومن مَيّافارقين والأناضول شمالاً إلى اليمن والسودان جنوبًا.[(١)]

طور القوة والصراع ضدّ الفرنج:

أوقف صلاح الدين حياته على محاربة الفرنج في مصر والشام، وظلّ كذلك إلى آخر حياته؛ فمنذ أيامه الأولى في مصر اتفق ملك بيت المقدس الفرنجي عَمُوري (أَمُوري) الأول وإمبراطور بيزنطا إمانويل كُومينين على ضرب مشروع الوحدة بين مصر والشام، وقاما بغزو مصر برًا وبحرًا عن طريق دِمْياط سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م، وأصبح موقف الأيوبيين في دِمياط حرجًا جدًا، لكنّ صلاح الدين أصرّ على المقاومة، وكلّف ابن أخيه تقيَّ الدين عمر، وخاله شهابَ الدين محمود الحارِمي بالدفاع عن دِمياط، وأمدّه السلطان نور الدين بالمعونة، واستطاع في النهاية إلحاق الهزيمة بالتحالف الفرنجي- البيزنطي.[(٢)]

استثمر صلاح الدين انتصاره في دِمياط، فانتقل من الموقف الدفاعي إلى الموقف الهجومي، وخرج من مصر سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م لمهاجمة قلاع الفرنج في الأُردن، ووجد الفرنج أنفسهم بين فكّي كمّاشة: صلاح الدين من الجنوب

---

(١) ابن شدّاد: **النوادر السلطانية**، ص٥٠-٥٢. ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص١٨١.

(٢) ابن شدّاد: **النوادر السلطانية**، ص٤١-٤٣.

(مصر) ونور الدين من الشمال (بلاد الشام).[(١)]

بعد أن تسلّم صلاح الدين السلطنة كان عليه البدء بتوحيد جبهة شعوب المنطقة، لذا عاد إلى الإستراتيجية الدفاعية، لحماية أملاك الناس وأراضيهم من ناحية، وليمنع التعاون بين الفرنج والقوى المتخاذلة في بلاد الشام؛ تلك القوى التي شغلتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجي. وما كاد صلاح الدين ينتهي من القضاء على القوى المتخاذلة -وكان يقودها آل زَنكي ومن يرتزقون باسمهم من القوّاد- حتى عاد مرة أخرى إلى إستراتيجيته الهجومية ضد الفرنج، فبدأ بالهجوم على عَسْقَلان سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٦ م، وكانت الحرب سِجالاً بين الفريقين؛ فالفرنج يحاولون جاهدين تمزيق وحدة شعوب الشرق الأوسط جغرافيًا، وصلاح الدين يبذل كل جهوده لصيانة تلك الوحدة، وتدمير مراكز القوة الفرنجية.

وأصبحت الدولة الأيوبية أكثر قوة بعد ضمّ الموصل وحلب، وغدت مرهوبة الجانب إقليميًا وخارجيًا؛ أما إقليميًا فقد اعترف بها الخليفة العباسي، كما أيّدها أمراء المسلمين رغبة أو رهبة. وأما خارجيًا فقد فرضت احترامها على الدول المحيطة، وامتلكت أسطولاً بحريًا قويًا قام بعمليات عسكرية كبرى في البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، وتمكّن صلاح الدين من تحقيق النصر على جيوش الفرنج مجتمعة في معركة حِطِّين سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م، ثم فتح كثيرًا من المدن الساحلية، وتكلّلت جهوده بفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م.[(٢)]

وتصدّت الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين للحملة الصليبية الثالثة التي بدأت سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م، وكانت بقيادة إمبراطور ألمانيا فِرِدْريك بَرْبَرُوسا، وتبعه بعدئذٍ فيليب أُوغُست ملك فرنسا سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م، ثم وصل ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد في السنة ذاتها، وكان الهدف استعادة القدس من الأيوبيين. وكان على صلاح الدين أن يحارب بعناد وجَلَد أضخم الجيوش الأوربية وأقواها في ذلك العصر، وبعد معارك ضارية وصراع طويل مرير دحر الغزو الفرنجي، وألحق الهزيمة بالحملة الصليبية الثالثة.[(٣)]

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧٥-٨٢.

(٣) المرجع السابق، ص١١٥.

بعد وفاة صلاح الدين، سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م، اقتسم أولاده الدولة، ودبّت الخلافات الحادة فيما بينهم، وما لبث أن سيطر عمهم الملك العادل على الحكم سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م، وأعاد توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطته ثانية، واستمر في مقاتلة الفرنج، ولا سيّما في أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥ هـ/١٢١٨ م)، وبعد وفاة الملك العادل في السنة نفسها تابع ابنه الملك الكامل سياسة والده في المحافظة على تماسك الدولة ومواجهة الفرنج، رغم النزاعات التي كانت تدبّ بين أمراء البيت الأيوبي.[١]

ظلّ الصراع قائمًا بين الأيوبيين والفرنج خلال الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م، وقد قاد فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا هذه الحملة بضغط من البابا جريجوري التاسع، وختمت الدولة الأيوبية كفاحها بالوقوف في وجه الحملة الصليبية السابعة، وكانت بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع (سنة ٦٤٦-٦٤٧ هـ/ ١٢٤٨ م)، وكانت وجهتها مصر، مركز السلطة الأيوبية الرئيسي، وقد حقق الأيوبيون النصر على الفرنسيين في مدينة المنصورة، وأسروا الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م.

زوال الدولة الأيوبية:

بوفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م، انحدر نجم الأيوبيين في مصر إلى الأفول؛ إذ تولّى الحكم بعده ولده الملك المعظّم تَوْرانْشاه، ويبدو أنّ دسائس البلاط فيما مضى كانت قد أفسدت العلاقة بينه وبين والده السلطان أيام كان وليًا للعهد، فأبعده السلطان عن مصر مركز السلطة، وعيّنه نائبًا له في حِصن كَيْفا بشمالي كردستان.

وبمراجعة الأحداث التي واكبت الحملة الصليبية السابعة، وما وقع بعد تلك الحملة من أحداث، يتّضح أنّ المماليك الأتراك كانوا قد هيمنوا على المراكز الهامة في الدولة الأيوبية، خاصة على الصعيد العسكري، وكان أبرز زعمائهم الأمير فخر الدين وعزّ الدين أَيْبَك التركماني وفارس الدين أَقْطاي وبَيْبَرس البَنْدَقْداري وقُطْز.

---

(١) ابن سباط: **تاريخ ابن سباط**، ١/٢٠٩، ٢٢٩، ٢٦٠.

أما الكرد فكانت قواهم مشتّتة، ورغم ذلك حاولوا الوقوف في وجه المماليك، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة الملك الصالح أسرع الأمير الكردي حسام الدين بن أبي علي الهَذْباني، نائب الملك الصالح في القاهرة، بإيفاد رسول إلى حِصن كَيْفا لاستقدام تَوْرانْشاه، ووصل رسوله إلى تَورانشاه قبل وصول فارس الدين أَقْطاي رسول شجرة الدُّر.

بطبيعة الحال كان المماليك في مصر قد أصبحوا أقوى، ولذا بدأ تَوْرانشاه، بعد الانتصار على الحملة الفرنسية، بعزل بعضهم، وعدم تمكين آخرين من المناصب التي كانوا يطمعون فيها، فثارت ثائرة قادتهم، وفي يوم الاثنين ٢٨ من شهر مُحَرَّم سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، هجموا على تَورانشاه في «فارِسْكُور» وهو على مائدة الطعام، وكان بَيْبَرْس في مقدّمة المهاجمين، وهو الذي ضربه بالسيف، فتلقّى تَورانشاه الضربة بيده، فقُطعت بعض أصابعه، فأسرع إلى برج خشبي كان نصبه، فأشعلوا النار في البرج، فرمى بنفسه في مياه النيل، فلم ينفعه ذلك، إذ رموه بالسهام، وخاضوا إليه الماء، وقطّعوه بالسيوف، وبقيت جثّته على شاطئ النيل ثلاثة أيام، لا يجرؤ أحد على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي المُستعصِم بالله، فدُفن.[١]

لا نحسب أنّ تَورانشاه كان سيئًا إلى تلك الدرجة التي أشيعت عنه، ولعلّ للمماليك يدًا في الترويج لما أشيع عنه من خفّة وهَوَج وإقبال على الخمر، إذ يُفهم من الأخبار أنه كان مولَعًا بمجالس العلم، ويناظر الفقهاء والعلماء من أمثال العِزّ بن عبد السلام وسراج الدين الأُرْمَوي، وكان جدُّه الملك الكامل يحبّه لذلك.

كما أنّ تَوْرانْشاه كان يمتاز بقدرات حربية ممتازة، ويجيد إدارة المعارك، ويعرف كيف يوظّف قدرات رجاله بالكيفية المثلى في إلحاق الهزيمة بالعدو، وكيف يستثمر النصر لتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب خلال المفاوضات التي تبعت أسر الملك لويس التاسع؛ والدليل على ذلك أمران: أولهما، الانتصار على الفرنسيين بمجرّد وصوله إلى مصر، رغم أنه كان بعيدًا قبل ذلك، وثانيهما، الشروط

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٣٤٣-٣٥٥. عبد الباسط بن خليل بن شاهين المَلَطي: **نُزهة الأساطين**، ص٦٣-٦٤. المَقريزي: **كتاب السلوك**، الجزء الأول، القسم الثاني، ص٣٥٩-٣٦٠.

التي استطاع فرضها على الملك الفرنسي خلال المفوضات.[(١)]

لكن مع ذلك يبدو أنّ تَوْرانشاه كان معتدًّا بنفسه أكثر مما يجب، كما كان يمنح ثقته أناسًا ما كانوا يستحقون تلك الثقة، هذا إضافةً إلى تسرّعه في اتخاذ القرارات الخاصة بأمور الدولة على الصعيد الداخلي، واستهانته بقوة المماليك، وعدم مراعاة مكانتهم، فكان يضرب رؤوس الشمع في الليل، ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية»، ويسمّي كلَّ واحد منهم باسمه.[(٢)]

إنّ سياسات تَوْرانشاه القاصرة، وتدابيره الارتجالية ضد زوج أبيه شجرة الدُّر وزعماء المماليك، أوصلته إلى تلك النهاية المأساوية، وأدّت بالدولة الأيوبية إلى الزوال؛ إنه -على سبيل المثال- بدأ بالقضاء على نفوذ كبار رجالات البيت الأيوبي والكرد الآخرين، فأخرج الملك المُغيث الأيوبي من قلعة الجبل في القاهرة إلى قلعة الشُّوبَك في الأُردن، واعتقله بها، ثم أخرج الملك السعيد الأيوبي من مصر إلى دمشق، وأمر باعتقاله هناك، ولم يكتفِ بذلك، بل أساء إلى الأمير حُسام الدين الهَذْباني أيضًا، فعزله عن نيابة السلطنة بالقاهرة وأهمل شأنه، «بعدما كان عُدّة الملك الصالح وعُمْدَتَه».[(٣)]

إنّ سياسات تَوْرانشاه المرتجَلة تذكّرنا بسياسات الملك الميدي الأخير أَسْتِياك، ونتيجةً لذلك بقي تَوْرانشاه في ساعة المحنة وحيدًا، ولم يهبّ أحد إلى نصرته، بل إنّ بعض القادة الكرد الذين أساء إليهم انحازوا إلى صف المماليك، ومنهم الأمير حُسام الدين الهَذْباني نفسه، فقد ندبه رئيس المماليك ليفاوض الملك الفرنسي بخصوص تسليم دمياط للمسلمين وسائر الشروط الأخرى التي طالب بها المسلمون للإفراج عن الملك الأسير. كما أننا نجد كرديًا آخر يقف مع المماليك، وهو الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسْعَردي، فقد أوفده المماليك إلى دمشق لاستحلاف الأمراء بها، والحصول على البيعة.[(٤)]

---

(١) المَقْرِيزي: **كتاب السلوك**، الجزء الأول، القسم الثاني، ص٣٥٤. وانظر عبد المنعم ماجد: **الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية**، ص١٤٢.

(٢) المَقْريزي: **كتاب السُلوك**، الجزء الأول، القسم الثاني، ص٣٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٥٨.

(٤) المرجع السابق، ص٣٦٢-٣٦٣، ٣٦٦.

محاولة يائسة:

بعد مقتل تَورانشاه تولّت شجرةُ الدُّر الحكم، لكنّ الخليفة العباسي المُستعصِم بالله عاب على أمراء مصر أن تملكهم امرأة، وكتب إليهم يقول: «إن كانت الرجال قد عَدِمتْ عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً». فاتفق المماليك على إقامة عز الدين أَيْبَك سلطانًا، ولقّبوه بالملك المُعِزّ، وخَلَعت شجرةُ الدُّر نفسها بعد حكم دام أقل من ثلاثة أشهر.[١]

الحقيقة أنّ اتفاق المماليك على تنصيب أَيبَك سلطانًا لم يأت استجابةً لرسالة الخليفة فقط، وإنما لأنّ البيت الأيوبي في بلاد الشام تحرّك بقوة لاسترجاع الملك المسلوب، وقد تزعّم تلك الحملة صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين بن أيوب، فقد كتب إليه الأمراء القَيْمَرية الكرد في دمشق «يُخبرونه بامتناعهم من الحَلْف لشجرة الدُّر، ويحثّونه على المسير إليهم حتى يملك دمشق».[٢]

سار الناصر صلاح الدين بعساكره إلى دمشق، فسيطر عليها وعلى قلعتها بمساعدة الأمير الكردي ناصر الدين أبي المعالي حسين بن عزيز القَيْمَري، وسمع المماليك بذلك فقبضوا على أمراء مصر «الذين ليسوا من الترك»، كما يقول ابن واصل؛ أي الأمراء الكرد، وأصبح الصراع تركيًا كرديًا بكل وضوح.[٣]

وانضم ملوك أيوبيون آخرون إلى الحملة ضد المماليك، فسيطر الملك المُغيث على الكَرَك والشُّوبَك في الأُردن، وسيطر الملك السعيد على غَزّة وقلعة الصُّبَيْبَة، وأحسّ المماليك بالخطر يداهمهم، فلجأوا إلى مناورة سياسية بارعة، وقالوا: «لا بدّ من إقامة شخص من بيت المُلْك مع المعز أَيبَك، ليجتمع الكلّ على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله».

واتفق المماليك على إقامة الملك الأشرف مُظفَّر الدين موسى بن الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل بن الملك العادل سلطانًا، وله من العمر ستّ

(١) المرجع السابق، ص٣٦٨-٣٦٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٦٧.
(٣) المرجع السابق، ص٣٦٩.

سنين، على أن يقوم بتدبير الدولة الملك المُعِزّ أَيبَك. قال المَقْريزي معلّقًا على هذه المناورة السياسية قائلاً: «إلاّ أنّ الأشرَف ليس له سوى الاسم في الشركة، لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المُعِزّ أَيْبَك»[1].

والحقّ أنّ تنصيب الملك الأشرف سلطانًا لم يكن -بالنسبة إلى المماليك- إلاّ حصان طروادة سياسي، وحققوا بتنصيبه أمورًا أربعة:

- **الأول**: إجهاض حملة البيت الأيوبي بقيادة الملك الناصر، وتمزيق الصف الأيوبي نفسه، والحدّ من التفاف المؤيّدين حولهم.
- **الثاني**: الاحتماء بغطاء سياسي شرعي، باعتبار أنّ الملك الأشرف من البيت الأيوبي، ولا داعي إلى مناهضته، بل إنّ مناهضته تعني الخروج على السلطة الشرعية.
- **الثالث**: استغلال صغر الملك الأشرف لتمرير سياساتهم الخاصة باسمه، ولتقوية مركزهم، وترسيخ نفوذهم.
- **الرابع**: إمكانية التخلص منه بسهولة بمجرّد القضاء على الحملة الأيوبية المناهضة لهم.

يُفهم من الأحداث أنّ الصف المملوكي نفسه لم يكن موحَّدًا بشكل مطلق، فإنّ فريقًا من العسكر في غَزّة، بقيادة الأمير رُكن الدِّين خاصْ تُرك، اتفق مع بعض الأمراء لإقامة الملك المُغيث صاحب الكرك سلطانًا، فعمد المماليك إزاء هذه المنافسة الجديدة إلى مناورة سياسية جديدة على مستوى أوسع، ألا وهي الاحتماء بغطاء الخلافة، واستمداد الشرعية منها، قال المَقْريزي: «فلما ورد الخبرُ بذلك نُودي في القاهرة ومصر أنّ البلاد للخليفة المُستعصِم بالله العباسي، وأنّ الملك المُعِزّ أَيبَك نائبه بها»[2].

وأخيرًا توجّه الملك الناصر إلى مصر بجيش كبير، ومعه بعض زعماء الأسرة الأيوبية، منهم الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل، والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن شَيرْكُوه، والملك شادي بن الناصر داود،

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦٩-٣٧٠.

وأخوه الملك الأمجد حسن، والملك الأمجد تقيّ الدين عباس بن العادل، وملوك آخرون، وهكذ رمى البيت الأيوبي المماليك بكبار رجالاته لاسترجاع الدولة، إضافةً إلى عدد آخر من كبار القادة الكرد، وفي مقدّمتهم الأمير شمس الدين الحَمِيدي، والأمير بدر الدين الزَّرْزاري، والأمير ضياء الدين القَيْمَري.

وعلى الجانب المملوكي دبّ الاضطراب، وقُبض على جماعة من الأمراء المتَّهمين بالميل إلى الملك الناصر، وتجاوز الناصر غَزّة فالدارُوم، ووصل إلى التخوم الفاصلة بين الشام ومصر، وخرج إليه الملك المُعِزّ أَيْبَك بقواته، والملاحَظ هنا أنّ الأمير الكردي حسام الدين الهَذْباني كان من أبرز قوّاده، وكان قائدًا على ميسرة العسكر المملوكي، والتقى الجيشان قرب العبّاسة، وكانت الجولة الأولى للجند الأيوبي على الجند المملوكي، لكنّ العصبية التركية لعبت دورها في أشد لحظات القتال حرجًا، في حين ظلّ الكرد من أمثال الهَذْباني مخلصين للجانب التركي، وتلك واحدة من أبرز سلبيات الشخصية الكردية على مدار التاريخ، قال المَقْريزي بشأن العصبية التركية: «وكان في ظنّ كلّ أحد أنّ النُّصرة إنما تكون للملك الناصر على البَحْرية، لكثرة عساكره، ولميل أكثر عسكر مصر إليه، فاتفق أنه كان مع الناصر جمعٌ كبير من مماليك أبيه الملك العزيز، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلّة الجنسية».(١)

وقال المَقْرِيزي أيضًا: «ووقف الناصر في جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه، وقد اطمأنّ، فخرج عليهم المُعِزّ ومعه الفارس أَقْطاي، في ثلاثمائة من البحرية، وقرب منه، فخامر عدّة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المُعِزّ والبحرية، فولّى الناصر فارًا يريد الشام في خاصته وغلمانه، واستولى البحرية على سَناجقه، وكسروا صناديقه، ونهبوا أمواله».(٢)

إذًا، خسر الأيوبيون المعركة لأنّ من كان في صفوفهم من المماليك الترك انحازوا إلى أبناء جنسهم، وغدروا بالأيوبيين، وكانوا قوة قتالية هامة، بدليل كونهم

(١) المرجع السابق، ص٣٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٥. والعزيزية هم ممالك أتراك، اقتناهم الملك العزيز والد الملك الناصر. والسناجق: الرايات. وخامر: تآمر.

في القلب مع الملك الناصر، وكانت النتيجة وقوع ملوك البيت الأيوبي وقادة الكرد في الأسر، ومقتل بعضهم. والحقيقة أنّ انحياز المماليك الترك إلى بني جنسهم، ووقوف الأمير الكردي حسام الدين الهَذْباني ضد بني جنسه، يذكّر بانحياز القائد الميدي هارْپاگ إلى الملك كورش الثاني الأخميني في الصراع ضد الملك الميدي أَسْتِياگ.

واستمرّ الصراع المحموم بين البيت الأيوبي بقيادة الناصر والمماليك بقيادة المُعِزّ أَيْبَك، وأخيرًا اتفقا سنة ٦٥١ هـ «على أن يكون للمصريين إلى الأردنّ، وللناصر ما وراء ذلك، وأن يدخل في ما للمصريين غزّة والقدس ونابلس والساحل كله، وأنّ المُعزّ يُطلق جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر، وحلف كلّ واحد منهما على ذلك، وكُتبت به العهود».[١]

هكذا زالت الدولة الأيوبية بعد أن سطرت صفحات مجيدة في تاريخ غربي آسيا، لكن بقي للأيوبيين بعض مراكز السلطة على نحوٍ متفرق، فقد ظلوا يحكمون في حِمص إلى سنة ٦٦١ هـ، وفي حلب إلى سنة ٦٨٥ هـ، وفي حماة إلى سنة ٦٩٨ هـ، وفي كردستان الوسطى إلى حوالي القرن العاشر الهجري.

إنجازات حضارية:

لم تكن الانتصارات التي حققها الأيوبيون نتيجةً للقوة العسكرية فقط، إنها كانت نتاج النهضة الشاملة التي لاحت بوادرها في عهد نور الدين زَنكي، ثم تولاّها صلاح الدين بعبقريته القيادية، وبصبره وحكمته، وحقّق ما يدعى في عصرنا بـ«التوازن الإستراتيجي» مع الفرنج، وعندما يدقق المرء النظر في سيرة صلاح الدين يتضح أنّ إستراتيجيته قامت على مبدأ «القوة الشاملة»، وهي تعني القوة الروحية (المعنوية) والقوة الثقافية (المعرفية) والقوة الاقتصادية والقوة السياسية والقوة العسكرية.

وقد توجّه الاهتمام في عهد الدولة الأيوبية إلى العلم والعلماء، فشجّع الملوك الأيوبيون العلماء على الدرس والبحث وتحصيل المعارف، ووفّروا لهم المال الكافي

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨٦-٣٨٧.

والمسكن المناسب، كي يتفرّغوا للعلم ونشره. وكانت المدارس التي تدرّس الفِقه أشبه بالجامعات، لأنها كانت في الأصل معاهد شبيهة بما يسمى اليوم «التعليم العالي»، وكان يَلحق بكلّ مدرسة مسجدٌ ومسكن للمدرّس ومكتبة عامرة بالكتب يستخدمها الطلبة والأساتذة. وكانت الكتب في المكتبات مرتّبةً البيوت، مقسّمة الرفوف، ومفهرسة لتسهيل الوصول إليها، كما هو الشأن في تصنيف المكتبات في عصرنا هذا، وكان لكلّ مكتبة موظفون يقومون بتنظيم الكتب والمحافظة عليها.[(١)]

ولم يقتصر التعليم في العهد الأيوبي على المدارس، وإنما قامت المساجد بمهمة تعليم العلوم الدينية والعربية أيضًا، ونال المدرّسون مكانة سامية لم يصل إليها غيرهم حتى أصحاب المراكز السياسية والعسكرية، وكان رجال العلم لا يتردّدون في توجيه النقد في المجالس التي كان السلطان يعقدها، إذا رأوا خروجًا على المألوف.[(٢)]

ودعونا نسمعْ طرفًا مما شهده ابن جُبَيْر الأندلسي (ت ٦١٤ هـ) بنفسه خلال رحلته في أراضي الدولة الأيوبية، ورواه بإعجاب وتقدير، قال في زيارته لمدينة الإسكندرية:

«ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارسُ والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبّد، يَفِدون إليها من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه، ومدرِّسًا يعلّمه الفن الذي يريد تعلّمه، وإجراءً يقوم به في جميع أحواله، واتّسع اعتناءُ السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارِسْتانًا لعلاج مَن مرض منهم، ووكّل بهم أطبّاء يتفقّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خُدّام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء».[(٣)]

---

(١) أمينة بيطار: **تاريخ العصر الأيوبي**، ص٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٨.

(٣) ابن جُبَير الأندلسي: **رحلة ابن جبير**، ص١٩. والمحارس جمع مَحْرَس، وهو مأوى لطالب العلم وللزاهد والغريب. والإجراء مرتَّب مالي. ومارستان: مشفى.

وأضاف ابن جُبَيْر مبديًا إعجابه بالنظام الصحي الذي أقامه صلاح الدين في الدولة الأيوبية:

«ومما شاهدناه أيضًا من مفاخر هذا السلطان المارِسْتان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسنًا واتّساعًا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجّرًا واحتسابًا، وعيّن قيّمًا من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير... ووُضعتْ في مقاصير ذلك القصر أَسِرّةٌ يتّخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسَى، وبين يدي ذلك القيّم خَدَمة يتكفّلون بتفقّد أحوال المرضى بُكرةً وعشيّة... وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطَع للنساء المرضى، ولهنّ أيضًا مَن يكفلهن... السلطانُ يتطلّع إلى هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكِّد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد».[1]

وكان السلاطين الأيوبيون يهتمون بتحصيل المعارف والعلوم، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم، ويحضر مجالسهم، ويشاركهم في أبحاثهم، وكان ابنه الملك العزيز عثمان عالمًا بالحديث والنحو. أما السلطان الكامل فكان يحب أهل العلم، ويفضّل مجالستهم، وكان شغفًا بسماع الأحاديث النبوية، فمن أثبت رسوخه في العلم قدّمه وخصّه بالحظوة، كما كان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم، ليكونوا من سُمّاره.[2]

وقد برز في الأسرة الأيوبية عدد من العلماء، وعلى رأسهم المؤرخ الشهير أبو الفِداء صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)، مؤلّف كتاب **المُختصَر في أخبار البشر**، وكذلك بَهْرام شاه بن فَرُّوخ شاه صاحب بَعلبك (ت ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م)، والملك الناصر صاحب اليمن (ت ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م)، وكان من أهل العلم، واشتملت خزانته على مئة ألف مجلد، ومنهم أيضًا الملك المعظَّم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق (ت ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م)، وكان راغبًا في الأدب وأهله، يعطي كل من يحفظ كتاب **المُفَصَّل** للزَّمَخْشَري مئة دينار وخِلْعة.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦. والمقاصير: جمع مقصورة، وهي الغرفة.

(٢) انظر المقريزي: **كتاب السلوك**، الجز الأول، القسم الأول، ص٢٩٩-٣٠١. أمينة بيطار: **تاريخ العصر الأيوبي**، ص٢١٤.

(٣) أمينة بيطار: **تاريخ العصر الأيوبي**، ص٢١٤.

وامتاز العصر الأيوبي بالتسامح الديني والمذهبي، ورغم أنّ الأسرة الأيوبية كانت شافعية المذهب، فقد كانت المدارس تفتح للمذاهب الأربعة، وعرفوا بمعاملتهم الحسنة للمسيحيين، شرقيين كانوا أم غربيين، وكذلك لليهود، وكانوا أقل تشدّدًا من الزنكيين والسلاجقة في تعاملهم مع أتباع الفرق الشيعية.[١]

وإلى جانب الاهتمام بالمعارف والعلوم، انصبّ اهتمام السلاطين الأيوبيين على تطوير الزراعة والصناعة والتجارة أيضًا، فقد قاموا بتنظيم الريّ في مصر، وأمروا بحفر التُّرَع والمصارف وعمارة القناطر والجسور، وحموا الفلاحين من استغلال الإقطاعيين، واعتنوا أيضًا بتطوير الصناعة، مثل: استخراج المعادن، وصناعة النسيج، واستخراج الزيوت، وتنظيم إدارة الحسبة للإشراف على نقابات أرباب الحرف؛ هذا إضافةً إلى العناية الكبيرة بالتجارة الداخلية والخارجية.[٢]

أسماء سلاطين الدولة الأيوبية، وفترة حكم كل منهم

السلطان	هجري	ميلادي
صلاح الدين يوسف	٥٦٧ - ٥٨٩	١١٧١ - ١١٩٣
العزيز عثمان عماد الدين	٥٨٩ - ٥٩٥	١١٩٣ - ١١٩٨
المنصور محمد ناصر الدين	٥٩٥ - ٥٩٦	١١٩٨ - ١٢٠٠
العادل أبو بكر سيف الدين	٥٩٦ - ٦١٥	١٢٠٠ - ١٢١٨
الكامل محمد ناصر الدين	٦١٥ - ٦٣٥	١٢١٨ - ١٢٣٨
العادل الصغير (الثاني) سيف الدين	٦٣٥ - ٦٣٧	١٢٣٨ - ١٢٤٠
الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٧ - ٦٤٧	١٢٣٩ - ١٢٤٩
المعظّم تَوْرانشاه	٦٤٧	١٢٤٩
عِصْمة الدين أم خليل (شجرة الدر)	٦٤٨	١٢٥٠
الأشرف موسى (ابن المسعود)	٦٤٨	١٢٥٠

(١) المرجع السابق، ص٢١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٦-٢٢٢.

٣- الدولة الزَّنْدِيّة (١٧٦٠ - ١٧٧٩ م)

الجغرافيا أولاً:

كي نفهم التاريخ فلنبدأ بالجغرافيا، وكي نفهم الأديان فلنبدأ بالجغرافيا، وكي نفهم السياسة والاقتصاد فلنبدأ بالجغرافيا، وكي نفهم القيم والأخلاق فلنبدأ بالجغرافيا، وكي نفهم الآداب والفنون فلنبدأ بالجغرافيا، تلك هي الحقيقة.

ولا نقصد بـ (الجغرافيا) التضاريس من جبال ووديان، وسهول وصحارى، وأنهار وبحار فقط، ولا نقصد بها المناخ من أمطار وثلوج، وحَر وقَرّ، وخصوبة وجفاف فقط، بل نقصد جميع هذه العناصر وهي في حالة تفاعل مع البشر أفراداً وجماعات، وبعبارة أخرى: نقصد الجغرافيا الجيولوجية والجغرافيا البشرية والجغرافيا السياسية (جيوپوليتيك).

وعندما نأخذ هذه الحقيقة التاريخية والعلمية بالحسبان في قراءتنا للأحداث، وفي تحليلنا للأمور صغيرها وكبيرها، نصبح أقدر على فكّ كثير من الطلاسم في تاريخ البشر، كما نصبح أكثر معرفة بالعوامل الحقيقية التي وقفت وراء كثير من الأحداث الكبرى، وليس هذا فحسب، بل نصبح أكثر قدرة على فهم الأحداث الكبرى المعاصرة، ونغدو أقدر على تأسيس المستقبل لأجيالنا القادمة.

صَفَويّون وعُثمانيّون:

في الحديث عن الدولة الزَّنْدِية، ومؤسسها الحاكم الكردي اللُّرّي محمد كريم خان زند، لا بد من أن نأخذ الجغرافيا بدلالتها الشاملة في الاعتبار، وهذا يقودنا بطبيعة الحال إلى الصراع الآرياني- الطوراني القديم منذ حوالي خمسة آلاف سنة، ويقودنا في الوقت نفسه إلى الصراع في داخل البيت الآري بين الفرس والكرد، فقد هيمن الفرس الأخمين على مملكة ميديا سنة ٥٥٠ ق.م، لكنهم كانوا بحاجة على الدوام إلى الاستقواء بالجغرافيا الكردية وبالقوة القتالية الكردية، للوقوف في وجه الطورانيين المندفعين شرقًا وجنوبًا، وفعلوا الأمر نفسه حينما تصدّوا للغزوات العربية الإسلامية؛ ولم يكن الصراع البُوَيْهي- السَّلجوقي، في العصر العباسي، إلا شكلاً آخر من أشكال الصراع الآرياني- الطوراني.

ومع بدايات القرن السادس عشر الميلادي، برز الصراع الآرياني- الطوراني في صيغة الصراع الصَّفَوي - العثماني، وقاده من الجانب الفارسي الشاه إسماعيل الصفوي (حكم بين ١٥٠١ - ١٥٢٤ م)، ومن الجانب التركي السلطان سليم الأول (حكم بين ١٥١٢ - ١٥٢٠ م)، وكانت كردستان الجنوبية (إقليم كردستان- العراق)، في بؤرة الصراع بين الفريقين.[١]

وفي سنة (١٧٢٢ م) أنهى نادِرْ شاه -من قبيلة أَفْشار التركمانية- حكمَ الأسرة الصفوية، لكن معظم الإيرانيين عدّوه مغتصبًا للعرش، يعتزم إزالة المذهب الشيعي وإعادة المذهب السني، فاغتاله القواد الشيعة سنة (١٧٤٧ م)، في معسكره بمدينة فَتْح أَباد في خَبُوشان، وكان نادر شاه قد جاء إليها بجيشه للقضاء على ثورة للكرد كانت قد نشبت هناك.[٢]

إن الزوال السريع لحكم نادر شاه تبعته فوضى عامة في بلاد فارس والقوقاز وكردستان الشرقية، وأدّى النزاع بين الزعماء القبليين على العرش الفارسي إلى نشوب حروب طاحنة بينهم، وفي خضم تلك الحروب الطاحنة برزت الجغرافيا الكردية ثانية، وبرزت معها القوة القتالية الكردية الفاعلة، لتترك بصماتها على المسرح السياسي والحضاري في بلاد آريان، وحدث ذلك بقيادة شخصية كردية بارزة، هو محمد كريم خان زَنْد، ويُعرَف في المراجع اختصارًا باسم (كريم خان زَنْد).[٣]

فمن هو الرجل؟ وماذا عن الدولة الزندية؟

تأسيس الدولة الزَّنْدية:

مرّ أن جذور الأمة الكردية تمتد في عُمق التاريخ إلى حوالي خمسة آلاف عام، والشعب الكردي هو حفيد أسلافه الزاغروس-آريين (إيلامي/عيلامي، وغُوتي/جُوتي، ولُوللُو، وسُوبارتي، وكاشُّو، وحُوري/مِيتّاني، ومَنّاي، وخَلْدي/أُورارْتُو، ومِيدي)، ونتيجة لتمازج هؤلاء الأسلاف أصبح الشعب الكردي- بحسب اللهجات-

---

(١) يلماز أوزتونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ١/ ٢٢.

(٢) أرشاك سافراستيان: **الكرد وكردستان**، ص ٨٩.

(٣) المرجع السابق.

من أربعة فروع رئيسة، هي: كُرْمانْج في الشمال، وسُوران وگُوران في الوسط، ولُرّ وكَلْهور في الجنوب.

ويذكر مِهْرداد إيزادي أن قبيلة زَنْد تنتمي إلى شُعبة (لَكي *Laki*) من فرع (لُرّ)، وما زال الناطقون بلهجة لَكَي الزَّنْدية يقيمون في مناطق مختلفة في جنوبي كردستان من كِفري *Kifri* إلا مَلايِر *Malayer*، ويسمّى فرع (لُرّ) في بعض المصادر (لُور)، والصواب (لُرّ).[(١)]

وقال ياقوت الحموي في **معجم البلدان**: «اللُّرُّ: بالضم وتشديد الراء، وهو جيل من الأكراد في جبال بين أَصْبَهان، وخُوزِستان، وتلك النواحي تُعرَف بهم فيقال بلاد اللُّرّ، ويقال لها: لُرِستان، ويقال لها اللُّور أيضاً».[(٢)] وقال الفَيّومي الحموي في **المصباح المنير**: «وَاللُّورُ جِنْسٌ من الأكْرادِ بِطَرَف خُوزِستانَ بين تُسْتَرَ وَأَصْبَهان، وأهلُ اللِّسان يَحذِفونَ الواوَ في النُّطق بها».[(٣)]

وكان الزنديون يثورون على نادر شاه والعثمانيين، فهاجمهم نادر شاه بقسوة، وقضى على ثورتهم، وأجبر قسمًا كبيرًا منهم على الهجرة إلى إقليم خُراسان شرقًا، وأسكنهم حوالي مدينة أَبِيوَرْد، ليكونوا في مواجهة التركمان الغزاة القادمين من الشرق والشمال.

وبعد مقتل نادر شاه على أيدي القواد الشيعة، عيّن الزنديون المهجَّرون كريم خان قائداً لهم، وكان كريم خان قبل ذلك من قوّاد نادر شاه القدامى، وكان صاحب خبرة وتجربة في ميادين القتال، فأحسن استغلال الظروف، وعاد بالزنديين إلى موطنهم الأصلي (مَلاير) في لُورِستان، يعاونه في ذلك أخوه صادق، وأفلح في ذلك رغم الأخطار التي كانت تحيط بهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح كريم خان زعيمًا لقبيلة زَنْد عن جدارة.

وفي عام (١٧٥٠ م)، ونتيجة لتفاقم الصراع على السلطة في فارس، أعلن علي مراد خان، زعيم قبائل بَخْتياري (كرد والأرجح أنهم من فرع كَلْهور)، نفسه وصيًا على عرش بلاد فارس، وتحالف معه كريم خان، فحاربا معًا الغزاةَ الأفغان، وحققا

---

(١) Mehrdad R. Izady: *the Kurds*, p. 54-55.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، طبعة ١٩٩٥، ٥/ ١٦.

(٣) الفيّومي الحموي: **المصباح المنير**، طبعة المكتبة العلمية، بيروت ، ٢/ ٥٦٠.

الانتصار عليهم، وكان علي مراد خان ظالمًا محبًا لسفك الدماء، في حين كان كريم خان محبًا للعدل والإنصاف، لذلك اختلفا، ودبّت الخصومة بينهما، ثم قُتل علي مراد خان.

ودخلت بلاد فارس كانت تحت سلطته تحت نفوذ كريم خان، فأمسك بجميع السلطات، وأسّس الدولة الزَّنْدية سنة (١١٦٣ هـ = ١٧٥٠ م)، واتخذ مدينة شيراز عاصمة بلاد فارس- في جنوبي إيران حاليًا- عاصمة لحكمه، وهي المنطقة التي نشأت فيها السلالات الأخمينية والساسانية قديمًا، وحارب كريم خان منافسيه، وألحق بهم الهزيمة بدعم من قومه اللُّور المخلصين، ومن عشائر بَخْتياري، ومن بعض الخيالة العرب.

ولم يبق لكريم خان إلا خصمان لدودان هما أَسَد خان الأفغاني، ومحمد حسين خان قاجاري، وقد اشتبك كريم خان مع أسد خان في عدة معارك، ثم انتصر عليه، واضطره إلى الاستسلام، وبعد مدة استرحمه أسد خان، فعفا عنه كريم خان، وسمح له بالسكن في العاصمة شيراز، وعامله باحترام وأريحية.[1]

وقد انتصر كريم خان على محمد حسين قاجاري (قاژاري)، وصفا له حكم بلاد فارس، وسار إلى أَصْفَهان (أصبهان) التي كانت تحت سلطة محمد حسين قاجاري، ففتحها سنة (١١٧٠ هـ)، وبسط نفوذه على المناطق المجاورة، بما فيها كردستان الجنوبية في العراق الحالي، والذي يسمّى في المصادر العربية (عراق العجم)، ثم وجّه كريم خان جيشًا بقيادة علي خان زندي إلى مازَنْدِران لتأديب محمد حسين قاجاري (قاژاري) الذي كان قد تحصّن هناك، ووقع هذا الأخير في قبضة الجيش الزَّندي. وبعد السيطرة على مازَنْدِران، سيطر كريم خان على القسم الأكبر من أذربيجان، وثارت عليه قبائل أفشار التركمانية بقيادة رئيسها فتْح علي خان، لكن هُزم فتح خان، وطلب العفو من كريم خان سنة (١١٧٤ هـ = ١٧٦٠م).

وبعد قضاء كريم خان على خصومه الألدّاء، مرّت سنوات من الهدوء والسلم في الدولة الزَّنْدية، سوى بعض القلاقل المحدودة، وكان يلاحظ بقلق قسوةَ وبطش أخيه من والده (زكي خان)، ولم يكن راضيًا عن سيرته، وقد ثار عليه هذا الأخير،

(١) محمد علي الصويركي: **معجم أعلام الكرد**، ص ٦٧٠.

وهرب إلى لُورستان، لكنه عاد وطلب الصفح من كريم خان فجاد به عليه، وظهرت ثورة في دامْغان ومازَنْدِران، لكنه قضى عليها، وأعاد المنطقتين إلى دائرة نفوذه. وساد السلام والرخاء في بلاد فارس طوال حكم كريم خان حوالي عشرين عامًا، ولم يغتصب كريم خان العرش كما فعل نادر شاه، وإنما نصب نفسه (وكيل الشاه)، وكان الشاه حينذاك هو الشاه إسماعيل، وكان صبيًا صغيرًا.[(١)]

وقد توتّرت العلاقات بين كريم خان وحكومة بغداد التابعة للدولة العثمانية، فجهّز جيشًا بقيادة أخيه صادق خان، وسيّره إلى البصرة، فنسّق صادق خان مع الأسطول البحري، وشيّد بسرعة جسراً طافياً، وعبر الجيش الزَّندي عليه إلى البصرة في شتاء سنة (١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م)، وبعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً استسلمت قلعة البصرة سنة (١١٩٠ م).[(٢)]

وقد أصيب كريم خان في أواخر عمره بداء السل، وتوفّي في شيراز سنة (١١٩٣ هـ = ١٧٧٩م) عن عمر يناهز الثمانين سنة، بعد أن حكم ثمانية وعشرين سنة، قضى العشرين سنة الأخيرة منها في هدوء. قال ول ديورانت: «وخرج كريم خان منتصرًا من الصراع، وأسس الأسرة الزندية (١٧٥٠) التي احتفظت بسلطانها حتى ١٧٩٤. واختار كريم شيراز عاصمة لمُلكه، وزيّنها بالمباني الجميلة، وساد جنوبي فارس تسعة وعشرين عامًا من نظام وسلام لا بأس بهما. فلما مات جعل التطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الأهلية، وعادت الفوضى تضرب أطنابها من جديد».[(٣)]

وتولّى السلطة بعده كردي آخر هو لُطْف علي خان، زعيم اتحاد قبائل اللُّر، ولكنه لم ينجح في مكافحة سلالة قاجار (قاژار) *Qajar*، وهي قبيلة تركمانية كان مركزها في طهران، وكانت تسيطر على شمالي فارس، ونُصب كمينٌ للزعيم الكردي لُطف علي خان، وسُلّم إلى آغا محمد خان، مؤسس السلالة القاجارية، فقتله سنة (١٢٠٩ هـ = ١٧٩٤ م)، بعد أن اقتلع عينيه.[(٤)]

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٧١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، طبعة، دار الجيل- بيروت، ١٩٨٨م، ٢١/٤١.

(٤) أرشاك سافراستيان: **الكرد وكردستان**، ص ٩٠.

وخشيةً من انبعاث نهضة كردية جديدة في جنوبي بلاد فارس، وفي لورستان وأراضي بَخْتياري خاصة، عمد ملوك قاژار (قاجار) التركمان إلى مضايقة الأمراء والشخصيات المنحدرين من سلالة كريم خان زند بقسوة، فأعدموا بعضهم جهرًا، وقتلوا آخرين غيلة، ولذلك لم تستطع القبائل الكردية في فارس أن تكون قوة سياسية حتى العصر الحديث.(١)

إنجازات كريم خان زند:

يشهد المؤرخون أن كريم خان كان أحد حكام إيران المحمودي الذكر؛ إنه كان محبًا لرعيته، حسن المسلك معهم، متواضعًا يعيش ببساطة شديدة، غير مكترث لأُبَّهة السلطة وترف العيش، حتى إنه رفض طوال حكمه قبول لقب (ملك) و(سلطان)، رغم أنه كان جديرًا بهما، واكتفى بلقب (وكيل الشاه) وفي رواية (وكيل الرعايا)، وكان حليمًا وبعيدًا عن العنف حتى مع أعدائه، رحيمًا بالضعفاء، متسامحًا غير متعصب، لا يحقد ولا يقسو، لكنه كان شديدًا في المسائل التي تمسّ جوهر الدين، وكان محبًا للدروس والعلوم ورجاله، مع أنه لم يكن متعلمًا، وحبّب العلوم إلى شعبه، وأصلح مرقدَي الشاعرين الشهيرين (سَعْدي) و(حافظ)، وخصّص لهما أوقافًا، وأنشأ حديقة (باغ جِهان نَما)، وهي حديقة واسعة على أحسن طراز، كما أنه كان ماهرًا في فنون الحرب، بارعًا في وضع الخطط القتالية، وتحقيق النصر.

يقول عباس إقبال الآشْتِياني: «ولا يزال جاريًا على ألسنة الناس حكايات وأساطير كثيرة، تحكي بساطة حياة كريم وحسن معاملته، وسعيه لتحسين أحوال الشعب». وقال باسيلي نيكيتين: «لم يكن مجيء الكرد للسلطة- ممثَّلين بشخص كريم خان زند. . .، الملك الإنساني العادل والمحب للفنون- إلا عهدًا مبتورًا لأنه لم يدم طويلاً».(٢)

وأشاد شاهين مكاريوس بمزايا حكم كريم خان قائلاً: «فحكم مدة طويلة حكمًا لم يُسمَع في إيران بأحسن منه، واطمأنت قلوب الأهالي، وبَطُلت الأهوال والمذابح

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٧٢.

(٢) باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٩٢.

من بلادهم، ومُنعِت المَظالم والمَغارم، وراجت الصناعة والتجارة والزراعة، وتحسّنت موارد الأهالي تحسّنًا بيّنًا، وكثرت موارد الثروة». [١]

وأضاف مكاريوس واصفًا اهتمام كريم خان بالعمران والازدهار: «وجعل شيراز عاصمة مُلكه، وبنى فيها أبنية فخمة، مثل البساتين والأسواق والحمّامات والجوامع التي لا تزال باقية إلى الآن، . . . وأحسن إلى الأُمناء من أهل دولته، وشدّد على الظالمين، وأتى كل ما في وسعه لتعميم الأمن والعدل في البلاد، فتمّ له ذلك». [٢]

إن سيرة القائد الكردي كريم خان في بلاد فارس تعيد إلى الذاكرة سيرة قائد كردي آخر سبقه بستة قرون، وحكم مصر والسودان وليبيا وبلاد الشام والحجاز، وجزءًا كبيرًا من كردستان، إنه السلطان صلاح الدين الأيوبي، وثمة قواسم مشتركة عديدة بين هذين القائدين، أبرزها: العبقرية العسكرية والسياسية والإدارية، والاهتمام بتحسين أحوال الرعية، والاهتمام بالحضارة والثقافة والعمران، وبساطة العيش والنزعة الإنسانية النبيلة.

وتلك هي سير معظم كبار الحكام الكرد عبر التاريخ.

---

(١) شاهين مكاريوس: **تاريخ إيران**، ص ٢١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٤.

الفَصْل الثّامن

الكُـرْد في مَواقف بُطوليّة حاسِمة

مَدْخَل: لماذا كانت الحروب الصليبية؟

الواعظ . . والمؤرّخ:

الوعظ الديني الدَّعَوي شيء، وكتابة التاريخ شيء آخر؛ فالواعظ الدعوي لا يستطيع أن يكون موضوعيًا، ولا يمكنه أن يكون محايدًا، وكيف يكون موضوعيًا ومحايدًا وقد عزم منذ البداية على الرفع من شأن دين معيّن، والحطّ ضمنًا من شأن دين آخر أو أديان أخرى؟! وتنصبّ جهوده على هدفين: إما تثبيت من هم على دينه في مواقعهم كي لا يغادروها، وإما جرّ أتباع الأديان الأخرى إلى اعتناق دينه؛ وفي الحالين يكون خطابه الدَّعَوي موجَّهًا إلى العاطفة أكثر من توجيهه إلى العقل، كما أنه يبيح لنفسه أن يُغيّب أشياء ويحرّف أخرى، وقد يُبقي على الأشياء، لكن بعد اقتلاعها من سياقاتها الخاصة.

أما المؤرّخ فالمفترض أنه يتعامل مع حقائق ومُعطَيات واقعية، وقد يكتفي بذلك، وهذه هي مهمته الأساسية، وقد يخرج من تلك الحقائق والمعطيات بنتائج معيّنة، وللقرّاء أن يحكموا على مدى منطقيته أو لا منطقيته. وما دام ملتزمًا بمهمّته فلن يغيّر الأسماء والأحداث، وإذا غيّرها فهو عندئذٍ قاصٌّ وليس مؤرّخًا، وإن موقعه العلمي وطبيعة المادة التي يتعامل معها يُلزمه بأن يكون موضوعيًا ومحايدًا، وإلاّ إذا كان قد قرّر مُسبَقًا أن يرفع من شأن شخصية أو موقف، فلا فرق حينئذ بينه وبين الواعظ الديني الدعوي.

والمؤسف أنّ معظم الكتابات التي تناولت تاريخ غربي آسيا كانت واقعة في أسر الوعظ الدَّعَوي قليلاً أو كثيرًا، وخاصةً الدراسات التي كتبها بالعربية مؤرخون عرب أو مسلمون بشكل عام، لأني لم أطّلع على ما كُتب بالفارسية والتركية، ويبدو المؤرخ العربي والمسلم عامةً وكأنه يقوم بعملية جهادية، ولا يكتب تاريخًا، ولذا تراه يركّز على ما قرّر مُسبَقًا أن يرفع من شأنه، ويغيّب أو يحرّف ما قرّر مُسبَقًا أن يحطّ من شأنه، وهو بذلك يتقرّب إلى الله، حسبما يعتقد، ويُرضي النزوع إلى التسطّح والغوغائية السائدتين في الثقافة العربية والإسلامية منذ أمد بعيد.

من أنتج الحروب الدينية؟

تتجلّى ظاهرة التاريخ الدَّعَوي الوعظي في كثير من المسائل التاريخية، ومنها مسألة الحروب الفرنجية التي سُمّيت في العصر الحديث باسم «الحروب الصليبية»؛ إذ يحرص معظم من كتب عنها -إن لم يكن كلهم- على إظهار الغرب الأوربي باعتباره متعصِّبًا دينيًا، وأنّ تعصّبه الديني حمله على أن يشنّ على الشرق العقلاني الوديع غير المتعصب دينياً تلك الحملات «الصليبية». ودعونا نتساءل: من أنتج الحروب الدينية أولاً؛ الشرق أم الغرب؟

إنّ قراءة متأنّية وموضوعية للتاريخ تضعنا أمام الحقائق الآتية:

- كلّ الأنبياء والرسل المعروفين ظهروا في الشرق، وليس ثمة نبيٌّ ولا رسول ظهر في الغرب.
- الشرق أنتج الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، والغرب أنتج الفلسفات والعلوم العقلية الأخرى.
- الشرق هو الذي صدّر الأديان السماوية الثلاثة إلى الغرب، وهو الذي بدأ بقيادة الفتوحات الدينية، وليس العكس.
- الحكومات الدينية (الأوتوقراطية) ظهرت أولاً في الشرق قبل الميلاد، ومنها انتقلت إلى الغرب، لكنّ الثقافة الجماهيرية الديمقراطية سرعان ما كانت تقاومها.

وجدير بالملاحظة أيضاً أنّ حروب الشرق والغرب، قبل القرن السابع الميلادي، لم تكن دينية، ولم نجد في المصادر التاريخية أنّ كَيْخَسْرو الميدي هاجم ليديا اليونانية لنشر الميثرائية، وأنّ دارا الفارسي غزا بلاد اليونان لنشر الزَّرْدَشتية،

رغم أنها كانت العقيدة الرسمية للدولة الأخمينية، ولم نجد أنّ الإسكندر المكدوني غزا بلاد فارس لنشر عقيدة زِيُوس، إله اليونان الأكبر، بل على العكس، كان كلّ غازٍ من هؤلاء يتصرف وفق قاعدة «لكم دينكم ولي ديني»، وكانت التبعية السياسية والاقتصادية هي التي تهمّهم في الدرجة الأولى.

إنّ بوادر دخول الدين في الصراع بين الشرق والغرب ظهرت -لكن بشكل محدود- بعد أن اعتنق الإمبراطور الروماني قُسْطِنطين المسيحية، وأعلنها ديانة رسمية للدولة سنة ٣١٣ م، ولا يخفى أنّ المسيحية ديانة شرقية المنشأ، أو لنقل: إنها ديانة شرق متوسطية، فقد ظهرت في فلسطين أولاً، ثم انتقلت إلى جنوبي أوربا وسائر العالم. وتكرّس الطابع الديني للصراعات، سواء أكانت شرقية- شرقية أم شرقية- غربية، وبصورة حادّة، مع انطلاقة الفتوحات العربية الإسلامية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، والإسلام دين شرقي المنشأ، أو لنقل: إنه دين شرق متوسطي، ظهر في شبه الجزيرة العربية.

بعبارة أكثر دقةً: إنّ الحروب الدينية الطابع، سواء أكانت إسلامية بقيادة شرقية أم كانت مسيحية بقيادة غربية، هي في الحقيقة إنتاج شرق متوسطي وثقافة شرق متوسطية، وهذه ظاهرة جديرة بالدرس الجادّ، وبالتحليل الموضوعي، بعيداً عن الأحكام المطلقة والمسبقة.

أسباب الحروب الصليبية:

ما يهمّنا الآن هو أمر الحروب الصليبية؛ إنّ هذه الحروب كانت حلْقة في سلسلة الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو في جوهره صراع على الموارد الاقتصادية والبشرية، وصراع على الأسواق التجارية والطرق التي توصل إليها، وبعبارة أخرى: إنه صراع على «الجغرافيا» و«الإنسان». ومن الطبيعي أن تخاض تلك الحروب تحت راية أيديولوجيا معيّنة (ثقافة، دين) كلَّ مرة، فتحقيق النصر في حرب كبرى يتطلّب، على الدوام، تجنيد أكبر عدد ممكن من المقاتلين المتحمسين، كما يتطلّب صناعة رغبة قصوى في التنازل عن الحياة (الشهادة)؛ والأيديولوجيا الدينية هي الأكثر فاعلية في توفير هذين العاملين.

يقع تاريخ الحروب الصليبية بين عامي ١٠٩٥ - ١٢٩١ م، أيْ إنها استمرت مئة

وستة وتسعين عاماً، وقد جرت العادة على أن يبدأ الحديث عن هذه الحروب من سنة ١٠٩٥ م، وتحديدًا من تاريخ الخطاب الذي ألقاه البابا أُورْبان الثاني في مؤتمر كِلِيرْمُونت بفرنسا في تلك السنة، ودعا فيه أوربا حكّاماً وشعوباً إلى غزو شرقي المتوسط، وخوض الجهاد الديني، تحت راية الصليب، لإنقاذ القدس من المسلمين.

أجل، هذا ما توحي به كتابات معظم من تناول أمر الحروب الصليبية، ووجهُ الخطر في هذه الكتابات وأمثالها أنها تقدّم المشهد التاريخي منقطعًا عمّا قبله وعمّا بعده، وتجعلنا نعتاد قراءة الأحداث التاريخية على أنها جزر منفصلة، لا يربط بينها رابط، ولا علاقة لهذا الحدث بذاك، وهي تقودنا في النهاية إلى استخلاص نتائج غير منطقية وغير موضوعية، بل دعوني أقل: إنها تجعلنا نبحث في التاريخ خارج التاريخ.

والحقيقة أنّ الشرارة التي أشعلت الحروب الصليبية هي معركة مَنازْكِرْد (مَلازْكِرْت، مانْزِكِرْت)، بشمالي كردستان، سنة ١٠٧١ م، وكي ندرك الأحداث بدقة أكثر لا بدّ من العودة إلى الوراء: زمانيًا إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ومكانيًا إلى سهوب وسط آسيا، قرب بحيرة آرال (أورال) وشرقي بحيرة قَزْوين (الخَزَر). فحينذاك كان الترك السلاجقة قد هاجروا من أقاصي تركمانستان لسوء الأحوال الاقتصادية أو تحت ضغط قبائل أقوى، وسكنوا، أيام الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩ هـ)، بجوار بحيرة آرال، وفي السواحل الشرقية لبحر قَزْوِين (الخَزَر)، واعتنقوا الإسلام.

وقد مرّ أنّ السلاجقة عملوا مرتزِقة في الدولة الغَزْنَوية، ثم حاربوا ضدها وقضوا عليها، وفي سنة ٤٢٩ هـ اتخذوا طُغْرُلْ بَگ ملكاً عليهم، ثم تقدّموا غربًا نحو فارس وكُردستان والعراق، واستعان بهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت ٤٦٧ هـ) للتخلص من البُوَيْهيين الشيعة، ودخل طُغْرُلْ بَگ بغداد سنة ٤٤٧ هـ، وقضى على الحكم البُوَيْهي، وكان الخليفة قد منحه لقب «سلطان».

ودائمًا كان هدف الفاتحين القادمين من الشرق هو الوصول إلى سواحل شرقي البحر الأبيض المتوسط، ودائمًا كانت كردستان هي المعبَر الذي لا بدّ أن يسيطر عليه الفاتحون، وينطلقوا منه لتحقيق ذلك الغرض، وهذا ما فعله السلاجقة، ففي سنتي ٤٤٨، ٤٤٩ هـ استكملوا احتلال كردستان الشرقية، واحتلوا شمالي كردستان،

وقضوا على الدول الكردية القائمة آنذاك، وهي الدولة الرَّوادية في أذربيجان، والدولة الشَّدادية في أرّان (مقسَّمة بين أرمينيا وأذربيجان وجورجيا)، والدولة الدُّوسْتِكية (المروانية) في شمالي كردستان.

واستكمل السلطان السَّلجوقي أَلْب أَرْسَلان مشروع السيطرة على كردستان شمالاً وغربًا، ومن كردستان أطلّ السلاجقة على آسيا الصغرى غربًا وبلاد الشام غربًا وجنوبًا، ومن ورائهما السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ووجدت الإمبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية غازيًا طموحًا شَرِسًا شديد المِراس، لا ينافسها في السيطرة على البوابات الغربية لكلٍّ من «طريق الحرير» و«طريق البخور» التجاريين العالميين وحسب، وإنما يهدِّدها في وجودها أيضًا، فكان من الطبيعي أن تقلق وتبادر إلى وقف تقدم السلاجقة.

وفي سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م قاد الإمبراطور أَرْمانوس (رومانوس) جيشًا، وتوجّه شرقًا لصدّ الزحف السَّلجوقي، فالتقاه السلطان السَّلجوقي أَلْب أَرْسَلان - ومعه خمسة آلاف من التركمان وعشرة آلاف من الكرد- قرب مَنازكِرد الواقعة شمالي بحيرة وان، وحقّق نصرًا حاسمًا على الروم، ووقع الإمبراطور في الأسر، وأصبحت الطريق سالكة إلى آسيا الصغرى، ولم يخلد السلاجقة إلى الراحة، فراحوا يتوسّعون غربًا، ومع سنة ١٠٨١ م كانوا السادة الحقيقيين في آسيا الصغرى حتى بحر مَرْمَرة.

وفي ذلك الوقت كانت فيه الكنيسة الشرقية (كنيسة بيزنطا الأرثوذكسية) قد فقدت حيويتها، كانت الكنيسة الغربية (كنيسة روما الكاثوليكية) قد أنجزت حركة إصلاحية شاملة، وأصبحت البابوية قوة محرّكة للأحداث في أوربا، وتطلعت من ثم إلى بسط زعامتها على العالم المسيحي بأسره. وعلى أثر كارثة مَنازكِرد استنجد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع ببابا روما، طالباً فرقاً عسكرية لمقاومة السلاجقة، وسرعان ما لبّت البابوية الطلب، إذ كان العالم المسيحي الغربي يَعُدّ القُسطنطينية خطَّ دفاعها الأول من جهة الشرق، لذلك هبّ البابا جريجوري السابع إلى تشجيع الأوربيين على نجدة بيزنطا، ولقيت هذه الدعوة بعدئذٍ تصعيدًا شديدًا على يدي البابا أُورْبان الثاني، وخاضت أوربا المسيحية وشعوب شرقي المتوسط المسلم الحروب الدينية المشهورة باسم «الحروب الصليبية».

خلاصة القول أنّ الحروب الصليبية هي حروب دارت بين أتباع دينَين شرقيَّين (المسيحية والإسلام)، بل لنقل: إنها حروب دارت بين ثقافتين شرقيتين، كان أتباع الثقافة الأولى شرقيين من العرب والترك والكرد، وكان أتباع الثقافة الثانية غربيين من الفرنسيين والإنكليز والألمان والطليان وغيرهم.

ولنا أن نقول بمنطق من يقرأ التاريخ قراءة واقعية: إنّ الفتوحات والحروب التي تمّت باسم الدين كان الدين يقوم فيها بوظيفة العامل المساعد في التفاعلات الجيوسياسية، وكان الغرض على الدوام هو السيطرة على «المكان» و«الإنسان»، ولولا ذلك فبأيّ مبرّر كان العرب المتصارعون في شبه الجزيرة العربية سيسيطرون على البلاد والعباد من حدود الصين إلى إسبانيا ضمنًا؟ وبأيّ مبرّر كان الترك السلاجقة سيسيطرون على البلاد والعباد من أفغانستان إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط؟ وبأيّ مبرّر كان الترك العثمانيون سيسيطرون على البلاد والعباد من جبال زاغروس إلى حدود النمسا؟

وقد ظهر الكرد الأيوبيون في زمن التطاحن بين الديانتين الشرقيتين، وبما أنهم كانوا ينتمون إلى ديانة الإسلام من ناحية، وأقاموا، من ناحية أخرى، دولة لهم في مصر وشرقي المتوسط إلى جبال زاغروس غربًا، وإلى أرمينيا شمالاً، وإلى اليمن جنوبًا، فإنّ الموقع الجيوپوليتيكي لدولتهم فرض عليهم أن يخوضوا الحروب ضد الفرنج في ظلّ الأيديولوجيا الدينية الإسلامية، ويصبحوا حماة لموقعهم السياسي الحسّاس ولمصالح دولتهم الكبرى بأيديولوجيا إسلامية، وأن يصبح استرداد القدس من أيدي الفرنج إنجازًا أيديولوجيًا أكثر من كونه إنجازًا حربيًا أو سياسيًا. وفي إطار هذه السياقات نتناول حروب الأيوبيين والفرنج.

١- الدِّفاع عن مَكّة والمَدِينة

شخصية مغامرة، وفارس لم يحترم قيم الفروسية، ولم يكتف باحتلال الفرنج مدينة القدس وسواحل الشام، وإنما قرر غزو مكّة والمدينة، حيث تقع الأماكن الإسلامية المقدسة؛ إنه رينو دي شاتيون، المشهور في كتب التاريخ العربي باسم أَرْناط. فكيف حاول أرناط تنفيذ مشروعه؟ وماذا كانت النتيجة؟

الغزو الفرنجي:

«انهضوا، وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضدَّ إخوانكم، ووجّهوها ضدَّ أعدائكم، أعداءِ المسيحية... انهضوا، ولا تقاتلوا إخوانَكم المسيحيين، بل قاتلوا أعداءَكم الذين استولوا على القدس، حاربوا تحت راية المسيح، قائدكم الوحيد».

هذا بعضٌ ممّا قاله البابا أُورْبان الثاني، مدبّر الحملة الصليبية الأولى، في خطبته النارية، تلك الخطبة التي ألقاها على جماهير أوربية حاشدة في كِليرمُونْت بفرنسا سنة ١٠٩٥م. وسرعان ما انخرط الأوربيون؛ رجالَ دين ونبلاء وجماهير، في الحملة الصليبية الأولى، التي قادها راهب غريب الأطوار هو بُطْرُس الناسك سنة ١٠٩٦م.

استطاع الفرنج، خلال الحملتين الأولى والثانية، احتلال سواحل بلاد الشام، بدءًا من أنطاكيا شمالاً إلى عَسْقَلان جنوبًا، وأسّسوا إمارة الرُّها وإمارة أنطاكيا ومملكة القدس وإمارة طَرابلس (لبنان)، لا بل شرعوا يضربون في العمق، فيهاجمون دمشق وحلب أحيانًا.

غير أنّ مجتمعات شرقي البحر المتوسط كانت قد بدأت النهوض بقيادة آل زَنْكي التركمان، وانتقلت من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وفي صيف سنة ١١٤٩م كثّف السلطان نور الدين زنكي جهوده الحربية ضد إمارة أنطاكيا، وأباد قوة فرنجية قرب إنّب في ٢٩ يونيه/ حزيران ١١٤٩م، وقُتل في المعركة رِيمُونْد دي بُواتَيه حاكم أنطاكيا، وكان أحد قادة الفرنج الكبار.

أرناط والمنهج الميكياڤيلّي:

كان ملك القدس بَلْدَوِين الثالث يعمل لتعزيز الصف الفرنجي، فشرع يبحث عن زوج جديد للأميرة كُونْستانْس أرملة رِيمونْد دي بُواتَيه Raymond de Poitiers الوصيةِ على إمارة أنطاكيا؛ ليتولّى شؤون الإمارة، وكان الطريق إلى هذه الإمارة يمرّ بقلب الأميرة الأرملة، وقد فتحت هذه باب قلبها لفارس فرنسي شاب، وصل إلى الشام في أعقاب الحملة الصليبية الثانية، تلك الحملة التي قادها الملك الفرنسي لُويس السابع وإمبراطور ألمانيا كونْراد الثالث إمبراطور ألمانيا سنة ١١٤٧م، ثم تخلّف في فلسطين بعد فشل الحملة الثانية وعودة رجالها إلى أوربا.

ذلك الفارس هو رِينو (ريجنالد) دي شاتْيون Reginald de Châtillon، ويسمّى في المصادر العربية (أَرْناط)، وبموافقة الملك بَلْدَوِين الثالث على مشروع الزواج حصلت إمارة أنطاكيا على محارب قوي، وفارس فرنجي بارز، ومغامر طموح، قام بأدوار خطيرة في محاربة الأيوبيين على الجبهة الشامية، واتصف إلى حدٍّ كبير بالقسوة والبطش والغدر والتهوّر. وما إن تسلّم أرناط إمارة أنطاكيا حتى شرع يمارس بطشه، وينفّذ خططه الطموحة، وبدأ ببطرك أنطاكيا إيمُري (عَمُوري) دي ليموج، فقد علم أنّ هذا البطرك كان يحرّض الأميرة على عدم الزواج منه، فأنزل به العذاب، إلى حدّ ضرْبه وإلقائه وهو عريان تحت حرارة الشمس المحرقة.

ثم ما لبث أرناط أن زجّ بنفسه في النزاع على كيليكيا بين الأرمن وبيزنطا، وقد وقف في البداية مع بيزنطا ضد الأرمن مستعينًا بفرسان الداوِيّة (رهبان الهيكل المقدس)، واستطاع طرد الأرمن من إقليم إِسْكَنْدَرُونَه سنة ١١٥٥م، لكنه سرعان ما انقلب على الإمبراطور البيزنطي مانُوِيل كُومنين، وتحالف مع خصمه السابق طوروس الأرمني، وراحا يُغيران معًا على الممتلكات البيزنطية. ولم يكتفِ أرناط بذلك، بل أرسل حملة عسكرية إلى جزيرة قبرص التابعة لبيزنطا، فأغار عليها ونهبها، وأشاع القتل والتخريب فيها، حتى إنه جَدع أنوف رجال الكنيسة فيها، وقطع آذانهم وألسنتهم، إمعانًا في التشفّي والانتقام، وكان ذلك سنة ١١٥٦م.

وتمثّلت الميكياڤيلية بأدق صورها في أرناط؛ فالغاية عنده تبرّر الوسيلة؛ لذلك لم يتردّد في تغيير مواقفه من النقيض إلى النقيض، وعندما تبيّن له سخط الإمبراطور البيزنطي عليه، واستياء ملك القدس بَلْدَوِين الثالث Baldwin منه، لم ير بدًّا من المثول أمام الإمبراطور الذي استدعاه لمحاسبته على ما فعله بقبرص، فوقف بين يدي الإمبراطور ذليلاً، وعفا عنه الإمبراطور شريطة اعترافه بسيادة بيزنطا على أنطاكيا، وتقديم فرقة من جنود أنطاكيا للعمل في الجيش البيزنطي، وعزْل بطرك أنطاكيا الكاثوليكي، وتعيين بطرك أرثوذكسي محله.

واتفق الإمبراطور البيزنطي وملك القدس بَلْدَوِين الثالث وأرناط من على شنّ حملة كبيرة ضد الأيوبيين، وكانت وِجهة تلك الحملة مدينة حلب، وفي إطار هذه التوجّه الفرنجي نشطت رغبة أرناط في السلب والنهب، فشنّ، سنة ١١٦٠م، غارة على مناطق المراعي في الجزيرة، لكنه وقع عند عودته -ومعه أسلابه من الماشية

والخيول- في أسر مجد الدين بَكْر بن الدايَة، نائب نور الدين زنكي في حلب، وظلّ أسيرًا في قلعة حلب ست عشرة سنة، وأُطلق سراحه سنة ١١٧٦م.

اعتداءات أرناط:

بعد إطلاق سراح أرناط من السجن تزوّج من إتيئنت دي ميلي، وريثة حاكم الأُردن، سنة ١١٧٧م، وأتاح له ذلك القيام بدور بارز في الحرب الصليبية بفلسطين، وهو لم يتزوج تلك الأرملة لشبابها وجمالها، فقد تزوجت قبله رجلين، وإنما تزوجها لإقطاعها، إذ ورثت عن أبيها الأُردنّ (المقصود هنا شمالي الأردنّ) وحِصني الشُّوبَك والكَرَك، وهما من الحصون المهمّة، على الصعيد التعبوي، في الحروب الصليبية.

وباشر أرناط حياته الجديدة وهو أكثر حماسًا وتطرّفًا؛ خاصةً وأن موقعه السياسي والجغرافي الجديد ساعده في ذلك إلى حدّ كبير، فحِصنا الشُّوبَك والكَرَك لا يتحكّمان في طريق الحجاج المسلمين إلى المدينة ومكة فقط، بل يتحكّمان أيضًا في الطريق الرئيسي الواصل بين مصر والشام، وكان صلاح الدين الأيوبي قد جمع بينهما في دولة واحدة.

وما كان صلاح الدين بالرجل الذي يسكت على أرناط وهو يروّع قوافل التجار والحجاج بين الشام والحجاز باعتداءاته المتكررة، وإذا غضب صلاح الدين في ذلك الوقت (الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي) فإنّ غضبته تعني غضبة سلطان قوي، جمع في حكمه بين مصر وبلاد الشام، بكل ما لهاتين القطرين من قدرات بشرية واقتصادية وحربية.

غير أنّ أرناط تجاهل هذه الحقائق، وتجاهل الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وكان هو نفسه تابعًا لهذه المملكة، فخرج في صيف سنة ١١٨١م متسلّلاً على رأس قوة من رجاله، وأوغل في صحراء العرب جنوبًا حتى تَيْماء، وهي واحة هامة تقع في منتصف الطريق بين الأردنّ والمدينة المنوَّرة، وقد أشار صلاح الدين بوضوح إلى أهميتها في رسالة له إلى الخليفة العباسي، ذاكرًا بأنها «دِهْليز المدينة»؛ أي بوّابتها.

وكان أرناط قد نوى أن يزحف من تَيماء إلى المدينة المنوَّرة، للاستيلاء عليها،

لكنّ فَرُّوخْشاه، ابن أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق، أسرع إلى مهاجمة الأردن، فاضطرّ أرناط إلى العودة بسرعة إلى إمارته للدفاع عنها، لكنه مع ذلك تمكّن من نهب قافلة للمسلمين كبيرة متّجهة من دمشق إلى مكة، وسلب منها ثروة ضخمة.

ارتاع المسلمون لما قام به أَرْناط، وكان من الطبيعي أن يغضب صلاح الدين لهذا التهديد الخطير، فأرسل إلى ملك بيت المقدس الجديد بَلْدَوِين الرابع يلومه على تصرفات تابعه أرناط، ويُذكّره بالهدنة المعقودة بينهما، وطلب إليه أن يأمر أرناط بردّ ما سلبه ونهبه، وكان بَلْدَوِين الرابع مستاءً جدًا من سلوك أرناط، لكنه أقرّ لصلاح الدين بعجزه عن كبح جماح أرناط وإيقافه عند حده.

الهجوم على الحجاز:

في سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م توجّه صلاح الدين من مصر إلى بلاد الشام، ليهاجم الفرنج ويضيّق الخناق عليهم ويكون قريبًا من الخطوط الأمامية، وفي السنة ذاتها أقدم أرناط على تنفيذ مشروع خطير آخر؛ هو السيطرة على البحر الأحمر، وغزو المدينة ومكّة؛ ولعلّ من المفيد أن نتذكر هنا أنّ القوافل التجارية المتنقلة على «طرق البخور» كانت تتحرك بحراً عبر البحر الأحمر، وبراً عبر الطريق الرابط بين مكة والمدينة، ولاشك في أنّ سيطرة الفرنج على هذين المسارين كان يعني خنق الدولة الأيوبية من الناحية الاقتصادية.

بدأ أرناط بتنفيذ خطته تلك بالاستيلاء على أَيْلَة (العَقَبَة حاليًا)، ذلك المركز الهام على خليج العَقَبَة، كي يمنع تهديد صلاح الدين لحِصن الشُّوبَك وللمناطق الفرنجية في وادي عَرَبَة، ولما كان من المتعذّر على الفرنج الاحتفاظ بأَيْلَة دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فِرْعَون) المواجهة لها في خليج العَقبة، شرع أرناط في بناء عدة سفن، وحُملت أجزاؤها مفكّكة على ظهور الجمال إلى خليج العقبة، وأعيد تركيبها هناك.

ولما انتهى تركيب السفن استولى بعضُها على جزيرة القلعة، وأغار بعضُها الآخر على الموانئ المصرية الصغيرة في البحر الأحمر، مثل ميناء عَيْذاب المواجه لميناء جُدّة في الحجاز، ولا يخفى قصر المسافة بين جدّة ومكة، وهناك نهب الفرنج بضع سفن تجارية من جدّة واليمن والهند. قال المَقْرِيزي: «فقتلوا وأسروا،

وأحرقوا في بحر القُلْزُم[1] نحو ستة عشر مركبًا، وأخذوا بعَيْذاب مركبًا يأتي بالحُجّاج من جُدّة، وأخذوا في الأسْر قافلةً كبيرة من الحجّاج فيما بين قُوص وعَيْذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدّة لمِيرة الحَرَمَين، وأحدثوا حوادث لم يسمع الإسلام بمثلها».[2]

ولم يكتف أرناط بذلك، بل نقل نشاطه العدواني إلى شاطئ الحجاز، وعندئذٍ -حسبما ذكر ابن واصِل- «عَظُم البلاء، وأَعْضَل[3] الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطرٍ عظيم». ودهش المسلمون لتلك الجرأة؛ إذ لم يسبق أن وصل فرنجي إلى ذلك الموضع، وأكد المَقْريزي أنّ الفرنج صاروا على مسيرة يوم من المدينة المنوَّرة (حوالي ٤٥ كم)، ويتّفق أبو شامة مع المَقْريزي في روايته، إذ ذكر أنّ الفرنج: «نزلوا على ساحل الحَوْراء قرب يَنْبُع، حيث أغاروا على القوافل، وتعهّد بعضُ الخونة من البدو إرشادهم إلى داخلية البلاد».

وأورد كلٌّ من أبي شامة وابن واصل رسالة للقاضي الفاضل، مستشار صلاح الدين، يُفهم منها أنّ الفرنج استهدفوا من تلك العملية أمرين:

- **الأول**: قطْع طريق الحاج، وتهديد المسلمين في واحدة من أبرز مقدّساتهم.
- **الثاني**: الاستيلاء على عَدَن في اليمن جنوبًا، بعد السيطرة على أَيْلَة شمالاً، وإغلاق البحر الأحمر في وجه الأيوبيين، واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي.

ولم يسكت الأيوبيون على التهديد الفرنجي للحرمين، وسرعان ما بادر الملك العادل، أخو صلاح الدين ونائبه في مصر، إلى إعداد أسطول قوي في البحر الأحمر، بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ. وبدأ حسام الدين بحصار أَيْلَة، وظفر بسفن الإفرنج، فحرقها وأسر من فيها، ثم تعقّب بقيّةَ السفن الفرنجية عند عَيْذاب وشواطئ الحجاز، وكان الجزء الأكبر من تلك السفن موجودًا في ساحل الحَوْراء، فداهمها حسام الدين، واستولى عليها ودمّرها، بعد أن أطلق سراح من فيها من

---

(١) الاسم القديم للبحر الأحمر.

(٢) أبو شامة: **عيون الروضتين**، طبعة ١٩٩٧، ١/٢٦٦.

(٣) أعضل الداء: صَعُب شفاؤه.

التجّار المأسورين، أما الفرنج فأُخذوا على حين غِرّة، فتركوا بعض السفن، ولاذوا بالجبال، ولم يدعهم حسام الدين يفلتون، وإنما طاردهم بين الجبال، حتى أسرهم جميعًا في شباط/ فبراير ١١٨٣م.

وكان موسم الحج قد اقترب، فأرسل حسام الدين أسيرين من الفرنج إلى مِنى بمكة حيث قتلا، وأرسل بقيّة الأسرى إلى مصر، فأمر صلاح الدين بقتلهم، ليكونوا عِبرة لكل من تحدّثه نفسه بالاعتداء على المقدّسات في الحجاز، وتمّ قتلهم فعلاً بعد استعراضهم في شوارع القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن الكبرى. أما أرناط نفسه فأقسم صلاح الدين ألاّ يغفر له فعلته هذه، ونذر أن يقتله بيده[1].

حِطّين والانتصار الحاسم:

قرّر صلاح الدين أن ينفّذ ما عزم عليه من معاقبة أرناط على جرائمه الكبرى، فانصبّ اهتمامه الأكبر على قلعة الكَرَك، معقل أرناط، وكانت قوية التحصين، فحاصرها سنة ١١٨٣م، لكنه لم ينجح في السيطرة عليها، لا سيّما أنّ ملك القدس أسرع بقواته لنجدة أرناط.

لكنّ صلاح الدين لم يصرف النظر عن حِصن الكَرَك، خاصة وأنّ أرناط كان يستغل ذاك الحصن لتهديد طرق القوافل بين مصر والشام والحجاز، لذلك خرج السلطان من دمشق مرة أخرى في صيف سنة ١١٨٤م لمحاصرة حِصن الكرك، وكان قد استعدّ هذه المرة استعدادًا قويًا، فأحضر المَنْجَنِيقات وآلات الحصار القوية، ولما أوشك على الظفر بها تدخّلت مملكة بيت المقدس مرة أخرى، وأفسدت عليه خطته، فاضطر إلى الانسحاب.

واضطر الفرنج إلى عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها أربع سنوات (١١٨٥-١١٨٩م)، ورغم أنّ أرناط كان قد طلب الأمان من صلاح الدين عقب حملته الفاشلة في البحر الأحمر -وكان ممّن وافق على الهدنة- فإنه لم يستطع الكفّ عن السلب والنهب، فانقضّ فجأةً على قافلة للمسلمين ضخمة، فيها أمتعة وأموال كثيرة، متّجهة من القاهرة إلى دمشق، أواخر سنة ١١٨٦م وأوائل سنة ١١٨٧م،

---

(١) العماد الأصفهاني: **البرق الشامي**، طبعة ١٩٨٧، ٥/٦٩ - ٧١.

وكانت القافلة بما فيها من نفائس وثروات قد أطمعته، فلم يعبأ بالعهود والمواثيق، وسلب كلّ ما مع حامية القافلة والمسافرين من مال وسلاح ودوابّ، ثم ألقى بهم أسارى في حِصن الكرك، وعذّبهم أبشع عذاب.

التزم صلاح الدين الصبر كعادته، فأرسل إلى أرناط يقبّح أعماله، ويهدّده ما لم يُطلق سَراح الأسرى والأموال، لكنّ أرناط أصمّ أذنيه، وأصرّ على فعلته، بل قال لرسل صلاح الدين هازئًا: «قولوا لمحمّد يخلّصكم»! وما استطاع صلاح الدين أن يكظم غيظه إزاء عَجْرَفة أرناط، فأقسم أن ينتقم منه، «ونَذَر دمَه، وأعطى اللهَ عهدًا إن ظفر به أن يستبيح مُهْجَته»، ثم قام بحركة تعبوية شاملة ماديًا ومعنويًا، قال ابن الأثير: «كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناسَ للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإرْبِل وغيرها من بلاد الشرق، وإلى مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد، ويحثّهم عليه، ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان»[1].

بعد أن حشد صلاح الدين القوات الكردية والتركية والعربية هاجم المواقع الفرنجية، وأنزل بها ضربات موجعة، وتوّج هجماته بتحقيق النصر الحاسم في معركة حِطّين (ستأتي أحداثها لاحقًا)، فمزّق قواتهم الضاربة، وأسر قادتهم وكثيرين من فرسانهم.

الجريمة والعقاب:

سيق الملك جاي لُوزِجنان ملك بيت المقدس، وأرناط صاحب الكرك، وجيرار دي رِيدْفُورْت Gerard de Ridefort قائد الداويّة وغيرهم من قادة الفرنج، إلى صلاح الدين في خيمته، فاستقبلهم استقبالاً حسنًا، وأجلس الملك جاي الذي كاد يهلك من العطش إلى جانبه، وقدّم له شرابًا مثلّجًا، فشرب الملك منه، وأعطى ما تبقّى لأرناط فشرب، وعندئذٍ غضب صلاح الدين، وقال: «إنّ هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيناله أماني».

والتفت صلاح الدين إلى أرناط يعدّد له خياناته وجرائمه ويقرّعه على استخفافه بالمواثيق، قائلاً له: «كم تَحلف وتَنكث؟!» لكنّ أرناط لم يتخلّ عن غروره،

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ١٠/ ٢٠.

وأجاب على السلطان بعجرفة، فضربه صلاح الدين أرناط بكَمَنْجاة (سيف قصير) وفاءً بنذره الذي كان قطعه سابقًا، وأجهز عليه الحرس.

تلك كانت جريمة الفارس الفرنجي أرناط، وذلك كان العقاب!

ـ **أخبار (الدفاع عن مكة والمدينة) مقتبسة من المراجع التالية:**

- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ١٠/ ٢٠ - ٢٦.
- جيمس رِسْتون (الابن): **مقاتلون في سبيل الله**، تعريب الدكتور رضوان السيّد، مكتبة العُبَيْكان، الرياض- السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ٤٥ - ٤٧.
- الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ٤٧/ ٣٥٦ - ٣٥٧.
- أبو شامة: **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ٣/ ١٣٤.
- ابن شَدّاد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، ١/ ١٢٩ - ١٣٠.
- العماد الأصفهاني: **البرق الشامي**، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمّان - الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ٥/ ٧٠.
- أبو الفداء: **المختصَر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، بلا، ٣/ ٧٢.

٢- معركة حِطِّين

تقع حِطين قرب بحيرة طَبَرِيَّة في فلسطين، وقد دخلت التاريخ من بابها العريض سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، حين حقق فيها صلاح الدين الأيوبي واحدًا من أعظم انتصاراته على الفرنج، وفي أرض حِطين تحقق التعاون بين شعوب شرقي البحر المتوسط كردًا وعربًا وتركًا بقيادة صلاح الدين، فما أسباب المعركة؟ وكيف جرت أحداثها؟ وماذا كانت نتائجها؟

أسباب المعركة:

لم يقتصر طموح بعض الفرنج على احتلال سواحل بلاد الشام، وتأسيس إمارات في أنطاكيا وطَرابُلُس (لبنان)، وإنما خطّطوا للهيمنة على غربي آسيا عسكريًا واقتصاديًا؛ والدليل على ذلك هو التعاون الوثيق بين القيادات الفرنجية العليا في أوربا وقيادة المغول القادمين من الشرق في القرن السابع الهجري.

وكان الفارس الفرنجي أَرْناط، حاكم الكَرَك في الأُردن، من أبرز منفّذي سياسة الهيمنة تلك؛ لذا سعى إلى بسط نفوذه على البحر الأحمر، وغزو الحجاز كما مرّ، وبما أنّ القدس كانت واقعة في قبضة الفرنج فماذا كان سيبقى للمسلمين -بحسب الأيديولوجيا الدينية- لو لم يتصدّوا بقيادة صلاح الدين الأيوبي لأطماع أرناط؟

ويتفق المؤرخون على أنّ السبب المباشر لمعركة حطين هو غضب صلاح الدين على أرناط، وإصراره على معاقبته، لتطاوله على المسلمين واستخفافه بمقدّساتهم، ولأنه كان يحاول قطع طرق الاتصال بين مصر والشام، أهم ركنين من أركان القوة الأيوبية آنذاك، وقلّما يشيرون إلى أنّ أرناط كان ينفّذ المخطط الفرنجي القاضي بالسيطرة على «طريق البخور»، وحرمان الدولة الأيوبية من مواردها الاقتصادية، ولا ريب في أنّ هذه المعركة كانت حلْقة هامة في سلسلة حلقات تشكّل الخطة الكبرى التي وضعها صلاح الدين، بهدف تحرير بيت المقدس والقضاء على النفوذ الفرنجي في بلاد الشام.

إستراتيجية صلاح الدين:

إنّ صلاح الدين الأيوبي، القائد القوي والبارز حينذاك في شرقي المتوسط ومصر، لم يقبل باستمرار الاحتلال الفرنجي لمناطق مهمة إستراتيجيًا في بلاد الشام؛ ولم يخلد إلى الراحة في وقت يهدّد فيه الخطر الفرنجي عمق شرقي المتوسط، وخاصة أنه كان قد نذر نفسه للدفاع والتحرير، واستنفر شعوب المنطقة للانخراط في المشروع التحريري بأموالهم وأنفسهم، وعمل بحزم لتنظيم القوى البشرية والموارد الاقتصادية بما يتناسب وهذا الهدف.

والقائد العبقري هو الذي يعرف قوة العدو فلا يستخفّ بها، ويعرف في الوقت نفسه قوة شعبه فيستثمرها أفضل استثمار؛ وهذا ما فعله صلاح الدين، إنه كان على

يقين من أنه لا يحارب الفرنج الموجودين في سواحل بلاد الشام فقط، وإنما يقف في مواجهة أقوى الإمبراطوريات في أوربا، ولدفع خطر هائل كهذا لا بدّ من الاستنفار الشامل والتعبئة العامة، وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم حرص صلاح الدين على توحيد غربي آسيا ومصر شعوبًا واقتصادًا وعلماء وجنودًا.

وبما أنّ صلاح الدين كان يخطّط للمعركة الفاصلة، فقد وجّه الاهتمام إلى الجبهة الداخلية، للقضاء على كل عوامل الخلاف والتشتّت، ومن هنا استنكر تخاذل ابن المقدَّم -كبير أمراء الدولة الزنكية في عهد الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين- وندّد بتحالفه مع الفرنج، وعندما استرسل ذلك القائد في نهجه زحف صلاح الدين من مصر، وأزال سلطة المتخاذلين في بلاد الشام، وظل يقاتلّ تارةَ ويرغّب تارةً أخرى، حتى أعاد ملوك آل زَنْكي في حلب والموصل والجزيرة للانضمام إلى مشروع التحرير.

وفي الوقت نفسه لجأ صلاح الدين إلى الرهبة حينًا، وإلى الرغبة حينًا آخر، لإقناع سلاجقة آسيا الصغرى (تركيا حاليًا) بالكفّ عن التخاصم، وعدم إثارة المشكلات المعيقة لمشروع التحرير، وعمل لإيقاف الإرهاب الذي مارسته طائفة الحشاشين (الإسماعيلية) في بلاد الشام؛ إذ كانوا يتعاونون مع الفرنج أحيانًا، وحاولوا اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة. وبعد أن وحّد صلاح الدين شعوب شرقي المتوسط ومصر عربًا وكردًا وتركًا بات مطمئنًا إلى تحقيق النصر.

مقدّمات المعركة:

حينما جرت معركة حطّين كان للفرنج في بلاد الشام إمارتان ومملكة: إمارة أنطاكيا وإمارة طرابلس الشام ومملكة بيت المقدس، وكانت تضم فلسطين وجزءًا كبيرًا من الأردن؛ وبهذا كانوا يمتلكون مواقع إستراتيجية هامة في بلاد الشام، وكان ملك بيت المقدس بَلْدَوِين الخامس قد توفّي، ودار صراع حادّ بين أمراء الفرنج للفوز بعرش مملكة القدس، وفاز بذلك العرش أمير فرنجي يدعى جاي لُوزْجِنان، وهذا ما أغضب رِيمُونْد أمير طرابلس وبُوهِيمُونْد أمير أنطاكيا، وشاء حُسن حظ الفرنج أن يحدث هذا الانقسام في الوقت الذي كانت فيه الهدنة ما تزال قائمة بينهم وبين الأيوبيين.

غير أنّ حماقة أرناط وأطماعه لم تدع الفرنج ينعمون بتلك الفرصة، إنه تعجّل إثارة الحرب ضد الأيوبيين، وخرق الهدنة القائمة بين الفرنج وصلاح الدين؛ مع أنه كان قد طلب الأمان منه عقب غارته الفاشلة في البحر الأحمر، وتعهّد بالكفّ عن العدوان.

ووفقًا للهدنة بين الأيوبيين والفرنج أخذت قوافل المسلمين -سواء للحج أم التجارة- تمرّ بصحراء الأردن، ومرّ بنا أنّ أرناط انقضّ على قافلة كبيرة، كانت متّجهة من القاهرة إلى دمشق، أواخر سنة ١١٨٦م وأوائل سنة ١١٨٧م، وسلب ما كانت تحمله من ثروة، وألقى برجالها أسرى في الكرك، وأنزل بهم العذاب والإذلال، ومرّ بنا أنّ صلاح الدين طالب أرناط بإطلاق سراح الأسرى وردّ الأموال، لكنّ أرناط ردّ على رسل صلاح الدين باستخفاف.

ومرّ بنا أيضًا أنّ صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه إزاء استكبار أرناط عجرفته، فأقسم أن ينتقم منه ويقتله، وبادر على الفور إلى التعبئة الشاملة لقوى شعوب غربي آسيا في الموصل والجزيرة وإربيل وحلب ومصر، وراح يدعوهم إلى الجهاد ضد الفرنج، ويحثّهم عليه، ويحاول جاهدًا أن يوظّف جميع الموارد البشرية والاقتصادية المتاحة لخوض المعركة الفاصلة ضد القوى الفرنجية.

عبقرية سياسية:

عندما اكتملت استعدادات صلاح الدين غادر دمشق سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م على رأس جيش كبير متجهًا نحو الجنوب، حتى وصل إلى رأس الماء (شمال غربي حُوران في جنوبي سوريا)، حيث ترك ابنه الملك الأفضل هناك لتجتمع عنده الإمدادات والنجدات من القوات الكردية والتركية والعربية، واتجه هو نفسه ببقية القوات إلى بُصْرى في جنوبي سوريا، لحماية قافلة الحج القادمة من الحجاز، خوفًا عليها من غدر أرناط.

وبعد أن اطمأن صلاح الدين على وصول قافلة الحجاج بسلام بادر إلى مهاجمة أرناط في حصن الكَرَك، وأفسد على الفارس الفرنجي خطّته في قطع الطريق على القوات الأيوبية القادمة من مصر، وتقدّم صلاح الدين متلقّيًا العسكر المصري قرب الكرك، فوجد أرناط نفسه محاصرًا في قلعة الكرك، بينما كان

صلاح الدين طليقًا في الأردن، وكان ابنه الملك الأفضل مُعسكِرًا عند رأس الماء في حُوران (بجنوبي سوريا)، يستقبل القوات الأيوبية المتوافدة تباعًا من الشرق ويعبّئها.

لم تقتصر عبقرية صلاح الدين على الجانب العسكري، بل كان بارعًا في رسم الخطط السياسية أيضًا، وبما أنه حرص على ألاّ يحارب في أكثر من جبهة، ولا يتيحَ للفرنج تعبئة قواهم، فقد أرسل إلى رجاله في حلب يأمرهم بمصالحة بُوهِيمُونْد الثالث حاكم أنطاكيا، واستغل في الوقت نفسه الصراع بين رِيمُونْد حاكم طرابلس من جانب وجاي لُوزِْجنان ملك القدس Guy de Lusignan والداوِيَّة من جانب آخر، فاستعان ريموند بصلاح الدين ضد خصومه، فأعانه صلاح الدين، ثم اتجه إلى بانياس (على بُعد بضعة كيلومترات من طَبَرية) لمراقبة الموقف عن قرب.

وفي ربيع سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م أرسل صلاح الدين قوة من بضعة آلاف مقاتل لمهاجمة إقليم عَكّا، مارّة بإقليم الجَليل بإذن من ريمونْد، وعندما علم قائد الداوية جيرار دي رِيدْفُورْت بذلك تصدّى للجيش الأيوبي في صَفُّورية (قرب عكّا)، ودارت هناك معركة شرسة بين الطرفين، سقط فيها معظم الفرنج بين قتلى وأسرى، وكان من جملة القتلى قائد الأَسْبِتارية Hospitalers (منظّمة دينية عسكرية) وعدد من أبرز فرسانهم، ولم ينجُ من الفرنج الخمسمئة سوى عدد قليل جدًا، كان من بينهم قائد الداوِيّة نفسه، وعندما أسرعت قوة فرنجية أخرى لنجدة إخوانهم في صَفُّورية كانت المعركة قد حُسمت، فأسر الجيش الأيوبي تلك القوة، وعادوا بها غانمين.

إدارة الحرب النفسية:

بعد هذه الأحداث سرعان ما استيقظ الفرنج من غفلتهم، وأدركوا الخطر المحيط بهم جميعًا، فأسرع رِيموند أمير طرابلس إلى الدخول في طاعة ملك بيت المقدس، واتّخذ الفرنج صَفُّورِيَة مركزًا لحشد جيوشهم، ومعهم صليب الصَّلَبُوت، ويعتقد المسيحيون أنّ فيه جزءًا من الخشبة التي صُلب عليها النبي عيسى، فغلّفوه بالذهب.

وهنا تبدو مهارة صلاح الدين العسكرية، إنه كان يتوق إلى الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، لكنه أراد أن يجبرهم على المسير إليه، حتى يصلوا مُتْعَبين، في

حين يكون رجاله قد ادّخروا جهودهم، ونالوا قسطًا وافرًا من الراحة؛ ولذلك هاجم مدينة طَبَرِيّة، ليدفع الفرنج إلى ترك مراكزهم في صَفُّورية والزحف في اتجاهه.

ونجحت خطة صلاح الدين، إذ ثارت ثائرة الفرنج، فقد كانت زوجة رِيمُونْد محاصَرة في مدينة طَبرية، وبعد أن عقدت القيادة الفرنجية مجلسًا حربيًا لمعالجة الموقف، كان القرار الذي خرجوا به من مجلسهم هو الزحف إلى طبرية، وكان ذلك بتحريض من أرناط وأنصاره، وسار الجيش الفرنجي في جوّ شديد الحرارة، في تمّوز/ يوليو، وفي منطقة وعرة المسالك شحيحة بالمياه.

وفي الوقت الذي كان فيه الفرنج يتحمّلون هذه المشاقّ في زحفهم، كان صلاح الدين ورجاله ينتظرون قرب طبرية، وهم ينعمون بالماء الوفير والظل الظليل، مدِّخرين قواهم لساعة الحسم؛ وقد عبّر صلاح الدين ارتياحه عندما علم بزحف الفرنج إليه، قائلاً: «جاءنا ما نريد»[1]. وكلُّ ما فعله صلاح الدين، عندما تأكد من تحرك الفرنج نحو الجيش الأيوبي، أنه تقدّم بجنوده خمسة أميال، ورابط غربي طبرية عند قرية حِطّين، وهي قرية غنيّة المراعى وفيرة المياه، فيها قبر النبي شُعَيْب.

ولم تنقطع إغارات الجيش الأيوبي على الجيش الفرنجي أثناء زحف هؤلاء من صَفُّورية إلى حِطّين، وكان يوم ٣ تموز/ يوليو يومًا شديد الحر راكد الهواء، وفيه وصل الفرنج إلى سفح جبل طبرية المشرف على سهل حِطِّين، وهي هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثمئة متر، ولها قمتان تسمّيان «قرون حطين».

وبوصول الفرنج إلى الهضبة كانوا قد بلغوا ذروة الإنهاك، واشتد بهم العطش، في حين تقع بحيرة طبرية بمائها الوفير على مقربة منهم، وتقع قرية حطّين نفسها في أسفل الهضبة. لكن كان صلاح الدين قد رسم خطته الحربية بإحكام، فحال بينهم وبين الوصول إلى المياه، وكان هذا واحدًا من أهم أسس خطته الحربية؛ إنه كان يحاول استثمار كل ما بين يديه من قدرات بشرية وظروف بيئية للانتهاء بالفرنج إلى الفشل، وجعل العطش سلاحًا نفسيًا وماديًا يزلزل به روحهم المعنوية.

وأثمرت جهود صلاح الدين، فالقرار الذي توصّل إليه الداويّة وريمُونْد هو الكفُّ عن الزحف في ذلك اليوم، وقضاءُ الليل على الهضبة، وأبلغوا ملك بيت

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين، طبعة ١٩٩٧، ٣/ ٢٧٩.

المقدس الفرنجي جاي بذلك، في حين أصرّ بعض الأمراء على شقّ طريقهم فورًا إلى البحيرة لإطفاء نار عطشهم، ولما وجد الملك جاي أنّ معظم رجاله لا يقوون على السير بسبب الإنهاك والعطش، أمر الجميع أن يقضوا ليلتهم فوق الهضبة بعيدًا عن خطر الجيش الأيوبي.

وتمّ لصلاح الدين ما أراد، فقضى الفرنج ليلتهم تلك يئنون من العطش والإرهاق، وهم يسمعون أصوات الجيش الأيوبي في سهل حطّين، وقد أكثروا من التهليل والتكبير، ودفع العطش بعض الفرنج إلى التسلل ليلاً لمحاولة الوصول إلى الماء، لكنّ الجنود الأيوبيين كانوا لهم بالمرصاد، فقضوا عليهم قبل تحقيق الهدف، كما أنّ صلاح الدين أمر بإشعال النار في الأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة، وكانت الريح على الفرنج، فحملت حرَّ النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم البلاء من كل جانب: العطش وحرّ الصيف وحرّ النار والدخان وحرّ القتال.

كان هذا يوم الجمعة (٢٣ ربيع الآخر ٥٨٣هـ = ٣ تمّوز/ يوليو ١١٨٧م)، وعندما أشرقت شمس يوم السبت (٢٤ ربيع الآخر = ٤ تمّوز/ يوليو) تبيّن للفرنج أنّ صلاح الدين استغلّ ستار الليل ليحيط بهم من كل جانب، وكان هذا تطويرًا آخر في الخطة الحربية المرسومة، وثمرة أخرى من ثمار العبقرية العسكرية، ليثير اليأس في الجند الفرنجي.

وفي الوقت نفسه لم يغفل صلاح الدين عن مقاتليه، لا سيّما على الصعيد النفسي، فبعد أن هيّأ القاعدة الإيمانية في القلوب حرص على توفير القاعدة المادية والنفسية التي تخدم الهدف وتحقّقه، وذكر ابن شدّاد وغيره أنه تبيّن لعناصر الجيش الأيوبي أنّ نهر الأردن من ورائهم، وبلاد الفرنج بين أيديهم، وأنه لا منجاة لهم إلاّ القتال، وهذا ما حملهم على أن يستميتوا في القتال، ويشدّدوا هجماتهم على العدو.

المعركة الفاصلة:

أمام هذا الواقع الميداني تعذّر على الفرنج الصمود طويلاً، وهم على تلك الدرجة من الإرهاق والعطش، فأخذتهم سهام الجيش الأيوبي من كل جانب، وكثرت فيهم الجراح، واشتدّ الحرّ عليهم، وأرهقهم العطش، وفي خضمّ تلك

المحنة دبّ الخذلان في نفوس الفرنج، وأدرك رِيمُوند أمير طرابلس أنّ الهلاك محقَّق، فبادر مع قلّة من رجاله إلى الفرار، وحمل على صفوف الأيوبيين حملة مكروب. وكانت هذه فرصة تكتيكية أخرى لم يدعها صلاح الدين تمر من غير أن يستثمرها بذكاء، فالمهم على الصعيد الإستراتيجي أن تتشرذم قوات العدو وتتبعثر؛ لذا فتح الأميرُ تقيُّ الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، طريقًا لريموند وجنده فخرجوا، والتأم الصف الأيوبي من جديد.

أما بقية الفرنج فاعتصموا بجبل حِطّين، فأمر السلطان بالحملة عليهم، وأحاط جنوده بالجبل، وظلوا يطاردون الفرنج من أسفل، والفرنج يتراجعون نحو الأعلى باتجاه قمّة حطّين، وأرادوا تنصيب خيامهم، فاشتدّ القتال عليهم من جميع الجهات، ولم يتمكّنوا من نصب الخيام غير خيمة ملكهم جاي، وفي تلك الأثناء سقط أُسقف عكا قتيلاً، وسقط من يديه صليب الصَّلَبُوت، فاستولى عليه الجيش الأيوبي، وكان ذلك من أعظم المصائب على الفرنج، وأيقنوا بالهلاك، لأنهم كانوا يتفاءلون ببركات ذلك الصليب، وبدأ الجنود الأيوبيون يأسرونهم ويقتلونهم، وبقي الملك جاي على قمة التل في مقدار مئة وخمسين من فرسانهم المشهورين.

ولنقرأ وصف الملك الأفضل ابن صلاح الدين للمعركة:

«كنتُ إلى جانب أبي في ذلك المَصافّ، وهو أول مَصافّ شاهدته، فلما صار ملكُ الفرنج على التلّ في تلك الجماعة، حملوا حملة مُنْكَرة على مَن بإزائهم من المسلمين، حتى ألحقوهم بوالدي، فنظرتُ إليه، وقد عَلَتْه كآبةٌ، وارْبَدّ لونُه، وأمسك بلحيته، وتقدّم وهو يصيح: كَذَب الشيطان! فعاد المسلمون إلى الفرنج، فرجعوا فصعدوا التلَّ، فعاد الفرنج فحملوا ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفَعل مثلَ ما فعل أوّلاً، وعَطَف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضًا: هزمناهم! فالتفت والدي إليّ، وقال: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة. قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة تسقط، فنزل السلطان، وسجد شكرًا لله تعالى، وبكى من فرحه»[(١)].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبعة ١٩٩٧، ١٠/ ٢٥.

وكان سبب سقوط خيمة الملك أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشًا، وكانوا يرجون الخلاص ممّا هم فيه، لكن خابت مساعيهم، فنزلوا عن خيولهم، وجلسوا على الأرض، فصعد مقاتلو الجيش الأيوبي إليهم، فألقوا خيمة الملك أرضًا، وأسروهم جميعًا، وفيهم الملك جاي وأخوه، وأَرْناط أمير الكَرَك، وقائد الداوية، وكان ذا شأن عظيم عند الفرنج، وآخرون من سادة الفرنج وقادتهم وفرسانهم من الداوِيّة والأَسْبِتارية.

وتذكر المصادر العربية أنه قُتل من الفرنج في حِطّين ثلاثون ألفًا، وأُسر ثلاثون ألفًا، وكان عددهم ثلاثة وستين ألفًا، ولعلّ في هذا مبالغة على عادة بعض المؤرخين المسلمين القدماء في تضخيم أعداد الفريق المعادي؛ إذ يذكر أَنْتُوني بِرِدْج أنّ الفرنج كانوا ١٨ ألفًا، منهم ١٢ ألف فارس ثقيلي التسلح، و٤ آلاف فارس بتسليح خفيف. وكان مع صلاح الدين ١٢ ألف فارس. ولم يُصَب الفرنجُ منذ خرجوا إلى الساحل، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م، إلى ذلك اليوم، بمثل ما أصيبوا في تلك الوقعة.

ومن ثمار النصر في حِطّين أنّ الرعب سيطر على الفرنج، وذكر العِماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ)، أنه رأى في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين من جنود الفرنج يقودهم فارس مسلم واحد، ورأى في بقعةٍ واحدة مئة ومئتين يحميهم حارس مسلم. وذكر ابن شَدّاد أنّ البطل المشهور من الفرنج كان يستسلم للأسر خوفًا على نفسه، وروى له أحد شهود العيان أنه شاهد في حُوران (جنوبي سوريا) شخصًا واحدًا ومعه عمود خيمة فيه نيّف وثلاثون أسيرًا فرنجيًا، يجرّهم وحده. وكانت فرحة شعوب غربي آسيا بالنصر عظيمة، فتناقلوا أخباره مبتهجين، وتبارى الشعراء في الإشادة به، وما أكثر القصائد التي أشادت بالسلطان صلاح الدين في تحقيق ذلك النصر!

ـ أخبار (معركة حطّين) مقتبسة من المراجع التالية:

– ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ١٠/٢٤ – ٢٦.

– ألبير شاندور: **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام**، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

- ابن تَغْري بَرْدي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بلا، ٦/ ٣١.

- جيمس رِسْتون (الابن): **مقاتلون في سبيل الله**، تعريب الدكتور رضوان السيّد، مكتبة العُبَيْكان، الرياض- السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ٤٥ - ٤٧.

- ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ٥/ ٣٥٧ - ٣٥٨.

- الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ٤١/ ١٢ - ٢٠.

- أبو شامة: **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ٣/ ٢٧٥ - ٢٨٨.

- ابن شَدّاد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، ص ١٢٦ - ١٣١.

- العماد الأصفهاني: **البرق الشامي**، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمّان - الأردن، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧، ٥/ ٧٠.

- أبو الفداء: **المختصَر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، بلا، ٣/ ٧١ - ٧٢.

- ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ١٢/ ٣٩١ - ٣٩٣.

- المَقْريزي: **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ١/ ٢٠٧ - ٢٠٨.

٣- تحرير مدينة القُدْس

لم تكن معركة حِطّين نصرًا حربيًا عاديًا، بل كانت بشيرًا بنجاح شعوب شرقي المتوسّط في كبح جماح واحدة من أكبر الحركات الاحتلالية في العصور الوسطى، ولم تكن معركة حِطّين مجرد كارثة حربية عادية حلّت بالغزاة الفرنج، نتيجة أسر ملك بيت المقدس وسقوط مملكته، وإنما كان من أهم نتائج حطّين سقوط معظم

فرسان الفرنج الأشداء وغالبية جيش مملكة القدس قتلى وأسرى، حتى قيل آنذاك: «فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير. ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل».

مقدّمات تحرير القدس:

بعد معركة حِطّين أصبحت المناطق التي كان يبسط عليها الفرنج نفوذهم من بلاد الشام تحت رحمة صلاح الدين، وشرع في فتح المدن والقلاع واحدة بعد أخرى، متمسّكًا -رغم تحقيق النصر الباهر- بمبادئ الرحمة والتسامح، وقد شهد له به المؤرخون المسلمون والأوربيون؛ ومن ذلك أنه عندما استسلمت قلعة طَبَرِيّة في اليوم التالي لمعركة حِطّين، عامل صلاح الدين الأميرة إشيفا، زوجة ريموند الثالث أمير طرابلس، معاملة كريمة، ومنحها الأمان، ووفّى لها ولفرسانها بالشروط المتفَق عليها، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها، وسارت إلى طرابلس حيث يقيم زوجها.

وكان الأمير بالْيان الثاني Balian de Ibelin من الأمراء القلائل الذين نجوا من موقعة حِطّين، وكان زوجَ الملكة ماريا كومنين أرملة عَموري الأول ملك بيت المقدس الأسبق، وقد سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى القدس، شريطة عدم المبيت فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته وأولاده. لكن بعد وصول باليان الثاني إلى القدس تنكّر لعهده، وعمل بسرعة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فجمع من بقي من الفرسان وأبناء الفرسان فوق سنّ الخامسة عشرة، وجمع الصنّاع والتجّار القادرين على القتال، واستولى، بالاتفاق مع بطريرك القدس، على ما في كنيسة القيامة من نفائس معدنية وأوان فضية لصهرها وصكّها نقودًا يستعين بها للدفاع واستئجار الجند، اعتقادًا من قادة الفرنج أنّ صلاح الدين متوجّه إلى القدس بعد حطّين مباشرة.

خطّة إستراتيجية:

وقد تحرك صلاح الدين وفق مخطّطه الإستراتيجي، وما كان بالقائد الذي يرتجل خطواته، بل كان يدرك أنّ صراع شعوب غربي آسيا ومصر مع الفرنج صراع شامل، لذلك خيّب ظنَّ القيادة الفرنجية، وبدلاً من التوجّه إلى بيت المقدس توجّه إلى عكا. ويبدو أنه كان قد قرّر الاستيلاء على المدن الساحلية التي احتلها الفرنج،

ليحول بينهم وبين قواعدهم البحرية من ناحية، ويحول دون اتصالهم بأوربا من ناحية أخرى؛ إذ كانت أوربا تقدّم الدعم التعبوي للفرنج رجالاً وسلاحًا وأموالاً. وبتنفيذ تلك الخطة يبقى الفرنج محاصرين داخل بلاد الشام، ويصبح من السهل إسقاط معاقلهم والاستيلاء على مدنهم، هذا عدا عن أنّ سيطرة الأيوبيين على عكّا وغيرها من موانئ الشام الفرنجية تمكّنهم من تحقيق الاتصال البحري بين أهم شطرين في الجبهة الأيوبية: مصر والشام.

واستسلمت عَكّا للأيوبيين، إذ أرسل حاكمها جُوسْلِين الثالث مفاتيح أبوابها إلى صلاح الدين، شريطة تأمين أهاليها على أرواحهم وممتلكاتهم، فمنحهم صلاح الدين الأمان، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل. وأقام السلطان في عكّا، لكنه لم يخلد إلى الراحة، وإنما طوّر خطّة الهجوم على مواقع الفرنج، فوجّه جنوده للاستيلاء على معاقلهم القريبة، ففتحوا الناصرة وقَيْسارِيَة وحَيفا وصَفُّورِيَة وحصونًا غيرها.

ويبدو أنّ خطة صلاح الدين كانت تقوم على إرباك قيادة الفرنج، وفتْحِ أكثر من جبهة عليهم لتشتيت جهودهم، ففي الوقت الذي كان فيه جنوده يفتحون تلك المدن والقلاع، كان أخوه الملك العادل يهاجم المدن الساحلية في فلسطين، ومنها يافا، فقاومه الفرنج، لكنها سقطت أخيرًا. كذلك وجّه صلاح الدين ابن اخته الأميرَ حسام الدين بن لاجِين، فاستولى على سَبَسْطِيَة (فيها قبر النبي زكريا)، وهاجم قلعة تِبْنِين، وهي من القلاع المنيعة، فامتنعت عليه، فأسرع صلاح الدين إلى مساعدته، فتمّ فتحها، ثم توجّه صلاح الدين إلى فتح صَرَفَنْد وصَيْدا وبيروت، وكانت أحصن مدن الساحل في بلاد الشام، وجُبَيْل وغَزّة وعَسْقَلان، وكانت قاعدة للفرنج يهدّدون منها المواصلات بين مصر والشام.

حصار القدس:

بعد هذه الفتوحات استعدّ صلاح الدين لفتح القدس، وقامت خطّته على الوصول إلى الهدف بأقل قدر من الخسائر في الأرواح والأموال؛ لذا استقبل، وهو أمام عَسْقَلان، وفدًا من أهل القدس، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن الفرنجية؛ أيْ يؤمّنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن شاء منهم بالخروج من المدينة سالمًا، لكنّ

الفرنج رفضوا ذلك العرض، ورأوا الموت أسهل عليهم من امتلاك القدس، وعندئذٍ أقسم صلاح الدين أن يأخذ المدينة عَنْوة، ومع ذلك تصرّف مع من بداخل المدينة من الفرنج تصرّفًا كريمًا، فسمح بخروج الملكة ماريا كُومِنين، أرملة الملك عَمُوري الأول وزوجة باليان، وأمر بحراستها من القدس حتى طرابلس، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين.

ثم أعاد صلاح الدين عرضه على الفرنج للتسليم بشروط طيّبة، حرصًا منه على تجنّب العنف في مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين، وهذه من أبرز السمات الإنسانية في شخصية صلاح الدين، إذ إنه ما كان ينزع إلى العنف وسفك الدماء، لكنّ الفرنج أصرّوا على موقفهم ثانية، ولم يدركوا المنطلقات الإنسانية للسلطان. وبقدر إصرار الفرنج على الاحتفاظ بالقدس كان إصرار صلاح الدين على تحريرها، وكان قد أعدّ للأمر عدّته، فنزل بجيشه في الجانب الغربي من المدينة أولاً، ولكنه وجده قويَّ التحصين، مشحونًا بالمقاتلين، فأخذ يطوف حول المدينة خمسة أيام، باحثًا عن مواطن الضعف في أسوارها، واستقرّ رأيه أخيرًا على مهاجمة الجانب الشمالي من المدينة.

نزل صلاح الدين بقواته على القدس يوم الأحد، ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ، وانتقل إلى الجهة الشمالية منها يوم الجمعة، ٢٠ رجب، وأمر بنصب المَنْجَنيقات، وباشر الهجوم، ونصب الفرنج على سور البلد مَنجنيقات، ورموا بها الأيوبيين، وقاتل الفريقان أشدّ القتال، لأنّ كلاًّ منهما كان يرى ذلك واجبًا مقدسًا، وكان فرسان الفرنج يخرجون كلّ يوم إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون، ويسقط الضحايا من الفريقين.

ومن أبرز شهداء الأيوبيين أمام أسوار القدس الفارس الكردي عزّ الدين عيسى بن مالك، الذي كان من كبار القواد، ومحبوبًا إلى الخاص والعام، وكان يباشر القتال بنفسه كلّ يوم، وقد صعب مصرعُه على المقاتلين الأيوبيين، فحملوا على الفرنج حملة رجل واحد، وأزالوهم عن مواقعهم، واضطروهم إلى دخول المدينة، ووصلوا إلى الخندق فتجاوزوه، والتصقوا بالسور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، وواصلت المَنْجَنيقات الرمي خلال ذلك، لتكشف الفرنج عن الأسوار، وليستمر الجند الأيوبي في النقب.

الفتح الكبير:

لما رأى الفرنج شدة قتال الأيوبيين، ونجاح النقّابين في نقب السور، وأنهم أشرفوا على الهلاك، تشاور زعماؤهم وقادتهم، واتفقوا على طلب الأمان، وتسليم القدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا وفدًا يضمّ زعماءهم لطلب الأمان. غير أنّ صلاح الدين رفض شروطهم، وأصرّ على أخذ المدينة بالقوة الحربية، لأنهم رفضوا عرضين تقدّم بهما إليهم قبل القتال وسقوط الضحايا، وامتنع السلطان عن إجابتهم وتذكّر المجازر التي ارتكبها الفرنج ضد المسلمين في القدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وقال: «لا أفعل بكم إلاّ كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة، من القتل والسبي، وجزاءُ السيّئةِ بمثلها»[(١)].

فلما رجع الوفد خائبًا حضر باليان عند السلطان، ورغب في الحصول على الأمان لفرنج القدس، فرفض السلطان عرضَه، ولما يئس باليان قال:

«أيها السلطان، اعلمْ أننا في هذه المدينة في خَلْقٌ كثير، وإنما يَفْتُرون[(٢)] عن القتال رجاءَ الأمان، وهم يكرهون الموت، ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموتَ لا بدّ منه، فوالله لنَقتلنّ أبناءنا ونساءنا، ونَحرقَ أموالَنا وأمتعتنا، ولا نترُكَكم تَغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا، ولا تَسْبُون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربْنا الصَّحنَ والمسجد الأقصى، وغيرها من المواضع، ثم نقتلُ مَن عندنا من الأسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نتركُ لنا دابّة ولا حيوانًا إلاّ قتلناه، ثم نخرجِ إليكم ونقاتلكم قتالَ مَن يريد أن يحمي دمَه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتلَ أمثاله»[(٣)].

فماذا يمكن أن يفعله صلاح الدين؟! هل يستمر في رفض شروط الفرنج؟! هل يصرّ على أخذ المدينة عَنوة، وينتهي الأمر بمجزرة رهيبة يحترق بنارها الفريقان؟!

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ١٠/ ٣٥.

(٢) يضعفون.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ١٠/ ٣٥. وانظر أبو شامة: **عيون الروضتين**، طبعة ١٩٩٧، ٣/ ٣٣٣.

عقد صلاح الدين مجلس شورى، كما هي عادته، وأخذ رأي أصحابه من أهل الحكمة، فأجمعوا على إجابة الفرنج إلى طلب الأمان، وحصل الاتفاق على أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن الطفل ديناران فقط.

وفي الجمعة (٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م) دخل صلاح الدين القدس، واحتل الجيش الأيوبي قلعة المدينة، وحافظ السلطان على وعده لمن فيها من الفرنج، فسمح لهم بالخروج بعد دفع المال المتفَق عليه، وعيّن على كلِّ باب من أبواب المدينة أمينًا من الأمراء لأخذ المال المقرّر، وتسامح مع كثيرين من فقراء الفرنج العاجزين عن دفع الفدية.

والغريب أنّ هِرَقْل بطريرك بيت القدس خرج من المدينة بعد دفع عشرة دنانير، حاملاً ما استطاع حمله من الذهب والفضة، ومن خلفه العربات وهي تحمل نفائس الكنيسة، دون أن يبالي بفقراء الفرنج الذين لم يجدوا ثمن فدائهم، ورغب بعض المسلمين في اعتراضه، وأخذ تلك النفائس، لكنّ صلاح الدين منعه قائلاً: لا أغدر به. وطالب بعضُ قادة المسلمين بهدم كنيسة القيامة، ومعاملة المسيحيين بمثل ما عامل به الفرنجُ المسلمين عندما استولوا على القدس، لكنّ صلاح الدين نهاهم، وأمر باحترام المقدسات المسيحية، والتزام روح التسامح.

وشهد المؤرّخون الفرنج بكرم أخلاق صلاح الدين، فقد عامل نساءَ الفرنج بنَبل، وسمح لهن بالخروج من القدس مكرّمات، ومعهن أموالهن وحشمهن، ولم يأخذ أرملة أرناط بذنوب زوجها، وإنما أكرمها وسمح لها بالسفر. أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الفرنج فإنّ صلاح الدين لم يكتفِ بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم مساعدات من ماله الخاص، وهكذا كان الفرق كبيرًا بين سلوك صلاح الدين عندما استعاد القدس، والمجازر التي ارتكبها الفرنج فيها عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩م.[١]

الفرحة الكبرى:

كانت فرحة المسلمين عظيمة بتحرير القدس، وأقبلوا على زيارتها رجالاً

---

(١) أبو شامة: **عيون الروضتين**، طبعة ١٩٩٧، ٣/ ٣٤٤.

ورُكبانًا، بعد أن حرموا منها ثمانية وثمانين عامًا، وأمر السلطان بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الفرنجي، فأُنزِل الصليبُ المذهَّب الكبير من فوق قبّة الصخرة، وقام المسلمون بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار، وأزيلت الأبنية التي بناها الداوِيّة وفرسان المعبد غربي الأقصى. قال العِماد الأصفهاني يصف فتح القدس:

«تَسلّم المسلمون القدسَ يوم الجمعة أوانَ وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وضاق وقت الفريضة، وتعذّر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان المسجد الأقصى، لا سيّما محرابه، مشغولاً بالخنازير ومغمورًا بالنجاسات والأبنية، فأمر السلطان بكشْف ذلك كله، وتنظيفه وتطهيره، فاجتمع الخَلْق في ذلك الأسبوع على تفريق ذلك المجموع، وتعاونوا حتى كَشفوه ونَظّفوه ورَشّوه وفَرشوه، وجلس السلطان بالمخيّم ظاهرَ القدس جلساته الأبرار، وبابه مفتوح ورِفْدُه ممنوح، وأمر بكُتُب البشائر إلى البلاد، فكَتبْتُ في ذلك اليوم سبعين كتاب بِشارة، كلَّ كتاب بمعنى بديع وعِبارة». (١)

وفي الجمعة الأخرى صلّى المسلمون صلاة الجمعة في المسجد ومعهم صلاح الدين، وكان الخطيب الإمام محيي الدين بن الزّكي، قاضي دمشق، ولما أُقيم الأذان لصلاة الجمعة كادت القلوب تطير فرحًا، ولبس الخطيب الخِلْعة السوداء، ودعا للخليفة العباسي الناصر، وللسلطان صلاح الدين. وذكر العمادُ الأصفهاني أنّ السلطان استدعى من حلب المنبرَ الذي فيه الآن، وكان نور الدين زَنْكي قد أمر بصناعته، وأعدّه للقدس قبل فتحه بنيّف وعشرين سنة، وأمر السلطان بكشف الصخرة المقدّسة وتطهيرها، وطلب من الفقيه عيسى الهَكّاري الكردي صيانتها بشبابيك من حديد، وحمل إليها وإلى محراب الأقصى المصاحف، ورتّب الأئمة، وتنافس أمراء بني أيوب في العناية بالمسجد، فتولّى تقيّ الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، كنس الساحات، ثم غسلها بالماء حتى تطهّرت، ثم أتبع الماءَ بماء الورد حتى تعطّرت، وكذلك طهّر حيطانها، وغسل جدرانها، وبّرها بالبخور.

---

(١) المرجع السابق.

وقيل في فتح القدس شعر كثير، منه قول العماد الأصفهاني:

رأيتُ صلاح الدين أفضلَ مَن غدا
وأشرفَ مَن أضحى، وأكرمَ مَن أمسى
وقيل لنا: في الأرض سبعة أبحرٍ
ولسنا نرى إلاّ أناملَه الخَمسا
ولا يستحقّ القدسَ غيرُك في الورى
فأنت الذي من بينهم فتحَ القُدسا[1]

وقال أبو علي الجُوَيْني المعروف بفخر الكتّاب:

جندُ السماء لهذا الملك أعوانُ
مَن شكّ فيه فهذا الفتح برهانُ
هذي الفتوح فتوحُ الأنبياء، وما
لها سوى الشكر بالأفعال أثمانُ
تسعون عامًا بلاد الله تصرخ والـ
إسلام نُصّاره صمٌّ وعميانُ
فالآن لبّى صلاحُ الدين دعوتَهم
بأمر مَن هو للمِعوان مِعوانُ[2]

ـ أخبار (تحرير القدس) مقتبسة من المراجع التالية:

– ألبير شاندور: **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام**، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٢٩ – ٢٣٥.

– ابن تَغْري بَرْدي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بلا، ٦/ ٣٦.

---

(١) المرجع السابق، ٣/ ٣٦٢.

(٢) المرجع السابق، ٣/ ٣٦٩.

- ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ٥/ ٣٦٠ - ٣٦٢.

- الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ٤٠/ ٥٤، ٤١/ ٢٤ - ٢٨.

- أبو شامة: **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ٣/ ٣٣٠ - ٣٣٣، ٣٥٣.

- أبو الفِداء: **المختصَر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، بلا، ٣/ ٧٣.

- ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ١٢/ ٣٩٤ - ٣٩٩.

- المَقْريزي: **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ١/ ٢١٠.

٤- معركة المَنْصُورة

لم يخلد الفرنج في أوربا إلى السكوت على الهزائم التي أنزلها صلاح الدين بملوكهم وجيوشهم، وخروج القدس وبعض مدن الساحل الشامي من سيطرتهم، فبذلوا جهودًا حثيثة لاسترداد القدس، إلاّ أنّ سلاطين بني أيّوب وقفوا لهم بالمرصاد، واستكملوا مسيرة صلاح الدين في مواجهتهم، والدفاع عن مصر وغربي آسيا عامة، وكانت معركة المنصورة واحدة من الملاحم الكبرى في تلك المسيرة. فما أسباب تلك المعركة؟ وما هي أحداثها ونتائجها؟

أسباب الحملة الصليبية السابعة:

شهدت أوربا في العصور الوسطى نزاعًا حادًا بين البابوية من جانب والإمبراطورية المقدسة من جانب آخر، واستمرّ الصراع من سنة ١٠٥٧م حتى سنة ١٢٥٠م تقريبًا، وسبب النزاع هو التنافس بين السلطتين الكنسية والعلمانية، وقد مرّ النزاع بأدوار عديدة، ودار أشدّها بين البابا جِريجُوري التاسع وإمبراطور ألمانيا فِرِدْريك الثاني.

وكان فِردريك الثاني قد تعهّد للبابوية، إبّان وصوله إلى السلطة سنة ١٢١٤م، أن يقوم بحملة صليبية لاسترداد القدس، وفي سنة ١٢٢٠م تُوّج إمبراطورًا في كنيسة القدّيس بطرس بروما، بعد أن جدّد العهد للبابوية بتنفيذ الحملة المتفق عليها، ويبدو أنّ فِرِدْريك لم يكن جادًّا في مشروعه الصليبي، في حين كانت البابوية تتوق إلى إرسال حملة صليبية سادسة على وجه السرعة لإصلاح الموقف الناجم عن فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ١٢٢١م، وأدّت مماطلة الإمبراطور وخلافات أخرى بينه وبين البابوية إلى إصدار قرار الحرمان ضده سنة ١٢٢٧م.

نتيجةً لتأزّم الموقف أدرك الإمبراطور فردريك أنّ مصلحته السياسية تقتضي القيام بحملة صليبية يفوّت بها على البابا إظهاره بمظهر المسيحي العاقّ، وبدأ حملته سنة ١٢٢٨م متوجّهًا إلى عكا، وتمكّن، بعد مفاوضات طويلة ومضنية مع الملك الكامل بن الملك العادل، من استرداد القدس سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م سِلمًا وعلى نحو شكلي، ووصلت المفاوضات إلى حدّ أنّ الإمبراطور كان يبكي متوسّلاً إلى صديقه الملك الكامل أن يحقق له رغبته هذه فقط ليردّ مكر البابوية إلى نحرها.

وكانت هذه الانتكاسة نتيجة للموقف الداخلي الضعيف للأيوبيين، فالخلافات الحادة بين أبناء الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين، ولا سيّما بين الملك المُعظَّم والملك الأشرف، كانت قد تفاقمت، إضافةً إلى أنّ الخُوارِزْمية الزاحفين على غربي آسيا، هاربين من وجه المغول، زادوا الأمر سوءًا في كُردستان وبلاد الشام، بما ارتكبوا من مجازر وأحدثوا من تخريب في مجتمعات غربي آسيا، وتهديد للخلافة العباسية نفسها.

وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م توفّي الملك الكامل، وبعد فترة من الصراع على السلطة بين ولديه الصالح أيوب والعادل الثاني سيطر الصالح على الموقف، ووصل إلى سدّة الحكم سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م، وكانت جموع الخُوارِزْمية تهيم على وجوهها في جنوبي كُردستان وشمالي بلاد الشام، بعد مقتل سلطانهم جلال الدين الخُوارِزْمي، سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م، وغزو المغول لأذربيجان وأرمينيا وشمالي كردستان، واستقرّ جزءٌ كبير من الخُوارِزْمية في جنوبي كردستان حول الرُّها وحَرّان ونِصيبين.

ومن هناك شنّ الخُوارِزْمية الغارات داخل بلاد الشام بغية السلب والنهب، وقد

رأى الملك الصالح نجم الدين أيّوب أن يوظّف هذه القوة المدمّرة على نحوٍ مفيد، فوجّه الدعوة إليهم، وسلّطهم على الفرنج في بلاد الشام، واستطاع بمساعدتهم استرداد القدس ثانية في ١١ يوليو/ تمّوز ١٢٤٤م، مما أدّى إلى غضب الدوائر الكنسية في أوربا، والإعداد للحملة الصليبية السابعة على شرقي المتوسط، بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع.

حرب الأعصاب:

بعد استرداد القدس من الفرنج، سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، أرسل بطريرك القدس وفدًا إلى أوربا، رغبةً منه في إطلاع البابوية وملوك أوربا وأمرائها على خطورة موقف الفرنج بالشام، وطلب منهم العون العاجل، وأدّت جهود ذلك الوفد إلى انعقاد مَجمع لِيُون بفرنسا في صيف سنة ١٢٤٥م، واتّخذ المجمع قرارًا بضرورة إرسال حملة جديدة إلى الشرق؛ لتدارك الموقف قبل فوات الأوان.

وكان ملك فرنسا لويس التاسع، الملقّب بالقدّيس لتقواه، قد أصيب بمرض شديد في أواخر سنة ١٢٤٤م، فنذر أن يقوم بحملة صليبية على الشرق إذا شُفي، ولمّا شُفي وجد في دعوة مَجمع لِيُون فرصة للوفاء بنذره، وظلّ ثلاث سنوات يعدّ للحملة، ثم أبحر من فرنسا في آب/ أغسطس ١٢٤٨م، قاصدًا الشرق، ومعه زوجته وأخواه روبرت دي أَرْتو وشارل دي أَنْجو، إلى جانب عدد كبير من الأمراء.

وصلت الحملة الفرنسية إلى قبرص في أيلول/ سبتمبر ١٢٣٨م، وساعدت السلطات القبرصية لويس التاسع في الحصول على كميات ضخمة من التموين، كما انضمّ إلى الحملة مقاتلون قبرصيون وآخرون من فرنج عكا، وأسرع زعماء الدَّاوِيّة والأسبِتارية إلى قبرص للتشاور مع الملك الفرنسي، ولتنسيق العمل ضد الأيوبيين.

وعلى صعيد أوضاع غربي آسيا فقد نشبت الخلافات بين أركان الأسرة الأيوبية في مصر وبلاد الشام، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يسيطر على مصر ودمشق، وكان في نزاع مع منافسه الأيوبي الناصر يوسف ملك حلب، لكن عندما أحسّ بتجمّع الفرنج في قبرص عقد الصلح مع ملك حلب، بوساطة من الخليفة العباسي.

أما لويس التاسع فتبيّن له أنّ الطريق إلى استرداد القدس يمرّ عبر مصر، فمصر

آنذاك كانت مركز الثقل، سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، في شرقي البحر المتوسط، وكان سلطانها الصالح أيوب أقوى ملوك المنطقة وأقدرهم على الوقوف ضد الفرنج، لأنه كان يجمع في سلطته بين مصر وجنوبي بلاد الشام. وأدرك لويس التاسع أنه لا فائدة من احتلال القدس مباشرةً؛ لأنّ الجيوش الأيوبية ستندفع من مصر لاستردادها. وأخيرًا وصل لويس التاسع على رأس حملته إلى دِمياط أوائل سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، وبدأت حرب الأعصاب بين القيادتين الفرنسية والأيوبية، فبعث لويس التاسع إلى السلطان نجم الدين رسالة تهديد يفخر فيها بالهوان الذي لحق بالمسلمين في الأندلس على أيدي الفرنج؛ وجاء في رسالته:

«وإنه غيرُ خافٍ عنك أنّ أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سَوْقَ البقر، ونقتل الرجال، ونُرَمِّل النساء، ونَستأسِر البنات والصبيان، ونُخْلي منهم الديارَ، وقد أبديتُ لك ما فيه الكفاية، وبذلتُ لك النُّصحَ إلى النهاية، فلو حلفتَ لي بكلّ الأَيمان، ودخلتَ على القسوس والرهبان، وحملتَ قُدّامي الشمعَ طاعةً للصُّلبان، ما ردّني ذلك عن الوصول إليك، وقتْلك في أعزّ البقاع عليك... وقد عَرّفتُك وحذّرتك من عساكر قد حَضَرتْ في طاعتي، تملأ السهل والجبل، عددهم كعدد الحَصى، وهم مُرسَلون إليك بأسياف القضاء».[1]

لكنّ السلطان نجم الدين لم يعبأ بهذا التهديد، وردّ على لويس التاسع برسالة يفخر بها بالجيش الأيوبي، وينذره بالعواقب الوخيمة، ويذكّره بالانتصارات التي حقّقها الأيوبيون على الفرنج سابقاً، قائلاً:

«فقد وصل كتابك، وأنت تهدّد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قُتلَ منّا قِرْن[2] إلاّ جدّدناه، ولا بَغى علينا باغٍ إلا دمّرناه، فلو رأت عيناك -أيها المغرور- حدَّ سيوفنا، وعِظَمَ حروبنا، وفَتْحَنا منكم الحصونَ والسواحل، وإخرابَنا منكم ديارَ الأواخر والأوائل، لكان لك أن تَعَضَّ على أناملك

---

(١) المقريزي: كتاب السلوك، طبعة ١٩٩٧، ١/ ٤٣٧.

(٢) قِرْن: بطل.

بالندم، ولا بدّ أن تَزِلّ بك القَدَم، في يوم أوّلُه لنا وآخرُه عليك، فهنالك تُسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظَلَموا أيَّ مُنقلَبٍ يَنقلبون». (١)

والحقيقة أنّ السلطان نجم الدين كان يعرف نوايا الملك الفرنسي قبل وصوله إلى مصر، فقد مرّ أنّ الإمبراطور الألماني فردريك الثاني كان صديقًا لوالده الملك الكامل، ولم يكن هذا الإمبراطور على وفاق مع البابوية وملك فرنسا، لذلك أرسل رسولاً متخفّيًا في زيّ تاجر إلى السلطان نجم الدين، يخبره بما عزم عليه الملك الفرنسي. وكان السلطان نجم الدين يجهل مقصد لويس التاسع؛ أهو الشام أم مصر؟ ومع ذلك كان قد أخذ الاحتياطات اللازمة، وعندما تأكد له أنّ مصر هي المقصد انتقل إليها فورًا من الشام، على الرغم من مرضه، وعسكر في مقابلة الجيش الفرنسي الذين وصلوا إلى دمياط.

وكان السلطان نجم الدين قد استفاد من التحذير الذي أرسله الإمبراطور فردريك الثاني، فأمر بتحصين دمياط لمّا علم أنّ الفرنج قد اختاروها نقطة انطلاق للاستيلاء على مصر، فشحنها بآلات حربية عظيمة وبالذخائر الوافية، وكلّف الأميرَ المملوكي فخر الدين يوسف بالوقوف على رأس قوة في البر الغربي لفرع دمياط، ليمنع الفرنسيين من النزول على البر.

احتلال دمياط ووفاة السلطان:

حينما وصل لويس التاسع إلى دمياط وجدها مدينة حصينة، وأمامها الجيش الأيوبي يحول دون نزول القوات الفرنسية على البر، فقرّر النزول على الضفة الغربية للنيل، كي يواجه دِمياط، وبدأت عملية إنزال الجيش الفرنسي سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، فتصدّى لهم الجيش الأيوبي، ودارت معركة حامية بين الفريقين على الشاطئ، لكنّ الفرنسيين تفوّقوا بفضل كثرة عددهم، واستشهد العديد من الأمراء في صفوف الجيش الأيوبي.

أما فخر الدين، القائد الميداني للجيش الأيوبي، فعبر برجاله النيل ليلاً إلى الضفة الشرقية، حيث مدينة دِمّياط، ولكنه لم يجرؤ على الوقوف عند دمياط، فاتجه

---

(١) المقريزي: كتاب السلوك، طبعة ١٩٩٧، ١/٤٣٨.

إلى الجنوب نحو أشْموم طِناح؛ وقد اتهم المؤرخون القدامى -خاصةً ابن واصِل (ت ٦٩٧هـ)- الأميرَ فخر الدين بالتفريط في دمياط؛ لأنه لو ثبت فيها لامتنعت على الفرنسيين، وفسّروا فرار الأمير فخر الدين -وهو أكبر زعماء المماليك- بأطماعه في السلطة، وكان قد أرسل رسالةً إلى السلطان الصالح، فتأخّر عليه الجواب، فظنّ أنّ السلطان قد توفّي، فأسرع ليحقّق أطماعه، تاركًا دمياط لقمةً سائغة للفرنج.

بفرار الأمير فخر الدين استولى الرعب على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم بعد أن أشعلوا النار في سوقها، بل إنّ بعض عرب كِنانة، الذين كلّفهم السلطان بالدفاع عن دمياط، ولّوا الأدبار وتركوا أبواب المدينة مفتوحة، وفاتهم عند الفرار أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل، وهكذا صارت دمياط خالية من القوات الدفاعية، فدخلها جيش لويس التاسع بسهولة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ووجدوا فيها قدرًا كبيرًا من المؤن والذخائر، وحوّلوها إلى مدينة فرنجية، وحوّلوا جامعها الكبير إلى كنيسة باسم نُوتِرْدام.

كان احتلال دِمياط نكسة كبرى للجانب الأيوبي، فعاقب السلطان أمراء بني كِنانة عقابًا شديدًا على فرارهم من دمياط، وإهمال أمر الدفاع عنها، ووبّخ المماليك الأتراك وقائدهم فخرَ الدين أشد توبيخ، «وَقَالَ: أما قدرتم تقفون سَاعَة بَين يَدي الفرنج».[1] فشرع هؤلاء يفكّرون في التآمر عليه، وأرادوا الفتك به، لكنّ فخر الدين طلب منهم الصبر، مؤكّدًا لهم أنّ السلطان مريض وهو في أيديهم، يفتكون به حين تأتي الفرصة المواتية.

واشتدّ مرض السلطان، ولم يعد يقوى على النهوض من الفراش، فحُمل إلى قلعة المنصورة، وظلّ وهو على فراش الموت ينظّم شؤون الدفاع، ويطلب الإمدادات من القاهرة، وفي تلك الأثناء كان الجيش الفرنسي قد عاد إلى الضفة الغربية للنيل، وعسكر في مواجهة دمياط، وأخذ الأيوبيون يشنّون غارات متتابعة عليهم، إلى درجة بات لويس التاسع يشعر معها بالقلق. ولما وصلت إمدادات جديدة إلى الفرنج انتقلوا إلى الضفة الشرقية، وزحفوا على القاهرة، وما كادوا يبدأون زحفهم حتى توفّي السلطان سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م «بالمنصورة وهو في مُقابلة

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٤٣٩.

الفرنج عن أَربع وأَرْبَعين سنة، بعدما عهد لوَلَده الملك المُعظَّم تَوْرانشاه، وَحلف له فَخر الدّين بن الشَّيْخ، ومُحْسِن الطواشي، ومن يَثِق به، وبعدما علم قبل مَوته عشرَة آلاف عَلامة. يستعان بها فِي المكاتبات على كتمان مَوته حَتَّى يقدم ابْنه تَوْرانْشاه من حِصْن كَيْفا». [١] وكانت وفاته خسارة كبرى للدولة الأيوبية، إذ لم يكن هناك من يحلّ محله بسرعة لإدارة دفّة المعركة.

تَوْرانْشاه يقود المعركة:

كان للسلطان نجم الدين ولد وحيد اسمه تَوْرانْشاه، وكان نائبًا عنه في حِصن كَيْفا وديار بكر بشمالي كردستان، وقد قامت شجرة الدُّر، أرملة السلطان، بإخفاء خبر وفاة زوجها إلاّ عن المقرّبين منها جدًا، واستدعت تَوْرانْشاه للحلول محلّ والده في السلطنة، واستمرّت تُصدر الأوامر والمراسيم باسم السلطان المتوفّى، مُوهِمةً الناس بأنه لا يزال حيًا. ورغم التكتّم الشديد تسرّب نبأ وفاة السلطان إلى الفرنسيين، فتحرّك لويس التاسع نحو القاهرة ليحتلّها قبل وصول تَوْرانْشاه، وسلك طريق الدِّلتا، وهو كثير التُّرَع والقنوات، فاستغلّ الأيوبيون الظروف الطبيعية في الدفاع، وأنزلوا الخسائر بالفرنج، غير أنّ الفرنج استمروا في زحفهم إلى جانب النيل، وسارت سفنهم إلى جانبهم وهي تحمل المؤن من دمياط.

لكنّ لويس التاسع وجد جيشه محصورًا في تلك المنطقة، والأيوبيون تتزايد أعدادهم يومًا بعد يوم، واستمرت المناوشات بين الفريقين، واستطاع لويس التاسع أن يعبر بحر أَشْمُوم، واستعدّ الأمير فخر الدين لخوض المعركة الفاصلة، لكنه ما لبث أن قُتل في هجوم شنّه فرسان الداويّة، وفي رواية أنه كان في الحمّام منشغلاً بصبغ لحيته وقت الهجوم، وكادت الهزيمة الكبرى تحلّ بالجيش الأيوبي.

وفي الوقت الذي أوشك فيه الفرنسيون على تحقيق النصر، ارتكب رُوبِرْت دي أَرْتُوا، أخو لويس التاسع، خطأً قاتلاً؛ إذ لم ينتظر عبور الجيش الفرنسي كله ومعهم لويس نفسه، فاقتحم المنصورة من غير أن ينتظر أوامر الملك، وكان الجيش الأيوبي قد وجد قائدًا له في شخص بَيْبَرْس البَنْدَقْداري، فانقضّ على الفرنسيين، وفتك بهم

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٤٤١.

فتكًا ذريعًا، وسقط منهم ألف وخمسمئة قتيل بينهم أخو الملك نفسه، وفرّ الباقون، ولم ينجُ من فرسان الدّاوية سوى أربعة، وأصبحت المنصورة مقبرة الجيش الفرنسي.

أما لويس التاسع فجزع لتلك الصدمة، لكنه تمالك، وأقام جسرًا من الخشب، عبر عليه نهر النيل مع رجاله لتدارك الموقف، ودارت معركة أخرى ضارية بين الجانبين، قادها من الجانب الفرنسي لويس التاسع نفسه، فاضطر الجيش الأيوبي إلى التراجع نحو المنصورة، ثم ما لبث الموقف الفرنسي أن ازداد سوءًا؛ إذ قلّت المؤن عندهم، وفقدوا عددًا كبيرًا من فرسانهم في معركة المنصورة، وتفشّت فيهم الأوبئة.

وفي هذا الوقت وصل تَوْرانشاه بعد أن أُعلن سلطانًا في دمشق، فأدّى وصوله إلى ارتفاع الروح المعنوية للمسلمين، وتفاءل الناس بقدومه، وعندئذٍ أدرك الملك لويس استحالة الزحف نحو القاهرة، وقرر العودة إلى دمياط، ليحتمي بها هو ورجاله، ويستغلّها في مساومة الأيوبيين عليها. وازداد موقف الفرنسيين سوءًا بانقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط، وبات الجوع يهدّدهم؛ إذ أمر السلطان تَوْرانْشاه ببناء عدة سفن، وحملوها مفصَّلة على الجمال إلى بحر المَحَلّة، ثم أنزلوها في الماء، وشحنوها بالمقاتلين، ولم تلبث سفن الأيوبيين أن انقضّت على المراكب الفرنسية، واستولت السفن الأيوبية على اثنتين وخمسين سفينة للفرنج كانت محمَّلة بالمِيرة والمؤن، وبذلك تمّ قطع الطريق على السفن الفرنسية، وحيل دون اتصالهم بقاعدتهم في دِمْياط، وكانت هذه الخطوة نصرًا كبيرًا للجيش الأيوبي.

لويس التاسع أسيرًا:

لم يبقَ أمام لويس التاسع سوى أن يرجع برجاله من حيث أتى، وشرع الفرنسيون يستعدّون للانسحاب إلى دمياط، فأحرقوا ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم، لكنّ عملية الانسحاب في تلك الظروف لم تكن سهلة، وأدرك لويس التاسع أنّ جيشه سيتعرّض لمطاردة من الجيش الأيوبي، لذلك لجأ قبل الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع الأيوبيين، على أن يترك لهم دمياط مقابل أخذ القدس، لكنّ تَوْرانْشاه رفض العرض رفضًا مطلقًا؛ إذ كان على معرفة بما يعانيه الفرنسيون من ضعف وعناء ونقص في الذخائر والأقوات.

وبدأ الفرنسيون بالتراجع نحو دِمياط، في حين حُمل المرضى منهم في السفن، ولم تكن هذه عملية انسحاب، وإنما كانت في الحقيقة عملية هروب، كما سمّاها ابن واصِل، وكان الجيش الأيوبي يسير في أعقابهم، ويهاجمهم من كل ناحية، ولم تكد مقدّمة الجيش الفرنسي تصل إلى فارِسْكُور حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه، وكان الأيوبيون حينذاك يحيطون بهم، ويتخطّفونهم طوال الطريق قتلاً وأسرًا.

بعد أن تأكد للقيادة الأيوبية سوء حال الجيش الفرنسي قررت القيام بهجوم شامل عليه عند فارِسْكور، وكان الإعياء قد اشتد بالملك لويس التاسع وكذلك المرض، فلم يستطع القتال، وقاده أحد رجاله ليستريح في «مِنْية أبي عبد الله»، وهي إحدى قرى «شَرِمْساح»، وانقضّ الجيش الأيوبي على الفرنسيين عند فارِسْكُور، فحلّت الهزيمة الساحقة بالجيش الفرنسي، ووقع بأجمعه تقريبًا بين قتلى وأسرى، ووقع لويس التاسع في الأسر، فسيق مكبّلاً بالأغلال إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لُقمان، وعهد بحراسته إلى الطّواشي صَبِيح المُعَظَّمي[1].

ولم ينصبّ اهتمام الأيوبيين على استرداد دمياط وحدها، بل طمحوا إلى الاستيلاء على جميع الممتلكات الفرنجية في بلاد الشام، عن طريق الضغط على لويس التاسع خلال المفاوضات، وحاول تَوْرانشاه تهديده لانتزاع الاعتراف منه، لكنّ لويس التاسع أصرّ على أنه لا سلطان له على الفرنج وممتلكاتهم في الشام. واغتاظ تَوْرانشاه من موقف لويس التاسع فصمّم على غزو الشام، وغالى في شروط الصلح مع الفرنج، وطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي، على أن يكون تسليم دمياط ثمنًا لفداء الملك الفرنسي نفسه، ووافق الملك لويس التاسع على تلك الشروط، وأُبرمت معاهدة بينه وبين تَورانشاه، شريطة أن يستمرّ الصلح بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

وما لبث أن نشب الخلاف بين تَوْرانشاه والمماليك، كما مر في الفصل السابق، فقتله المماليك غدرًا، وبمقتل تَوْرانشاه انتهى الحكم الأيوبي في مصر،

---

(١) ابن تَغْري بِرْدي: **النجوم الزاهرة**، طبعة دار الكتب، ٦/ ٣٦٦.

واختار المماليك شجرة الدُّر سلطانة لحكم البلاد، وبما أنها امرأة كان عليها أن تتزوج من المملوك عز الدين أَيْبَك التركماني، وبما أنّ المسلمين لم يألفوا أن تحكمهم امرأة فقد أعلن أَيْبَك نفسه سلطانًا سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

وبدأت المفاوضات من جديد بين الجانبين الأيوبي (بقيادة مملوكية طبعًا) والفرنسي، وناب عن الجانب الأيوبي الأمير الكردي حسام الدين بن أبي علي الهَذْباني لرجاحة عقله، ووافق المماليك أخيرًا على إطلاق سراح الملك لويس التاسع وأمرائه مقابل جلاء الفرنسيين عن دمياط، وفكّ أسْر من لديهم من المسلمين، بشرط ألا يقصدوا بلاد المسلمين مرة أخرى، وتعهّد المماليك من جانبهم بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين، وحُدّدت مدّة الصلح بعشر سنوات، وفي صفر سنة ٦٤٨هـ/ مايو-أيار ١٢٥٠م تسلّم المماليك دمياط، وأُطلق سراح الملك لويس التاسع، بعد دفع مقدّم الفدية المتّفق عليها.[١]

ـ أخبار (معركة المنصورة) مقتبسة من المراجع التالية:

– ابن تَغْري بَرْدي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بلا، ٦/ ٣٦٤ - ٣٦٩.

– ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ٥/ ٤١٦ - ٤١٧.

– الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ٤٧/ ٣٥٥.

– أبو الفِداء: **المختصَر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، بلا، ٣/ ١٨٠ - ١٨٢.

– ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ١٣/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

– المَقْريزي: **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ١/ ٤٣٧ - ٤٣٨، ٤٤١، ٤٥١، ٤٥٨.

(١) المرجع السابق، ٦/ ٣٦٩.

الفَصْل التّاسِع

من أعلام كُرْدِستان في العُهود الإسلاميّة

مدخـل

قد يتبادر إلى الذهن أنّ الحضور الكُردي في التاريخ الإسلامي اقتصر على ميداني السياسة والحرب فقط، والحقيقة أنّ الأمر ليس كذلك، فقد ساهم الكُردستانيون، مع سائر شعوب غربي آسيا، في تشييد صرح حضارة هذه المنطقة، وكان لهم دورهم البارز في إغنائها دينيًا وأدبيًا وفكريًا وعلميًا وفنيًا. وقد وردت في صفحات هذا الكتاب أسماء بعض أعلام الكرد، ولا سيّما الساسة والقادة، فلا داعي للوقوف عند سيرهم، ونكتفي في هذا الفصل باستعراض سِيَر أحد عشر علمًا من أعلام الكرد؛ وزراءَ وموسوعيين وفلاسفةً ومتصوّفةً وفقهاء وحفّاظًا وأدباء ومؤرخين وجغرافيين وموسيقيين.

ونريد بعبارة «أعلام الكرد» فئتين من الأعلام:

١ - الأعلام الذين ورد في المصادر ما يؤكد انتماءهم إلى أصول كردية.

٢ - الأعلام الذين ينتمون إلى كردستان جغرافيًا، ونرجّح أنهم من الكرد.

وقد تناولت سير عدد أكبر من أعلام كردستان، بشيء من التوسع، في كتابين منشورين؛ الأول بعنوان **عباقرة كردستان في القيادة والسياسة**، والثاني بعنوان **سِيَر أعلام الكرد في التراث العربي: اللغويون- الأدباء- الموسيقيون**، والنيّة قائمة لنشر سلسلة أخرى من الكتب في هذا المجال، وحبّذا أن يهتمّ الباحثون الكرد خاصةً بهذا الجانب، ويجمعوا كل ما يستطيعون جمعه من سِيَر أعلام كردستان في المصادر العربية والفارسية والسُّريانية والكِلدانية والآشورية والأرمنية والتركية والآذَرية

والجورجية والروسية وسواها، وآمل أيضًا أن تتبنّى مؤسسة أكاديمية إعداد موسوعة تشمل جميع أعلام كردستان في التاريخ العالمي، تمهيدًا لإعداد دائرة معارف (أنسيكلوبيديا) كردية، لأنّ عملاً مثل هذا هو ثروة ثقافية مهمة لجميع شعوب غربي آسيا، وللتراث البشري، وليس للكرد وحدهم.

١- الوُزراء البَرامِكَة

ساهمت أسرة البَرامِكَة في الإطاحة بالدولة الأُمَوية سنة ١٣٢هـ، وإقامة الدولة العبّاسية، وتولّى عدد من أبنائها في الدولة الجديدة مناصب رفيعة، وأنجزوا مهمّات قيادية خطيرة، وهم من أبرز صانعي العصر العبّاسي الأول المشهور بالعصر الذهبي، ومع هذا كانت نهايتهم نهاية مأسوية، فماذا عن البرامكة؟ ولماذا كانت نهايتهم كذلك؟!

أصل البَرامِكَة:

ينتسب البرامكة إلى جدّههم «بَرْمَك»، سادن معبد النار «نُوبِهار» في بَلْخ بخُراسان، قال الإتْلِيدي: «والبَرْمَك هو الذي يعمر بيت النور، وهو بيت النار، وكان برمك من مجوس بَلْخ وكان عظيم القدر فيهم»[(١)].

وكلمة «بَرْمَك» كردية مركّبة من «بَرْ» *Ber* بمعنى «حارس، سادن» و«ماك» *Mak* بمعنى «البيت المقدّس، البيت الأصل»، وقد أكّد القاضي والمؤرّخ ابن خَلِّكان «حفيد البرامكة» الأصلَ الكردي لأجداده، وذكر أنهم من قبيلة «زَرْزاري»، وتعني بالكردية «ولد الذئب». أما نسبة البرامكة إلى الفرس فهي سياسية وليست عِرقية؛ إذ كان الكرد الميديون سادة كردستان وفارس (حوالي ٧٥٠- ٥٥٠ ق.م)، ثم تغلّب عليهم الفرس الأخمين، وجعلوا الدولة فارسية، وإبّان الفتوحات الإسلامية كان الكرد من رعايا الإمبراطورية الساسانية الفارسية، فعُدّوا من الفرس بحسب التبعية السياسية.

والآن من هم رجالات البرامكة؟! وما سبب نكبتهم؟

---

(١) الإتْليدي: نوادر الخلفاء، طبعة ٢٠٠٤، ص١٦٧.

خالد بن بَرْمَك (٩٠ - ١٦٣ هـ = ٧٠٩ - ٧٨٠ م)

خالد بن بَرْمك مؤسّس أسرة البرامكة، وُلد سنة ٩٠هـ، وكان من أبرز دعاة العباسيين، ولما وصل العباسيون إلى سُدّة الخلافة تألّق نجمه، فاستوزره الخليفة الأول أبو العبّاس السفّاح، ثم استوزره الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور. «قال أبو بكر الصُّولي: أول من وَزَر لبني العباس أبو سَلَمة حَفْص بن سليمان الخَلاّل، ثم خالد بن برمك».[1]

واتّصف خالد بصفات رفيعة جعلته أهلاً للسيادة والريادة، فقد كان كريمًا ذا همّة، فاضلاً، نبيلاً، جليلاً، حكيمًا، جوادًا، لا يبخل على أحدٍ من قصّاده، وهو أول من أطلق على أصحاب الحاجات اسم «الزوّار»، وكانوا من قبل يسمّون «سُؤّالاً»، قال إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصُّولِيُّ: مَا فِي وُزَرَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِثْلُ خَالِدٍ فِي فَضَائِلِهِ وَكَرَمِهِ".[2] وكان أبو عُبيد الله الوزير يقول: «ما رأيت أجمعَ من خالد، له جمالُ[3] أهل الشام، وشجاعةُ أهل خُراسان، وأدبُ أهل العراق، وكتابةُ أهل السَّواد».[4]

وحين نشبت الثورات في بلاد فارس وكُردستان ندب أبو جعفر المنصور خالدًا للقضاء عليها، فأفلح في ذلك، ثم ولاّه الموصلَ ثم أذربيجان، يقول أحمد بن سَوّار الموصلي: «ما هِبْنا قطُّ أميرًا هَيْبَتَنا خالدَ بن بَرْمك، من غير أن تشتدّ عقوبتُه، ولا نرى منه جبروتُه، ولكن هيبةٌ كانت له في صدورنا».[5] وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣هـ أو سنة ١٦٥هـ.

يَحيى بن خالد البَرْمكِي (١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ - ٨٠٥ م)

وُلد يحيى بن خالد سنة ١٢٠هـ، وشارك والدَه في الثورة العباسية والعمل في البلاط العباسي، وكان مثله حزمًا وعزمًا وتدبيرًا، فولاّه الخليفةُ أبو جعفر المنصور

---

(١) ابن الجَوْزي: المنتظَم، ٧/ ٢٩٩.
(٢) الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، طبعة ١٩٩٣، ١٠/١٦١.
(٣) وفي رواية: فصاحة.
(٤) الزَّمَخْشَري: ربيع الأبرار، طبعة ١٤١٢ هـ، ٥/ ١٠٤. وأهل السواد هم سكان جنوبي العراق قبل الإسلام، وعُرفوا في المصادر العربية باسم «النَّبَط».
(٥) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، طبعة ١٣٨٧ هـ، ٨/٥٦.

أذربيجانَ سنة ١٥٨هـ، واختاره الخليفة المهدي مؤدِّبًا لولده هارون الرشيد، وكان الرشيد لا يناديه إلاّ بقوله: «يا أبتِ»! قال ابن الجَوْزي: فلما استخلف هارون عرف ليحيى حقَّه، وكان يعظّمه، وإذا ذكره يَقُولُ: قال أَبِي. وجعل إصدارَ الأمور وإيرادَها إليه". [١]

ولما تولّى الهادي الخلافة بدا له أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد، ويجعلها لابنه الصغير جعفر، ووافقه القوّاد، وشرع الهادي ينتقص هارون، فتجنّبه الناس، إلاّ يحيى بن خالد وولدُه، فإنهم ظلوا أوفياء له، معرِّضين أنفسهم لغضب الخليفة، وذكر الطَّبَري في تاريخه أنه: «سُعي إلى الهادي بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خِلاف، وإنما يُفسده يحيى بن خالد، فابعثْ إلى يحيى، وتَهَدّدْه بالقتل، وارمِه بالكُفر». فشرع الهادي يضطهد يحيى، وأمر بسجنه، بل حاول التخلص منه، لكنّ يحيى التزم الحق، ونصح الخليفة بما هو أصلح، وقال له: «يا أمير المؤمنين، إنك إن حملتَ الناسَ على نَكْث الأَيمان هانت عليهم أيمانُهم، وإن تركتَهم على بيعة أخيك، ثم بايعتَ لجعفر من بعده، كان ذلك أَوْكَدَ لِبَيعته، فقال: صدقتَ ونصحت، ولي في هذا تدبير». [٢]

ولمّا توفّي الهادي سنة ١٧٠هـ، تولّى الرشيدُ الخلافةَ بفضل تدبير يحيى، فولاّه الرشيدُ الوزارةَ، ودفع إليه بالخاتَم، وأطلق يده، وقال له: «يا أبتِ، أنت أجلستَني ببركة رأيك وحُسن تدبيرك، قد قلّدتُك أمرَ الرعيّة، وأخرجتُه من عنقي إليك، فاحكمْ في ذلك بما ترى من الصواب، واستعملْ مَن رأيت، واعزلْ من رأيت». وباشر يحيى الأمور بحزم وعزم، واهتم بشؤون الرعية، وحفر الأنهار، فكان نِعم الوزير ونِعم المدير، و«كان يجلس هو وابناه الفضل وجعفر للناس جلوسًا عامًّا في كل يوم، إلى انتصاف النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، لا يُحجَبُ أحد، ولا يُلقى لهم سِتْر». [٣]

---

(١) ابن الجَوْزي: **المنتظَم**، ٩/ ١٨٨.

(٢) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، طبعة ١٣٨٧ هـ، ٨/ ٢٠٩. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ٥/ ٢٦٥.

(٣) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، طبعة ١٣٨٧ هـ، ٨/ ٢٣٣. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ٥/ ٢٧٤. السِتر: الحجاب؛ أي لا يحتجبون عن الناس.

وكان يحيى أريبًا لبيبًا، صائب الرأي، حسن التدبير، جوادًا حليمًا عفيفًا، وقورًا، مَهيبًا، وفيًّا، واتّسم بالذكاء والكِياسة والحِنْكة، وكان حاضر البديهة، نقيّ السريرة، متواضعًا، يقابل المسيئين إليه بالعفو، كما أنه تميّز بثقافة رفيعة، أمّا حكمته فتتجلّى في وصاياه؛ ومنها قوله يوصي أبناءه: «لا بدّ لكم من كُتّاب وعمّال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسِفْلة الناس، فإنّ النِّعمة على الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروفَ عندهم أشهر، والشكرَ منهم أكثر». وتوفّي يحيى في السجن بمدينة الرَّقّة سنة ١٩٠هـ.

الفَضْل بن يَحيى البَرْمَكي (١٤٧ - ١٩٣ هـ = ٧٦٥ - ٨٠٨ م)

وُلد الفضل قُبَيل مولد الرشيد بأيام سنة ١٤٨هـ، وكانا أخوين في الرضاعة، وأمّه أمازيغية (بربرية)، وكانت الخَيْزُران أمّ الرشيد أيضًا أمازيغية، وكان الفضل شجاعًا، سمح الخُلق، راجح العقل، مهتمًا بعظائم الأمور، إضافةً إلى خصال الجود والنزاهة والكفاءة، وكان ينوب عن والده في جلائل الأعمال، فسُمّي «الوزير الصغير».[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٢٧٣.

وإنّ هارون الرشيد ولّى الفضلَ إقليمَ الجبال (تشكّل كردستان قسمًا كبيرًا منه) وطَبَرِستان وجُرْجان والرَّيّ سنة ١٧٦هـ، وحين ثار يحيى بن عبد الله العَلَوي ببلاد الدَّيْلَم (في جنوبي بحر قَزْوِين) سنة ١٨٦هـ ندب الرشيدُ له الفضلَ، فكاتب الفضل يحيى ولاطفه، واستماله إلى الصلح، فأجابه يحيى إلى ما أراد، وأوقف الثورة.

وولّى الرشيدُ الفضلَ خراسانَ أيضًا سنة ١٧٨هـ، فأحسن السيرةَ فيها، وأزال الظلم، وبنى فيها المساجد والحياض والرِّباط (أماكن عبادة الزّهّاد)، وأسقط الضرائب السابقة عن الناس، وزاد في رواتب الجند، وأكرم الزوّار والقوّاد والكتّاب، ووطّد الأمر بها للعباسيين، ثم ولاّه الرشيدُ الشطر الغربي من أراضي دولة الخلافة؛ بدءًا من الأنبار في العراق حتى إفريقية (تونس)، فأزال الجَور، وبسط العدل، وأشاع الرخاء والأمن في الرعية.

وكان الفضل على درجة كبيرة من العلم والأدب، حافظًا للكثير من أشعار

---

(١) ابن طَباطَبا: الفخري في الآداب السلطانية، طبعة ١٩٩٧، ص ٢٠٣.

العرب رِوايةً ودِراية، وله محاولات إبداعية في هذا الميدان، وقد أوردت المصادر الأدبية العربية كثيرًا من نوادر الفضل وطرائفه ومواقفه مع الشعراء والأدباء. قال الطَّبَري: «وكان الرشيد قد عتب على الفضل بن يحيى، وثقل مكانه عليه لتركه الشرب معه، فكان الفضل يقول: لو علمتُ أن الماء يُنقص من مروءتي ما شربتُه». [١] وتوفّي في السجن بالرقّة سنة ١٩٢هـ.

جَعْفَر بن يَحيى البَرْمَكي (١٥٠ - ١٨٧ هـ = ٧٦٧ - ٨٠٣ م)

جعفر هو ثاني أولاد يحيى البرمكي، وُلد سنة ١٥١ هـ، وعهد به والده إلى القاضي أبي يوسف (تلميذ الإمام أبي حَنِيفة)، فتولّى تعليمَه وتثقيفه، وكان جعفر عالي الهمّة، نافذ البصيرة، جليل المنزلة، يأنس به الرشيد كثيرًا، فخشي يحيى من عاقبة ذلك على ولده وعلى آل بَرْمَك، وأفصح للرشيد عمّا في نفسه، فلم يعبأ به الرشيد، بل ازداد تعلّقًا بجعفر، ونقل إليه الوزارةَ من أخيه الفضل، وولاّه شؤونَ مصر سنة ١٧٦هـ، وجعله الوزير الأول للخلافة[٢].

وكان الرشيد يعتمد على جعفر عند المعضلات والشدائد، ثقةً منه بحصافة رأيه ورجاحة عقله، ولما اندلعت الثورة في بلاد الشام سنة ١٨٠هـ، أوكل الرشيد إلى جعفر مهمّةَ إخمادها، فأخمد الثورة، ونشر الأمن، وكان جعفر سياسيًا أريبًا، وأديبًا بليغًا، حاضر البديهة، صاحب كرم وأَرْيَحيّة، وصفه ثُمامَة بن أَشْرَس قائلاً: «كان جعفر بن يحيى أنطقَ الناس، قد جمع الهدوءَ والتمهّل، والجَزالةَ والحلاوة، وإفهامًا يُغْنِيه عن الإعادة، لا يَتَحَبَّسُ، ولا يتوقّف، ولا يتلَجْلَج، ولا يتنَحْنَح... وكان من أعلم الناس بالخبر الباهر، والشعرِ النادر، والمَثَلِ السائر، والفصاحةِ التامة، واللسانِ البسيط». وقد أمر الرشيد بقتل جعفر سنة ١٨٧هـ، ثم أمر بإحراق جثته بعد أن شُطر جسده إلى نصفين، وصلبهما فترة من الزمن.[٣]

---

(١) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، طبعة ١٣٨٧ هـ، ٨/ ٢٩٣.

(٢) الإتْليدي: **نوادر الخلفاء**، طبعة ٢٠٠٤، ص ١٦٧. ابن طَباطَبا: **الفخري في الآداب السلطانية**، طبعة ١٩٩٧، ١/ ٢٠٣.

(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ٣/ ٣٦٧. ابن الجَوْزي: **المنتظَم**، ٩/ ١٢٧.

نَكبة البَرامِكة

في ليلة من ليالي سنة ١٨٧هـ فتك هارون الرشيد بالبرامكة، وأصبح الناس وإذا برأس جعفر مرفوع على الجسر الأوسط ببغداد، ونصف جسده مرفوع على الجسر الأعلى، ونصفه الآخر على الجسر الأسفل، وإذا يحيى والفضل في أعماق السجن، وصودرت جميع دورهم وقصورهم وأموالهم وعَقاراتهم.[١]

وتختلف الروايات في أسباب النكبة، أما أبعد الروايات من التصديق فتلك التي تذكر أنّ الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته العبّاسة وفي رواية (ميمونة)، فعقد بينهما عَقد زواج صُوري، ليحضرا معه إذا جلس للشراب، على ألاّ يكون بينهما ما بين الرجل وزوجه، غير أنّ جعفرًا والعبّاسة، تزوّجا سرًا، وولدت العبّاسة غلامًا، فنقلت جارية لها الخبر إلى الرشيد بتدبير من زوجته زُبَيْدة، فغضب وكانت النكبة؛ وقد طعن المؤرخون المحققون في هذه الرواية، وساقوا أدلة عديدة تشكّك في صحتها.[٢]

وأما أقرب الروايات إلى التصديق فهي التي ذكرها أبو محمّد اليَزِيدي -وكان من أعلم الناس بأخبار البرامكة- ونقلها الطَّبَري في تاريخه، فقد أرجع اليزيدي سبب النكبة إلى مسألة يحيى بن عبد الله العَلَوي، وقد مرّ أنه ثار ببلاد الدَّيْلَم، فندب له الرشيدُ الفضلَ بن يحيى، فكاتبه، واستأمنه بكتاب من الرشيد نفسه، وجاء به إلى بغداد، فدفعه الرشيد إلى جعفر فحبسه.

وذات ليلة دعا جعفر بيحيى العلويّ، فسأله عن شيء من أمره، فقال له يحيى: «اتّقِ الله في أمري، ولا تتعرّضْ أن يكون خصمَك غدًا محمدٌ صلّى الله عليه وسلم، فوالله ما أحدثتُ حدثًا، ولا أُوتيت مُحْدِثًا»، فرقّ له جعفر، وسمح له بالذهاب حيث يشاء. غير أنّ جواسيس الفضل بن الربيع -منافس البرامكة- كانوا لجعفر بالمرصاد، فنقل أحدهم الخبر إلى الرشيد، ففتك بجعفر، ونكب البرامكة.[٣]

---

(١) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، طبعة ١٣٨٧هـ، ٨/٢٨٦ - ٣١٧. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ٥/٢٤٨. ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، طبعة ١٩٨٨، ١٠/٢٠٤.

(٢) الإتْليدي: **نوادر الخلفاء**، طبعة ٢٠٠٤، ص ١٧٢، ١٧٦.

(٣) ابن طَباطَبا: **الفخري في الآداب السلطانية**، طبعة ١٩٩٧، ص ٢٠٧.

ولا نحسب أنّ إطلاق سراح الثائر العلوي هو السبب الوحيد للنكبة، فثمّة عامل شخصي مهم، خلاصته أنّ الرشيد صار خليفة بفضل يحيى البرمكي، فكافأه بأن منحه هو وأولاده سلطات واسعة، فاستقطب البرامكة الخاصة والعامة من الناس بكرمهم، وبحسن تصرفهم وثقافتهم الرفيعة، وبمرور الأعوام وجد الرشيد نفسه على هامش الحياة السياسية، وأصبح البرامكة أهل العَقد والحَلّ.(١)

وما كان لخليفة مثل الرشيد أن يقبل بذلك الوضع، ولعله بات يخشى على نفسه من نفوذ البرامكة، أو هكذا أُوحي إليه، ورأى أن يتغدّى بهم قبل أن يتعشّوا هم به، وسبق أن فعل الخليفة أبو العبّاس السَّفّاح مثل ذلك بوزيره أبي سَلَمة الخَلاّل، وفعله الخليفة أبو جعفر المنصور بكلٍّ من عمه عبد الله بن علي وقائده أبي مُسلم الخُراساني.

وفي الوقت نفسه كان يوجد تياران معاديان للبرامكة:

- التيّار الأول عربي، ومن رجاله اللغوي الشهير عبد الملك بن قُرَيْب المعروف بلقب «الأَصْمَعي»، ورأى هؤلاء أنّ البرامكة قد استأثروا بالسلطة، وزحزحوا العرب جانبًا.

- والتيار الثاني فارسي، يمثّله الفضل بن الرَّبِيع أحد وزراء العباسيين، والمنافس الأول للبرامكة من الفرس.

وقد سعى التياران بكلِّ ما أوتيا من دهاء إلى النيل من البرامكة ومكانتهم عند الرشيد، وزرع البغضاء بينهم وبين الرشيد، وإقصائهم عن سدّة الوزارة، وساعدهم في ذاك خروج جعفر على آراء والده يحيى السديدة، فكانت النكبة. ولا ننسى في الوقت نفسه أنّ الرشيد كان مزاجيًا إلى حدّ كبير؛ يرضى عن المرء فيمنحه المال والجاه، ثم إذا به يغضب عليه فيورده الهلاك، وقد ذكر المؤرخون أنّ الرشيد أدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه إزاء البرامكة، ونقلوا أخبارًا عديدة تؤكّد ندمه الشديد على فِعلته، حتى إنه بكى ذات مرة بسبب ما فعل بهم.(٢)

---

(١) الإتليدي: **نوادر الخلفاء**، طبعة ٢٠٠٤، ص ١٧٢ - ١٧٣، ١٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٦.

٢- الموسيقي العَبقري زِرْياب (٠٠٠ - نحو ٢٣٠ هـ = ٠٠٠ - ٨٤٥ م)

كُردستان أرض الجبال والوديان والسهول، والجداول والأنهار، والأشجار والأزهار والأطيار، ولا عجب من ثَمّ أن تكون أرضَ الجمال والموسيقا، وأن يُقبل الكرد على الغناء والموسيقا تذوّقًا وإبداعًا، وإلى كُردستان ينسب مقام «كُرد» ومقام «نَهاوَنْد»، ونهاوند من أعرق مدن شرقي كردستان (في غربي إيران)، وفي أرض كردستان برز الموسيقي والمغنّي العبقري زِرْياب. فماذا عنه؟

بحثٌ عن الهويّة:

أخبار زِرْياب قليلة وغامضة إلى حدٍّ ما، وقد ذكره المَقَّري ولم يتطرّق إلى أصله، وذكر أنه مولى الخليفة المهدي، وأنّ اسمه أبو الحسن عليّ بن نافع، وقال: «زِرْياب لقبٌ غَلَبَ عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله، شُبِّهَ بطائر أسود غَرِد عندهم، وكان شاعراً مطبوعاً».[1] وقال الدكتور حسن إبراهيم حسن: «كان زِرياب مولى الخليفة المَهدي العبّاسي فارسيّ الأصل»،[2] وكيف يكو زِرْياب فارسيًا وهو ابن المنطقة الكردية الواقعة شمالي شرقي مدينة الموصل؟ ونقل الزِّرْكِلي عن بروفَنْسال أنّ زِرياب ولد في الجزيرة، ومعروف أنّ شمال غربي كردستان هو الجزء العُلوي من الجزيرة، واستبعد الزِّرِكلي الربطَ بين لون زِرياب واسمه، وذكر أنّ «زِرْآب» بالفارسية تعني «ماء الذهب»، وكذلك هو معناها بالكردية.[3]

غير أنّ زيغريد هُونْكه قطعت الشك باليقين، وحسمت الأمر فنصّت بوضوح على أنّ زرياب كردي.[4] كما ذكر الدكتور مَهْدي كاكَه يي (من جنوبي كردستان) في مقال له بعنوان "**الفَيْليون هم السكان الأصليون لبلاد ما بين النهرين**، منشور

---

(١) المَقَّري: **نَفْح الطِّيب**، طبعة ١٩٩٧، ٢/ ٧. ٣/ ١٢٢. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، طبعة ١٩٨٨، ١/ ٥٤٠.

(٢) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ٢/ ٤١٥.

(٣) الزِّرِكلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٥/ ٢٨.

(٤) زِيغْريد هُونْكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ص ٤٨٨.

في موقع شبكة الأخبار الكردية الألكتروني KNN، تاريخ ١/٨/٢٠٠٦، أنّ زرياب هو من الكرد الفَيْليين.

زرياب وهارون الرشيد:

كان زِرياب تلميذًا لإسحاق الموصلي، مغنّي الخليفة الرشيد، وكان ذكيًا طيب الصوت بارعًا في الغناء، وقد طلب الرشيد ذات يوم من إسحاق أن يأتيه بمغنٍّ مُجيد للصنعة لم يشتهر، فأحضر إسحاقُ زِريابَ، وسأله الرشيد عن معرفته بالغناء، فقال: إن أَذِنت غنّيتُك ما لم تسمعه أذنٌ قبلك. فأمر الخليفة بإحضار عود إسحاق، فأحجم زرياب عن تناوله، وقال: لي عودٌ نَحَتُّه بيدي، وأَرْهَفْتُه بإحكامي (جعلته رقيقًا بمهارتي)، وهو بالباب، فليأذنْ لي أمير المؤمنين في استدعائه.

فأمر الرشيد بإحضار عود زِرياب، ووجده شبيهًا بعود إسحاق، فسأله عن سبب امتناعه عن العزف على عود أستاذه. فأفاد زرياب أنّ عوده، وإن كان في قدر جسم عود إسحاق ومن جنس خشبه، فهو يقع في ثلث وزنه، وأوتاره متّخَذة من مُصْران شِبْلٍ أسدٍ، فلها في الترنّم والصفاء والجَهارة أضعاف ما لغيرها، ولها من قوة الصبر على تأثير وَقْع المَضارب المتناوبة بها ما ليس لغيرها. فاستبرع الرشيد وصفه، وأمره بالغناء فغنّاه، وسُرّ الرشيد كثيرًا، وعاتب إسحاق على إخفاء أمره عنه، وأمره أن يعتني به حتى يَفْرُغ له[1].

تهديد بالاغتيال:

قال المَقَّري: «فسقط في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غَلَب صبره، فخلا بزِرياب وقال: يا عليّ، إن الحسد أقدم الأدواء وأَدْواها، والدنيا فَتّانة، والشركةُ في الصناعة عَداوة، لا حيلةَ في حَسمها، وقد مَكَرْتَ بي فيما انطويتَ عليه من إجادتك وعُلُوّ طبقتك، وقصدتَ منفعتَك، فإذا أنا قد أَتيت نفسي من مأمنها بإدنائك، وعن قليلٍ تَسقط منزلتي، وترتقي أنت فوقي، وهذا ما لا أُصاحبك عليه ولو أنك ولدي، ولولا رَعْيي لذِمّة تربيتك لَما قَدّمتُ شيئًا على أن أُذهب نفسك،

---

(١) المَقَّري: نَفْح الطِّيب، طبعة ١٩٩٧، ٣/١٢٢ - ١٢٤.

يكون في ذلك ما كان، فتخيَّرْ في اثنتين لا بد لك منهما: إمّا أن تذهب عني في الأرض العريضة؛ لا أسمع لك خبرًا بعد ذلك...، وأُنهضك لذلك بما أردتَ من مال وغيره، وإما أن تقيم على كَرهي ورَغمي مستهدفًا إلي، فخذ الآن حِذرَك مني، فلستُ والله أبقي عليك، ولا أَدَعُ اغتيالَك باذلاً في ذلك بدني ومالي، فاقضِ قضاءك. فخرج زِرياب لوقته، وعلم قدرته على ما قال، واختار الفرار قدّامه، فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً، وراش جناحَه، فرَحَل عنه، ومضى يبغي مَغْرِب الشمس، واستراح قلب إسحاق منه»[١].

وأضاف المقّري قائلاً: «وتذكّر الرشيدُ بعد فراغه من شغل كان مُنغمِسًا فيه، فأمر إسحاقَ بحضوره، فقال: ومَن لي به يا أمير المؤمنين؟! ذاك غلامٌ مجنون يزعم أن الجن تكلّمه وتُطارحه... وما هو إلا أن أبطأتْ عليه جائزةُ أمير المؤمنين، وتَرْكُ استعادتِه، فقدَّر التقصيرَ به والتهوينَ بصناعته، فرحل مُغاضِبًا ذاهبًا على وجهه مُستخفِيًا عني، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لَمَمٌ يَغشاه ويَفْرُط خَبْطُه، فيَفزع مَن رآه، فسَكَن الرشيدُ إلى قول إسحاق، وقال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرورٌ كثير»[٢].

زِرْياب في الأندلس:

توجّه زرياب غربًا، وبعد رحلة طويلة حلّ في بلاد المغرب، بعيدًا عن العراق، ثم انتقل منها إلى الأندلس (إسبانيا)، واستقر به المقام سنة ٢٠٦هـ في قُرْطُبَة ببلاط الأمير عبد الرحمن بن الحَكَم الأُمَوي، وقد استقبله عبد الرحمن بحفاوة، وبالغ في إكرامه، وأنزله في دار فخمة، وقرر له راتبًا شهريًا وافِيًا، وجاد عليه الأرزاق، ووهبه كثيرًا من الضياع والدور والبساتين. وأُعجب عبد الرحمن بزِرياب ومواهبه الغنائية والموسيقية، فقدّمه على جميع المغنّين، وكان يُجلسه إلى جانبه، ويستمع إلى غنائه، وإلى ما يقصّ عليه من أحوال الملوك وسِير الخلفاء ونوادر العلماء.[٣]

---

(١) المرجع السابق، ٣/ ١٢٢ - ١٢٣. راش جناحه: أعطاه ما يكفيه من المال.

(٢) المرجع السابق، ٣/ ١٢٣ - ١٢٤. لَمَمٌ: جنون.

(٣) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، طبعة ١٩٨٨، ١/ ٥٤٠. المَقَّري: **نَفح الطِّيب**، طبعة ١٩٩٧، ١/ ٣٤٤.

وقد أبدع زِرياب في الموسيقا، فزاد في أوتار العود وترًا خامسًا، واستعمل مِضْراب العود من قَوادم (ريش مقدّمة جناح) النّسر، بدلاً من الخشب، لِلُطف قِشر الريشة ونقائه وخِفّته على الأصابع، وسلامة الوتر على كثرة ملازمته، وأبدع في الألحان، حتى توهّم هو نفسه أنّ الجن تعلّمه.

وكان زِرياب واسع الثقافة على الصعيدين الأدبي والموسيقي، يحفظ عشرة آلاف مقطوعة شعرية غنائية بألحانها، وكان إذا أراد أن يعلّم تلميذًا أمره بالقعود على وسادة مدوَّرة خاصة، ثم أمره بالغناء، فإذا كان ليّنَ الصوت أمره أن يشدّ على بطنه عمامة، لتقوية الصوت، وإذا أراد تمييزَ المغنّي المطبوع من غيره أمره أن يصيح بأقوى صوته: يا حَجّام، أو يصيح: آه، ويمدَّ صوته، فإذا سمع صوته صافيًا نديًّا قويًّا، لا تعتريه غُنّةٌ ولا حُبْسةٌ ولا ضيقُ نفَس، أشار بتعليمه، وإن وجده غيرَ ذلك أبعده.

وجمع زرياب بين ضروب الظُّرف وفنون الأدب ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ما فاق به أهل صناعته، فاتّخذه ملوك الأندلس وخواصّهم قُدوةً فيما سنّه لهم من آداب، واستحسنه من أطعمة، فصار منسوبًا إليه معلومًا به؛ ومنها طريقته هو وأسرته وحاشيته في تسريحة الشعر، واختيار الثياب، وتفضيله آنية الزجاج الرفيع في الطعام على آنية الذهب والفضّة، وإيثاره فُرُشَ جلود الأديم (الجِلد) اللينة الناعمة على ملاحف الكَتّان، واختياره سُفُر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد.(١)

وصفوة القول أنّ زرياب لم ينقل إلى المجتمع الأندلسي فنون الموسيقا وضروب الغناء فقط، وإنما نقل إليه أوجه الحياة الحضارية التي كان المشارقة ينعمون بها حينذاك، وقد اشتهر أمره في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، حتى إنّ موسيقيًا بغداديًا قال ذات مرة متحسّرًا: يسير زِرياب في قرطبة في موكب فخم، ويملك ثلاثين ألف دينار من الذهب، وأنا أكاد هنا أموت جوعًا! وفي رواية أن الخليفة المأمون غضب على المغنّي الشهير عُلَّوَيه ذات يوم ووبّخه، فردّ عليه عُلَّوَيه

---

(١) ابن حَزْم الأندلسي: **طَوْق الحَمامة**، طبعة ١٩٨٧، ص: ٢٥٨، ٣١٨.

قائلاً: «مولاكمْ زِرياب عند مواليَ يركب في مائة غلام، وأنا عندكم أموت من الجوع! فغضب عليه عشرين يومًا، ثم رضي عنه»[(١)].

٣- العَلاّمة الموسوعي أبو حَنِيفة الدِّينَوَري

(٠٠٠ - ٢٨٢ هـ = ٠٠٠ - ٨٩٥ م)

جاء في المصادر الجغرافية أن دِينَوَر «مدينة من أعمال الجبل، قرب قَرْمِيسين [كَرْمَنْشاه]، يُنسَب إليها خَلْقٌ كثير، وبين الدِّينَوَر وهَمَذان نَيّفٌ وعشرون فَرْسَخًا، ومن الدِّينَوَر إلى شَهْرَزُور أربع مراحل،[(٢)] والدِّينور بمقدار ثلثي هَمَذان، وهي كثيرة الثمار والزروع، ولها مياه ومستشرف، وأهلُها أجود طبعًا من أهل هَمَذان، ويُنسَب إلى الدِّينَوَر جماعةٌ كثيرة من أهل الأدب والحديث»[(٣)].

والمقصود بـ«أعمال الجبل» إقليم الجبال، والتي تشكّل كردستان الجنوبية والشرقية القسم الأكبر منه، حتى إن اليعقوبي سمّى إقليم الجبال «دارَ الأكراد»،[(٤)] وتقع دِينَوَر الآن في كردستان الشرقية (غربي إيران حالياً)، وبجانبها وادٍ خصيب يرويه نهر يسمّى «آبْ دَينَوَر»، وقد فتحها العرب المسلمون حوالي سنة ٢١هـ، وسكنها بعض الفرس والعرب، لكنّ الغالب على أهلها الكرد، لأنها ضمن منطقة هي مشاتي الكرد ومصايفهم، وهذا واضح في الخريطة التي صوّرها ابن حَوْقَل لإقليم الجبال.[(٥)]

واستقلّ الأمير الكردي حَسْنَوَيْه (ت ٣٦٩هـ) بحكم دِينَوَر خمسين سنة، واتّخذها إمارةً له، وصارت عاصمة للإمارة العَيارية (العَنازِية) الكردية أيضًا، وظلت عامرة إلى أن غزاها المغول في القرن السادس الهجري، فانتهى أمرها إلى الخراب، وهي الآن قرية صغيرة، وقد أنجبت دِينَوَر عددًا من العلماء والأدباء والمتصوفة الأجلاّء، ومن مشاهير علمائها أبو حنيفة الدِّينَوَري، فمن الرجل؟

---

(١) الطَّبَري: **تاريخ الطبري**، طبعة ١٣٨٧ هـ، ٨/٦٥٧.

(٢) الفرسخ: حوالي ٥.٥ كم. والمرحلة: حوالي ٣٠.٥٠ كم.

(٣) ابن شمائل القَطِيعي البغدادي: **مَراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ٢/٥٨١.

(٤) اليعقوبي: **البلدان**، ص ٢٠.

(٥) ياقوت الحَمَوي: **معجم البلدان**، طبعة ١٩٩٥، ٢/٥٤٥.

نشأة أبي حنيفة وثقافته:

أبو حنيفة هو أحمد بن داود بن وَنَنْد، ولد في العَقد الأول من القرن الثالث الهجري بمدينة دِينَوَر، وإليها يُنسَب أجداده الأقربون، وكما هي العادة نُسبت أسرته إلى الفرس، وسبق القول، في ترجمة البرامكة، أنّ هذه النسبة كانت في العصور الإسلامية الأولى سياسية إدارية، ولم تكن إثنية عرقية، لكن ما لا شك فيه أنّ أسرة أبي حنيفة كردستانية؛ أي إنها تنتمي إلى كردستان، والأرجح أن تكون كردية، لكثرة الكرد في دِينَوَر وفي المناطق المحيطة بها.

عاش أبو حنيفة معظم حياته في دِينَوَر، لكنه قام في شبابه بكثير من الرحلات العلمية، فزار العراق والمدينة المنوّرة والقدس، وعاش فترة من الوقت في شواطئ الخليج العربي (الفارسي)، وقد تلقّى علومه على البصريين والكوفيين، وتعلّم فقه اللغة على اللغوي الشهير ابن السِّكّيت، كما درس معارف كثيرة، وانتقل سنة ٢٣٥هـ إلى أُصْفَهان، وعاش فيها مدة من الزمن، اشتغل فيها برصد الكواكب، واتخذ معملاً لدراساته الفلكية.[(١)]

مكانة أبي حنيفة العلمية:

تُجمع المصادر على أنّ أبا حنيفة كان متفنّنًا في العلوم، فكان نحويًا ولغويًا ومهندسًا ومنجّمًا وحاسبًا ومؤرّخًا وعالمًا بالطب وراويةً ثِقة، ولذا قورن في النبوغ بالجاحظ، بل فاقه في بعض الميادين؛ شهد له بذلك الأديب والمفكر الشهير أبو حَيّان التوحيدي؛ هذا إضافةً إلى أنّ أبا حنيفة كان مبدعًا مجدّدًا، ولم يكن يكرر أقوال أسلافه ومعاصريه، قال القِفْطي: «أحمد بن داود أبو حنيفة الدِّينَوَري، من أهل الدِّينَوَر، أخذ عن البصريين والكوفيين، وأكثر أخذه عن ابن السِّكّيت وأبيه، وكان مفتنًا في علوم كثيرة، منها النحو واللغة والهندسة والهيئة والحساب، ثقةً فيما يرويه ويمليه، معروفًا بالصدق».[(٢)] وقال الذَهَبي: «أبو حنيفة الدِّيْنَوَري النحوي، صاحبُ

---

(١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة ١٩٩٧، ٦/ ٤٨٨، ٧/ ٢٩٢. ابن خَلِّكان: **وَفَيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ٦/ ١٨٠. ابن العِماد الحَنبلي: **شَذَرات الذهب**، طبعة ١٩٨٦، ١/ ٢٨.

(٢) القِفْطي: **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، ١/ ٧٦.

ابن السِّكِّيت، ثِقةٌ، بارعُ الأدب، كثيرُ الفنون، كبيرُ الدّائرة، طويلُ النفس، له مصنَّفات في العربية واللُّغة والهندسة والهيئة، والوقت، وغير ذَلِكَ». [١]

وحسبنا دليلاً على سعة معرفته، ورسوخه في العلم، الخبر الآتي:

وَرَد النحوي واللغوي الشهير أبو العبّاس المُبَرِّد على عيسى بن ماهان في دِينَوَر، فأوّلَ ما دخل عليه قال له: أيها الشيخ، ما الشاةُ المَجَثَّمة التي نهى النبيُّ- صلّى الله عليه وسلّم- عن أكلِ لحمها؟ فقال المُبَرِّد: هي الشاة القليلة اللبن، مثل اللَّجْبَة.

فقال: هل من شاهد؟! قال: نعم، قول الراجز:

لـم يَبْقَ من آلِ الجُعَيْد نَسَمَةْ   إلا عُنَيزٌ لَجْبَةٌ مجثَّمَةْ

فإذا بالحاجب يستأذن لأبي حنيفة الدِّينوري، فأُذن له، فلما دخل قال له عيسى بن ماهان: ما الشاة المُجَثَّمة التي نهى النبي- صلّى الله عليه وسلّم- عن أكل لحمها؟

فقال: هي التي جُثِمتْ على رُكباتها، ونُحِرت مِن قفاها.

فقال: كيف تقول وهذا شيخُ العراق- المُبَرِّد- يقول هي مثل اللَّجْبَة؟!

فقال أبو حنيفة: أيمانُ البيْعة[٢] تَلزمُ أبا حنيفة إن كان هذا الشيخ سمع هذا التفسير!

فقال المبرِّد: صدق الشيخ أبو حنيفة، أَنِفتُ أن أَرِد عليك من العراق، وقد شاع ذكري، فأوّل ما تسألني عنه لا أعرفه.

فاستحسن عيسى من المبرِّد إقرارَه بأنّ أبا حنيفة على صواب. [٣]

مؤلفات أبي حنيفة:

كان أبو حنيفة عالمًا موسوعي الثقافة، متنوّع الاهتمامات، راسخ القدم في ميادين المعرفة، وظهر ذلك بجلاء في آثاره، وقد حظيت مؤلفاته باهتمام رجال

---

(١) الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، طبعة ١٩٩٣، ٥٧/٢١.

(٢) أيمان البيعة: البيعة للخليفة، والمقصود أنه يستحق عقوبة كعقوبة مَن يتراجع عن بيعة الخليفة.

(٣) القفطي: **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، طبعة ١٤٢٤ هـ، ٧٨/١.

التراجم قديمًا وحديثًا، فدوّنوا أسماءها في كتبهم، وبلغ عددها حوالي عشرين مؤلّفًا، حسبما ذكر القِفْطي. ومن أبرز مؤلّفات أبي حنيفة: **تفسير القرآن**، في ثلاثة عشر مجلدًا، وكتاب **الوصايا في أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية**، وكتاب **الشعر والشعراء**، وهو يشبه كتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبَة الدِّينَوَري (كان قاضيًا في دِينَوَر، ولم يكن منها أصلاً)، وكتاب **الأخبار الطِّوال**، وهو كتاب تاريخي هام، وكتاب **ما يَلحن فيه العامّة**، وكتاب **جواهر العلم**، وكتاب **النبات**، وكتاب **البيان**، ورسالة **في الطب**، وكتاب **الجَبْر والمُقابَلة**، وكتاب **الكُسوف**، وكتاب **الأنواء**، وكتاب **البلدان**. وكل هذا دليل على موسوعية أبي حنيفة، وتوفّي سنة ٢٨٢هـ.[١]

٤- الصُّوفي الكبير أبو القاسم الجُنَيْد (٠٠٠ - ٢٩٧ هـ = ٠٠٠ - ٩١٠ م)

نشأة الجُنَيْد:

مرّ في ترجمة أبي حنيفة الدِّينَوَري قبل قليل أنّ اليعقوبي وصف بلاد الجبل (إقليم الجبال) بقوله: «دار الأكراد». وكان إقليم الجبال -وهو العمود الفقري لكُردستان الشرقية والجنوبية- واقعًا تحت الهيمنة الفارسية منذ سقوط مملكة ميديا سنة ٥٥٠ ق.م في أيدي الفرس، وفي بلاد الجبل هذه تقع مدينة نَهاوَنْد الكُردستانية، وهي مدينة مشهورة جدًا في كتب الفتوحات العربية، حتى إنّ المؤرخين القدماء يطلقون على فتح العرب لها اسمَ «فَتْح الفتوح»؛ لأنه لم تقم للفرس قائمة بعد هزيمتهم فيها.

قال ياقوت الحموي في نهاوند: «هي مدينة عظيمة في قِبلة هَمَذان بينهما ثلاثة أيام، . . . وهي أعتق مدينة في الجبل، وكان فتحها سنة ١٩، ويقال سنة ٢٠ [هـ]. . . نَهاوندُ من فتوح أهل الكوفة، والدِّينَوَرُ من فتوح أهل البصرة، فلما كثر الناس بالكوفة احتاجوا إلى أن يرتادوا من النواحي التي صولح على خراجها، فصُيِّرت لهم الدِّينَوَرُ، وعُوّض أهلُ البصرة نهاوندَ؛ . . . فسُمّيت نهاوندُ ماهَ البصرة والدينورُ ماهَ الكوفة، . . . وماؤها بإجماع العلماء غَذِيّ مَريء».[٢] وقال اليعقوبي:

---

(١) المرجع السابق. الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ١/ ١٢٣.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، طبعة ١٩٩٥، ٥/ ٣١٣.

«نهاوند مدينة جليلة، كان فيها اجتماع الفرس لَمّا لَقِيَهم النُّعمانُ بن مُقَرِّن المُزَني سنة إحدى وعشرين [هـ]، ولها عِدّة أقاليم، يسكنها أخلاط من العرب والعجم، وخَراجُها- سوى مال الضِّياع- ألفا ألف [مليونا] درهم».[1]

وسكّان نهاوند في الأصل هم من الكرد الذين سمّاهم اليعقوبي «العجم»، ثم سكنها بعض العرب بعد أن سيطر فتحها العرب المسلمون، ومن مدينة نَهاوَنْد في كُردستان خرجت أسرة الجُنَيْد بن محمد، أما هو نفسه فولد ونشأ في بغداد، وكنيته أبو القاسم، وعُرف بالخَزّاز والقَواريري، إذ كان خَزّازًا يتّجر في الحرير، وكان أبوه يبيع قوارير الزجاج، وهذا يعني أنّ الجُنيد كان من أسرة متوسطة الحال، تمارس التجارة، واشتهرت بمهنتها كما هو شأن معظم أصحاب المهن.

والجُنَيْد عَلَم بارز من أعلام التصوّف في القرن الثالث الهجري، والدليل على ذلك أمور ثلاثة هي: أقوالُه وأفعاله، وكثرةُ المهتمين بترجمته، وحِرْصُ الذين ترجموا لغيره من الصوفية على أن يقولوا في تراجم بعض الصوفية: «من أقران الجُنيد»، «كان الجُنيد يقول فيه: ...»، «صَحِب الجُنيد»، «مات قبل الجُنيد»، «من كبار أصحاب الجُنيد»، «لَقِيَ الجُنيد»، «من أقارب الجُنيد وجلسائه»، وعبارات أخرى من هذا القبيل.

تصوّف الجُنَيد:

لا نعرف إلا القليل عن بدايات تحوّل الجُنيد إلى التصوف، فالذين ترجموا له ذكروا أنه تتلمذ على خاله سَرِيّ السَقَطي (ت ٢٥٣هـ) وكان سَرِيّ السَّقَطي وحيد زمانه في الورع وأحوال الدين وعلوم التوحيد، وهو تلميذ الصوفي الكردي الشهير مَعروف الكَرْخي (ت ٢٠٠هـ)، وكان سَرِيّ تاجرًا أيضًا. ويبدو أنّ الجُنيد صحب خاله سَرِيّ السَقَطي مدة طويلة، إضافةً إلى أنه صحب جماعة آخرين من مشايخ الصوفية، نذكر منهم الحارِث المُحاسِبي (ت ٢٤٣هـ)، كما درس الجُنيد الفقه على أبي ثَوْر الكَلْبي تلميذ الإمام الشافعي، وأحد الأئمة المجتهدين.[2]

---

(١) اليعقوبي: البلدان، طبعة ١٤٢٢هـ، ص ٨٣.

(٢) القُشَيْري: **الرسالة القشيرية**، ١/١٩. ابن خَلِّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ١/٣٧٣. ابن الملقِّن: **طبقات الأولياء**، طبعة ١٩٩٤، ١/١٢٨.

وكان عند الجُنيد استعداد فطري لأن ينحو منحى الصوفية منذ صغره، ولا شك في أنّ للوسط الاجتماعي الذي عاش فيه تأثيرًا كبيرًا في توجيهه تلك الوجهة، فقد قال: «كنتُ بين يدي سَرِيّ ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلّمون في الشكر. فقال لي: يا غلام، ما الشكر؟ قلت: الشكر ألاّ تعصيَ اللهَ بنِعَمه. فقال: أخشى أن يكون حظُّك من الله لسانَك. قال الجُنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي السَرِيّ».

ويبدو واضحًا أنّ خال الجنيد كان يتوسّم فيه الخير، ويلمس فيه تباشير التصوف، وإلا ما كان ليسأله ذاك السؤال الدقيق الذي يعجز الصبية عن توضيحه إجابته، ولعل سَرِيًّا كان يحاول بذلك أن يساعد ابن أخته على انتهاج سبيل التصوف، وتشجيعه على المضيّ فيه، وها هو ذا الجُنيد يذكر خبرًا آخر يعزّز ما نذهب إليه، قال:

«قال لي خالي سَرِيّ السَقَطي: تكلّمْ على الناس[١]. وكان في قلبي حِشْمة من ذلك، فإني كنت أتّهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت ليلة في المنام رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم -وكانت ليلة جمعة- فقال لي: تكلّمْ على الناس. فانتبهت، وأتيتُ بابَ سريّ قبل أن أُصبح[٢]، فدققت الباب، فقال: لم تصدّقنا حتى قيل لك! فقعدت في غدٍ للناس بالجامع، وانتشر في الناس أني قعدتُ أتكلّم، فوقف عليّ غلام نصراني متنكِّر، وقال: أيها الشيخ، ما معنى قوله عليه السلام: اتّقوا فِراسةِ المؤمن فإنه ينظر بنور الله؟ فأطرقت، ثم رفعتُ رأسي فقلت: أَسْلِمْ، فقد حان وقتُ إسلامك! فأسلمَ»[٣].

هكذا بدأ الجُنيد تجربته التصوفية بإيمان عميق، وهو إلى جانب هذا معدود في طبقات فقهاء الشافعية المرموقين، وحسبُنا دليلاً على ذلك أنه كان يُفتي بحلْقة أبي ثَوْر (من كبار الفقهاء) وله من العمر عشرون سنة، وما كان ليفعل ذلك لولا رسوخه

---

(١) أي اخطبْ في الناس.

(٢) قبل وقت الصباح.

(٣) ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ١/٣٧٣. ابن الملقّن: **طبقات الأولياء**، طبعة ١٩٩٥، ١/١٢٨.

في ميدان الفقه؛ قال علي بن إبراهيم الحدّاد: «حضرتُ مجلس ابن سُرَيْج الفقيه الشافعي، فكان يتكلّم في الفروع والأصول بكلام حسن عجيب. فلما رأى إعجابي قال: أتدري من أين هذا؟ قلت: لا. قال: هذا ببركة مجالسة أبي القاسم الجُنَيد»[1].

وهذا الخبر يعني أنّ الجُنيد لم يقتصر في حديثه إلى الناس على علم الحقيقة وأحوال التصوّف فقط، وإنما كان ضليعًا في علم الشريعة أيضًا، فجمع بين علمي الظاهر والباطن، أو علم الشريعة وعلم الحقيقة حسبما يتردد في كتب التراث الديني الإسلامي.

من أحوال تصوّف الجُنيد:

نذكر من أحوال التصوف التي نقلت عن الجُنيد الخبرين الآتيين:

قال أبو عمرو بن علوان (هو ممن صحب الجُنيد وأخذ عنه): «خرجت يومًا إلى سوق الرَّحْبة في حاجة، فرأيت جنازة، فتبعتها لأصلّي عليها، فوقفت حتى تدفن، فوقعتْ عيني على امرأة مُسفِرة، من غير تَعمُّد، فألححت بالنظر إليها، واسترجعت واستغفرت الله تعالى، وعدت إلى منزلي. فقالت عجوز لي: يا سيدي، ما لي أرى وجهَك أسود؟! فأخذت المرآة فنظرت، فإذا هو كما قالت، فرجعت إلى سِرّي أنظر من أين ذهبتُ، فذكرتُ النَّظرة، فانفردت في موضع، أستغفر الله، وأسأله الإقالة أربعين يومًا، فخطر في قلبي أن زُرْ شيخَك الجُنيد، فانحدرت إلى بغداد، فلما جئت حُجرته طرقت الباب، فقال لي: ادخل أبا عمرو، تُذْنب بالرَّحْبة، ونستغفر لك ببغداد»[2].

وقال أبو الحسن خَير النسّاج (وهو صوفي أصله من سامرّا، وعاش ببغداد، توفي سنة ٣٢٢هـ): «كنت يومًا جالسًا في بيتي، فخطر لي خاطر أنّ الجُنيد بالباب فاخرجْ إليه، فنفيتُه عن قلبي، وقلت: وَسْوَسَة! فوقع لي خاطر ثانٍ بأنه على الباب فاخرجْ إليه، فنفيتُه عن سِرّي، فوقع لي ثالث، فعلمت أنه حق، ففتحته،

(١) القشيري: **الرسالة القشيرية**، ١/٧٩. ابن الملقّن: **طبقات الأولياء**، طبعة ١٩٩٥، ١/١٣١.
(٢) البغدادي: **تاريخ بغداد**، طبعة ٢٠٠٢، ٨/١٦٨. ابن الملقّن: **طبقات الأولياء**، طبعة ١٩٩٥، ١/١٣٠.

فإذا بالجُنيد قائم، فسلّم عليّ، وقال لي: يا خير! لِمَ لا تخرج مع الخاطر الأول»؟![1]

وقال القُشَيْري: «كان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان الحِيري بنَيْسابور، والجُنيد ببغداد، وأبو عبد الله الجَلاّء بالشام».[2] ويخرج المرء من سيرة الجُنيد بأنه لم يكن صوفيًا من الغُلاة الذين يقولون بالحلول والاتحاد، ولا من أولئك الذين قالوا بإسقاط التكليفات الشرعية، إذ إنّ تصوّفه يرتكز على إيمان عميق، وتمسّكٍ شديد بالسُّنّة النبوية، وحرصٍ على ما جاءت به الشريعة الإسلامية. ومن أقواله التي تدعو إلى التأمل:

وقال: «مَن طلب عزًا بباطل أورثه الله ذلاً بحق».

وقال: «مَن هَمّ بذنب لم يفعله ابتُلي بِهَمّ لم يعرفه».

وقال: «الأدب أدبان: أدب السِرّ وأدب العلانية؛ فالأول طهارة القلب من العيوب، والثاني حفظ الجَوارح من الذنوب».[3]

وقال أيضًا: «مَا أخذنا التصوف عَنِ القيل والقال، لكن عَنِ الجوع، وتركِ الدنيا، وقطعِ المألوفات والمستحسنات».

- وسئل: مَن العارف؟ فقال: «من نَطَق عن سِرّك وأنت ساكت».[4]

وانتقل الجُنيد إلى رحمته تعالى سنة ٢٩٧هـ.

٥- النّاقد الحَسَن بن بِشْر الآمَدي (٠٠٠ - ٣٧٠ هـ = ٠٠٠ - ٩٨٠ م)

آمَد مدينة عريقة في شمالي كردستان (جنوب شرقي تركيا)، وهي تقع على نهر دجلة، ويسمّيها الكرد «آمَد» بفتح الميم، وذكرتها المصادر العربية باسم «آمِد» بكسر الميم، والأرجح أنّ لاسمها صلة بالميديين، وقد ذكر جِرْنوت فيلْهلم أنّ المنطقة

---

(١) ابن الملقّن: **طبقات الأولياء**، طبعة ١٩٩٥، ١/ ١٣١.

(٢) القشيري: **الرسالة القشيرية**، ١/ ٨١. ابن العماد الحنبلي: **شَذَرات الذهب**، طبعة ١٩٨٦، ٣/ ٤١٩.

(٣) ابن الملقّن: **طبقات الأولياء**، طبعة ١٩٩٥، ١/ ١٢٧.

(٤) القشيري: **الرسالة القشيرية**، ١/ ٧٨.

المحيطة بدياربَكْر الحالية كانت تسمى «أمَدانو» في عهد الملك الآشوري تُوكُولتي نِينُورْتا (١٢٣٣- ١١٩٧ ق.م)،(١) وهي تسمّى الآن (ديار بكر).

وقد ذكرها ياقوت الحموي قائلاً: «هي أعظمُ مدن ديار بكر وأجلُّها قدرًا، وأشهرُها ذِكرًا، . . . وهي بلدٌ قديم حَصين رَكين، مبنيّ بالحجارة السود على نَشَزٍ، دجلةُ محيطةٌ بأكثره، مستديرةٌ به كالهلال، وفي وسطه عيونٌ وآبار قريبة نحو الذراعين، يُتناوَل ماؤها باليد، وفيها بساتين ونهر يحيط بها السور، . . . وفُتحت آمِد في سنة عشرين من الهجرة».(٢)

وقد انطلق ياقوت الحموي في التعريف بآمَد بدءًا من العهد الإسلامي، أما قبل ذلك، فلا شيء، سوى الإشارة إلى أنها «بلدٌ قديم، حصينٌ ركين»، ومع ذلك فرّق ياقوت بين دلالة كل من اسمي (آمَد) و(ديار بكر)، وأوضح أن اسم (ديار بكر) كان يطلق على المنطقة التي كانت آمَد عاصمتها الإقليمية، ولم يكن اسمًا لمدينة آمَد نفسها.

ومعروف أن القبائل العربية كانت تتبع مسارات الفتوحات الإسلامية، وعندما فتح العرب المسلمون الجزيرة- وهي تقع بين نهري دجلة والفرات، وتمتد من العراق جنوبًا إلى المناطق التابعة لمدينة آمَد شمالاً، انتشرت قبائل ربيعة في المناطق التابعة للموصل، فسمّيت (ديار ربيعة)، وانتشرت قبائل مُضَر في المناطق التابعة للرَّقّة، فسمّيت (ديار مُضَر)، وانتشرت قبائل بَكْر في المناطق التابعة لآمد، فسمّيت (ديار بَكْر).

وهكذا فقد أُطلق الاسم العربي (ديار بكر) على المناطق التي كانت مدينة آمَد حاضرَتها وعاصمتَها الإدارية، أما آمد نفسها فاحتفظت باسمها التاريخي العريق، والدليل على ذلك أن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين سمّوها (آمِد)، ولم يسمّوها (ديار بكر)، وأطلقوا على المشاهير من أبنائها لقب (الآمِدي)، ولم يقولوا (الديار بكرلي).

---

(١) جرنوت فيلهلم: **الحوريون تاريخهم وحضرتهم**، ص ٨٢.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، طبعة ١٩٩٥، ١/٥٦.

نشأة الآمَدي وثقافته:

هو أبو القاسم الحسن بن بِشْر بن يحيى الآمَدي، وتجمع المصادر أنه آمَدي الأصل، وُلد بالبصرة ونشأ فيها، وتاريخ ميلاده مجهول، وقد بدأ حياته بالتتلمذ على أيدي العلماء في البصرة، ثم في بغداد، فقد أخذ اللغةَ والنحو عن أبي موسى الحامِض (ت ٣٠٥هـ) وأبي إسحاق الزَّجّاج (ت ٣١١هـ أو ٣١٦هـ) والأَخْفَش الصغير (ت ٣١٥هـ) وأبي بكر بن السَّرّاج (ت ٣١٦هـ) وأبي بكر بن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) وإبراهيم بن عَرَفة المشهور بنِفْطَوَيْه (ت ٣٢٣هـ).

وبعد أن استكمل الآمَدي تعليمه اتصل بأبي جعفر الضَّبّي، وأصبح من كتّابه، وكان أبو جعفر يعمل في وزارة الخليفة المُقتدرِ بالله، وعمل الآمدي بعدئذ كاتبًا لآخرين، ثم اتصل بالوزير البُوَيهي الشهير ابن العَمِيد، وكان ابن العميد من أئمة الكتّاب، حتى إن بعض القدماء كان يلقِّبه بالجاحظ الثاني، وقد عاد الآمدي إلى البصرة حوالي سنة ٣٥٦هـ، مبتعدًا عن السياسة، ولزم بيته إلى أن توفي.[(١)]

قال القِفْطي: «هو أبو القاسم الحسن بن بِشْر الآمَديّ الأصل، البصريّ المنشأ، إمام في الأدب، وله شعر حسن، واتساع تام فى علم الشعر ومعانيه روايةً ودرايةً وحفظًا، وصنّف كتبًا فى ذلك حسانًا».[(٢)]

مكانة الآمَدي العلمية:

أجمعت المصادر على سَعة علم الآمَدي، فقال القِفْطي: «إمامٌ في الأدب، وله شعرٌ حسن، واتّساع تامٌّ في علم الشعر ومعانيه روايةً ودرايةً وحفظًا، وصنّف كتبًا في ذلك حِسانًا... صَحِب المشايخ والجِلّة... واتّسع في الآداب وبرز فيها، وانتهت رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره بالبصرة إليه».[(٣)] وإنّ عالمًا بارعًا في الأدب والنحو كالآمدي لا بدّ أن يقصده كثيرون من طلبة العلم، لتلقّي المعرفة

---

(١) ابن خلِّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ٢/ ١١. الصَّفَدي: **الوافي بالوفيات**، طبعة ٢٠٠٠م، ١١/ ٣١١.

(٢) القِفطي: **إنباه الرواة**، ١/ ٣٢٠. السيوطي: **بُغية الوُعاة**، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، ١/ ٥٠١.

(٣) القِفطي: **إنباه الرواة**، طبعة ١٤٢٤هـ، ١/ ٣٢٠.

منه، ومن أبرز طلبته: أبو الحسن علي بن دينار الكاتب، «وكان شاعرًا مُجيدًا، شارك المتنبّي في أكثر ممدوحيه، كسيف الدولة وابن العَميد»، وعبد الصمد بن حُنَيْش النحوي، وأبو علي عبد الكريم بن الحسن بن الحسين بن حكيم السُّكّري النحوي.(1)

وتظهر معرفة الآمَدي بالشعر في كتابين له نقديين هما كتاب **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبُحْتُري** وكتاب **تبيين غَلَط قُدامَة بن جعفر في نقد الشعر**. أما مكانته في النحو فتعكسها مؤلفاته النحوية، مثل كتاب **فعلت وأفعلت**، وقد شهد بجودته كلٌّ من ياقوت الحَمَوي في **معجم الأدباء** وحاجي خليفة في **كشْف الظنون**. غير أنّ مؤلفات الآمدي الأدبية هي الغالبة؛ إذ تبلغ نحو أربعة وعشرين كتابًا، نذكر منها: كتاب **المؤتلِف والمختلِف في أسماء الشعراء**، وكتاب **نثْر المنظوم**، وكتاب **ما في عِيار الشعر لابن طَباطَبا من الخطأ**، وكتاب **تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين**، وكتاب **معجم الشعراء**، وكتاب **شرح حَماسة أبي تمّام**، و**شرح ديوان المُسَيَّب بن عَلَس**، وكتاب **الشعراء المشهورين**.(2)

نماذج من كتابات الآمَدي:

وفيما يلي بعض ما قاله الآمَدي في كتابه «الموازنة بين شعر أبي تَمّام والبُحتُري»:

«وأنا أذكر بإذن الله الآن في هذا الجزء المعانيَ التي يتفق فيها الطائيان؛ فأوزان بين معنى ومعنى، وأقول: أيُّهما أشعر في ذلك المعنى بعينه، فلا تطالبْني أن أتعدّى هذا إلى أن أُفصح لك بأيهما أشعرُ عندي على الإطلاق، فإني غيرُ فاعلٍ ذلك؛ لأنك إن قلّدتني لم تحصل لك الفائدةُ بالتقليد، وإن طالبتَ بالعِلل والأسباب التي أوجبتْ التفضيلَ، فقد أخبرتك فيما تقدّم بما أحاط به علمي مِن نَعت مذهبيهما، وذِكر مَساويهما في سرقة معاني الناس وانتحالها، وغلطهما في المعاني والألفاظ، وإساءةِ مَن أساء منهما في الطِّباق والتجنيس والاستعارة، ورَداءةِ النظم واضطراب

---

(1) الصَّفَدي: **الوافي بالوفيات**، طبعة ٢٠٠٠، ٢٢/ ٤٣.

(2) الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٢/ ١٨٥.

الوزن، وغيرِ ذلك مما أوضحتُه في مواضعه وبيّنته». [١]

ونقل الآمَدي أيضًا: قال إسحاق الموصلي: «قال لي المُعتصِم [بالله]: أخبِرْني عن معرفة النغم وبيّنْها لي، فقلت: إن من الأشياء أشياءَ تُحيط بها المعرفة، ولا تؤدّيها الصفة. وقيل لخَلَفٍ الأحمر [راوية وّناقد]: إنك لا تزال تَردّ الشيء من الشعر، وتقول: هو رديء، والناس يَستحسنونه! فقال: إذا قال لك الصَّيْرَفي: إن هذا الدرهم زائفٌ. فاجهدْ جَهدكَ أن تنفقه، فإنه لا ينفعك قول غيرِه: إنه جيّد». [٢]

وقال الآمَدي بشأن العبقرية في الشعر والخطابة:

«قيل: ولا كلُّ أحدٍ يكون شاعرًا، ولا خطيبًا، ولا منطيقًا بليغًا، ولا بارعًا، ولو كان ذلك كذلك لِما رأيتَ أحدًا يتكلم فيُستحسَن كلامُه، وآخر يتكلم فيُضحَك منه؛ فالإنسان المتكلم يَعلم معاني ألفاظ لغته، ولا يَعلم جيّدَها من رديئها، ومتخيَّرَها من مَرذولها، كما أنه يعلم أيضًا أنواع الثياب والجواهر والخيل والرقيق [العبيد]، ويميّز بين أجناسها، ولا يعلم جيّدَ كلٍّ جنس من رديئه، وأرفعَه من أدونه، فكما أن المعرفة بكل جنس من هذه صناعةٌ، فكذلك المعرفة بكل جنس من أجناس الكلام والشعر والخَطابة صناعةٌ، فإذا رجعت في المعرفة بتلك إلى أهلها فارجع أيضًا في المعرفة بهذه إلى أهلها». [٣]

وتوفّي الآمَدي سنة ٣٧٠ هـ.

٦- الفيلسوف شِهاب الدِّين السُّهْرَوَرْدي
(٥٤٩ - ٥٨٧ هـ = ١١٥٤ - ١١٩١ م)

سُهْرَوَرْد -وتسمى سَهْرَوَرْد أيضًا- بلدة كردية في كردستان الشرقية (شمال غربي إيران)، وهي منطقة ميديا القديمة، ذكرها ياقوت الحَمَوي (ت حوالي ٦٢٦ هـ) والحِمْيَري (ت ٩٠٠ هـ) ضمن منطقة الجبال، وذكروا أنه «خرج منها جماعة من الصالحين والعلماء»، ويشكّل شرقي كردستان وجنوبيها حوالي ثلاثة أرباع منطقة

---

(١) الآمدي: **الموازنة**، طبعة دار المعارف، ص ٤١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١٧.

الجبال، وتقع سُهْرَوَرْد غربي هذه المنطقة، وشمالي شَهْرَزُور، على تخوم إقليم كردستان (في العراق) مع إيران، وذكر ابن حَوْقَل (ت بعد ٣٦٧ هـ) «أنّ الكرد هم أغلب سكان سُهْرَوَرْد». (١)

نشأة السُهْرَوَرْدي وثقافته:

اسم السُّهْرَوَرْدي -حسبما ذكر ابن خَلِّكان وضبط- هو يحيى بن حَبَش بن أَمِيرَك، وكنيته أبو الفتوح، ولقبه شهاب الدين، ولُقِّب بالمقتول وبالشهيد، وقد وُلد حوالي منتصف القرن السادس الهجري، ويقع تاريخ مولده بين سنتي (٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م)، و(٥٥٠ هـ/ ١١٥٥م)، وأمضى السنوات الأولى من حياته في سُهْرَوَرْد، وهناك تلقّى ثقافته الأولى، ثم قام برحلات علمية عديدة، وكان كلما حلّ ببلد بحث عن العلماء والحكماء فيه، فأخذ عنهم، وصاحب الصوفية، وألزم نفسه بما كانوا يمارسونه من مجاهدات ورياضات روحية، وقد قال في آخر كتابه **المُطارَحات**: «ها هو ذا قد بلغ سِنّي تقريبًا ثلاثين سنة، وأكثرُ عمري في الأسفار والاستخبار والتفحّص عن مشارك مطَّلِع على العلوم، ولم أجد مَن عنده خبرٌ عن العلوم الشريفة، ولا مَن يؤمن بها، وأكثر العجبُ من ذلك».

سافر السُّهروردي إلى مَراغة وأَصْفَهان، وإلى بلاد الشام وآسيا الصغرى، ومن أساتذته في مَراغة مجد الدين الجِيلي أستاذ فخر الدين الرازي، وفي أصفهان التقى بتلامذة الفيلسوف ابن سِينا، واطمأن إلى صحبتهم، فكانوا أصدقاءه، وسافر إلى ديار بكر أيضًا، واتصل بأمير خَرْبوط عماد الدين قَرَه أَرْسَلان، وأهدى إليه كتابه **الألواح العِمادية**، واستقرّ به المقام أخيرًا في مدينة حلب، وهناك كانت خاتمته المأساوية. (٢)

---

(١) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، طبعة ١٩٩٥، ٣/ ٢٨٩. الحِمْيَري: **الروض المِعطار**، ص ٣٢٨. ابن حَوْقَل: **صورة الأرض**، ص ٣١٤. الزِّرِكلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٨/ ١٤٠.

(٢) ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ٦/ ٢٦٨ - ٢٧. ابن كَثِير: **طبقات الشافعيين**، ص ٧٣٥.

فلسفة السُّهرودي ومؤلفاته:

ترجع جذور الفلسفة الإشراقية إلى الفيلسوف اليوناني أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م)، وتتخذ إشراقية أفلاطون صيغة فَيْض العالم عن العقل الأول (العقل الفعّال)، أما الفلسفة الإشراقية الإسلامية فتعود إلى حكمة المَشارقة، وهي تعني «الكشف»، وبعبارة أخرى: الإشراقية الإسلامية تعني الوصول إلى المعرفة الحقيقية عن طريق الذوق والكشف، وليس عن طريق البحث والبرهان العقليين؛ ونحسب أنّ هذه واحدة من أكثر الفروق وضوحًا بين الثقافتين الشرقية والأوربية.

والسُّهروردي من كبار مفكّري الفلسفة الإشراقية، ولا يعني «الإشراق» هنا الذوق والكشف فقط، وإنما استعمله السُّهروردي استعمالاً خاصًا فقد ذهب إلى أنّ «الله نور الأنوار»، ومن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالمَين المادي والروحي، وأضاف السُّهْرَوَرْدي أنّ «النور الإبداعي الأول» فاض عن «الأول» الذي هو «الله نور الأنوار»، وتصدر عن النور الإبداعي الأول أنوار طولية سمّاها «القواهر العالية»، وتصدر عن هذه القواهر أنوار عرْضية سماها «أرباب الأنواع»، تدير شؤون العالم الحسي.

ولا يرى السُّهروردي تعارضًا بين الحكمة البحثية (العقلية) والحكمة الإشراقية، فالإشراقي الحقيقي هو الذي يتقن الحكمة البحثية، وينفذ إلى أسرار الحكمة الذوقية، ويرى السُّهروردي أنّ الفكر الإنساني غير قادر وحده على امتلاك المعرفة التامة، ولا بد أن يستعين بالتجربة الداخلية والذوق الباطني، كما أنّ الاختبار الروحي لا يزدهر ويثمر إلا إذا تأسس على العلم والفلسفة.

وجاء في المصادر اسم تسعة وأربعين كتابًا للسُّهْرَوَرْدي، رغم قِصر عمره، وهي بين منثور ومنظوم، وهذا دليل على غزارة علمه، وسعة أفقه الثقافي، وانكبابه على التأليف، ومن أبرز تلك المؤلفات: حكمة الإشراق، هياكل النور، التلويحات، اللمحات في الحقائق، الألواح العِمادية، المَشارع، المُطارَحات، المناجاة، مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم، التعرّف للتصوّف، كشف الغَطا لإخوان الصَّفا، رسالة المِعْراج، اعتقاد الحكماء، صفير سِيمُورغ.

وسيمورغ هو طائر سِيمْرُغ الأسطوري في التراث الشعبي الآرياني عامة، ولا

سيّما في التراث الكردي والفارسي، وكنت أسمع من الجدّات والأمهات، وأنا صبي، قصصًا أسطورية حول هذا الطائر الضخم العجيب، وكن يسمّينه أحيانًا «سِمْرِق» و«سِمْلِق».

النهاية المأسوية:

توجّه السُّهْرَوَرْدي إلى حلب، وكانت حينذاك من أهم المدن في شرقي الدولة الأيوبية، كما أنها كانت مدخل الدولة الأيوبية إلى كُردستان، ذلك الخزان الذي كان يستمد صلاح الدين منه المقاتلين الكرد في الظروف الحرِجة، وكان صلاح الدين قد ولّى على حلب ولده الشاب الملك الظاهر، وأحاطه ببطانة من الفقهاء والعلماء.

ووقع الصدام بين السُّهرَوَرْدِي الفيلسوف الإشراقي، بكل ما كان يتصف به من حماس الشباب، واعتداد بالذات، وشجاعة فكرية إلى حدّ التهوّر، وبين فريق من العلماء والفقهاء الأشاعرة الذين يعادون الحرية الفكرية، ويتوجّسون شرًا من الفلسفة، ويعادون الصوفية، حذرًا من العلاقة بين الباطنية والتشيّع؛ سواء أكان فاطميًا أم غير فاطمي. وكان الملك الظاهر قد أُعجب بالسُّهروردي، بل أصبح السُّهروردي من خاصّة أصدقائه، ونظرًا لاشتداد الخلاف بين السُّهروردي والفقهاء المتشددين دعاهم الظاهر إلى مناظرة فكرية، وتفوّق السُّهروردي على الفقهاء، وكشف عن جهلهم، فرموه بالكفر.

تميّز السُّهْرَوَرْدي بسعة الأفق المعرفي، إلى جانب الجرأة العلمية، وكانت تلك الجرأة تتفاقم فتصل حدّ التهوّر أحيانًا، وقد أشار الشيخ سَدِيد بن رَقيقة إلى تلك الخصلة، فذكر: «أن شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي كان يتردد إليه في أوقاته، وبينهما صداقة، وكان الشيخ فخر الدين يقول لنا: ما أذكى هذا الشاب وأفصحَه، ولم أجد أحدًا مثلَه في زماني، إلاّ أني أخشى عليه لكثرة تهوّره واستهتاره وقلّة تحفّظه، أن يكون ذلك سببًا لتلفه»(١).

قال الذهبي: «كان أوحد فِي العلوم الحكميّة، جامعًا لفنون الفلسفة، بارعًا فِي أصول الفِقه، مُفْرط الذكاء، فصيح العبارة، لَمْ يناظر أحدًا إلا أربى عليه، وكان

---

(١) الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، ١٢/ ٨٤٤. الذَّهبي: **سير أعلام النبلاء**، ٢١/ ٢٠٨.

عِلمه أكثر من عقله. قَالَ فخر الدّين المارْدِينيّ: ما أذكى هَذَا الشّابّ وأفصحه! إلا أنّي أخشى عليه لكثرة تهوّره واستهتاره»[١].

ثُمَّ إن الشهاب السُّهْرَوَرْديّ قدِم الشامَ فناظر فُقهاء حلب، ولم يُجاره أحدٌ، فاستحضره الملك الظاهر، وعقد لَهُ مجلسًا، فبان فضله، وبهر علمه، وحَسُنَ موقعه عِنْد السّلطان، وقرّبه، واختصّ بِهِ، فشنّعوا عليه، وعملوا محاضر بكُفره، وسيّروها إلى السّلطان صلاح الدّين، وخوّفوه من أن يُفسد اعتقادَ ولده، وزادوا عليه أشياء كثيرة، فبعث إلى ولده الملك الظاهر بخط القاضي الفاضل يَقُولُ فِيهِ: لا بدّ من قتله، ولا سبيل إِلَى أن يُطلق ولا يُبقى بوجه. فَلَمَّا لَمْ يبْقَ إلا قتْله اختار هُوَ لنفسه أن يُتْرَكَ فِي بيتٍ حَتَّى يموت جوعًا، ففُعل بِهِ ذَلِكَ فِي أواخر سنة ست وثمانين بقلعة حلب. وعاش ستًّا وثلاثين سنة[٢].

وكان صلاح الدين حريصًا على وحدة الصف الداخلي، وخاصةً أنه كان يخوض الصراع ضد الفرنج، وكان الفقهاء والعلماء جيشه الضارب في تحقيق تماسك صفه الداخلي، فهم الذين كانوا يمسكون جماهير العامة من خناقها، ويوجّهونها الوجهة التي يريدونها، وهم الذين كان بإمكانهم إحداث القلاقل والمشكلات للحكام في الأوقات الحرجة؛ كما هو عليه الأمر في عصرنا هذا. ولا ننسى أنّ صلاح الدين كان شافعيّ المذهب وخرّيجَ المدرسة الأَشْعَرِيّة، ومعروف أنّ هذه المدرسة أعلنت الحرب على فئتين من العلماء والمفكرين: الأولى فئة المُعْتَزِلة الذين رفعوا من مكانة العقل، ومارسوا حرية التفكير إلى حدّ كبير بالقياس إلى المناخ الثقافي حينذاك، والثانية فئة المتصوِّفة المنشغلين بعلم الباطن.

بعبارة أخرى: كان الفكر الأشعري هو المدافع الأيديولوجي عن السلطة العباسية السنّيّة، في مواجهة حرية الفكر من ناحية، وفي التصدي للفكر الشيعي الباطني من ناحية أخرى، وما كان صلاح الدين ليستطيع -بتأثير جذوره الثقافية- أن يفكر أو يتصرف إلاّ في هذا الإطار الأيديولوجي، فأرسل إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتابًا بخط القاضي الفاضل يقول فيه: «إنّ هذا الشاب السُّهروردي لا بدّ من قتله، ولا سبيل أنه يُطلَق، ولا يبقى بوجه من الوجوه».

---

(١) الذّهبي: **تاريخ الإسلام**، ١٢/ ٨٤٤.

(٢) المرجع السابق.

قال ابن أبي أُصَيْبِعَة يذكر نهاية السُّهروردي الأليمة: «ولما بلغ الشهابَ ذلك، وأيقن أنه يُقتَل، وليس جهةٌ إلى الإفراج عنه، اختار أن يُترك في مكان منفرد، ويُمنع من الطعام والشراب، إلى أن يلقى الله تعالى. ففُعل به ذلك، وكان في أواخر سنة ٥٨٦ هـ بقلعة حلب، وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة».[١]

بقتل السُّهروردي طُوِيت صفحة أحد عباقرة الكرد في ميادين العلم والعرفان، وقُضي على واحد من أساطين الفكر الحرّ في غربي آسيا، ونعتقد أنّ الجمود الثقافي المهيمن على شعوب هذه المنطقة يعود، في الدرجة الأولى، إلى القضاء على المفكرين العظام من أمثال السُّهروردي، كما أنّ صلاح الدين أفصح -بموافقته على قتل السُّهْرَوَرْدي- عن أنه كان أسير فكر فقهي متحجّر ضيق الأفق، وما كان لرجلٍ رحيم القلب مثله أن يفعل ذلك.[٢]

وكان مقتل السُّهروردي في أواخر سنة ٥٨٦ هـ أو أوائل سنة ٥٨٧ هـ.

٧- شَيخ الإسلام ابن الصَّلاح الشَّهْرَزُوري

(٥٧٧ - ٦٤٣ هـ = ١١٨١ - ١٢٤٥ م)

الإمام، الحافظ، النقّاد، شيخ الإسلام، المفتي، العلاّمة، الفقيه، الأصولي، المحدّث، المفسّر، الحجّة، العمدة، ذو الفنون والتحقيق. . . بهذه الصفات وصف الباحثون ابن الصلاح. فمن هو الرجل؟ وما هي مكانته العلمية؟

مدينة شَهْرَزُور:

قال ياقوت الحَمَوي: «هي كُورة [منطقة] واسعة في الجبال بين إرْبِل وهَمَذان، أحدثها زُور بن الضَّحّاك، ومعنى شهر بالفارسية: المدينة. وأهل هذه النواحي كلهم أكراد». ونقل ياقوت، في المصدر نفسه، عن جغرافي اسمه مِسْعر بن مُهلْهِل قوله: «شَهْرَزُور مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة، وهي قَصَبتها [مركزها]، في وقتنا هذا

---

(١) ابن أبي أُصَيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، طبعة دار مكتبة الحياة، ص ٦٤٢.

(٢) للمزيد بشأن السهروردي انظر- الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ١٢/ ٨٤٤ - ٨٤٧. الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ٢١/ ٢٠٧ - ٢١١. ابن العماد الحنبلي: **شَذَرات الذهب**، ٦/ ٧٦ - ٤٧٧. ابن كثير: **طبقات الشافعيين**، ص ٧٣٤ - ٧٣٥.

يقال لها: نِيمْ إِزْراي، وأهلها عصاة على السلطان، قد استَطعموا الخِلاف واستعذَبوا العصيان، والمدينةُ في صحراء، ولأهلها بطشٌ وشدّة، يمنعون أنفسهم ويحمون حَوْزتهم». ثم أضاف ياقوت قائلاً: «وأكثرُ أمرائهم منهم، وهم موالي عمر بن عبد العزيز، وجرّأهم الأكراد بالغلبة على الأمراء، ومخالفة الخلفاء، وذلك أن بلدهم مَشْتَى ستين ألف بيت من أصناف الأكراد الجَلالية والباسِيان والحَكَمية والسُّولية، ولهم بها مزارع كثيرة، ومن صحاريهم يكون أكثر أقواتهم»[1].

نشأة الشَّهْرَزُوري وثقافته:

تقع شَهْرَزُور في كردستان الجنوبية، وفي سنة ٥٧٧ هـ، وفي قرية شَرْخان القريبة من شَهْرَزُور، ولد أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشَهْرَزُوريّ الكُردي الشَرْخاني، وعُرف بـ«تقيّ الدين ابن الصلاح» نسبةً إلى والده صلاح الدين عبد الرحمن (ت ٦١٨ هـ)، وكان عصره حافلاً بأحداث جسام، فهو عصر الغزو الفرنجي على شعوب شرقي المتوسط، وعصر بداية الزحف المغولي القادم من الشرق، كما أنه عاصر نهوض الدولة الأيوبية، ونشأ في بيت علم ودين، وترعرع في كنف والده، وكان عالمًا وفقيهًا ومفتيًا وشيخ شَهرزور في وقته.

وقد تلقّى ابن الصلاح علومه الأولى في شَهرزور على والده، و«قرأ الفقه أولاً على والده الصلاح وكان من جِلّة مشايخ الأكراد المشار إليهم، ثم نقله والده إلى الموصل واشتغل بها مدة»، ودرس على علمائها، ومن أبرزهم شيخ الشافعية عماد الدين بن مَنْعَة الإربلي (ت ٦٠٨ هـ)، ثم ارتاد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي، وتلقّى العلم على مشايخ عصره، فارتحل إلى بغداد وسمع من علمائها، ثم سافر إلى خُراسان وحصّل علم الحديث هناك، ثم دخل بلاد الشام حوالي سنة ٦١٣ هـ، وسمع من مشاهير العلماء في حلب ودمشق.

وانتهى المطاف بابن الصلاح إلى بيت المقدس، وكان صلاح الدين الأيوبي قد حرّرها من الفرنج، وهناك تحوّل ابن الصلاح من طالب إلى أستاذ، فدرّس في المدرسة الصلاحية (نسبةً إلى صلاح الدين الأيوبي)، ثم انتقل إلى دمشق، فدرّس

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٧.

في المدرسة الرَّواحيّة، ثم في دار الحديث التي شغل مشيختَها ثلاثًا وعشرين سنة، كما تولّى التدريس في مدرسة ستّ الشام زُمُرُّد خاتون بنت أيّوب (ت ٦١٦ هـ) أخت صلاح الدين، وكان يقوم بوظائفه جميعها من غير إخلالٍ بها، إلا لعذرٍ ضروري.(١)

مكانة الشَّهْرَزُوري العلمية:

تبوّأ ابن الصلاح مكانة مرموقة بين علماء عصره، ولا عجب، فقد استوعب كثيرًا من العلوم، وخاصة علوم التفسير والحديث والفِقه، وكان محدّثًا حافظًا، وشهد له علماء عصره بغزارة العلم، وسَعة الاطلاع. قال تلميذه الحافظ المؤرخ القاضي ابن خلّكان: «كان أحدَ فضلاء عصره في التفسير والحديث والفِقه وأسماء الرجال وما يتعلّق بعلم الحديث... وله مشاركةٌ في فنون عديدة، وكانت فتاويه مسدَّدة».(٢)

وقال الحافظ شمسُ الدين الذَّهَبي: «كان ذا جلالة عجيبة، ووقار وهيبة، وفصاحة وعلم نافع، وكان متين الديانة، سَلَفيَّ الجملة، صحيحَ النِّحْلة... حسنَ البِزَّة(٣)، وافرَ الحرمة معظَّمًا عند السلطان... مُكِبًّا على العلم، عديمَ النظير في زمانه».(٤) وقال الحافظ ابن كَثِير الدمشقي: «هو في عِداد الفضلاء الكبار، وكان ديّنًا، زاهدًا، ورعًا، ناسكًا، على طريقة السلف الصالح،... مع الفضيلة التامة في فنون كثيرة،... وكان إمامًا بارعًا حجّة، برع فتبحّر في العلوم الدينية، بصيرًا بالمذهب أصوله وفروعه،... وله فتاوى سديدة وآراء رشيدة».(٥)

ولابن الصلاح تلامذة مشاهير في الحديث والفقه والتفسير والتاريخ، منهم: أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) وابن خَلِّكان (ت ٦٨١ هـ) وابن العَفيف الدمشقي (ت ٧٢٥ هـ)

---

(١) ابن خلِّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ٣/٢٤٣.

(٢) المرجع السابق، ٣/٢٤٣.

(٣) النِّحلة: المذهب. والبِزّة: اللباس.

(٤) الذَّهبي: **سير أعلام النبلاء**، ٢٣/١٤٢.

(٥) ابن كَثِير: **طبقات الشافعيين**، ص ١٢٤. وانظر ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، طبعة ١٩٨٨، ١٣/١٩٦.

وابن عَساكر الدمشقي (ت ٦٩٩ هـ). وله حوالي خمسة وعشرين كتابًا في علوم الدين، وشهد تاج الدين السُّبْكي بأنها: «كلها حِسان، بالغة في الإحسان، مفيدة لكلّ إنسان»؛ نذكر منها: **أدب المُفتي والمُستفتي، وكتاب الأمالي، وحِلْية الإمام الشافعي، وطبقات فقهاء الشافعية، والفتاوى، والمؤتلف والمختلف في أسماء الرجال**.[1]

وتوفّي ابن الصلاح بدمشق سنة (٦٤٣ هـ)، وفيها دفن.

٨- النَّحوي الكبير ابن الحاجب (٥٧٠ - ٦٤٦ هـ = ١١٧٤ - ١٢٤٩ م)

النحو أصل من أصول اللغة العربية، وهو يشتمل على علمين: «علم الصَّرف» و«علم الإعراب»، وكان لبعض مثقفي الكرد عناية بالغة بالنحو، ومن أشهرهم ابن الحاجب.

نشأة ابن الحاجب وعصره:

هو أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن يونس الكُردي الدُّوِيني الأصل، نسبةً إلى بلدة «دُوِين» في كردستان الجنوبية (في العراق حالياً)، وهي غير «دُوِين» التي تقع في أرمينيا، وهو إسنائي المولد (بمصر)، ومعروف بابن الحاجب، وقد انتقلت الأسرة مع الأيوبيين إلى الشام، ثم إلى مصر، وسكنت بلدة «إسْنا» في الصعيد الأعلى. وكان أبوه جنديًا حاجبًا للأمير الكردي عز الدين مُوسَك، خال صلاح الدين الأيوبي، وولد ابن الحاجب سنة ٥٧٠ هـ، وهي السنة التي أرسى فيها صلاح الدين قواعد سلطته في مصر، ثم توجّه إلى الشام فضمّها، وكان عصر ابن الحاجب عصر ازدهار علمي وثقافي، بفضل المشروع النهضوي الشامل الذي أنجزه صلاح الدين الأيوبي.[2]

---

(١) الزِّركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٤/٢٠٧.

(٢) الذَّهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٣/٢٦٥. الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، ١٤/٥٥١. ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، طبعة ١٩٨٨، ١٣/ ٢٠٦.

ثقافة ابن الحاجب وشخصيته:

انتقل الأب بابنه الصغير إلى القاهرة، وفيها حفظ ابن الحاجب القرآن الكريم، ودرس العلوم المتصلة به، فقرأ القراءات على أبي الفضْل الغَزْنَوِي (ت ٥٩٩ هـ) وأبي القاسم الشاطِبي (ت ٥٩٠ هـ)، وأخذ الحديث عن هِبَة الله البُوصِيري (ت ٥٩٨ هـ) والقاسم بن عَساكر الدِّمشقي (ت ٦٠٠ هـ)، وأخذ الفقه والأصول عن أبي الحسن الأَبْياري (ت ٦١٨ هـ). وزار ابن الحاجب دمشق للتعلّم حينًا وللتدريس أحيانًا، ودخلها آخر مرة سنة (٦١٧ هـ)، إذ أقام بها مدرّسًا في الجامع الأموي، في زاوية المالكية، فأقبل عليه الطلبة، وصار شيخًا لجمهور من الدارسين في علمي القراءات والعربية، وانتفع به كثير من الناس.(١)

كان ابن الحاجب رفيع الأخلاق، فاستحق ثناء الناس، بما فيهم الذين كانوا يخالفونه الرأي؛ إنه كان ثِقةً وحُجّة، متواضعًا عفيفًا، كثير الحياء مُنْصفًا، مُحبًّا للعلم وأهله، متحمّلاً للأذى، صبورًا على البلوى. وكان صدوقًا في علاقاته، مخلصًا لأصحابه، وقد دافع بقوة عن صديقه الشيخ العِزّ بن عبد السلام، حينما أنكر العِزُ على ملك دمشق الصالح إسماعيل سوءَ سيرته، وتقاعسه عن قتال الفرنج، فأمرهما الصالح إسماعيل بالخروج من دمشق، فعادا معًا إلى القاهرة سنة ٦٣٨ هـ، وهناك درّس ابن الحاجب في المدرسة الفاضلية، فقصده الطلبة وأخذوا عنه، ثم غادر القاهرة إلى الإسكندرية فأقام بها.(٢)

وكان ابن الحاجب من أبرز فقهاء مصر والشام في العصر الأيوبي، فقد تفقّه على مذهب الإمام مالك، وتعمّق فيه حتى صار شيخ المالكية في عصره، واستكمل مقوّمات الشخصية العلمية، بما اتصف به العزم والتواضع، وما حازه من صنوف المعرفة، وصنّف في مذهبه تصانيف تُعَدّ من أمهات المراجع الفقهية، وبرز في علم النحو وبه عُرف، وكان يميل فيه إلى المذهب البصري، لكنه لم يكن اتّباعيًا، ولم

---

(١) ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ٣/ ٢٤٨. والذَّهبي: **سير أعلام النبلاء**، ٢٣/ ٣٦٦. السيوطي: **بغية الوعاة**، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، ٢/ ١٣٤.

(٢) ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، طبعة ١٩٩٤، ٣/ ٢٥٠. الصَّفَدي: **الوافي بالوفيات**، طبعة ٢٠٠٠، ١٩/ ٣٢٢. ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، طبعة ١٩٨٦، ٧/ ٤٠٥.

يتردّد في مخالفة البَصْريين إذا لم يقتنع برأيهم، ملتزمًا بالمنهج العلمي القويم، ولم يَسلم سِيبَوَيْه شيخ نحاة البصرة من مخالفة ابن الحاجب لآرائه، قال ابن العِماد الحَنبلي: «وخالف النُّحاة في مواضع، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات تَبعد الإجابة عنها، وكان من أحسن خلق الله ذهنًا».(١)

قال الذَّهَبي في التعريف به: «فَقِيْهٌ، مُفْتٍ، مُنَاظر، مُبَرِّز فِي عِدَّة عُلُوْم، مُتَبَحِّرٌ، مَعَ دينٍ وَوَرَعٍ وَتَوَاضُعٍ وَاحتِمَالٍ وَاطِّرَاحٍ لِلتَّكَلُّفِ».(٢) وقال الذَّهَبي: «كَانَ من أذكياء العالم. ثُمَّ قَدِمَ دمشقَ ودرَّس بجامعها فِي زاوية المالكيّة، وأكبَّ الفُضَلاء عَلَى الأخذ عَنْهُ. وكان الأغلب عَلَيْهِ النّحْو. وصنَّف فِي الفِقْه مختصَرًا، وفي الأُصول مختصَرًا، وفي النحو مقدِّمتين. وكلُّ مصنَّفاته فِي غاية الحُسْن. وقد خالف النحاةَ في مواضع، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مُفحِمة تَعسر الإجابةُ عنها».(٣)

تلامذة ابن الحاجب وآثاره:

لابن الحاجب تلامذة كثيرون، منهم على سبيل المثال: الحافظ الإمام شيخ الإسلام زكي الدين المُنْذِري (ت ٦٥٦ هـ)، والإمام جمال الدين بن مالك (ت ٦٧٢ هـ)، وناصر الدين أبو العباس بن المُنَيِّر (ت ٦٨٣ هـ)، أحد المتبحِّرين في التفسير والفِقه والبلاغة والأنساب، ودرس على يديه الملك الناصر داود ابن الملك المعظَّم عيسى، وكان ملك دمشق، ثم اقتصر على الكرك ونابلس.

أما آثار ابن الحاجب فكثيرة، فقد ألّف في النحو والصرف، وفي الفِقه والأصول والقراءات، والعَروض والتاريخ والأدب، ومن أبرز كتبه في النحو: **كتاب الكافية**، وكتاب **الشافية**، وكتاب **الإيضاح في شرح المُفصَّل للزَّمَخْشَري**، وكتاب **الأمالي**، وشرح **كتاب سيبَوَيْه**، وشرح **المقدّمة الجَزُولية**. وله في الفقه والأصول: **منتهى السُّول والأمل في علمي الأصول والجَدَل**، هو كتاب في الفقه المالكي، وكتاب **جامع الأمّهات**. وله في العروض كتاب **المَقصد الجليل إلى عِلم**

(١) ابن العِماد الحنبلي: شَذَرات الذهب، طبعة ١٩٨٦، ٧/٤٠٦.
(٢) الذَّهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٣/٢٦٦.
(٣) الذَّهبي: تاريخ الإسلام، ١٤/٥٥١.

الخليل، وهو منظومة من البحر البسيط، وله مباحث أخرى في القراءات والتاريخ والأدب.

وتوفّي ابن الحاجب في الإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ، ودُفن فيها.[1]

٩- المؤرّخ القاضي ابن خَلِّكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ = ١٢١١ - ١٢٨٢ م)

للعلماء الكُردستانيين شغف شديد بالتاريخ والتراجم، وقدّموا للمكتبة العالمية مؤلّفات قيّمة، ومن هؤلاء العلماء ابن خَلِّكان، فماذا عنه؟!

نسب ابن خَلِّكان ونشأته:

هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خَلِّكان، ينتهي نسبه إلى جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك، وقد صرّح لابنه موسى أنه من قبيلة «زَرْزاري» الكردية، ولد بإربل سنة ٦٠٨ هـ، وكان أصغر إخوته، وفقد أباه وهو صغير، فتولّى صديق والده مُظَفَّر الدين كُوكْبُوري حاكم أربيل رعايته، فدرس في المدرسة المُظَفَّرية، وحضر مجالس ابن المُستَوْفي الإرْبِلي، وكان يلتقي العلماء الوافدين على إرْبِل، فيأخذ عنهم.

ولما تجاوز ابن خَلّكان الثامنة عشرة غادر إربيل طلبًا للعلم، مصطحبًا أحد إخوته وبعض رسائل التوصية من حاكم إربيل، وفي الموصل أخذ عن صديق والده كمال الدين موسى بن يونس سنة ٦٢٦ هـ، وكان ابن يونس آية في الثقافة الموسوعية والذكاء الخارق، ومن شدة إعجاب أحمد به أضمر أنه إذا تزوّج، ورزق ولدًا، فسيدعوه موسى، وهذا ما فعله. ومن الموصل تابع أحمد رحلته إلى حلب، مارًا بحَرّان، وفي حلب قصد صديقَ والده القاضي بهاء الدين بن شَدّاد، مستشار الملك الظاهر ابن صلاح الدين، وكان يحمل إليه رسالة توصية من كُوكْبُوري، فرحّب ابن شَدّاد بالأخوين، وأنزلهما في مدرسته، وقرّر لكل منهما مرتّبًا عاليًا.

وفي حلب دَرَس أحمد الفقه واللغة على كبار الشيوخ؛ أمثال ابن يَعِيش، كما

---

(١) ابن كثير: **البداية والنهاية**، طبعة ١٩٨٨، ١٣/ ٢٠٦. الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٤/ ٢١١.

التقى صديق والده المؤرخ عز الدين ابن الأثير. وفي سنة ٦٣٢ هـ توجّه إلى دمشق، فدرس التفسير والحديث والفقه على ابن الصلاح الشَّهْرَزُوري، ثم عاد إلى حلب، ويئس من العودة إلى إربيل بعد أن اجتاحها التتار سنة ٦٣٤ هـ، فتوجّه إلى مصر، ووصل إلى القاهرة سنة ٦٣٧ هـ، واتصل بالشاعر بهاء الدين زُهير، وقويت الصداقة بينهما.(١)

بين العلم والعمل:

كان قاضي القضاة في مصر حينذاك بدر الدين السِّنْجاري، وهو كردي من عشيرة زَرْزاري مثل ابن خلّكان، فولّى ابنَ خلّكانَ نيابةَ القضاة بمصر، ثم تتالت الأعوام والأحداث، وحلّ المماليك محل الأيوبيين في الحكم، وبعد صراعات داخلية استولى الظاهر بَيْبَرس على السلطة، فعيّن ابن خلّكان قاضيًا في ديار الشام سنة ٦٥٩ هـ.

وظلّ ابن خَلّكان في منصبه ذاك إلى سنة ٦٦٩ هـ، فقد عزله بَيْبَرْس حينما دخل دمشق، ليس عن تهمة موجّهة له، وإنما لأنّ الوزير بهاء الدين بن حَنّا سعى في تولية عز الدين بن الصائغ القضاءَ، ولأنّ ابن خَلّكان كان على صلة بأمير كردي من قبيلة زَرْزاري هو الأمير أحمد بن حَجّي، وكان ذلك الأمير مرموق المكانة عند الملك الظاهر، وكان يُعَدّ منافسًا للوزير. وقاسى ابن خلّكان معاناة صعبة وفاقة شديدة بسبب مضايقات الوزير ابن حَنّا، لكن اختلفت الأمور سنة ٦٧٦ هـ؛ إذ تولّى الملكُ السعيد بن الظاهر الحكم، فعيّن ابنَ خلّكان قاضيًا بدمشق ثانية، ولم تُنس السنواتُ السبع أهلَها قاضيَهم المحبوب، فاحتفلوا بمقدمه، وتزاحموا على استقباله، وتوافد الشعراء يهنئونه، وتبارى القرّاء في التلاوة.

وحدثت الاضطرابات في مصر والشام بين أبناء الظاهر بَيْبَرس، فاستولى الملك المنصورُ قَلاوُون على السلطة، ولم يكن ابن خلّكان من أنصاره، فاعتُقل ثم عُفي عنه، وأعيد إلى منصبه في القضاء بدمشق، وما لبث قَلاوُون أن عزله ثانية سنة ٦٨٠

---

(١) ابن كَثِير: **البداية والنهاية**، طبعة ١٩٨٨، ٣٥٢/١٣. ابن كَثِير: **طبقات الشافعيين**، ص ٩١٧.

هـ، فمارس ابن خلّكان التدريسَ في المدرسة النَّجِيبية والمدرسة الأَمِينية، وأمضى بقية عمره في الدرس ومذاكرة العلماء والأدباء.[1]

شخصيته ومؤلّفاته:

شهد المعاصرون لابن خلّكان بالبراعة في الفقه والأصول والعربية، والمعرفة بالمذهب الشافعي، وبحسن ما صدر عنه من الفتاوى، وكان دائم الاطّلاع، محبًّا للكتب، ينفق الأموال على اقتنائها، ونظّم كثيرًا من الشعر في أول عهده، ولم تفتر صلته بالشعر وبتنمية ذوقه الأدبي حينما عمل قاضيًا، وقد قيل فيه بأنه كان أعرف الناس بديوان المتنبي في وقته.

وقد وصفت المصادر ابن خلّكان بأنه كان حسن الصورة، فصيح المنطق، جوادًا، مدحه الشعراء، فمنحهم الجوائز السنية، واتّسم بالنزاهة، ورجاحة العقل، ورباطة الجَأْش، والجِدّ والوَقار، مع ميلٍ إلى الدعابة المهذّبة، وكان مجلسه مجلس البحث والتحقيق والفوائد العلمية والأدبية، وذكرت المصادر أيضًا عِفّة يده وعزّة نفسه في أشد حالات الضيق، وعُرف أيضًا بالرفق ولين الجانب في التعامل، وهذا ما جعله محبّبًا إلى من عرفوه.

قال ابن كَثير: «كانَ يَنْظِمُ نَظْمًا حَسَنًا رَائِقًا، وقد كانَتْ مُحاضَرَتُهُ فِي غايَةِ الحُسْنِ، وَلَهُ التّارِيخُ المُفِيدُ الّذِي رسم بِوَفَيَاتِ الأعْيَانِ مِنْ أَبْدَعِ الْمُصَنَّفَاتِ».[2] ونقل الصَّفَدي عن الذَّهَبي: «وكان إمامًا فاضلاً، بارعًا، متفنّنًا، عارفًا بالمذهب، حسنَ الفتاوى، جيّدَ القريحة، بصيرًا بالعربية، علاّمةً في الأدب والشعر وأيام الناس، كريمًا جوادًا، ممدوحًا، من سَرَوات [نبلاء] الناس . . . ومن محاسنه أنه كان لا يَجسر أحد أن يذكر أحدًا عنده بغيبة».[3]

ولابن خلّكان كتابات كثيرة، ولم يترك إلاّ كتابه الشهير **وَفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، وقد انتهى من تأليفه سنة ٦٧٢ هـ بالقاهرة، وكان يخطط لكتابة

---

(١) الذَّهبي: **تاريخ الإسلام**، ١٥/ ٤٤٤. ابن كَثِير: **طبقات الشافعيين**، ص ٩١٧. ابن قاضي شُهْبَة: **طبقات الشافعية**، طبعة ١٤٠٧هـ، ٢/ ١٦٦.

(٢) ابن كثير: **البداية والنهاية**، طبعة ١٩٨٨، ١٣/ ٣٥٢.

(٣) الصفدي: **شذرات الذهب**، طبعة ٢٠٠٠، ١/ ٥٧.

تاريخ عام، على مثال كتاب شيخه ابن الأثير **الكامل في التاريخ**، لكنّ منصب القضاء لم يتح له المجال لتنفيذ ذاك المشروع، فاقتصر على تأليف كتاب في التراجم.

وتوفي ابن خلّكان سنة ٦٨١ هـ، ودفن بسفح جبل قاسِيُون.(١)

١٠- الجُغرافي المؤرّخ أبو الفِداء (٦٠٠ - ٦٣٥ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٣٧ م)

تعود قصة الكرد مع مدينة حَماة السورية إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، حينذاك كان الآشوريون سادة الشرق، وثار عليهم دَياكو (دَهْياكو) ملك ميديا، فدارت حرب شرسة بين الفريقين، وانتصرت آشور، وسيق دَياكو مع أسرته وحاشيته إلى المنفى في حماة فترة من الزمن. وإذا كان الملك الكردي دياكو عاش في حماة منفيًا، فإنّ الملك الكردي أبو الفداء عاش فيها، بعد حوالي ألفي سنة، ملكًا، ولذا تسمّى حماة «مدينة أبي الفداء». فمن هو الرجل؟

نشأة أبي الفِداء وشخصيته:

هو إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهِنْشاه بن أيّوب، أبو الفداء، من أعيان بني أيوب، وُلد في دمشق سنة ٦٧٢ هـ، وكان أميرًا عليها، ثم منحه السلطان الناصر محمد بن قَلاوُون مملكة حماة تقديرًا له، وكانت لأبي الفداء منزلة رفيعة عند الملك الناصر قلاوون، قال الشُّوكاني: «فلمّا عاد النَّاصِر إلى السلطنة وعده بسلطنة حماه ثمَّ سلطنه بها يفعل فِيها ما يَشاء من إقطاع وَغير ذَلِك، ولا يُؤمر ولا يُنْهَى، أركبه النَّاصِر بشعار المملكة والسلطنة، ومَشى في خدمته أكابِر أُمَراء النَّاصِر، . . . وَاسْتقر بحماه، ثمَّ قَدِم إلى مصر على السُّلْطَان النَّاصِر فِي سنة ٧١٦ [هـ] فَبَالغ السُّلْطان في إكرامه، ثمَّ قَدِم مرة أُخْرَى فحجّ مَعَ السُّلْطَان سنة ٧١٩ [هـ]».(٢)

وأورد ابن حَجَر العَسْقلاني المعلومات السابقة ذاتها، وأضاف قائلاً: «وأُركب

---

(١) الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ١/ ٢٢٠.

(٢) الشوكاني: **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، ١/ ١٥١. الصفدي: **شذرات الذهب**، طبعة ٢٠٠٠، ١/ ٥٩.

فِي القاهِرَة بشعار المملكة والأُبَّهة، ومَشى النَّاس فِي خدمته حتَّى أرغون النّائِب فَمَن دونه، وجهّزه كريمُ الدّين بِجَمِيعِ مَا يحْتاج إليهِ، ولُقّب أَولاً الصّالح ثمَّ المُؤَيَّد، وَأُذِن أَن يُخْطَب لَهُ بحماة، . . . وأُجريت عليهِ الرّواتِب، وَبالغ السُّلْطان فِي إكرامه». [١]

وقد لُقّب أبو الفداء أولاً بالصالح ثم المؤيّد، وأُذن له أن يُذكَر اسمه في خطبة الجمعة بحماة وتوابعها، ويكون له الحكم المطلق فيها، وليس هذا فحسب، بل إنّ السلطان الناصر أصدر مرسومًا إلى نوّابه في بلاد الشام أن يكتبوا إلى أبي الفداء في مراسلاتهم عبارة «يقبّل الأرض» تعظيمًا له، وكان السلطان نفسه يخاطبه في رسائله له بقوله: «أخو محمد بن قَلاوُون، أعزَّ الله أنصارَ المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيَّدي العِمادي». [٢]

وهذا دليل على إعجاب السلطان المملوكي بخصال أبي الفداء، ويتفق كل من كتب عنه أنه تميّز بأخلاق حميدة، وصفات نبيلة قلّما تجتمع في رجل واحد، فقد كان جوادًا، شجاعًا، عالمًا، متمسّكًا بالفضيلة، كريمًا، فاضلاً، جامعًا للفضائل، عاقلاً، متواضعًا، محبًا لأهل العلم، وقد نقل الصَّفَدي بشأن خصال أبي الفداء الأقوال التالية:

«قال ابن قاضي شُهْبَة: اشتغل أبو الفداء في العلوم وتفنّن فيها، وصنّف التصانيف المشهورة . . . وكان جوادًا ممدَّحًا امتدحه غير واحد. وقال ابن كَثِير: كان يحبّ العلماء ويشاركهم في فنون كثيرة، وكان من فضلاء بني أيوب. وقال ابن شاكر: كان الملك المؤيَّد فيه مكارم وفضيلة تامة من فِقه، وطبّ، وحكمة، وغير ذلك، وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه، وإن كان قد شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة، وكان محبّا لأهل العلم مقرّبا لهم.

وقال الإِسْنَوِيّ: كان جامعا لأشتات العلوم، أعجوبة من أعاجيب الدّنيا، ماهرا في الفِقه، والتفسير، والأصلين، والنحو، وعلم الميقات، والفلسفة، والمنطق،

---

(١) ابن حَجَر العَسْقَلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، طبعة ١٩٧٢، ١/٤٤١، ٥/١٢٤.

(٢) ابن تَغْري بَرْدي: **النجوم الزاهرة**، طبعة دار الكتب، بلا، ٩/٢٩٣.

والطب، والعروض، والتاريخ، وغير ذلك من العلوم، شاعرًا، ماهرًا، كريمًا إلى الغاية، صنّف في كل علم تصنيفًا أو تصانيف».[١]

وكان أبو الفِداء ينظم الشعر، وكانت سوق الشعراء عنده رائجة، ولا سيّما جمال الدين بن نُباتة الذي مدحه بغرر القصائد. قال ابن حَجَر العَسْقَلاني: «ولا أعرف في أحدٍ من الملوك من المدائح ما لابن نُباته والشهاب محمود وغيرهما فيه إلاّ سيفَ الدولة، وقد مدح الناس غيرهما من الملوك كثيرًا، ولكن لهذين من الكثرة والإجادة من الفحول ما لم يتفق لغيرهما».[٢] وقال ابن الوَرْدي: «ولقد رأيتُ جماعة من ذوي الفضل يزعمون أنه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه».[٣]

مكانته العلمية:

شخصية أبي الفداء شبيهة إلى حدٍّ كبير بالملك الفيلسوف الذي نصبه أفلاطون ملكًا في جمهوريته المثالية، فقد حفظ أبو الفداء القرآن، وبرع في الفقه والأصول وعلوم العربية والتاريخ والأدب والشعر والعروض والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة، وصنف في كلّ علم. وقد زار القاهرة مرة، ومرض ولده، فأمر السلطان الناصر رئيس الأطباء ابن المَغْرِبي بملازمته، فحكى ابن المغربي أنه لازمه بُكرةً وعشيّة، فكان أبو الفداء يبحث معه في تشخيص المرض، ويُعدّ معه الدواء، ويباشر طبخه بيده، وقال ابن المغربي: «والله لولا أمرُ السلطان ما لازمته، فإنه لا يحتاج إليّ».[٤]

مؤلفات أبي الفداء:

لأبي الفداء مؤلّفات كثيرة، أشهرها:

- **المُختصَر في أخبار البشر**: ويُعرَف بتاريخ أبي الفداء، ذكر فيه تاريخ ما قبل الإسلام، ثم تاريخ الإسلام إلى سنة ٧٢٩ هـ.

---

(١) الصفدي: **شذرات الذهب**، طبعة ٢٠٠٠، ١/ ٥٩ - ٦٠.
(٢) ابن حَجَر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، طبعة ١٩٧٢، ١/ ٤٤٣.
(٣) ابن الوَرْدي: **تاريخ ابن الوردي**، ٢/ ٢٨٨.
(٤) ابن حجر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، طبعة ١٩٧٢، ١/ ٤٤٤.

- **تقويم البلدان**: كتاب في الجغرافيا العامّة، جعله على شكل جداول، وقدّم ما يجب معرفته من ذكر الأرض والأقاليم.

- **الكُنّاش**: وهو مجموعة تشتمل على عدة كتب، منها كتاب في النحو والتصريف.

ولأبي الفداء أيضًا كتاب **نَظْم الحاوي الصغير في الفقه الشافعي**، وكتاب **كشف الوافية في شرح الكافية لابن الحاجب**، وكتاب **الموازين**، وكتاب **الأحكام الصغرى في الحديث**، وكتاب **نوادر العِلم**، وكتاب **تاريخ الدولة الخُوارِزْمية**، وكتاب **مُختصَر اللطائف السَّنِيّة في التواريخ الإسلامية**. وظلّ أبو الفداء ملكًا على حماة حتى توفي سنة ٧٣٢ هـ، ودفن بظاهرها، ولما بلغ السلطان الناصر خبر وفاته أسف عليه كثيرًا، وحزن عليه، وعيّن ولده الأفضل محمدًا ملكًا مكانه.(١)

١١- أُسرة الحافِظ العِراقي

نبغت في جنوبي كُردستان (إقليم كردستان- العراق) منذ القديم أسر كثيرة توارثت العلم، وأنجبت العلماء والفقهاء والأدباء والمؤرخين، وأسرة الحافظ العراقي واحدة من تلك الأسر المثقفة، فماذا عنها؟

الحافظ العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ = ١٣٢٥ - ١٤٠٤ م)

نشأته وثقافته:

«رازَيان» أو «رازَنان» بلدة من أعمال إربيل، فيها ولد الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم الكردي، والد الحافظ العراقي، ورحل وهو صغير إلى مصر مع بعض أقاربه، ولازم الشيخ تقيّ الدين أحمد بن حَجُّون الشافعي وغيره من الصالحين، وفي مصر تزوّج، ورزق بولده عبد الرحيم المشهور بلقب «الحافظ العراقي».

---

(١) الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٥/٢٠٣. ولمعرفة المزيد بشأن ابن الحاجب انظر- ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، طبعة دار الكتب، ٩/٢٤، ٥٨، ٥٩، ٩٣. الصفدي: **أعيان العصر وأعوان النصر**، ٤/١٧٨، ٣٢٢. ابن قاضي شُهبة: **طبقات الشافعية**، ٢/٢٥٦.

ولما بلغ عبد الرحيم من العمر ثلاث سنين توفّي والده، لكن شاء الله أن يكون له من العلم نصيب وافر، فكان يحضر إلى الشيخ تقيّ الدين (شيخ والده)، فيلاطفه ويَبَرُّه ويُكرمه، وحفظ القرآن الكريم وله من العمر ثماني سنين، واشتغل في العلوم، وكان أول اشتغاله في القراءات والعربية، وربما حفظ في اليوم الواحد أربعمئة سطر، وانهمك في ذلك حتى نهاه قاضي القضاة عز الدين بن جَماعة، وأشار عليه بالاشتغال في علم الحديث، فأقبل حينئذٍ على هذا العلم، وقرأه على جملة من أبرز مشاهير شيوخ عصره.

ورحل عبد الرحيم في طلب العلم إلى عدد من مراكز الثقافة في ذلك العصر، ومنها القدس ومكة ودمشق وبَعْلَبَكّ وحماة وحِمص وحلب وصَفَد وطَرابلس (لبنان) وغَزّة ونابُلُس، والتقى في رحلاته العلمية بكثير من العلماء، وأخذ عنهم، ومنهم شيخ الإسلام تقيّ الدين السُّبْكي، وحُبِّبَ إليه علم الحديث، فانهمك فيه حتى غلب عليه، وصار مشهورًا به، وشهد له بالتفرد فيه عدد من حفّاظ عصره، منهم السُّبْكي والعَلائي والعِزّ بن جَماعة وابن كَثير والإسْنائي، واشتهر بين معاصريه بلقب «الحافظ العراقي».

وجمع الحافظ العراقي بين العديد من فنون العلم، منها القراءات القرآنية، والفِقه وأصوله، والنحو واللغة والغريب، وكان له ذكاء مفرط وسرعة حافظة؛ قال القاضي عز الدين بن جَماعة: «كلُّ مَن يدّعي الحديثَ في الديار المصرية سواه فهو مُدّعٍ». وكان يراجعه فيما يُهمّه ويُشكل عليه من أمور الحديث.

شخصيته وآثاره:

كان الحافظ العراقي عالمًا جليلاً ورجلاً فاضلاً، شهد له معاصروه بالخصال الحميدة والمناقب الجليلة، وننقل بعض ما قال السَّخاوي: «وَكَانَ منوَّر الشيبة، جميل الصُّورَة، كثير الوَقار، نَزْر الكلام، طارحًا للتكلف، ضيّقَ الْعَيْش، شَدِيد التوقي فِي الطَّهارة، لا يَعْتَمد إلا على نَفسه... لطيفَ المزاج، سليمَ الصَّدْر، كثيرَ الحيَاء، قلّ أَن يواجه أحدًا بِما يَكرههُ ولو آذاه، متواضعًا منجمعًا، حَسَنَ النادرة والفكاهة»[(١)].

---

(١) السَّخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٤/ ١٧٥.

ووُصف الحافظ العراقي بأنه كان كثير الحياء، شديد التواضع، لا يرى له على أحد فضلاً، حليمًا واسع الصدر، لا يغضب إلاّ لأمرٍ عظيم، ويزول في الحال، ليس عنده حِقْد ولا غِشّ ولا حسد لأحد، ولا يواجِه أحدًا بما يكره ولو آذاه وعاداه، ولا يهاب سلطانًا ولا أميرًا في قول الحق.

وقال السيوطي: «فأملى أكثر من أَرْبَعمِائَة مجْلِس قَالَ الحافِظ: وكانَت أَماليه يُمْلِيها من حفظه متقَنة مهذّبة محرَّرة كَثِيرَة الفوَائِد الحديثية. قَالَ: وكانَ الشَّيْخ منوَّرَ الشَّيبة، جميلَ الصُّورَة، كثيرَ الْوَقار، نَزْرَ الْكلام، طارحًا للتكلّف، لطيفَ المِزاح، سليمَ الصَّدْر، كثيرَ الْحيَاء، قلّ أَن يواجه أحدًا بِمَا يكرههُ وَلَو أَذَاهُ، متواضعًا، حَسَنَ النادرة والفكاهة، وَكَانَ لا يتْرك قيام اللَّيل بل صَار لَهُ كالمألوف، وَكَانَ كثير التِّلاوة إِذا ركب، وكان عيشُه ضيّقًا».[1]

وللحافظ العراقي مؤلّفات مشهورة في علم الحديث، منها **إخبار الأحياء بأخبار الإحياء**، والمقصود كتاب **إحياء علوم الدين** لأبي حامد الغَزالي، وله أيضًا **الكشف المبين عن تخريج إحياء علوم الدين**، و**تقريب الأسانيد في ترتيب المَسانيد**، وهو في الأحكام، وله كتاب الألفية المسمّاة **التَّبْصِرة والتَّذْكِرة** في علم الحديث، وكتاب **التقييد والإصلاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح**، وكتاب **النجم الوهّاج في نظم المنهاج**، وكتاب **الدُّرَر السَّنِيّة في نَظْم السِّيَر الزكيّة** (ألف بيت). وتوفي الحافظ العراقي بالقاهرة سنة ٨٠٦ هـ.[2]

الحافظ ابن العراقي (٧٦٢ - ٨٢٦ هـ = ١٣٦١ - ١٤٢٣ م)

إنّ هذه السيرة الطيبة للعالم الجليل الحافظ العراقي كافية لأن تجعل المرء معجبًا به خلقًا وعلمًا. غير أنّ آثاره لم تقتصر على سلوكه الرفيع ومصنّفاته الدينية المفيدة، بل أنجب عالمًا جليلاً وحافظًا كبيرًا هو ولده أحمد الذي وُصف بأنه «الإمام العَلاّمة الفريد الحافظ وليّ الدين أبو زُرْعة».

---

(١) السيوطي: **طبقات الحفاظ**، ص ٥٤٤.

(٢) الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ٣/ ٣٤٤. للمزيد من أخبار الحافظ العراقي انظر- الشوكاني: **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، ١/ ٣٥٥. السخاوي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ٤/ ١٧١ - ١٧٢.

قال ابن تَغري بَرْدي: «اعتنى به والده الحافظ زين الدين عبد الرحيم، وأسمعه الكثير، ونشأوا برع فى علم الحديث، ثم غلب عليه الفقه فبرع فيه أيضًا، وأفتى ودرّس سنين، وتولّى نيابة الحكم بالقاهرة، ثم تنزّه عن ذلك ولزم داره مدة طويلة، إلى أن طلبه السلطان وخلع عليه باستقراره قاضى قضاة الديار المصرية بعد وفاة شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البَلْقِينى فى شوال سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فباشر القضاء بعفّة وديانة وصيانة. . . ولم يخلف بعده مثله فى جمعه بين الفقه والحديث والدين والصلاح، وله مصنفات كثيرة»[1].

«قَالَ الْحَافِظ قَاضِي الْقُضَاة شهَاب الدِّين ابْن حَجَر أمتع الله بِبَقَائِهِ: ونَشَأ صيِّنًا ديِّنًا خيِّرًا، مع جمال الصُّورَة، وطِيب النغمة، والتودّد إِلَى النّاس، وناب في الحُكم، ودرّس فِي عدَّة أَماكن، ثمَّ اسْتَقر في جِهات والِده بعد وفاته، وعَقد مجْلِس الإملاء بعده، واشتهر صيته، وصنّف التصانيف، وخرّج التخاريج، ووَلِيَ مشيخةَ الجَمالية»[2].

وقد نهج أحمد نهج والده في طلب العلم بمصر والشام، والأخذ عن مشاهير علماء عصره، وبرع في الفقه وأصوله، وفي علم المعاني والبيان وفهم العربية، و"ظهرت نَجابته، واشتهرتْ نَباهته، وأُجيز وهو شابٌّ بالإفتاء والتدريس، وصار يزداد فضلاً، مع ذكائه وتواضعه، وحُسن شكله، وشَرَف نفسه، وسلامة باطنه، فأقبل عليه الناس، وساد بجميع ذلك في حياة والده، واشتهر بالفضل مع الدين المتين.

وترك ابن العراقي عددًا من المؤلّفات أيضًا، نذكر منها: **المستفاد من مُبْهَمات المَتْن والإسناد**، و**تُحفة التحصيل في ذكر رُواة المراسيل**، و**ذَيل الكاشف**، و**تُحفة الوارد بترجمة الوالد**، و**الأربعون الجهادية**، و**التحرير لما في منهاج الأصول من المنقول والمعقول**.

وتوفي الحافظ ابن العراقي سنة ٨٢٦ هـ.[3]

---

(١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ١٥/١١٨.

(٢) ابن قاضي شُهْبة: **طبقات الشافعية**، ٤/٨١.

(٣) للمزيد انظر - الصفدي: **شذرات الذهب**، طبعة ٢٠٠٠، ٩/٢٥١. ابن قاضي شهبة: **طبقات الشافعية**، ٣/١٠٠، ٤/٨٠. الحسيني: **ذيل تذكرة الحفّاظ**، ص ٥. عمر رضا كحّالة: **معجم المؤلفين**، ١/٢٧٠. الزركلي: **الأعلام**، طبعة ٢٠٠٢، ١/١٤٨.

فهرس المراجع

أولاً - المراجع العربية والمترجمة

١- الإثْليدي (محمد بن دياب الإتليدي، المتوفّى: قبل ١٢هـ):

- **نوادر الخلفاء** المشهور بـ «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- **نوادر الخلفاء** المسمّى إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تحقيق أيمن عبد الجبار البِحِيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٢- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري، عز الدين ابن الأثير، المتوفّى: ٦٣٠هـ):

- **أُسْد الغابة في معرفة الصَّحابة**، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البَنّا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- **التاريخ الباهِر في أخبار الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق عبد القادر أحمد طُلَيْمات، دار الكتب الحديثة، بغداد، ١٩٦٣م.
- **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م، ١٩٨٢م.
- **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- **اللُّباب في تهذيب الأنساب**، مكتبة المثنّى، بغداد، ١٩٧٠م.

٣- إحسان يار شاطِر: **الأساطير الإيرانية القديمة**، ترجمة محمد صادق نَشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤- أحمد بن إبراهيم الحَنبلي: **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٩٩٦م.
٥- أحمد السعيد سليمان: **تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة**، نقله عن التركية مع زيادات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
٦- أحمد عَدْوان: **الدولة الحمْدانية**، المنشأة العربية، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
٧- أحمد فخري: **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.
٨- أحمد كمال الدين حِلْمي: **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦م.
٩- الإدريسي (محمد بن أحمد): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ١٩٨٠م.
١٠- أرنولد توينبي:
- **تاريخ البشرية**، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥م.
- **مختصر لدراسة التاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

١١- إسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤م.
١٢- الإسْنَوي (عبد الرحيم بن الحسن): **طبقات الشافعية**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
١٣- الإصْطَخْري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصْطَخْري، المعروف بالكَرْخي، المتوفّى: ٣٤٦هـ):
- **المسالك والممالك**، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.
- **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال، دار القلم، ١٩٦١م.

١٤- ابن أبي أُصَيْبِعة (أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة، المتوفّى: ٦٦٨هـ):
- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا.
- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.

١٥- ألبير شاندور: **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام**، ترجمة سعيد أبو الحسن، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

١٦- الآلوسي (شهاب الدين محمود): **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المَثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

١٧- الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، المتوفّى: ٣٧٠ هـ):

- **الموازنة بين أبي تمّام والبُحتري**، المجلد الأول، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بلا.
- **الموازنة بين شعر أبي تمّام والبُحتري**، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٨- أمينة بيطار: **تاريخ العصر الأيوبي**، دار الطباعة الحديثة، دمشق، ١٩٨٢م.

١٩- أنطون مورتكات: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**، تعريب توفيق سليمان، علي أبو عَسّاف، قاسم طُوَيْر، ١٩٥٠م.

٢٠- باسيلي نيكيتين: **الكرد (دراسة سوسيولوجية وتاريخية)**، ترجمة نوري طالباني، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

٢١- البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المتوفّى: ٤٦٣هـ): **تاريخ بغداد**، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٢٢- البَلاذُري (أبو الحسن أحمد بن يحيى): **فتوح البلدان**، راجعه وعلق عليه محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

٢٣- ابن البَلْخي: **فارس نامَه**، ترجمه عن الفارسية يوسف الهادي، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠١م.

٢٤- البُنْداري (الفتح بن علي): **سَنا البَرق الشامي**، تحقيق فتحية النَّبْراوي، مكتبة الخانْجي، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٥- بونفارد ليفين (إشراف): **الجديد حول الشرق القديم**، ترجمة جابر بن أبي جابر، خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨م.

٢٦- ابن تَغْري بَرْدي (يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، المتوفّى: ٨٧٤هـ):

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بلا.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٧- توما بووا: **لمحة عن الأكراد**، ترجمة محمد شريف عثمان، مطبعة النُّعمان، النَّجَف الأشرف، ١٩٦٩م .

٢٨- جاك كاليبو، نيكول كاليبو: **مذاهب وملل وأساطير في الشرقين الأدنى والأوسط**، ترجمة فارس غَصوب، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٢٩- ابن جُبَيْر الأندلسي (محمد بن أحمد): **رحلة ابن جُبَيْر**، دار صار، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م.

٣٠- جرجي زيدان: **علم الفراسة الحديث**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

٣١- جرجيس فتح الله: **يقظة الكرد، (١٩٠٠- ١٩٢٥م)**، دار آراس، أربيل، كردستان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٣٢- جرنوت فيلهلم: **الحوريون تاريخهم وحضارتهم**، ترجمة فاروق إسماعيل، دار جدل، حلب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٣٣- جِفري بارندر (مشرف): **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣م.

٣٤- جليلى جليل: **انتفاضة الأكراد عام ١٨٨٠**، ترجمة سيامند سيرتي، دار الكاتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٣٥- جمال رشيد أحمد: **لقاء الأسلاف (الكرد واللان في بلاد الباب وشَرْوان)**، رياض الريِّس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٣٦- جميل مُدَبِّك (مشرف): **موسوعة الأديان في العالم**، كريبش، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣٧- جنفياف شوفيل: **صلاح الدين بطل الإسلام**، ترجمة جورج أبي صالح، دار الأميرة، بيروت، ١٩٩٢ م.

٣٨- ابن الجَوْزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المتوفّى: ٥٩٧هـ): **المنتظَم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق محمد عبد القادر

عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٣٩- جيمس رِسْتون (الابن): **مقاتلون في سبيل الله**، تعريب الدكتور رضوان السيّد، مكتبة العُبَيْكان، الرياض- السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢،

٤٠- جيمس هنري برستد: **انتصار الحضارة**، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م.

٤١- جين بوترو وآخران: **الشرق الأدنى (الحضارات المبكرة)**، ترجمة عامر سليمان، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٦م.

٤٢- حافظ أحمد حمدي: **الدولة الخُوارِزمية والمغول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩م.

٤٣- حبيب بدر، وسعاد سليم، وجوزيف أبو نهرا (تحرير): **المسيحية عبر كنائسها في المشرق**، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.

٤٤- ابن حَجَر العَسْقَلاني (أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، المتوفّى: ٨٥٢هـ):

- **الإصابة في تمييز الصحابة**، حقق أصوله وضبط أعلامه ووضع فهارسه علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٢.
- **تهذيب التهذيب**، حققه وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- **الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد/ الهند، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

٤٥- ابن حَزْم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، المتوفّى: ٤٥٦هـ):

- **طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف**، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية،١٩٨٧م.
- **طَوْق الحمامة في الألفة والألّاف**، ضبط نصه وحرّر هوامشه الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

٤٦- حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٧٢م.
٤٧- حسن الأمين: **جنكيز وهولاكو (الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، من بغداد إلى عين جالوت)**، دار النهار، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٨- حسن شُمَيْساني: **مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة (١٥١٥ م/ ٩٢١ هـ)**، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٤٩- حسن محمد محيي الدين السعدي: **في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م.
٥٠- حسن مُنَيْمِنَة: **تاريخ الدولة البُوَيْهية**، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٧م.
٥١- حسن نِعمة: **موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة**، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م.
٥٢- حَسو أومريكو: **حضارة آسيا الصغرى** (مخطوط).
٥٣- حسين الشيخ: **اليونان**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م.
٥٤- حسين قاسم العزيز: **البابكية**، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٥٥- الحسيني (شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي، المتوفّى: ٧٦٥هـ): **ذيل تذكرة الحفاظ**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٥٦- الحِمْيَري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِمْيَرى، المتوفّى: ٩٠٠هـ): **الروض المِعطار في خبر الأقطار**، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
٥٧- أبو حنيفة الدِّينَوَري (أحمد بن داود): **الأخبار الطِّوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠م.
٥٨- ابن حَوْقَل (محمد بن حوقل النِّصِيبي): **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٠م.
٥٩- أبو حَيّان التَّوْحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزِّين، المكتبة العصرية، بيروت، ١٫٩٧٠م.
٦٠- ابن خُرْداذْبَه (عبيد الله بن عبد الله): **المسالك والممالك**، مطبعة بِرَيل، لِيدِن، ١٨٨٩، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.

٦١- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، المتوفى: ٨٠٨هـ):

- **تاريخ ابن خلدون** (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
- **تاريخ ابن خلدون** المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م.

٦٢- ابن خلّكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلّكان البرمكي الإربلي، المتوفّى: ٦٨١هـ):

- **وفيات الأعيان**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.
- **وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

٦٣- الذَّهَبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المتوفّى: ٧٤٨هـ):

- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام التَّدْمُري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، .١٩٩٣
- **تجريد أسماء الصحابة**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٠م.
- **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٠م.
- **سِيَر أعلام النبلاء**، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البِجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٣م.

٦٤- الزِّرْكِلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، المتوفّى: ١٣٩٦هـ):

- **الأعلام**، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢ م.
- **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

٦٥- دونالد ولبر: **إيران ماضيها وحاضرها**، ترجمة عبد النعيم محمد حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٦٦- دياكونوف: **ميديا**، ترجمة وَهْبِية شَوْكَت، دمشق.

٦٧- ديلابورت: **بلاد ما بين النهرين (الحضارتان البابلية والآشورية)**، ترجمة مُحَرَّم كمال، المطبعة النموذجية.

٦٨- ابن رَسْتَه (أحمد بن عمر): **الأعلاق النفيسة**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م.

٦٩- زاريوانت: **طورانيا الموحّدة المستقلّة**، ترجمة ألكسندر كشيشيان، دار الحوار، حلب، ٢٠٠١م.

٧٠- الزُّبَيدي الأندلسي (محمد بن الحسن): **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

٧١- الزَّمَخْشَري: (جار الله الزمخشري، المتوفّى: ٥٨٣ هـ): **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة، الأولى، ١٤١٢ هـ.

٧٢- زيغريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بَيْضُون، كمال دِسُوقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

٧٣- سامي سعيد الأسعد ورضا جواد الهاشمي: **تاريخ الشرق الأدنى القديم، إيران والأناضول**، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق.

٧٤- سامي الكيالي: **سيف الدولة وعصر الحمدانيين**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

٧٥- ابن سَباط (حمزة بن أحمد): **تاريخ بن سباط**، تحقيق عمر عبد السلام تَدْمُري، دار جِروس بِرّس، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٧٦- سبتينو موسكاتي: **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦م.

٧٧- السُّبْكي (تاج الدين عبد الوهاب بن علي): **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطِّناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤- ١٩٧٩م.

٧٨- ستانلي لين بول: **صلاح الدين وسقوط مملكة القدس**، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، وكالة الأهرام، القاهرة، ١٩٩٥م.

٧٩- ستيوارث ارسكين: **فيصل ملك العراق**، ترجمة عمر أبو النصر، المكتبة الأهلية، ١٩٣٤م.

٨٠- السَّخاوي (شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، المتوفّى: ٩٠٢هـ): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.

٨١- السُّلمي (أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين): **طبقات الصوفية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٦م.

٨٢- سليمان مظهر: **قصة الديانات**، الوطن العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٨٣- السَّمْعاني (عبد الكريم بن محمد): **الأنساب**، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجِنان، بيروت، ١٩٨٨م.

٨٤- سيد محمود القِمْني: **النبي إبراهيم والتاريخ المجهول**، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٨٥- سيديّو: **تاريخ العرب العام**، ترجمة عادل زُعَيْتَر، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩م.

٨٦- السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ):

- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا- لبنان، بلا.
- **بُغيَة الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤م.
- **طبقات الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

٨٧- شارل أندريه جوليان: **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مِزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٣م.

٨٨- شاكر مصطفى: **موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٨٩- أبو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المَقْدِسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، المتوفّى: ٦٦٥هـ):

- **الرَّوْضتَين في أخبار الدولتين النُّورية والصلاحية**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.
- **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النُّورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزِّيبَق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- **عيون الرَّوْضَتَين في أخبار الدولتين**، تحقيق أحمد البَيْسُومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

٩٠- شاهين مكاريوس: **تاريخ إيران**، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٩١- ابن شَدّاد (يوسف بن رافع بن تَمِيم بن عُتْبَة الأَسَدي الموصلي، أبو المَحاسن، بهاء الدين ابن شدّاد، المتوفّى: ٦٣٢هـ):
- **النوادر السلطانية والمَحاسن اليوسفية**، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.
- **النوادر السلطانية والمَحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشَّيّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

٩٢- شَرَف خان بَدْليسي: **شرف نامه**، ترجمة محمد علي عَوني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٩٣- الشَّعْراني (عبد الوهاب بن أحمد): **الطبقات الكبرى**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.

٩٤- ابن شمائل القَطيعي البغدادي (عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين، المتوفّى: ٧٣٩هـ): **مَراصِد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبِقاع**، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ.

٩٥- الشُّوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ):
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة، بيروت، بلا.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م.

٩٦- الصَّفَدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، المتوفّى: ٧٦٤هـ):
- **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عَشْمَة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد، دار الفكر

المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

- **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.
- **الوافي بالوَفيات**، تحقيق هِلْمُوت رَيتِر، طبعة فيسْبادِن، ألمانيا، ١٩٦٢-١٩٩١م.

٩٧- ابن الصَّلاح الشَّهْرَزُوري (عثمان بن عبد الرحمن):

- **أدب المفتي والمستفتي**، دراسة وتحقيق موفّق بن عبد الله بن عبد القادر، مكتبة العلم والحكم، المدينة المنوَّرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- **طبقات الفقهاء الشافعية**، حققه وعلق عليه محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٩٨- ابن طَباطَبا (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطِّقْطَقِي، المتوفّى: ٧٠٩هـ):

- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- **الفَخْري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

٩٩- الطَّبَري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآمُلي، أبو جعفر الطبري، المتوفّى: ٣١٠هـ):

- **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ.
- **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٠٠- طَلْعت مراد بدر: **ميثولوجيا الكون المؤلَّه**، منشورات جامعة عمر المختار، البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

١٠١- طه باقر وفوزي رشيد ورضا جواد هاشم: **تاريخ إيران القديم**، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩م.

١٠٢- عبّاس إبراهيم صباغ: **تاريخ العلاقات العثمانية- الإيرانية**، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م.

١٠٣- عبّاس إقبال الآشْتِياني:
- **الوزارة في عهد السلاجقة**، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤م.
- **تاريخ إيران من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية**، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.

١٠٤- عبد الباسط بن خليل بن شاهين المَلَطي: **نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين**، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١٠٥- عبد الرحمن قاسملو: **كردستان إيران**، ترجمة غزال يشيل أوغلو، دار الشموس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٠٦- عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني: **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة**، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٢م.

١٠٧- عبد الرقيب يوسف:
- **حدود كردستان الجنوبية تاريخيًا وجغرافيًا خلال خمسة آلاف عام**، دار شِفان، السليمانية، إقليم كردستان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- **الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى**، مطبعة اللواء، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

١٠٨- عبد الفتّاح عاشور: **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٠٩- عبد الكريم شاهين: **تراجم أعلام الكرد**، بلا.

١١٠- عبد المنعم ماجد:
- **الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- **سلاجقة إيران والعراق**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.
- **الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي**، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

١١١- عبد النعيم محمد حسنين: **سلاجقة إيران والعراق**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

١١٢- ابن عَرَبْشاه (شهاب الدين أحمد بن محمد): **عجائب المقدور في نوائب تَيمور**، تحقيق علي محمد عمر، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.

١١٣- عصام عبد الرؤوف الفقي: **الدول الإسلامية المستقلة في الشرق**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

١١٤- عطا ملك الجُوِيني: **تاريخ فاتح العالم** (جِهان كشاي)، ترجمة محمد أَلْتُونْجي، دار المَلاّح للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.

١١٥- علي محمد محمد الصّلابي: **دولة المُوَحِّدين**، دار البَيارق، عمّان، الأردن، ١٩٩٨م.

١١٦- ابن العماد الحَنْبَلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح، المتوفّى: ١٠٨٩هـ):

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.
- **شَذَرات الذهب في أخبار مَن ذَهب**، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.

١١٧- العماد الأصفهاني (عماد الدين الكاتب الأصبهاني، محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين، أبو عبد الله، المتوفى: ٥٩٧هـ):

- **البرق الشامي**، تحقيق د. فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان - عَمّان - الأردن، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.
- **تاريخ دولة آل سلجوق**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.

١١٨- عمر رضا كحّالة (عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي، المتوفى: ١٤٠٨هـ):

- **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.
- **معجم المؤلفين**، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي- بيروت، بلا.

١١٩- الفارِقي (أحمد بن يوسف): **تاريخ الفارقي**، تحقيق عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٢٠- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب، الملك المؤيد، المتوفّى: ٧٣٢هـ):
- **تقويم البلدان**، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.
- **المختصَر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، بلا.
- **المُختصَر في أخبار البشر**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.

١٢١- فَهمي الشّناوي: **الأكراد يتامى المسلمين**، المختار الإسلامي، القاهرة.

١٢٢- فوشيه الشارتري: **الوجود الصليبي في الشرق العربي**، ترجمة قاسم عبده قاسم، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١٢٣- فيليب حتّي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩ م.

١٢٤- الفيّومي الحموي (أحمد بن محمد بن علي، المتوفى نحو سنة ٧٧٠ هـ): **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية، بيروت.

١٢٥- ابن قاضي شُهْبَة: (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة، المتوفّى: ٨٥١هـ):
- **طبقات الشافعية**، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **طبقات الشافعية**، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٨٩٠-١٩٧٨م.

١٢٦- القَزْويني (زكريا بن محمد): **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

١٢٧- القُشَيْري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ): **الرسالة القشيرية**، تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، بلا.

١٢٨- القِفْطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ):
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ.
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٢٩- ابن القَلانِسي (حمزة بن أسد): **تاريخ أبي يَعْلى المعروف بذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

١٣٠- ابن كَثِير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المتوفّى: ٧٧٤هـ):

- **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
- **البداية والنهاية**، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٦٥م.
- **طبقات الشافعيين**، تحقيق د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣م.

١٣١- لسترنج: **بلدان الخلافة الشرقية**، ترجمة بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م.

١٣٢- مأمون بك بن بيگه بك: **مذكرات مأمون بگ بن بيگه بگ**، تعريب محمد جميل روژبياني وشكور مصطفى، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٠م.

١٣٣- مجموعة من الباحثين: **كركوك** (بحوث الندوة العلمية حول كركوك)، دار آراس، إربيل، كردستان، ٢٠٠١م.

١٣٤- محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان**، ترجمة محمد علي عوني، القاهرة.

١٣٥- محسن محمد المتولّي: **كرد العراق**، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣٦- محفوظ محمد عمر العباسي: **إمارة بَهْدِينان العباسية**، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٦٩م.

١٣٧- محمد إسماعيل دَشْتي: **البُلوش تاريخ وحضارة عربية**، د.م: د.ن، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٣٨- محمد حسنين هَيكل: **خريف الغضب**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٣م.

١٣٩- محمد حمود سامي: **تاريخ الموسيقى والغناء العربي**، د.م. د.م، ١٩٧١م.

١٤٠- محمد سُهَيل طَقُّوش: **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٤١- محمد عبد القادر: **إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٤٢- الدكتور محمد العُرَيْبي: **الديانات الوضعية المنقرضة**، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

١٤٣- الدكتور محمد علي الصُّوَيْرْكي: **معجم أعلام الكرد**، مؤسسة ژين، سليمانية، إقليم كردستان- العراق، ٢٠٠٥م.

١٤٤- محمد قُبَيْسي: **شعوب وتقاليد**، مؤسسة الرحاب الحديثة، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

١٤٥- محمد ماهر حَمادة: **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

١٤٦- المرتَضى الزَّبِيدي: **ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب**، تحقيق صلاح الدين المنجّد، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩م.

١٤٧- مركز الشارقة للإبداع الفكري: **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، الشارقة، ١٩٩٥م.

١٤٨- مروان المُدوَّر: **الأرمن عبر التاريخ**، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

١٤٩- المِزّي (الحافظ جمال الدين يوسف): **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق وضبط وتعليق بشّار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

١٥٠- المسعودي (علي بن الحسين): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٣م.

١٥١- مَعْن زيادة (رئيس تحرير): **الموسوعة الفلسفية العربية**، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

١٥٢- المَقَّري (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التِّلِمْساني، المتوفّى: ١٠٤١هـ):

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، طبعة ١٩٩٧م.
- **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

١٥٣- المَقْرِيزي (أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العُبَيْدي، تقي الدين المقريزي، المتوفّى ٨٤٥هـ):
- **الخطط المقريزية** (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، تحقيق محمد زينهُم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشره محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٧م.
- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٥٤- ابن الملقَّن (سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، المتوفّى: ٨٠٤هـ):
- **طبقات الأولياء**، تحقيق نور الدين شُرَيْبَه، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.
- **طبقات الأولياء**، تحقيق نور الدين شُرَيْبَه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

١٥٥- منذر الموصلي: **عرب وأكراد** (رؤية عربية للقضية الكردية)، مطبعة دار العلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

١٥٦- مينورسكي: **الأكراد** (ملاحظات وانطباعات)، ترجمة معروف خزنه دار، مطبعة النجوم، بغداد، ١٩٦٨م.

١٥٧- نقولا زيادة: **المسيحية والعرب**، قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠١م.

١٥٨- نوري إسماعيل: **الديانة الزردشتية** (مَزْديسنا)، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٩م.

١٥٩- نوفل نعمة الله نوفل: **كشف اللثام عن محيّا الحكومة والحكام في إقليمي مصر وبرّ الشام**، أوجزه جرجي ينّي، تحقيق ميشال أبي فاضل، د. جان نخول، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.

١٦٠- النُّوَيْري (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، المتوفى: ٧٣٣هـ): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٦١- هـ. ج. ولز:
- **معالم تاريخ الإنسانية**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م.
- **موجز تاريخ العالم**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٦٢- هداية الله الحُسَيني: **طبقات الشافعية**، حققه وعلق عليه عادل أبو نهيض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩.

١٦٣- الهَمَداني (الحسن بن أحمد): **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأَكْوَع، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م.

١٦٤- الهَمَذاني (رشيد الدين فضل الله): **جامع التواريخ**، ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.

١٦٥- الهَمَذاني (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهَمَداني المعروف بابن الفَقيه، المتوفّى: ـ ٣٦٥هـ): **كتاب البلدان**، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٦٦- ابن أبي الهَيْجاء الإربلي (عز الدين محمد): **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، تحقيق صبحي عبد المنعم محمد، دار رياض الصالحين، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١٦٧- هيرودوت: **تاريخ هيرودوت**، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١م.

١٦٨- ابن واصل (محمد بن سالم): **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيّال، المجمّع الثقافي، أبو ظبي.

١٦٩- ابن الوَرْدي (عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي، المتوفّى: ٧٤٩هـ): **تاريخ ابن الوردي**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٧٠- ول ديورانت:
- **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٨٥م.

- **قصة الحضارة**، ترجمة الدكتور زكي نجيب محفوظ وآخرين، دار الجيل- بيروت، ١٩٨٨م.

١٧١- وليام لانجر: **موسوعة تاريخ العالم**، أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، الجزء الأول.

١٧٢- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، المتوفّى: ٦٢٦هـ):

- **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- **معجم الأدباء** (إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١٧٣- اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، المتوفّى بعد ٢٩٢هـ):

- **البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- **البلدان**، ضمن كتاب الأعلاق النفيسة لابن رُسْته، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م.

١٧٤- يِلْماز أُوزْتونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٨٨م.

١٧٥- اليُونِيني (قطب الدين موسى بن محمد): **ذيل مرآة الزمان**، حيدر آباد، الهند، ١٩٥٤م.

ثانياً - المراجع الأجنبية

1. Arshak Safrastyan: *Kurds and Kurdistan*, The harvill Press LTD, London, 1948.
2. Mehrdad R. Izady: *The Kurds*, Crane Russak Washington, Philadelphia, London, 1992.

فهرس الأعلام

-ش-

-ص-

-ض-

-ط-

-ظ-

-ع-

-غ-

-ف-

-ن-

-هـ-

-و-

-ي-

فهرس الأماكن

-ت-

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ر-

-س-

-ش-

-ص-

-ط-

-ع-

من هم الكرد؟ من أين جاؤوا، وما هي أصولهم؟ ما لغتهم؟ ما ديانتهم؟ لماذا يكتنف تاريخهم كلّ هذا الغموض؟

يستعرض هذا الكتاب تاريخ الكرد وجغرافية كردستان عبر عرضٍ بانورامي واسع لمجمل جوانب تاريخ الشعب الكردي، فضلاً عن دروهم في مجريات تاريخ منطقة غرب آسيا والشرق الأوسط عموماً، منذ عهود ما قبل التاريخ، مروراً بمختلف مراحل التاريخ الإسلامي. ويتناول ديانات الكرد، الميثرائية والأزدائية والزردشتية، حتى دخولهم الإسلام، في محاولةٍ لاستجلاء جوانب الغموض في التاريخ الكردي وأسبابه ودوفعه.

كما يبحث الكتاب في دور الكرد في مختلف هذه المراحل، لا سيّما الأيوبيين بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي ودورهم في ما عُرف بالحروب الصليبية، خاصةً معركة حطّين وتحرير مدينة القدس ومعركة المنصورة.

لا شكَ أنّ هذا الكتاب يشكّل رافداً هاماً للمكتبة العربية؛ فضلاً عن أنه، بلغته الواضحة البسيطة وأسلوبه السّلس، في متناول جميع القرّاء، سواء كانوا من أهل الاختصاص أم كانوا من ذوي الاهتمام.

د. أحمد محمود شَمُو الخليل، من قرية كُرْزَيل Korzél، منطقة عَفْرين (كرد داغ)، حلب، سوريا. حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي. درّس في جامعة حلب، ثم في جامعة الإمارات العربية المتحدة. مهتم بالدراسات الأدبية والتاريخية.

ISBN 978-1-85516-976-0

9 781855 169760 >

دار الساقي
DAR AL SAQI